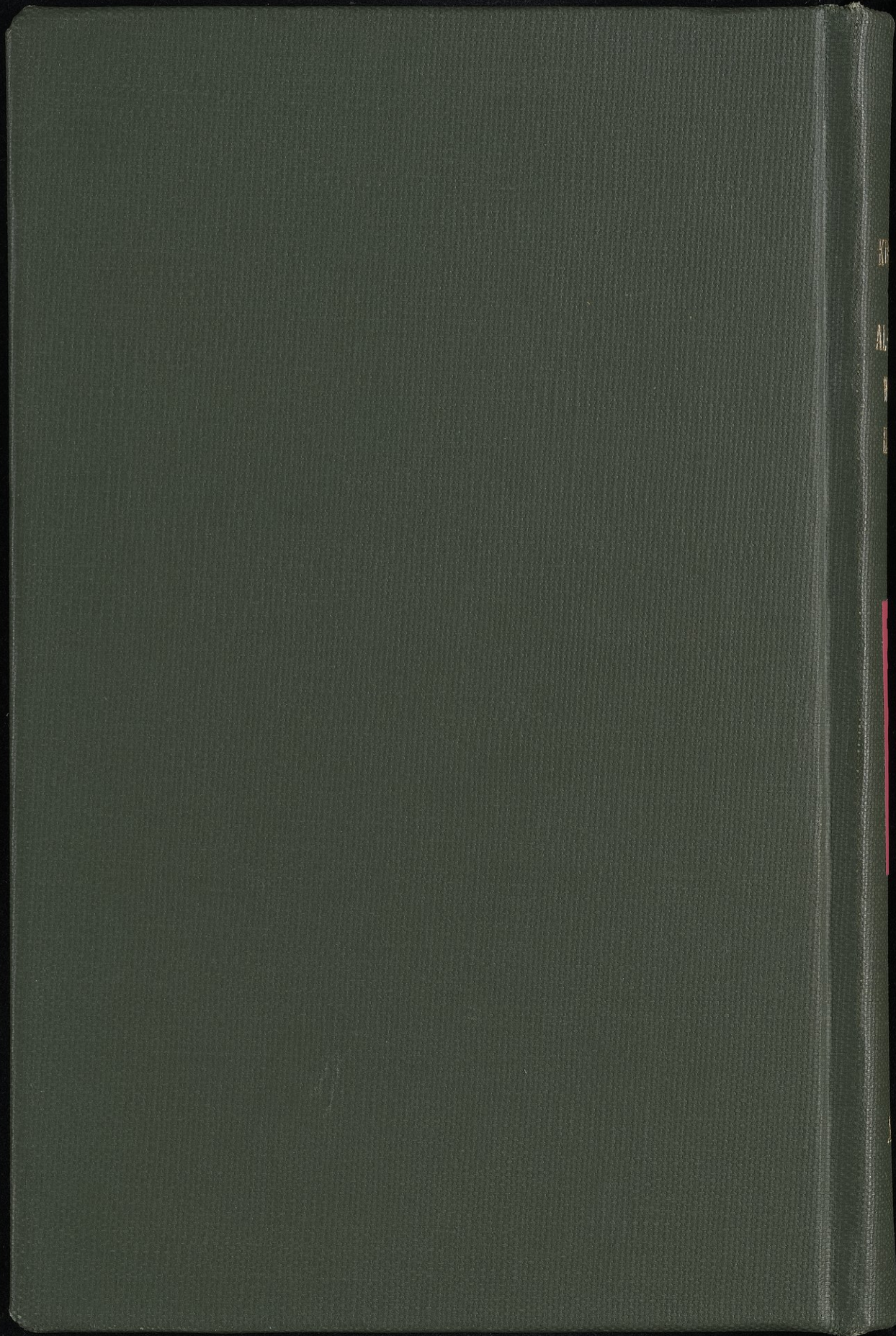
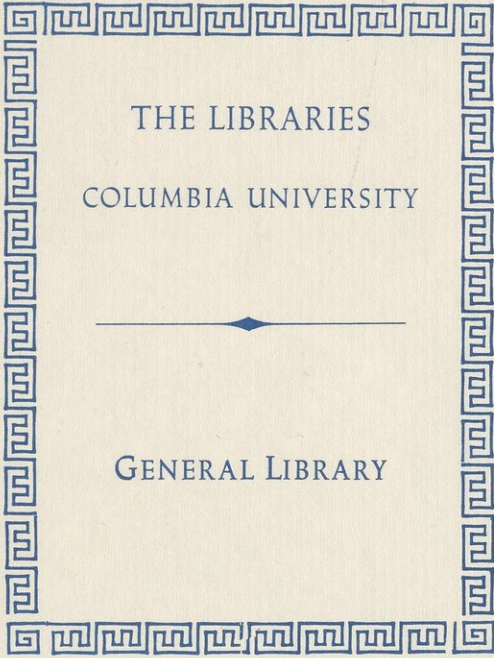
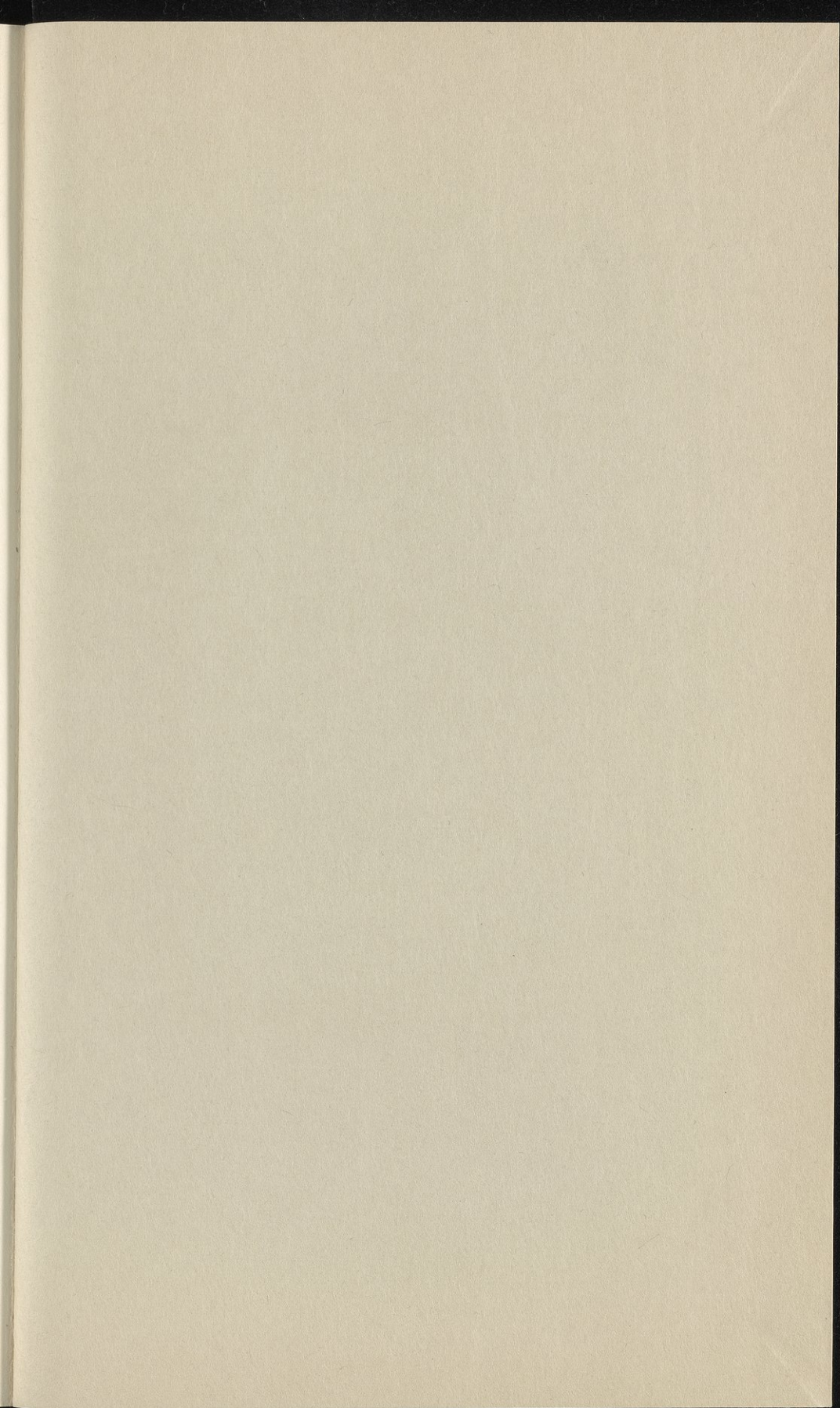


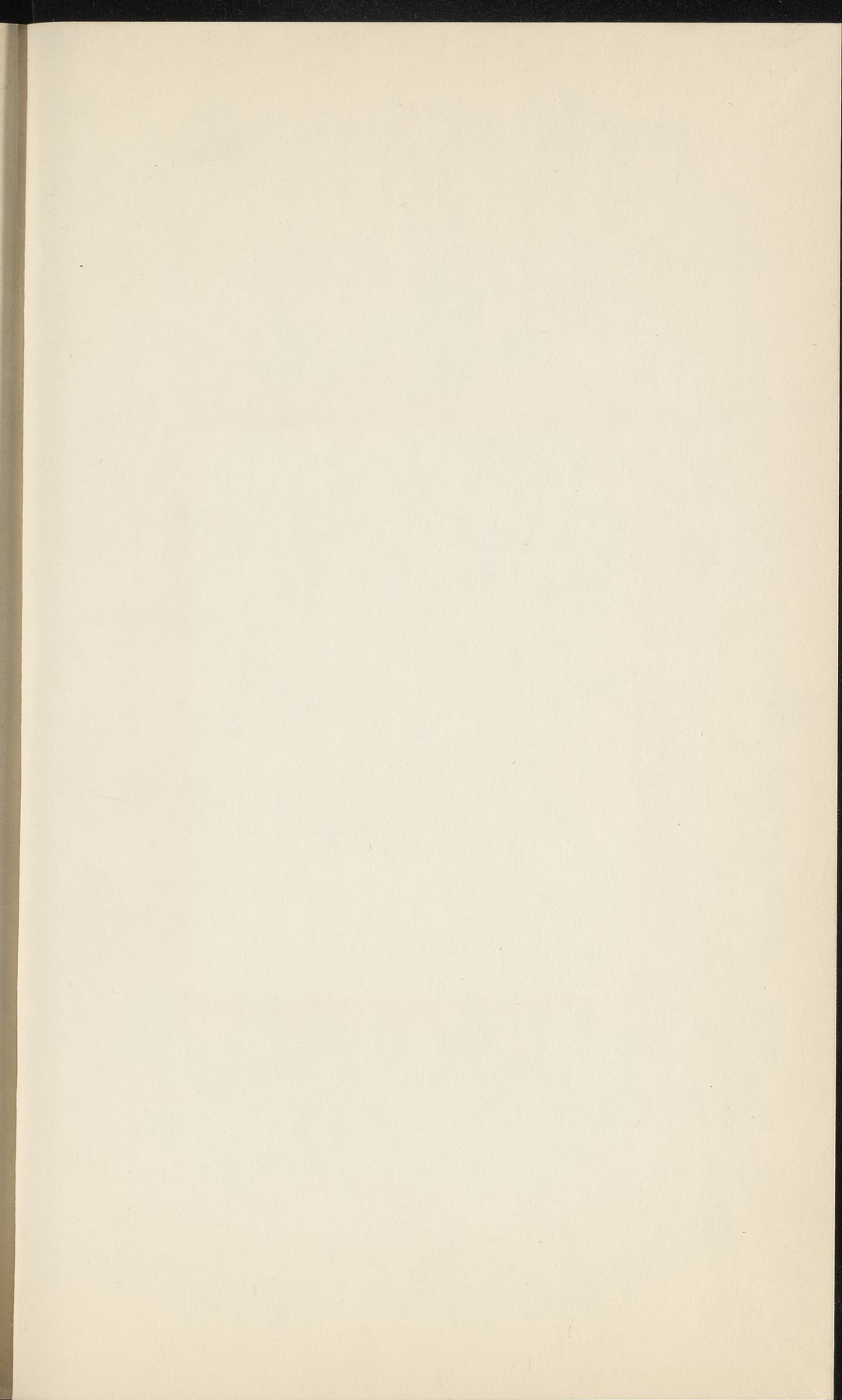




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

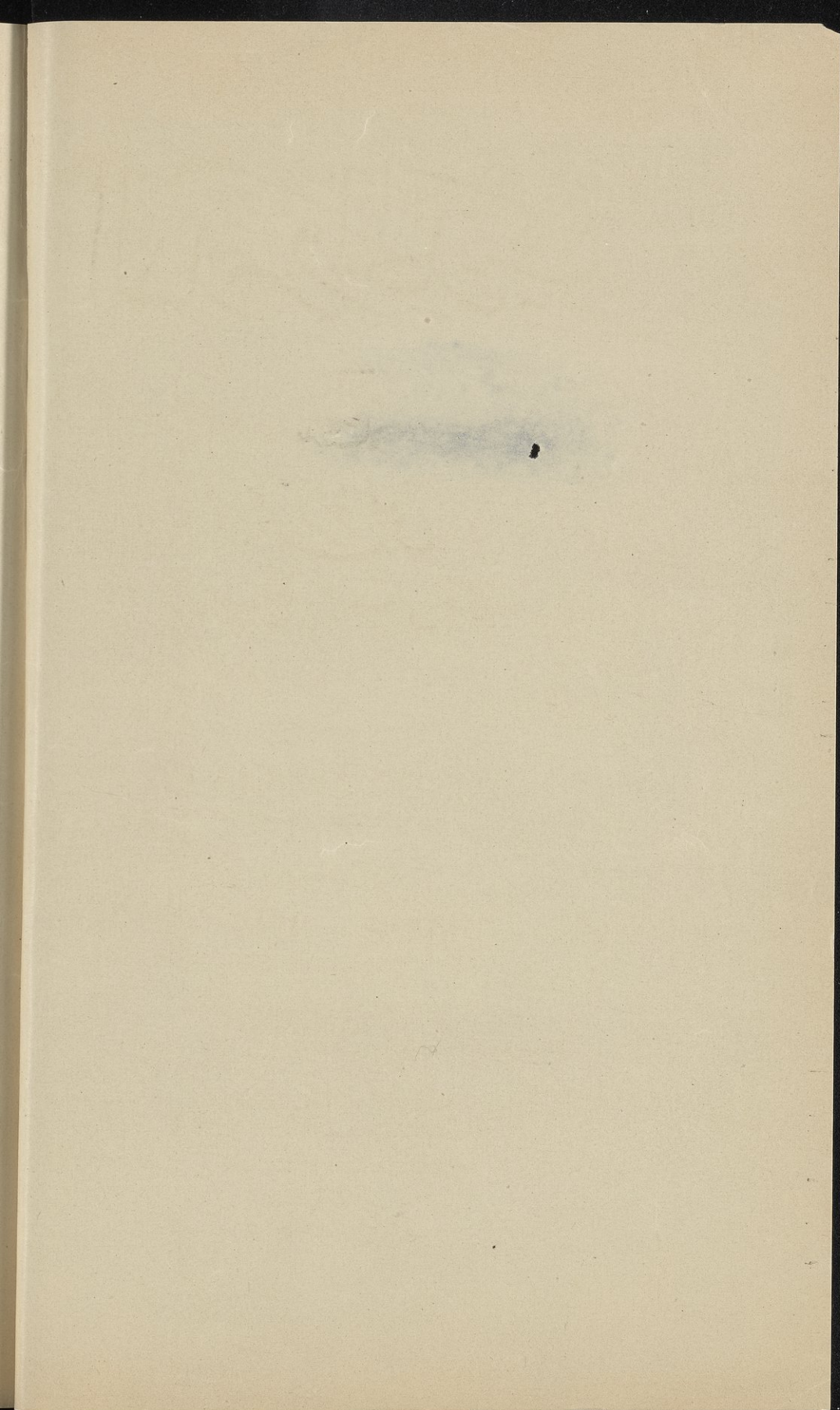
GENERAL LIBRARY





4-15

Corvina



الْقَائِمُ وَالْحَادِثُ

بِقِتْلَمَ

محمّد علي

رئيس الجمع العلمي العربي

ووزير معارف دولة دمشق سابقاً

﴿حقوق الطبع محفوظة﴾

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٣ هـ — سنة ١٩٢٥ م

يُطْبَعُ فِي الْمَكْتَبَةِ التَّجَارِيَةِ الْكُبْرَى بِأَوَّلِ شَارِعِ مُحَمَّد عَلِي بِمَدِينَةِ

لصاحبها مصطفى محمد

الطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها عبد الحميد بن سرف

DS
38
K812
Q5

فاتحة

بسم الله وبه الثقة

دعوت منذ بدأت بالاشتغال في الصحافة العربية سنة ١٣١٥ هـ إلى نبث دفائن المدنية العربية ، وبث خزائن الحضارة الغربية ، وأبرزت هذه الدعوة فيما نشرته في جميع الصحف والمجلات التي أنشأتها وآزرتها في مصر والشام من موضوعات في العلم والاجتماع ، والتاريخ والأدب ، والنقد والتربية . وهأنذا أهدي لقراء العربية نموذجات مما كتبت عسى أن يكون منها لهم في عصر القوميات عبرة وذكري ، ولبنينهم وبناتهم في تأليف وحدتنا الاجتماعية درس وسلوى . ففاتيح كنوز الأجداد التي انتقلت إلى النشء بالارث الصحيح لا غنية لهم عن معالجتها بالفتح لاستمالة مافيهما والاستظهار بمعنوياتها ثم بمادياتها لأن هذا الحاضر الذي يحاول بعضهم ، الاقتصار عليه هو ريبب ذاك الغابر ووليده ، بل سليله وحفيده وطريده ، والجود على القديم هو العقم بعينه ، وقطع الصلة على مع المدنية الحديثة ، مضرة ومعرفة . ولا خير فيمن جهلت أصوله . ولم يتخلق بأخلاق جيله وقبيله والله الموفق سبحانه

محمد كرد علي

٦ جمادى الاولى ١٣٤٣
٢ كانون الاول ١٩٢٤ دمشق

5
818
38
5

القديم والحديث^(١)

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث ، وانهمز القديم بضعف القائمين به وقوة انصار الحديث . عنيينا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلموه من آبائهم ، وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ، ويعدون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربة بكل وسيلة ، كما عنيينا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بعلوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا .

نشأت للأمة ناشئة بعد ان كثر احتكاكنا بأوروبا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجت فيها عن طور التعقل ، وذلك نكاية بما رآته من دعاة ذاك القديم ، وأكثرتهم مثال الجمود والبلالة ، ونموذج الفساد وسوء التربية ، فقامت تزهدهم وفيما يدعون اليه ، تحمل عليهم حملاتها ، وتتجاهل عليهم بتمحلاتها ، وكذلك كان شأن انصار القديم مع دعاة الحديث ، يرمونهم بكل كبيرة ، ويسلبونهم كل فضيلة ، ويطعنون بعلومهم إلا قليلا ، ويعدون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع

لا خلاف في أن ملكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الاسلامية لضعف حكوماتها ، والعامل الرئيسي في كل البلاد هو السياسة ، اذا ضعفت يتبعها كل شيء ، فجهل الحكام والملوك منذ نحو الف سنة هو الذي رفع شأن المنافقين من العلماء الرسميين ، فصار العلم الديني يتعلمه المرء لا لينال السعادتين ، ويكون عضواً مهما في جسم المدينة الفاضلة ، بل ليعخدم به اغراض أمراء السوء ، ويستولي على عقول العامة ، وتقبل يدها ويكرم بالباطل ، وهذا ما حدا حجة الاسلام الغزالي واضرابه في عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء إنحاءهم على امراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ، ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم . ولقد فضل الغزالي

في الاحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال : ان من يقولون ان علوم الدنيا تنافى الدين يجنى على الدين .

شغلت الأمة زمناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التتار من العوامل المنهكة لقواها ، ثم قام ملوك الطوائف وفرقوا الشمل بعد اجتماعه ، الى أن جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنية وزناً ، ولا تعرف لعلوم العمران لفظاً ولا معنى ، قوتها بجندها ، وعلمها في إرهاف حدها ، وعظمتها ببطشها ، ومجدها باكتساح البلاد ، واخضاع النفوس لسطوتها ، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار علم ، كما هي دار ملك ، بحجارة لدولة الجراكسة في مصر والشام ، وأعظم لذلك الأ عطياب والهبات ، وأنشأ المدارس وحبس الأوقاف ، ولكن ذلك لم يدم إلا بدوامه ، حتى اذا مضى لسبيله عادت الحكومة الى زهدها في العلوم ، وقد صارت رسمية على عهد المفتي أبي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثياً ، وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه ، وان كان أجهل من قاضي جبل . وعالم هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا ، والبلاء العم على البلاد .

ومع أن الفرس والترک سواء في العجمة ، فالفرس أقدر من الترك على تلقف اللغة العربية منذ القديم . والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ، ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم ببيانها . وما تراه من حال علماء فارس اليوم وانقائهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية ، وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملكة العلوم الدينية فيها ، لا يرجع إلا الى أن ميل أبناء فارس الى إحكام العربية قديم فيهم ، وان الترك بأمرائهم المتبررين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى

ولما أرادت الدولة أن تنهض وتنشبه بأوروبا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع أخذت روح التفلسف تسرى الى الاستانة ومنها سرت الى الولايات ومصر ، فلم يعبأ انصار القديم بما رأوه أولاً ، واحتقروا ذاك السيل الجارف الآتي عليهم من أوروبا ، وارتأى بعضهم ان خير ما يقابل به المتزندقون ان يكفروا أو يحرموا

أو يضربوا ، أو يحبسوا أو يهددوا بالقتل أو يقتلوا ، ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لمث دعوتهم ، وحفظ ملكة الدين في القلوب ، لتسير مع علوم الدنيا كتفاً الى كتف ، وجاءت أدوار أصبح الوزراء وولادة الأمر إلا قليلا من الطائفة التي نزع ربة القديم ، فلم يبق عليها الا اسمه بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدعون سرّاً وجهراً الى عدم التأدب بأداب الدين ، محتجين بما هو مائل للعيان من فساد القائم عليه ، وانحطاط المنتبسين اليه

وها قد اصبحتنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين شطر هو الى البلاهة والغباوة ، وشطر الى الحق والنفرة ، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد . ومن الغريب أن معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوربية منا لا يرجعون الى آداب دينهم ، ويميلون في الظاهر والباطن الى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسة والجنسية ، واذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعدوا اليك خدودهم وقالوا لك إن الأمة تعيش بمحديتها دون قديمها ، وان ذاك القديم ان لم يضربنا الأخذ به فهو لا ينفعنا ، والعافل لا يقبل الا على ما ينفعه ويعلى قدره

تلك هي شنشنة أنصار الحديث أو الملاحدة والزنادقة الطبيعيين كما يطلق عليهم المتدينون ، وهذه حالة هؤلاء مع أولئك ، وستكون الغلبة لأنصار الحديث اذا لم يتم خصومهم بلم شعهم على صورة معقولة مقبولة ، وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم ير طرح القديم كله ، ولا الأخذ بالحديث بجملته ، بل أثر أن يأخذ النافع من كل شيء ويضم شتاته ، وهذا الفريق المعتدل على قلته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرين مقاومة فعلية ، وعامتهما غير راضين عنهم بالطبع ، لأن أكثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك .

ولقد كتب البنا أحد علماء المشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد الشرق وسكنوا فيه زمناً ، وانقطعوا لدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الأثرية ، كتاباً بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذاك السبات الطويل قال فيه : —

أما الرسائل التي هي لها (المجلة) فرأيها تدور أبداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الافرنجية الحديثة فيها واحياء الآداب العربية ، وهذا مطابق بحسب اختباري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم ، إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ، ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده ، بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك ، وتعميم الدرس والبحث مع اضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور ، وذات حرارة ، وذات إنبات ، واعنى بها المبدأ الشعبي ، ولنا أن نسميه الشعبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة

اجتهد الاسلام والنصرانية أن ينشأ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أهل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله الا أنها فشلا . ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الاسلامية التي ستكون في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستتقوى الاحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني . أما أنا فاقول إن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المدنية على وحدة التربية والاخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه ، لأن هذا الاجتماع من شأنه أن يدعو الي نمو عامة التقوى فيزيد من له ميل الى الحياة الدينية اعتقاداً وعملاً ، كما يزيد من له ميل الى غير الدين قوة فيما اختاره وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحليه مجتهدين مخلصين ، أكثر من أن يكون الجميع فاترين غير مكثرين بشيء اه

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن لا قيام لأمرنا بغير الاخذ من مدنية أوروبا ، ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم وتنفع بني قومهم الا اذا رافقها ما يجمعها من علوم الاسلاف وآدابهم ، والامة التي تنزع ربة قديمها جملة واحدة وتنتقل الى طور آخر دفعة ، قد ينعكس عليها الامر ويلتوى عليها القصد ، ولم تنجح اليابان الا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها باجزاء مدينتها وهذا سر قول العالم

المشار اليه « لافائدة من تقليد الاجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية » أى ماورثناه عن أجدادنا من التشبث باهداب الوطنية ، وذكر القديم والحرص عليه

ولنا فى الغرب دولتان كبيران هما مثال فى اقتباس الجديد والحرص على القديم . فقد شهدنا المانيا الى اليوم تجرى فى مدارسها وكلياتها على آداب النصرانية المنقحة . فلا تسند التدريس فيها الا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له فى السنين الاخيرة حتى نزلت لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل الدين من حملة العلم والاقلام حتى صار المتدين سراً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن على معاشه ورزقه وسموا هذا حرية ولكن الله يحصى على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الافراد ، وها قد أخذت المدنية الفرنسية التى بهرت العيون فى الزمن الماضى ترجع القهقري وعلماء الاخلاق فيها ييكون دماً على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم ، حتى روى بعض الاحصائيين ان عدد الفرنسيين سينزل فى أواخر القرن العشرين الى ثلاثة ملايين لأن المواليد أخذت تنقص عن الوفيات . أما فى المانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الاخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فان النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فان من خلق الالماني أن يترك من القديم كل ما لا ينفع منه أما الفرنسيون فيجرف منه النافع مع الضار ، وشتان بين الخلقين والمدنيتين وهاهى النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن

وبعد فان كل عاقل عرف تاريخ هذه الامة يرى الخير كل الخير فى احتفاظها بقديعها وضم كل ما ينفع من هذا الجديد على أن تكون للدين والعلم حريتهما فتكون المعتقدات بأمن من طعن الطاعنين بها كما تجرى المدنية على الشوط الذى يراه واذا رأى بعضهم فى بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالاولى أن يطبقوا العقل على النقل كما هو رأى كبار علماء الاسلام منذ القديم . واذا عجزت عقولهم عن ذلك فالاجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا

بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل
الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

الشعوبية^(١)

يقوى تفاخر كل عنصر بعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب
الى اهلهمجية والعصبية الجاهلية . جاء الاسلام فكان من أعظم اصلاحه اسقاط
دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالأباء والاجداد فساوى بين العربي
والفارسي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل
لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشعوبية أى عدم الاستعداد بالعرب وتفضيل العجم
عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط فى خدمة الدولة
الاسلامية فنشأت منها العداوات بين العرب أهل الدولة وبين العجم كما كانت تنشأ
فى هذه البلاد بين تركى وعربى كلما اشتد الاول فى ارهاق الثانى

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشعوبية فكتب الينا ما يأتى « اما
الزمن الذى ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرنى فيه شىء . والوقوف على أوائل
الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذى ظهر لى أن ذلك حدث بعيد عصر
الخلفاء الراشدين لوجود الداعى الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذى هو من عادات
الجاهلية التى أتى الدين بابطالها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومى
وبلال الحبشى فى أوائل الأمة زال عنه الشك فى هذه المسألة ، ولا يدخل فى هذا
الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق ،
فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم ووفى النظر حقه تبين له أن
العرب فى الجملة لا تساميهن أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب فى خصائص الأمم وكتب فى
خصائص البلاد ، كما ألقت كتب فى خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التى يعنى

بها وتميز من غيرها ولا تذكر بطريق العرض ، إلا ان فن خصائص الأمم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسائله ويبدأ بسرعة عوار المغالط فيه . هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية ، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالاخبار ولم يزل أثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قبيل عصرنا وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية .»

هذا ما قاله أستاذنا وفيه من كشف الغامض ما لم نظفر به في كتاب . والشعوبى بالضم محنقر أمر العرب قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبى أضافوا الى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصارى وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب على العجم ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم وأما الذى فى حديث مسروق ان رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فامر عمر أن لا تؤخذ منه قال ابن الاثير الشعوب ههنا العجم ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو العجم فخص بأحدهما ويجوز أن يكون جمع الشعوبى كقولهم اليهود والمجوس فى جمع اليهودى والمجوسى قال شارح المفصل فى شرح قول الزنجشبرى « الله احمد على أن جعلنى من علماء العربية وجبلنى على الغضب للعرب وللعصبية وأبى لى أن أترد عن صميم أنصارهم وامتناز وانضوى الى لفيف الشعوبية وانجاز » والشعوبية مصدر الشعوبى بضم الشين وهو الذى يصغر شأن العرب ولا يرى لهم على العجم فضلاً اذ الفضل بالتقوى وهو منسوب الى قوله تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله اتقاكم) . وقال ابن الحاجب فى شرح المفصل أيضاً والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم وان كان الشعوب جيل العجم إلا أنه غلبت النسبة اليه لهذا القبيل ويقال أن منهم معمر بن المثنى وله كتاب فى مثالب العرب وقد انشد بعض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة ذمول
فلمست بتارك ايوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول

وضب بالفلا ساع وذئب بها يعوى وليث وسط غيل
 اذا نحرروا فذلك يوم عيد وان ذبحوا ففي عرس جليل
 يسلون السيوف لرأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل
 بأية رتبة قدمتموها على ذى الاصل والشرف الاصيل
 أما لو لم يكن للقرس الا نجار الصاحب العدل الجليل
 لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل
 فقال له الصاحب قدك ثم قال لبديع الزمان أحبه فالجابه مرتجلا .
 أراك على شفا خطر مهول بما أودعت رأسك من فضول
 طلبت على مكارمنا دليلا متى احتاج النهار الى دليل
 أسنا الضارين جزى عليكم فان الجزى اقعد بالذليل
 متى قرع المنابر فارسي متى عرف الأغر من الحجول
 متى علقت وأنت بها زعيم اكف الفرس أعراف الخيول
 فخرت بملء ما ضغتيك فخراً على قحطان والبيت الاصيل
 فخرت بان مأكولا ولبساً وذلك فخر زبات الحجول
 تفاخرهن في خد أسيل وضرع من مفارقة وسيل

فقال الصاحب للشعوبي . كيف ترى فقال . لو سمعت ما صدقت ثم قال له .

جائزتك جوازك ان وجدتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك

وفد النعمان بن المنذر على كسرى فوجد عنده وفود الروم والهند والصين
 فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الامم
 لا يستثنى فارساً ولا غيرهم فقال كسرى وأخذته عزة الملك ، يا نعمان لقد فكرت
 في أمر العرب وغيرهم من الامم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل
 يثنى عليهم ورأيت الهند التي لها كذا وكذا ثم قال مثل ذلك في الترك والخزر
 والصين متى ذكر قبيلة أثني عليها ووصف ما يفتخرون به ثم قال . ولم أر للعرب
 شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم فقال النعمان .
 أصلح الله الملك وجعل يثنى عليه ثم قال . ألا ان عندي جواباً في كل ما نطق به
 الملك في غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فان آمنني من غضبه نطقت به قال كسرى

فانت آمن فقال النعمان . أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به في عقولها وأحلامها وبسطة محلها . وبجوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الامم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب الا فضلها قال كسرى : بماذا قال النعمان بعزها ومنعتها ، وحسن وجوها ، ودينها وبأسها وسخائها ، وحكمة ألسنها ، وشدة عقولها وأتقنها ووفائها ، فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك وقادوا الجنود ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ، مهادهم الارض وسقفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، اذ غيرها من الامم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور

وأما حسن وجوها وألوانها ، فقد تعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المتحرقة ، والصين المحتتمة ، والترك المشوهة ، والروم المقشوة ، وأما احسابها وأنسابها ، فليست أمة من الامم الا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم يسأل عما وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه اباً اباً حفظوا بذلك احسابهم ، وضبطوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ، ولا يدعى الى غير أبيه وأما سخاؤها فان أدنانهم رجلا الذي يكون عنده البكرة أو الناب عليها بلاغه في حمولته وشبعه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفى بالفلذة ويجتزىء بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج له من دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الثناء

وأما حكمة السنن فان الله اعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضرب الأمثال وابلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الاجناس ثم خيلهم أفضل الخيول ونساؤهم اعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبعد عن مثلها سفر ، ولا يقطع بمثلها بلد قفر

وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه ان لهم اشهرأ حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون

ذبايحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومي الأيماء فهي الب وعقد لا يخلهما الا خروج نفسه وان أحدهم ليرفع عدداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وان أحدهم ليلبغه ان رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى تقضى تلك القبيلة التي اصابته أو تقضى قبيلته لما خفر من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله ، وأما قولك أيها الملك انهم يثدنون أولادهم من الحاجة فانما يفعله من يفعله منهم بالأنث أنفة من العار ، وغيرة من الأزواج ، وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الأم إذا آنت من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضاهم على سائرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون اليهم بأزماتهم

فأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطء والعسف فعجب كسرى مما أجابه النعمان به وقال : انك لأهل لموضعك من الرياسة في اقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين أمرهم بعث الى ا كثم بن صيفي وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم : قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة تخوف أن يكون لها غدر ، واقتص عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا : وفقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه وابلغ ما حججته به فرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت قال النعمان انما أنا رجل منكم وانما ملكك وعزتك بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء أحب الى مما سدد الله به أمركم ، واصدح به شأنكم والرأى ان تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا بكتابي هذا الى باب كسرى ، فاذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره ، ليعلم أن

العرب على غير ما ظن أو حدثته به نفسه . ووصاهم بوصايا فذهب به اليه وقد ساق
القصة صاحب العقد وأوردها البلوى في كتاب الف با

*
* *

ومن حجة الشعوبية على العرب ان قات انا ذهبنا الى العدل والتسوية وان
الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي عليه
الصلاة والسلام : المؤمنون اخوة تتكافأ دماءهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم
يد على من سواهم . وقوله في حجة الوداع وهي خطبته التي ودع فيها أمته وختم بها
نبوته : أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء ، كلكم لا آدم
وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى . وهذا القول من
النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم)
فأبيتم الا نخرأ ، وقتلتم لا تساويننا وان تقدمتمنا الى الاسلام ، ثم صليت حتى تصير
كالخنى وصمت حتى تصير كأوتار ، ونحن نسامحكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذي
نهاكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم إذ أبيتم الا خلافه ، وانما نجيبكم الى ذلك
لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فردد عليكم حججتكم في المفارقة ونقول :
أخبرونا ان قالت لكم العجم هل تعدون الفخر كله ان يكون ملكا أو نبوة فان
زعمتم أنه ملك قالت لكم : وان لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والتماردة
والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك
سليمان الذي سخرت له الأنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا أم هل
كان لأحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس
ومغربها ، وبني ردماً من حديد ساوى به بين الصنفين وسجن وراءه خلقاً من
الناس تربى على خلق الأرض كلها كثرة لقول الله عز وجل (حتى اذا فتحت
يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) فليس شيء أدل على كثرة عددهم
من هذا ، أو ليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض ولو لم يكن له الا
منارة الاسكندرية التي أسسها في قعر البحر ، وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر
كله في زجاجتها وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم الى عمر بن عبد العزيز

من ملك الاملاك الذى هو ابن الف ملك والذى تحته بنت الف ملك والذى فى مربة الف فيل والذى له نهران ينبتان العود والقوة والجوز والكافور والذى يوجد ريحه على اننى عشر ميلا الى ملك العرب الذى لا يشرك بالله شيئاً أما بعد فاني أردت أن تبعث الى رجلا يعلمنى الاسلام ويوقفنى على حدوده والسلام . وان زعمتم أنه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما الغنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا

ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهى أبداع صنعة ، ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ، ورمانة القبان التى يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والاسطرلاب الذى يعدل به النجوم ، ودوران الافلاك وعلم الكسوف ، لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصمها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن الروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذى تفخر به العرب على العجم ، فانما هى كالثياب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثوقون فى حلق الاسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الابل ، فاذا أدركهن الصريح استنقذن بالعشى ، قال بجير يهير العرب باختلافها فى النسب واستلحاقها للأدعياء ،

زعمتم بان الهند أولاد خندف	وبينكم قربى وبين البرابر
وديلم من نسل بن ضبة ناسل	وبرجان من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس أولاد واحد	وصاروا سواء فى أصول العناصر
بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم	وأولى بقرانا ملوك الأكاسر
أنطمع فى صهري دعيماً مجاهراً	ولم تر سترأ عن دعى مجاهر
وتشتم لؤماً رهطه وقبيله	وتمدح جهلاً طاهراً وابن طاهر

وقال الحسن بن هانئ على مذهب الشعوبية :
وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم أواصر إلا دعوة وبطون
إذا مدعى باسمي العريف أجبته الى دعوة مما على يهون
لازد عمان بن الملهب نزوة إذا افتخر الاقوام ثم تلين
وبكريري أن النبوة أنزلت على مسمع في البطن وهو جنين
وقالت تميم لا ترى أن واحداً كأحنفنا حتى المات يكون
فلا ملت قيساً بعدها في قتيبة إذا افتخروا إن الحديث شجون

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب . وأما أهل التسوية فإن منهم قوماً
أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقصوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا
الى قوله عز وجل (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقوله (إنما المؤمنون إخوة
فأصلحوا بين أخويكم) والى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة
الوداع أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس
لعربي على عجمي نخر الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله المؤمنون
تتكافأدماءهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وانما المعنى في هذا
ان الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الاحكام والمنزلة عند الله عز وجل
والدار الآخرة لو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل الا بامر
الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول فما معنى
قوله صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كرم قوم فأكرموا وقوله صلى الله عليه وسلم
أقبلوا ذوى الهيئات عرأتهم وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم هذا
سيد الوبر . وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساوا هلكوا
تقول لا يزالون بخير ما كان فيهم أشرف واخيار فاذا حملوا كلهم جملة واحدة
هلكوا أو اذا ذمت العرب قوماً قالوا : سواسية كأسنان الحمار . وكيف يستوى
الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوى في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله
ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس

الجلس ، وقالوا القلب أمير الجسد ومن الاعضاء خادم ومنها مخدومة
قال ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب آدم عليه السلام ويقول
النبي عليه الصلاة والسلام لا تفضلوني عليه فانما أنا حسنة من حسناته ثم فخرهم
بالانبياء أجمعين وانهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم
الصلاة والسلام واحتجوا بقول الله عز وجل (ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل
ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) ثم فخر
باسحق بن ابراهيم وانه لسارة وأن اسماعيل لأمة تسمى هاجر قال شاعرهم

في بلدة لم يصل عكن بها طنباً ولا خباء ولا عك وهمدان

ولا لجرم ولا نهديها وطن لکنها بنی الاحرار أو طان

أرض تبني بها كسرى مساكنه فما بها من بنی اللخناء انسان

فبنوا الاحرار عندهم العجم وبنوا اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد
هاجر وهي أمة وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء من
الاماء الممتهنة في رعي الابل وسقيها وجمع الخطب وانما أخذ من اللخن وهونتن
الريح يقال لخن الشقاء اذا تغير ريحه فاما مثل هاجر التي طهرها الله كل دنس
وارتضاها للخليل فراشاً وللطيمين اسماعيل ومحمد أمماً وجعلها سلاله فهل يجوز
لملحد فضلاً عن مسلم أن يسميها اللخناء

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على بن قتيبة في تباين الناس
وتفاضلهم والسيد منهم والمسود اننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا
السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكننا نزع أن تفاضل الناس فيما بينهم
ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد
همسهم ألا ترى انه من كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بنى
هاشم في ذوابها ومن أمة في أورمتها ومن قيس في أشرف بطن منها انما الكريم
من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبي صلى الله
عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا وقوله في قيس بن عاصم هذا سيد أهل
الوير انما قال فيه لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفده لهم ألا ترى ان
عامر بن الطفيل كان في أشرف بطن في قيس يقول .

وإني وإن كنت بن سيد عامر وفارسها المشهور في كل مركب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن أسمعو بأمر ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقى أذاها وأرمي من رماها بمنكب
وقال آخر .

إنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الاحساب نتكل

بنينا كما كانت أوائلنا تبني وتعمل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة ، لاقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا
يردها أحد بعدى أيما رجل رمى رجلا بلاماة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما
رجل ادعى كرمًا دونه لثوم فلا كرم له ، ومثله قول عائشة أم المؤمنين كل كرم
دونه لثوم فاللثوم أولى به وكل لثوم دونه كرم فالكرم أولى به ، تعني بقولها أن أولى
الاشياء بالانسان طبائع نفسه وخصالها فاذا كرمت فلا يصره لثوم أوليته ، وإن
لثومت فلا ينفعه كرم أوليته وقال الشاعر

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكرم والاقداما * وجعلته ملكا هماما

وقال آخر . مالي عقلي وهمتي حسبي ما أنا مولى ولا أنا عربي

إن انتمى منتم إلى أحد فانتى منتم إلى أدبي

روى بن العيينة الهاشمي عن الفخزدي عن شبيب بن شبة قال ، كنا وقوفا
بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألّف الاشراف اذ أقبل بن المقفع فبششنا به
وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال . لومتم إلى دار نيروز ، وظلها الظليل ،
وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تهيمد الارض ، وأرحتم
دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تقلتوه ، ومهما قضى الله لكم من
شئ تنالوه ، فقبلنا وملنا ولما استقر بنا المكان قال لنا : أي الامم أعقل فنظر
بعضنا إلى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا . فارس فقال . ليسوا
بذلك انهم ملكوا كثيرا من الارض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على
كثير من الحق ، ولبت فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئا بعقولهم ، ولا
ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم قلنا فالروم قال . أصحاب صنعة قلنا . فالصين قال
أصحاب طرفة قلنا الهند قال . أصحاب فلسفة قلنا السودان قال . شر خلق الله قلنا

الخزر قال . بقر سائمة قلنا . فقل قال العرب قال . فضحكنا قال . أما انى ما أردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من المعرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب ابل وغم ، وسكان شعر وأدم . يجوز أحدهم بقوته . ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره . ويصف الشئ بعقله فيكون قدوة . ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن . وبقيح ما شاء فيقيح . أدبتهم أنفسهم . ورفعتم همهم وأعلمتهم قلوبهم والسنتهم . فلم يزل حياء الله فيهم . وحياءهم في أنفسهم . حتى رفع لهم الفخر . وبلغ بهم أشرف الذكر . وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر . على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فمن وضع حقهم خسر . ومن أنكر فضلهم خسم . ودفع الحق باللسان . اكبت للجنان اه

*
* *

أما عناية الاسلام باسقاط الجنسية فتراه ماثلا من حسن معاملتهم للموالى فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة زيدا مولاة وقال إن قتل فأميركم جعفر وأمر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قوما قد طعنوا فى امارته ، وكان أمره على جيش فيه جلة المهاجرين والانصار ، فقال عليه السلام : ان طعنتم فى امارته لقد طعنتم فى اماره أبيه قبله ، ولقد كان لها أهلا ، وان أسامة لها لأهل وقالت عائشة : لو كان زيد حيا ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه لم فضلت أسامة على وأنا وهو سيان فقال : كان أبوه أحب الى رسول الله من أبيك وكان أحب الى رسول الله منك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أزواجه لتقيط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها تكرهته ، فتولى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال له يوما ولم يكن أسامة من أجل الناس ، لو كنت جارية لنحلبناك وحلبناك حتى يرغب الرجال فيك ، وفى بعض الحديث أنه قال : أسامة من أحب الناس الى . وكان صلى الله عليه وسلم أدى الى بنى قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال على بن أبي طالب عليه السلام : سلمان منا أهل البيت . ويروي أن المهدي نظر اليه ويد عمارة بن حمزة في يده فقال له رجل من هذا يا أمير المؤمنين فقال أخى وابن عمى عمارة بن حمزة فلما ولي الرجل ذكر ذلك المهدي كالمزح لعمار فقال له عمارة انتظرت أنه يقول ومولاي فأنقض والله يدك من يدى فتبسم أمير المؤمنين المهدي ولم يكن الا كرام للموالى فى جفاة العرب

زعم الليثى انه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدى مسمع مولى له بهاء ورواء ولسن . فوجه جعفر الى مسمع مولى له لينازعه ويجلس مسمع حافل فقال ، ان أنصفنى والله جعفر أنصفته ، وان حضر حضرت معه ، وان عند عن الحق عندت عنه ، وان وجه الى مولى مثل هذا وأوماً الى مولى جعفر فقال : مولى مثل هذا عاضاً لما يكره وجهت اليه ، وأوماً الى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذى تباهى بمثله العرب ، وقد قيل ، الرجل لأبيه والمولى من مواليه ، وفى بعض الاحاديث . ان المعتق من فضل طينة المعتق . ويروى أن سلمان أخذ من بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمرّة من تمر الصدقة فوضعها فى فيه فانزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا أبا عبد الله انما يحل لك من هذا ما يحل لنا . ويروى أن رجلاً من موالى بنى مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هذاب المازنى وهو فى ذلك الوقت سيد بنى تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له فى هدم داره . فأدخل القعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه سافاً كف عنه ثم قال : يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو . وقد كان فى قريش من فيه جفوة ونبوة

كان نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فان قيل قرشى قال واقوماه وان قيل عربى قال واماداتاه . وان قيل مولى أو عجمى قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت . ويروى أن ناسكاً من بنى الهجيم بن عمر بن تميم كان يقول فى قصصه . اللهم اغفر للعرب

خاصة وللموالى عامة . فاما العجم فهم عبيدك والأمر اليك
ومثل ذلك ما كان بعضهم يقولونه . لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب
أو مولى . وكانوا لا يكنونهم بالكنى . ولا يدعونهم الا بالأسماء والألقاب .
ولا يمشون فى الصف معهم . ولا يتقدمونهم فى الموكب وان حضروا طعاماً قاموا
على رؤوسهم . وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق
الخباز لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز
اذا حضر أحد من العرب . وإن كان الذى يحضر عزيزاً وكان الخاطب لا يخطب
المرأة منهم الى أيها ولا الى أخيها وانما يخطبها الى مواليتها فان رضى زوج والارد
فان زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسخ النكاح وان كان قد دخل بها
كان سفاحاً غير نكاح

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج
عليه ابن الاشعث وعبد الله بن الجارود ولقى مالتى من قراء أهل العراق وكان
أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة فلما
علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم
حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا فاقبل على الموالى وقال أنتم علوج وعجم وقراؤكم
أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل
رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها وكان الذى تولى ذلك منهم رجل من بنى
سعد بن عجل بن لجين يقال له حراش وقال شاعرهم

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمى عامل الحجاج على البصرة

ولقد أورد ابن بسام فى الذخيرة فى ترجمة الأديب أبى جعفر أحمد الدودين
البلنسى رسالة بن غرسية يخاطب بها أبا جعفر بن الجزار فى فضل الشعوبية وذم
العرب ابتدأها بقوله

يا ابن الأعراب ما علينا ناس لم نحك الا ما حكاه الناس

وقال :

ولم أشتم لكم حسباً ولكن حدوت بحيث يستمع الحداء
وقال فيها في وصف العجم

هم ملكوا شرق البلاد وغربها وهم منجوكم بعد ذلك سؤوداً
حلم وعلم ، ذوو الآراء الفلسفية الارضية والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة
الاسترلوميكا والجو مطريقا ، والعلمة بالارتماطيقا والانولوطيقا والقومة بالموسيقا
والطويقا ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع والنفرة في علوم الاديان والابدان
ماشئت من تحقيق وترقيق حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لاعلى
وصف الناقة العدنيه ، فعلهم ليس بالسفاه كفعل نائلة وإساف ، أصغر بشأنكم
اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غسانكم وإذبوا رغالكم قاذيل الحبشة الى حرم
الله لاستئصالكم

والرسالة كلها على هذا النسق استغرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من
الذخيرة وقد رد عليها كثيرون من أدباء الاندلس في عصر كاتبها ومن جملتهم
المخاطب بها أبو جعفر وردودهم كلها الى السفاهة والبذاءة أقرب وكتابة ابن
غرسية أمتن وحججه أوضح .

وقال الجاحظ في رسالته الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد في النابذة
وقد انتظموا (الى ولاية الامر في عهده) معاني العناد اجمع . وبلغوا غاية البدع
ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا
أفسدته ، ولادنيا الا أهلكته ، وهو ما صارت اليه العجم من مذهب الشعوبية
وما قد صار اليه الموالي من الفخر على العجم والعرب ، وقد نجمت من الموالي
ناجمة ، ونبتت منهم نابذة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً لقول النبي صلى
الله عليه وسلم ، مولى القوم منهم ، ولقوله الولاء لجمعة النسب لا يباع ولا
يوهب . فقد علمنا أن العجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب
وأن الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا فنحن معاشر
الموالي بتقديمنا في العجم أشرف من العرب وبالحدث الذي صار لنا في العرب
أشرف من العجم وللعرب القديم دون الحديث ولنا خصلتان جميعاً وافرتان فينا

وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان أعجمياً عربياً بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بخلفه وبعد أن جعل اسماعيل أعجمياً عربياً ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان اسماعيل كان عربياً ما كان عندنا الا أعجمياً لان الاعجم لا يصير عربياً كما ان العربي لا يصير أعجمياً فانما علمنا ان اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً بقول النبي صلى الله عليه وسلم فكذلك حكم قوله مولى القوم منهم وقوله . الولاء لحمة الى أن قال وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفارقة وليس على ظهرها الا نخور الا قليل ، وأى شيء أغبط من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفاً بعثتك إياه .

العلم الصحيح^(١)

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الأديان ، أو دنيوى ودينى ، فالدينى علم ما فيه صلاح المعاش ، وحفظ النظام فى عالم الكون والفساد ، والدينى كل ماله حساس بالمعاد ، وتهذيب النفس ، والابتعاد عن المنكرات فى هذه الفانية ، للظفر بالباقيات الصالحات فى تلك الدار الباقية

كان العلم الدينى لأول أمره موجزاً مندرجاً ، لم ينقد قواعد مقررة ، وأصولاً نافعة ، فكان العربى يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين فى ساعة ، ثم يحمله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك وأهلك ، فقد عرفت من الدين جوهره وسره ، وما ينبغى له ، فمن ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبية من أجل التنازع على الملك ، وتجاذب حبل السلطة ، فزج الدين بالسياسة ، ودخل فى الاسلام من لا يهيمه منه غير المفانم ، وراح بعضهم يدسون مالم يقل فيما قيل ، وكثر المنافقون ممن سعوا بالدين فى سرهم ، وهم من اتباعه فى جهرهم ، وأنشأوا يلبسون ثياب الأصدقاء وهم له أعداء ما كرون

دسوا عوامل إفسادهم وفى القوم يومئذ صفوة من الأخيار ، توفروا على محاربة البدع والموضوعات بكل لسان وبنان ، بكل سيف وسنان ، وكانوا على اخلاصهم وتأثيرهم كلما استأصلوا شأفة فاسد نبض من الأفسد نابض ، ورجال

السياسة وأكثرهم لا يرجع في الغالب الى رأى ومذهب ، يدهنون من وراء ذلك
 لحملة الدين ، ويبذلون لهم ما يستغفونهم به ، لينطقوا بألسنتهم ، ولا يفسدوا
 عليهم امرهم ، اذا رفعوا أصواتهم ونعوا عليهم تبديلهم لما أنزل ، وإلصاقهم به
 ما ليس منه . ولما رأى العقلاء عاث الفساد يدب ديبه في علوم المعاد ، خافوا
 أن يتدرج من العبث بالاعراض الى العبث بالجواهر ، فلم يروا بداً من التدوين
 والتقييد ، والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليبدو السليم لا شائبة فيه ،
 وأنت خبير بما يقتضى ذلك من التطويل دع ما يتخلله بالطبع لأن في القائمين
 به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة

مضي على هذه الحال ربح من الزمن ، وعلوم الدين لم تخرج بشيء من علوم
 الدنيا ، الى أن دخلت علوم الحضارة في الملة وسموها علوم الأوائل ورأت من
 بعض خلفائنا من أخذ بيدها وهياً لها أسباب انتشارها ، فعندها كثرت المذاهب
 والآراء ، ونشأ العراك الأول بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أى بين
 الدين القائم بالتسليم ، وبين الفلسفة المبنية على البرهان

وظلت حال العلم الدينى تابعة لجرى السياسة ، ان جاء عاقل من الأمراء والملوك
 بكل أمره لجهاذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون ، وإذا ولى
 رقاب الناس جاهل ينزل نفسه في كل المنازل ، فيتولى من الخلق أمور دنياهم
 ودينهم ، ويقرب اليه كل من يتابعه على أهوائه ، ولا ينكر عليه مغالاته ، والعقلاء
 بعزل لا ينطقون إلا كارهين ، وربما تدرعوا الجحول وآثروا الانقطاع على الدخول
 في المجتمع لا محاضه النصيح ، وتخليصه من المفاسد الطارئة عليه

نعم ان التاريخ لم يخل من وجود عقلاء في كل دور من أدواره ولكن قوتهم
 ضئيلة لا تنفع وصوتهم خريد لا يسمع ، اذا نسبتهم لأولئك المنافقين ، في خدمة
 الأمرين والناهين ، وقد قل عددهم كثيراً في هذه الديار خصوصاً بعد الدولتين
 النورية والصلاحية ، وصار العلم أشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ، ومناطق
 ومفاهيم ، وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ، ويدسونها فيه ، ولا جهل
 السكمة النافذة في الهيئة الاجتماعية ، الى أن كان القرن التاسع والعاشر وما يليهما من
 قرون الهجرة ، وهي من العصور المظلمة من تاريخ الاسلام حقيقة ، فعندئذ قل

المميز والمفكر ، وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة ، وصار من يتعاطاها في نفسه وبين خاصته كمن يأتي أمراً إداً ، ويخون دينه وأمته ، وبطل النظر في الاصول وتحتم على كل عقل أن لا ينظر في غير الفروع ، مما أملتته خواطر المتأخرين . فأصبح بذلك يعد العالم كل العالم من يحقق من هذه الفروع أكثر . اعتبر ذلك بما تتلوه في تراجم أعيان العلماء في هذه القرون ، فانك لا تراها تتعدى الأقوال والآراء وأهل كل جيل يقدسون قول من سلفهم ولو يبضع سنين ، نعم انك لو انصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد أتت أيام في معظم الاصقاع الاسلامية حرم النظر فيها حتى في الكتاب والسنة ، وعد الناظر فيهما محاولاً للخروج عن سنن الجماعة ، فاذا خالف فرد ما نقوه أهانوه ومن قاوم بفكره سجنوه أو نقوه وشردوه ، واذا خافوا بأسه قتلوه وجعلوه عبرة ومثلاً للآخرين

تأصلت الأوهام فعدت من أقدس القربات ، وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس أقوال أدعياء العلم ، والتقوى ، وصدرت الأحكام ، بعوامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل في التبليل والتشويش اتخذت كل منهما لها أئمة وأولياء ، وانشأت تكبر أمرهم وتدعى لهم مقاما ادعوه لأنفسهم ، وراح الفقيه يكفر الصوفي ، والصوفي ينقم على تقديسهم . والطعن فيمن عداهم ممن لم يصوروا لهم بالصورة المناسبة لما وقر في نفوسهم وركز في طبائعهم ، وعشش في مخيلاتهم : وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمباحكات . لو بعث الشارح وأصحابه لرؤا الاختلاف بين ماورد وما صار اليه مستحكما بعيد الأطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين . وماذا أصف من تسرب الجهل الى العبث بالعقول في تلك القرون ، وانك لترى أثراً من آثاره لهذا العهد عن بعض من فطموا أنفسهم من النظر في المعقولات منا ، فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع الى أفواههم من الماء الى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالحنة فيعطيها لمن يشاء ، ويخرج منها من يشاء ، فوارحمته على أناس أضاعوا فضل عقولهم في الجدل ، ولكم كان الخير يأتي من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ،

ونبذت الاهواء ظهرياً ، ولكن اذا اراد الله بقوم سوء آرزقهم الجدل ومنعهم العمل
قلت فيما سلف ان علوم الدنيا دخلت في الملة لما رأت من يعصدها من رجال
السياسة وكان ذلك في القرن الاول بيد انها لم تنتشر الانتشار المطلوب الا في
القرن الثاني والثالث. شاعت قرنين ثم أخذت تضعف الى أواخر القرن السابع أيام
قل المشتغلون ولو على طريقة نظرية بعلوم العقل التي لا قائمة لأمة بدونها
مهما أخلصت في دينها . واذا استفتيت توارى عنهم تجد المتلبسين بشعار العلماء
لا يعدون في جملتهم ذاك الرياضي والجغرافي وربما فضلوا عليها المعمار
والثراث . من أجل هذا نرى المدارس على تفنن القوم في انشائها بعد القرون
الوسطى منازل خاصة بالفقيه والمحدث والقارئ والرباطات للمجذمين المعدمين
والكسالى ولم نجد مدرسة اللهم الا بعض مدارس الطب والهندسة موقوفة على
الرياضيين والطبيين والفلكيين والمؤرخين كأن علومهم هذه أباطيل لا تصح
الاعانة عليها . وحسب الرياضي أن يفرض الفقيه عنه ما دامت الحالة بين هبوط
وصعود والاجود بها أن تدعى سقوطاً الى منتصف القرن الماضي أيام أخذ السلطان
عبد المجيد في البلاد العثمانية ومحمد علي في هذا القطر يسهلان السبل لهذه العلوم
ويعدان أهلها في مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون
بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر . على انه لم
تجد عودة تلك العلوم الدنيوية التي سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة
لما نتج عنها من حركة كانت أشبه برد فعل ما ظلت الامة معها صائماً أخذ منه
الجوع فلم يجد ما يطعمه حتى ساقته الاقدار الى مائدة موسر وقدحوت ما طاب
وحلا من صنوف الاطعمة والحلواء فأخذ يلتهم ما وصلت يده اليه بدون ترود
يزدره بلا مضغ ويمزج بارده بحاره وحلوه بحامضه ويؤخر ما يقتضى تقديمه
ويقدم ما يحسن تأخير . ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقي غير قشوره
شربت مصة من مورده ظنتها غاية ما يرتوى به المرتوون وراحت تعد المروق
غاية النور والازراء على النبوات من آيات الحكماء والطعن في الشرائع من عمل
الجهابذة النحارير وانكار القديم مهما كان تفعة والتعلق بالحديث مهما ضؤل
قائله من دواعي النهوض والاستنارة . وعلي الجملة ينجذبون كل ما ليس لهم به علم

من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم في مقام واحد مما حكين ولو بان لهم الراجح من المرجوح .

يقول فتية اليوم إنه لا نجاح للأمة الا بنبذ ذاك القديم مباشرة والاخذ بهذا الحديث على علاته . وفاتهم أن ما يسوغ في الغرب لا يتم في الشرق . وأن لكل أمة طبيعة ومنازع لابد من مراعاتها . وأن اقامة مدينة جديدة في بادية أسهل من اصلاح مدينة قديمة لاغنية عن البناء فيها . وأن من العقل أن لا ينبذ ذاك القديم بل يرجع فيه الى الاصل القليل . ويؤخذ النافع منه . ويترك ما عدا ذلك من تحريف المخرفين وضلالات المبتدعين والاخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذى تمس اليه الحاجة . واطلاق الحكم للعقل يعمل عمله في طريقه . العلم الصحيح هو الذى يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان في ذلك ضياع مصلحته الشخصية فلا يبالي حامله بغضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهاء . يتجشم المخاطر في نشر خاطر . ويركب كل صعب وذلول لانهارة مظالم العقول

العلم الصحيح هو الذى خلص من ضغط الاهواء السياسية والمذهبية وسلم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريئاً من شوائب النزعات والنزغات . وأثر في نفسه تأثيراً مجرداً . فاذا نطق بعده فلا ينطق الا بما يوحى اليه هاتف الفهم السليم . والعقل الحكيم . فلا يتعصب للآباء والجدود . ومألوفات المحيط وعادات الاهل والاقليم . ويتحزب لشيخه واستاذه ولو تجلى له أنها تنكبا عن طريق الحق .

العلم الصحيح هو الذى يحترم صاحبه به آراء غيره . ولو كانت مباينة لافكاره كل المباينة . ولا يعدها سخافات وترهان . فينكر كل ما لا يعلم ويستكثر ما وعى . ولا يعد حطة عليه أن يتسقط الحكمة أني وجدها وفي أى المظاهر ظهرت فيأخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين .

العلم الصحيح هو الذى تكون نتائجه أكثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه . فلا يتكبر عن افادة . ولا يستنكف من استفادة . ويسعى الى بث ما يعرف في كل أفق ويعد البشر إخوة فلا يقصر في

تعليمهم مما علم . يقينه ان صلاح الافراد سلم للوصول الى اصلاح الجماعة .
والمصلحة العامة هي أبدأ موضوع نظر من رزق حظا من هذا العلم

العلم الصحيح هو الذى يربى الملكات ويهذب النفوس فلا يستخدم صاحبه
علمه أداة للغلبة بالباطل والأدلال على الاقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة
الزائلة والتبجح والتنطس . فامنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئا من هذا العلم
وكثر فيها سواد أهله بمنك وحسن تسديدك

علاقة العرب بالغرب ^(١)

فأميرنا هو الذى وضع المسألة العربية على بساط البحث ووجه اليها انظار
العالم الغربى وكانت مسألتنا من قبل مندحجة فى المسألة الشرقية فبرز بصحة عقله
بين المسألتين الشرقية والعربية وأبان للغربيين أن العرب غير الترك واننا أمة قوية
الشكيمة يبلغ عددنا أكثر من نصف سكان تلك الامبراطورية العثمانية المنحلة
وأبعد منهم كعباً فى المدنية وليس لهم من المزايا علينا الا ان الطالع ساعد ملوكهم
الاقدمين وقاموا بغفلة الدهر عنهم فانشأوا ذاك الملك الضخم بقوة سلاحهم
الذى لم يبرحوا شاهره الى ساعة انهزامهم من بين أظهرنا أي أنهم اكتفوا مدة
أربعة قرون باستصفاء البلاد وما استطاعوا أن يستصفوا القلوب وشتان بين من
يخضع الاجسام الجامدة ومن يخضع الاجسام الحية

ربما كان بين أهل الغرب اليوم عدد قليل من الناس لا يثبتون مزية للمدنية
العربية القديمة وهؤلاء ممن أخذوا معلوماتهم عن كتب املاها المتعصبون منهم
وبعضهم من سكان الاديار الذين ضاقت عن تحملهم مثل أرض فرنسا وسويسرا
الحرّة ولكن هناك مئات من علماء المشرقيات أخذوا بعلوم الشرق ولغاته ولا

(١) من محاضرة فى النادى العربى بدمشق مساء ١٤ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٩) نشرت فى جريدة

سما بسيدتها اللغة العربية فدرسوا الحضارة العربية والتاريخ العربي في مظانه وبلغته وأزالوا غشاوة الاوهام عن العوام بما أنشأوه من المجلات ونشروه من الكتب بلغاتهم المختلفة يبينون للناس مجد هذه الامة الغابر وأيامها الغر المحجلة وربما كان منهم المتعصب للعرب وتحبيذ دولهم السالفة أكثر من تعصبه لمدينة الامم الحديثة وهؤلاء هم الذين يخدمون العلم للعلم لا يتبعون فيه على الغالب هوى النفوس في السياسة ولاسلطان للأديان تمليه على ضمائرهم .

ومن قرأ دائرة المعارف الاسلامية التي لا تزال تصدر الى اليوم في مطبعة ليدن من عمل هولاندة بلغات العلم الثلاث الانكليزية والالمانية والفرنسوية وهو أصح كتاب كتب في تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها وأصول شعوبها ومن عرف ان أمهات كتبنا في الدين والعلم والتاريخ لا تزال تطبع في مطابع الغرب منذ زهاء أربعمائة سنة أى على أوائل عهد اختراع الطباعة وأن المطبوع منها بالعناية الفائقة تتألف منه خزانة كتب كبرى تحتوى على كل فن ومطلب وأن مطابع من أسفار أسلافنا في اوربا وأميركا على أيدي المستشرقين من أهل تينك القارتين يبلغ أضعاف أضعاف مطابع بلغات الشرق كله — من عرف كل هذا يدرك ولا جرم مبلغ عنايه الافرنج بلغتنا ومدنيتنا وتاريخنا

أكدوا أيها السادة أن تفسير القرآن الكريم يقرأ درساً على طلاب الجامعات في الغرب كما تقرأ دروس الفلسفة والتاريخ والادب . وما أنس لا أنس وقد دعاني في بودابست الاستاذ غولد صهير العلامة المجرى الى داره وهو يقول انى الآن ذاهب الى الكلية لالقاء درسى وأعود اليك بعد مدة فسألته ماذا تقرأ الآن لتلاميذك يا أستاذ فقال تفسير القرآن وأغرب من هذا ما ذكره لى صديقي العلامة أحمد زكى باشا المصري قال دخلت على الاستاذ درانبورغ في مدرسة اللغات الشرقية فرأيتة اسرائيلياً يدرس كتاب المسلمين لجماعة من المسيحيين أما الحديث والفقه والاصول والتصريف فهو أيضاً مما يعانونه كما يعانون غيره من آدابنا وتاريخنا وعلومنا ورجال الافرنج يدركون حقيقة العرب وعلومهم منذ توطد سلطان الامويين فى الاندلس وأخذ بعض المتنورين منهم يدخلون تلك المملكة العربية ويدرسون العلوم على علمائها ويعودون الى فرنسا وإيطاليا

ينشرونها بين قومهم وكان بعض المشتغلين على علماء العرب من الاسرائيليين وبعضهم من المسيحيين الذين تولوا بما تعلموه أعظم منصب ديني في النصرانية . وكان الله سخر العرب ليفتحوا الاندلس ويعمروها حتى ينقلوا لاهل أوربا العلم والحضارة ولما انهوا مهمتهم عادوا أدراجهم من تلك المملكة البديعة

امتاز المسلمون باحسانهم الى من خالفهم اذا كان مما تحمد سيرته السياسية والوطنية ولذلك حموا الاسرائيليين مواطنيهم في الاندلس ويوم أخرجوا منها فكروا في حماية الاسرائيليين ومصالحهم كما نظروا في حماية أبناء دينهم اشتروا على الغالب شروطاً تقيهم بأسه وكان الاسرائيليون اذ ذاك في الغرب مضطهدين في كل مكان الا في الاندلس وكما استمتع الاسرائيليون بحريتهم على عهد العرب في الاندلس على عهد العرب في الاندلس على صورة لم يعد لهم مثلها الا في القرن الاخير في أوربا حتى العرب الاسرائيليين في الغرب كما حموهم في الشرق واعتمدوا عليهم في مصالح الدولة لان الاسرائيليين كانوا اذ ذاك يعضدون الحكومة التي تحكمهم كما هو اليوم في إيطاليا حيث كان لهم القدر المعلى في قيام الوحدة الإيطالية منذ نحو خمسين سنة وكان لهم من النفوذ الاقتصادي العظيم ما خدموا به الوحدة واخلصوا لها وخدموا سياسة إيطاليا حتى أصبح منهم الولاة ورؤساء النظار وكبار العمال ^(١) لا ينازعهم منازع وذلك لان الاسرائيلي في إيطاليا إيطالي أولاً ثم اسرائيلي خلافا لما عليه سائر الممالك

ولو لم يكن حكم العرب في الاندلس الى الدين والعدل مادام ثمانية قرون وكذلك حكمهم في جزائر صقلية وسردانية ومنورقة وميورقة وقرسقة وغيرها من جزر الظليان وكان اختلاط العرب بالامم اللاتينية ولاسيا بالبرتغاليين والاسبانيين والفرنسيين والظليان ولذلك تجد في لغات هذه الامم مئات من الالفاظ العربية ولم ير الايطاليون أن يغيروا شيئاً من مصطلحات العرب حتى أن الملك رجار الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ٨٤٥ كان يتكلم بالعربية ومثله كثير من ملوك إيطاليا وكان يفضل كثيراً على علماء العرب وهو الذي وضع له الشريف

(١) إيطاليا الحديثة للأمير جيوفاني بورغزة

الادريسي الجغرافي كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت
لها أجيال الافرنج كلهم (١)

وكانت دراسة العربية شائعة في شبه جزيرة إيطاليا ينظر الى تعلمها انه من الحاجات
الماسة لكل تجار المدن البحرية وقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ م باللغة العربية
كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة في عدة
أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط
نورمانديا وهو هانستوفين وفريدريك الثاني ودى منفرو لغة العلم العالي والشعر
والادب . وكان من سقوط الدولة البيزنطية في القسطنطينية وهجرة علماء من
اليونان الى إيطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح
الديني ان هبت في أرجاء إيطاليا حركة النهضة العالمية التي تجلت في أجمل مظاهرها
في الدروس الشرقية ولا سيما في دروس العربية والاسلام

وشاعت في القرون الوسطى في أوروبا (٢) لغتان فقط من لغات الشرق بين
العلماء وهي اللغة العبرانية التي كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية
التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال
ابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابي ، لذلك انشئ في باريز منذ أواسط
القرن الثالث للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية . وفي سنة ١١ م شرع
في باريز واكسفورد وبولون وفلمنكة بتدريس العربية مع العبرانية والسكلدانية
وكان لأسرة ميديسيس الايطالية فضل على الآداب العربية كما لها الفضل على
الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

ثم ان الافرنج زاد اختلاطهم بالعرب في الحروب الصليبية فان هذه وان كلفت
أموالاً أوربا ملايين من الانفس والاموال الا أن أهلها عادوا منها بعد جهاد نحو
قرنين وقد لقنوا أموراً كثيرة من العرب أثرت في حضارتهم واخلاقهم وعلومهم
وصناعاتهم لانهم شاهدوا أمة أرقى منهم إذ ذاك فأخذوا عنها ما اتسعت له أوقاتهم
وكانوا على اختلاط نام مع الامم التي يحاربونها

(١) مجلة المقتبس م ٨ ص ٧٦

(٢) المقتبس م ٨ ص ٤٠١

وبينا كان السيف والنشاب والمجانيق تعمل عملها بين الفريقين كان تجار
الافرنج يدخلون بلاد العرب ويتجرون على الرحب والسعة لا ينازعهم منازع
فأعجب بهذه الاخلاق مؤرخو الحروب الصليبية منهم واقرب بمنافعها لهم أهل
الاجيال الخالقة وفي مقدمتهم ميشو في تاريخ الحروب الصليبية وقد ذكر على
تعصبه أشياء كثيرة مما أخذه الافرنج عن العرب دع مئات من كتاب الغرب
وباحثيهم ذكروا في كتبهم ومقالاتهم كثيراً مما استفادته أجيال الفرنجة وغيرهم
من امتزاج الصليبيين بالعرب وقد أدهشهم ما شهدوه من عدل اصلاح الدين يوسف
ابن أيوب رحمه الله حتى ادعى شاعره عبد المنعم الجلياني أنهم رسموه في هياكلهم فقال .
وخطوا بارحاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الاقائم
يدين لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشفى به في التائم

*
**

وان ما نقرؤه في تاريخ شواطئ البحر الأبيض حيث ينزل العرب من مراکش
بالجزائر فتونس فطرابلس فبرقة فصر فسورية من وقائع حدثت في أزمان مختلفة
بين العرب وبين البنادقة والجنويزيين والبيزنيين والاسبانيين والبرتغاليين لا تطعن
في حسن الصلات بين العرب وجيرانهم على الشاطئ المحاذي لهم من هذا البحر
لأن هذه الغزوات البحرية كانت بصنع قراصين ومتشردين وغاغة ظالمين لا دخل
فيها للأمم ولخاصتها على الأقل ولا سلطة فيها للأديان لأن الأديان كلها تأمر
بالمعرف وتنهى عن المنكر ومن أعظم المنكرات فيها قتل النفس التي حرم الله .
ولذلك تجد المعاهدات تعقد الحين بعد الآخر بين صاحب تونس أو مصر أو الشام
أو الغرب الاقصى وبين الملوك النازلين من الافرنج في جنوبي أوروبا وهذه الغزوات
البحرية أشبه بالغزوات البرية التي طالما حدثت لها أمثال بين الامة الواحدة من
الافرنج أو الامة الواحدة من العرب

ولطالما غزا سكان جنوبي فرنسا سكان شمالها ودينهم واحد ولسانهم واحد
وعاداتهم وتقاليدهم متقاربة ولم يتيسر نزع هذا الخلق وهو من اخلاق البداوة
في الغالب الا بما قام في فرنسا من الاعمال المالية التي ربطت ابن الشمال بابن الجنوب

برباط معنوى مادى فارتفعت الخصومات من بينهما لأن المصلحة المادية مفضلة على كل شئ فقد قال الجاحظ « وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لاهلها وتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهونون لان ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل . »

قال الكونت هنرى دى كاستر فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح . ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة اهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم الفيزيغوت . ويقول دوزى إن هذا الفتح لم يكن مضرأ بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقي المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد) وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير وكمن من اندلسى بقى على دينه ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة وآدابها وأصبح القسس يلومونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين وكانت حرية الأديان بالغة منهاها لذلك لما اضطهدت أوربا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس فى قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين قال ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية مداخلوا بلاداً الا واعملوا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيراً وملجأ فى الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم . اه وقال سيديليو فى كتابه حضارة العرب مما يدل على شأن الأمة العربية أنها فتحت بلاداً أجنبية ولم يتغلب عليها غريب مع اتصافها منذ أربعة آلاف سنة بما انفردت به من جميل الاخلاق والعادات فكانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأموورها متأهبة للاغارة على مجاوريها أخذت مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الاجنبية وانحصرت سطوتها فى بلادها العربية فأخذت تقاتل القراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش

ملك الفرس واسكندر المقدوني وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة ثم أتى النبي فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج في اسبانيا والبرتغال الى نهر القانج في الهند وانتشر نور المعارف والتمدن في المشرق والمغرب وأهل أوربا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون المتوسطة وكأنهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان واجتهد العباسية ببغداد والاموية بقرطبة والفاطمية في القاهرة بترقية الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية واقتصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في جميع ارجاء ممالكهم وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاكتشافات ما استنفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها كما أن الاتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم . اهـ

وبعد فان أمة هذا ماضيها وهذا حاضرها كيف يجهل بعضهم أو يتجاهلون أمرها وهي التي كانت الصلة والعائد بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة ولولا العرب لتأخرت نشأة الحضارة الغربية قروناً كما أكد بعض المنصفين من علماء الغرب . فاذا كان ماضيها ما رأيت وفي حالتنا الحاضرة بعض النواقص جاء لنا من الحكم الاستبدادي الذي نخر العظم قروناً طويلة فأننا لا يصح الا أن يقال عنا اليوم كما وصفنا رئيس الكلية الاميركية الدكتور هورد بلس في مؤتمر الصلح أمة كسائر الأمم فينا من العيوب ما في غيرنا أما استعدادنا للرقى اذا رفعت عن عيوننا العصائب فقد أثبتته رجالنا الذين تعلموا وتهذبوا فكانوا في مصر والسودان وفي أميركا وأوربا على مستوى الغربي الراقى في علمهم وآدابهم ومتاجرهم وصناعاتهم وأثبتته دعاة الثورة العربية وما ظهر من تفانيهم في وطنيتهم لارجاع مجد أممتهم بعد ذبوله

واليك مع هذا ما ذكره غستاف لوبون صاحب كتاب مدينة العرب في كتابه علم النفس السياسية^(١) في باب الاسباب النفسية: الق بالمدينة الاوربية عن تحويل الشعوب المنحطة عن حالتهم قال : لا تعمل التربية الا أن تلخص المدنية

(١) اسمه هكذا : G. Le Bon : Lapsychologie politique

والاوضاع والمعتقدات تمثل حاجيات هذه المدنية واذا لم يكن بين المدنية وافكار شعب وعواطفه اتصال فان التربية التي تؤلف هذه المدنية لا يكون لها تأثير فيه وكذلك الحال في الاوضاع المناسبة لبعض الحاجات فانها لا تطابق الحاجات المختلفة ويدرك المرء بأدنى نظر الفرق بين عقول أمم الشرق ولا سيما المسلمون والهنود الصينيون وبين عقول أهل الغرب فيجده عظيمًا بحيث يتعذر تطبيق أوضاع بعضهم على الآخر . فان الافكار والمناحي والمعتقدات وطرق العيش تختلف بين الفريقين اختلافاً ظاهراً

فبينما نرى أمم الغرب تشتد كل يوم في نزع مؤثرات الاجداد نجد الشرق يعيش بماضيه الا قليلا . فالمجتمعات الشرقية ثابتة في عاداتها وهي في الشرقيين خالدة على صورة ليست لها في أوربا اليوم . فان المعتقدات التي أضعناها يعنون هم بالاحتفاظ بها جد الاحتفاظ والعائلة التي تقوضت من أساسها في الغرب لم تبرح متينة الدعائم في الشرق على نحو ما كانت منذ أبعد عصور التاريخ . والمبادئ التي فقدت من تأثيرها فيما أصبحت محافظة على تأثيرها فيهم . غاية الشرقيين قوية جداً وحاجاتهم ضعيفة كل الضعف وغاية الغربيين غير أكيدة وحاجاتهم عظيمة جداً . فان الدين والامرة والسلطة العالية والعادات وجميع هذه الأسس القوية في المجتمعات القديمة التي نزعها الغرب من أصولها قد احتفظت بنفودها في الشرق ولا من منازع لها . وذلك لان الاهتمام بالاستعاضة عنها لم ينفذ بعد الى عقول الشرقيين ويتجلى الفرق الفاحش بين الشرق والغرب من أوضاعهما فان جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية في الشرقيين عربا كانوا أو هنوداً تنبعث خاصة من معتقداتهم الدينية على حين نرى أكثر الشعوب الاوربية تديناً قد فصل منذ زمن طويل بين الاوضاع السياسية والمعتقدات

ليس في الشرق قانون مدني بل هناك قانون ديني فقط . وكل جديد مهما كان نوعه لا يقبل الا على شرط أن يكون نتيجة قواعد لاهوتية وليس الاختلاف بين الغربيين والشرقيين في تركيب العقول والأوضاع والمعتقدات فقط بل في أدنى أسباب الحياة ولا سيما في بساطة الحاجات بالنسبة الى تشعب حاجاتها فان مطالب الحياة عندهم قليلة جداً اذا قيست بمطالبنا وتشعباتها ولذلك يلتقي الشرقي اذا قبل

المدينة الاوربية لأنها تلزمه بامور لا يستطيع تطبيقها ولا تستلزمها حالته وبيئته فتقتضى فيه على ما وردته من ماضيه وتركه لا يعرف كيف يستقر أمام الحاضر والنتيجة القطعية الوحيدة من التعليم الأوربي سواء كان فى الزنجى أو الهندي هو أن تتبدل الصفات الارثية فيه دون أن تتمكن من ابلاغ التربية الاروبية اليه . وقد يحصل الشرقى على قطع من الافكار الاوربية ولكن انتفاعه بها يكون بعواطف وأفكار وحشية أو نصف متحضرة وتتقاذف عقول الشرقين آراء متضاربة ومبادئ فى الاخلاق متعارضة . ولا ينجحنا هذا الطلاء الضعيف الذى يظهر فيه الشرقى اذا لقف شيئاً من التربية الاوربية فان ذلك أشبهه باللبسة الموقته فى دور التمثيل لا يجب أن ينظر اليها عن أمم قال ولقد حدثت مئات من المرات أناساً من أدباء الهنود تخرجوا فى جامعات انكلترا أو الغرب فثبت عندى أن بين أفكارهم وافكارنا ومنطقهم ومنطقنا وعواطفهم وعواطفنا فروقا واسعة المدى وهوى سحيقة بعيدة . وليس معنى هذا أنه يستحيل على الشرقى أن يكون كالأوربي حذو القذة بالقذة . كلا فان الشرقى يكون كالغربي ولكن بعد تعاقب الدهور والأعصار كما وقع لأجدادنا فانهم ظلوا نحو الف سنة يتخبطون فى حالة التذبذب والتوحش حتى تأصل فيهم حب المدينة القديمة والأخذ منها . وقانون النشوء الاجتماعى كالنشوء الطبيعى لا بد من أن يستوفى حظه .

والسبب المهم فى أن مدينتنا عاجزة عن الوصول الى الشعوب المنحطة هو انها متشعبة مركبة والشرقيون أمم من السداجة اقرب فاقتضت لهم البسائط فانا نرى المدينة الاسلامية وما أثره المسلمون فى الشرق ولا يزالون يؤثرونه قد نجحت فى هذا المعنى ذلك لان الامم التى دانت للإسلام كانت أو هى فى الغالب شرقية لها من العواطف والحاجات والعادات فى الحياة ما يماثل عواطف الفاتحين وحاجاتهم وعاداتهم . وليس فى قبولهم أصول المدينة الاسلامية ما يتنافر مع حاجتهم وعلى العكس اذا صحت عزيمتهم على الأخذ بالمدينة الغربية فانها تدك بنيان ما تعودوه بما فيها من الاختلاط والارتباك

قال وقد زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والاخلاقية العجيبة التي أثرها المسلمون في الارض كانت بفضل مادياتهم ولكن لا يصح اليوم أن نجعل بان هذه المؤثرات قد دامت في مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون نفوذهم السياسي فان المسلمين في الصين يزيدون اليوم على ٢٠ مليوناً وفي الهند على خمسين أي أن سوادهم أوفر من العهد الذي بلغت فيه دولة المغول أرقى درجات عزتها ومنعتها ولا يزال هذا العدد في نمو . ان المسلمين بعد الرومان هم الامه الممدنة الوحيدة التي نجحت في نقل تهذيبها الاجتماعي ودينها وأوضاعها وعلومها الى العناصر المختلفة التي افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل نراها على العكس آخذة بالنمو تتعدى الحدود التي بلغت في أيام القوة المادية . ان القرآن وما اشتق منه هو الى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الاولى حتى أن قبوله أخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق . وحيث ينزل المسلمون ولو كانوا تجاراً سدجاً تدخل أوضاعهم ومعتقداتهم وكلما توغل الرواد من أهل المدينة الحديثة في صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الاسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون في تلك القارة الغربية على حين يطوف الاوربيون في الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثراً لنفوذ أدبي .

فلا التربية ولا الاوضاع ولا المعتقدات ولا غير ذلك من الاسباب التي يتذرع بها الاوربيون للتأثير في الشرق تقيد في تمدينه ولا سيما في الشعوب المنحطة منه . وحالة اليابان لا تقوم دليلاً على نقض هذه القضية لان اليابان وقد بلغت درجة راقية في المدنية كان السبب في تمدنها انها قبلت نتائج المدنية الغربية بجملة دفعة واحدة فلم تغير في الحقيقة قوانينها الاساسية ولا معتقداتها ولا أخلاقها فهي تشبه شريعاً من أرباب الاقطاعات عاد الى الحياة بعد موته فتعلم استعمال القاطرات واطلاق المدافع .

هذا رأى الفيلسوف غستاف لوبون في مدينتنا وحالتنا الاجتماعية وتأثرنا بالمدنية الغربية وصلاتنا مع أهلها وصلاتهم معنا وهو كما ترون صحيح من أكثر وجوهه لاشائبة للتعصب والتقاليد فيه وقد حمد حالتنا من حيث تكوين الاسرة

والبيوت والسداجة. وعسانا اليوم وقد زاد اختلاطنا بالغرب لا نأخذ منه الا ما
تمس حاجتنا اليه ونبقى على القديم النافع فقد قيل إن القوة الحقيقية في كل مملكة
ما عرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أى صورة كانت عار
على الوطنية

لم يخل عصر من العصور من اختلاط العرب بالغرب سواء كان بطرق الفتح
أو التجارة أو طلب العلم أو للجوار وقد قصد اوربا كثير من رجالنا منذ زهاء
عشرة قرون وكذلك الاوريون وصلوا الى بلادنا منذ القديم وكان الطليان
أسبق الأمم الى هذا الاختلاط كما رأيتهم ومع أنه على أئمة ولاسيما منذ استولى
نابليون على مصر وجانب من الشام لم يبرح الشرق شرقا والغرب غربا أخذوا
منا وأخذنا منهم ولكن ما أخذوه عنا مزجوه في حضارتهم وكذلك كانت
حالنا معهم وما اقتبسناه من نور علومهم وأساليب تربيتهم في القرن الماضى
وهذا القرن

ولا غضاضة علينا اذا وقفنا معاشر العرب مع الغرب عند حد الأخذ من
حضارته وعاداته فان التخوم اذا تناءت تختلف أهويتها وطباع أهلها فما يفيد من
القوانين هنا لا يطبق على سكان ما وراء النهر مثلا وما ينفع سكان الارجنتين لا
يتأق تطبقه على أهل الصين . ومن أسرار هذا الكون أن كل أمة تحرص على
سلطانها ولسانها وأوضاعها وتدافع عنها جهدها والوقائع التاريخية الكبرى تظهر
آثارها فى الأمم حتى بعد قرون فغارات الصليبيين والتاتار على هذا الشرق
الاقرب أثرت فيه قرونا . وغارات العرب على أوربا أثرت فيها بحيث يشهد التاريخ
ان العرب يوم زحزحوا عن بواتيه فى فرنسا على يد شارل مار تيل هم غيرهم يوم
جلوا عن أرض الاندلس

اذا كان الاختلاف طبيعياً بين أهل قطرين لسان كل منهما يختلف عن صاحبه
أما العادات والتقاليد فواحدة الا قليلا أفلا يكون أشد بين أمم متباعدة فى
معظم مشخصاتها ومقوماتها ؟ ونضرب لذلك مثال أمتين حيتين فى الغرب :
البلجيك وسويسرا وهما مملكتان صغيرتان أدهشتا العالم بمدنيتهما ووطنيتهما
وحريةتهما ولم يمنع اختلاف العناصر فيهما من اتفاق كلمة كل منهما على الثانى فى

حب الكمال بحيث أصبح في أهلها عادة وجبلة وغدتا نموذجاً ينقل عنه حتى أرقى شعوب أوروبا كعيا في المدينة من مجاوريهما كما هو الحال في البلجيكي فانها بين ثلاث ممالك هي مصدر لمدينة انكترا وفرنسا والمانيا. وسويسرا وهي بين أربع المانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وكل هذه الممالك الكبرى تغبط تينك المملكتين الصغيرين على أوضاعهما واستعدادهما. بلاد البلجيكي مؤلفة من عنصرين مختلفين في الاصل وهما العنصر الفلاندرى أو الفلامندى سكان الشمال والعنصر الفالونى سكان الجنوب وهم فرنسيس يجيدون التصوير والآخرون الموسيقى^(١) ولكن بلاد الموسيقى لا تحلمهم فتقبلهم فرنسا وإيطاليا والمانيا وأسبانيا وحال البلجيك مع الدول المجاورة حال سورية مع غيرها على عهد الاتراك فقد كانت هذه البلاد تضيق على رحبها بانبائها فيها جرون الى القارات الخمس في طلب الرزق ولكن أين مساحة بلاد البلجيكي من مساحة بلادنا^(٢)

والنزاع بين الفلامنديين والفالونيين على أتمه بشأن اللغة فتجد الفلامنديين سكان الفلاندر من أحرص الامم على لسانهم وقد حاولت البلجيكي بعد سنة ١٨٣٠ أن تفلس الفلاندر فنارت هذه على كل ما أريدت عليه ولم تستطع ذلك بل احتفظت بروحها وأخلاقها وأفكارها وتقاليدها وعواظفها وأساليب تصورها قال شاريو: الامة بلغتها ومامن أمة بدون لغة. ولذلك تجد الجدال قائماً قاعداً في فنلندا وبولونيا والنمسا والمجر وسويسرا وأسبانيا بل وفي كل مكان في هذا الشأن

دعا نابليون الاول أرض بلجيكي بأنها ساحة حروب أوروبا وسماها اليزه ركلو ساحة اختبار أوروبا وسماها بعضهم مغرس بقولها، كما سمو الاندلس حديقة زهرها، وكما أصبحت سويسرا بالعلم مصيف أوروبا ومشتاها قلنا إن اللسان منيع الخصام بين كثير من الامم المختلطة العناصر ومع أن في

(١) بلجيكا الحديثة اشاريو H. Charriaux : La Belgique moderne

(٢) سويسرا الحديثة لدوزا A. Dauzat : La Suisse moderne

سويسرا ثلاثة عناصر وهي الالمانى والفرنساوى والايطالى وأربع لغات وهي الالمانية والافرنسية والايطالية والرومانشية فانها أشبه بفسيفساء من الشعوب تلاقت وامتزجت وتعاشرت ونشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية - أمر غريب لم يعهد له نظير في أمة من الامم وأغرب منه ان ثلاثة من فلاحي سويسرا يؤسسون هذه الجمهورية السعيدة منذ عشرة قرون فتبلغ بالعلم هذه الدرجة من الرقي وما أظن في الارض أمة سعدت بحكومتها كالامة السويسرية ولا شعباً أكثر لطفاً من اهلها وهم في غناهم واقتصادهم يعلمون الامم الغنية المقتصدة . وكان امتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتينى من آكد الاسباب في هذا التركيب الغريب فاخذ السويسرى عن الالمانى صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وصحة الحكم وحسن التقليد والظرف . ولم تصبح سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة في حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية (١)

هذا مثال من تشدد الامم حتى الصغرى منها في عاداتها ولسانها فاحر بالعرب أن يحافظوا على شخصياتهم وكانوا في القديم أشبه بأمة الرومان يفتحون البلاد ويدخلون اليها من عاداتهم وأخلاقهم ماهو في استطاعتهم ويأخذون عنهما ما ينفعهم ومالا غنة لهم عنه فاصبحت بلادهم مهد الوطنية السياسية في أيامهم كاهى الحال اليوم عند الامم التى عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة في رؤسها وأعظم مثال لها الامم الفرنسوية والالمانية والروسية والاطليانية والاسبانية كما قال ديمولان في كتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين : وكل أمة في القديم والحديث تأخذ من غيرها ما يناسبها أو تدخلة الاحوال في روحها وجسمها على غير شعور منها فانا شاهدنا في الاوربيين مثالا مجسما من هذا المعنى

قال جول هورى (٢) : يمكن ارجاع الامم الرئيسة في أوربا الى ثلاثة عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر

(١) مجلة المقتبس ص ٢٦٩ و ٨٣٤١ م

(٢) كتاب برلين لجول هورى Jules Hury : En Allemagne, Berlin

اللاتيني هم الطليان والفرنسيين والاسبانيون والبرتغاليون وقد ورثوا من الرومان مدنيتهم ولسانهم والامان والسويسريون والانكليز والسويديان والدانمركيون والهولنديون هم من الشعوب التويونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية وأن الامم التي كان تهذيبها العقلي من أصل لاتيني هي أعرق في المدنية من غيرها ورثت الاقليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم في إدارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بإنشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية

ولما جاءت أمم الشمال تفتتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التي افتتحتها . قال : وهذه الملاحظات تختلف ولا شك باختلاف الأهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلاً في إيطاليا آثاراً لا تمنحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب ان قويت العادات العسكرية وفكرة الاقدام على العظام في الاسبانيين ويقال بالاجمال ان هذا الجزء من أوربا الذي اشتقت السنته من اللسان اللاتيني وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ في صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما مضى وثنية . واذا كانت الامم الجرمانية قاومت سلطة الرومان لم تشبع بالمدنية الا مؤخراً دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية فلم تلبث في الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحي أما مدنية الاسكلافونيين فهي أحدث المدنات وأسرعها من سائر مدنات الشعوب ولذلك لا تزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الابداع والاختراع



ولو شئنا أن نعدد الامثلة من هذا القبيل لأصاب نفوس الحضور سأم ولكن اكتفينا بما أوردنا على مسامعكم برهاناً على تمازج أجدادنا العرب بأهل الغرب تمازجاً حمد الاخلاف عاقبته وأن جمودنا عن الاخذ بكل ما في مطاوي مدنيتهم من الاوضاع أمر طبيعي يعد في باب حبنا لوطينتنا واذا كانت أوربا ظلت تتسكع في دياجى الجهالة قرونا حتى صحت نيتها على اقتباس المدنية القديمة

الرومانية واليونانية والعربية أفلسنا نحن أسرع منها خطي ولقد رأيتنا في قرن أو بعض قرن اقتبسنا طرفاً صالحاً لا يستهان به من علوم الغرب وقوانينه في ترتيباته ومصطلحاته . وهالك الآن جملة لامام العرب في العقل والعلم أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله فهي فصل الخطاب في هذا الباب استمعوا اليها بقلوبكم فانها مثال العلم الناضج منذ أحد عشر قرناً وانموذج البيان العربي أذكرها لا على سبيل التفاضل بين الامم بل للعبرة والحكمة

قال الجاحظ في رسالته الى الفتح ابن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة إن كل أمة وقرن وكل جيل وبني أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب أو في تأسيس الملك أو في البصر بالحرب فانك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية إلا أن يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصلح لتلك المعاني لان من كان متقسم الهوى مشترك الرأي متشعب النفس غير موفر على ذلك الشيء ولا مهياً له لم يحدق من تلك الاشياء شيئاً بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين في الصناعات واليونانيين في الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذا كروه في موضعه وآل ساسان في الملك والأتراك في الحروب . الا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل ثم لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأ كفهم ولا أصحاب زرع ولا فلاحة ولا بناء وغرس ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكد وكانت الملوك تفرغهم وتجري عليهم كفايتهم فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوى وافرة واذهان فارغة حتى استخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون جماماً للنفس وراحة بعد الكد وسروراً يداوى قرح الهموم . فصنعوا بعد المرافق وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات والاسطرلابات وآلة الساعات وكالكونيا والكشتوان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف وكالطب والهندسة واللحون وآلات الحرب كالجاننيق والعرادات والرتيلات والدبابات وآلة النفاط وغير ذلك مما يطول ذكره . وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصورون الآلة ويخرطون الاداة ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به ويشيرون اليها ولا يعسونها يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل . فاما سكان

الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والافراع والاذابة والاصباغ العجيبة
وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسج والخط ورفق الكف في كل شيء
يتولونه ويعانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون
يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون
العلل لان أولئك حكماء وهؤلاء فعلة وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً
ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع
لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار
لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس
المكايل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل
عن المعرفة ولم يستغنوا الغناء الذي يورث التبليد (ترك الاتجاه لشيء) والثروة
التي تحدث الغرة ولم يتحملوا ذلاً قط فيميت قلوبهم أو يصغر عندهم أنفسهم
وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق (أي ركوب الندى
الارض وركود الريح وكثرة الندى) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخم
أذهان حداد ونفوس مفكرة فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر
وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريح الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر
وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر
بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس
وإحكام شأن المناقب والمثالب — بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وبيعض
هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهمهم أرفع وهم من جميع الامم أغفر
ولأيامهم أذكر . وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش وهم
أعراب العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات
ولا الطب ولا الفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار ولا جباية
غلات ولم تكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة
الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت همهم الى ذلك مصروفة وكانت
لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها — أحكموا ذلك
الامر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولتتهم ونفوسهم

وحدثهم وسموهم فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات والاعراب فيما عدونا ونزلنا وكآل ساسان في الملك والسياسة قال الجاحظ وليس في الارض كل تركي كما وصفنا كما أنه ليس كل يوناني حكيماً ولا كل صيني في غاية من الحذق ولا كل اعرابي شاعراً فائقاً ولكن هذه الامور في هؤلاء أعم وأتم ، وفيهم أظهر وأكثر اه

وقال الجاحظ في نحر السودان على البيضان يميز بين اليهود والصينيين : وأما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ولهم الخط الهندي خاصة ويقدمون في الطب ولهم أسرار بالطب وعلاج فاحش الادواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تجدد من المحاريب وأشباه ذلك ولهم الشطرنج وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة ولهم السيوف القلعية وهم ألعب الناس بها وأحذقهم ضرباً بها ولهم الرقي النافذة في السموم وفي الالوجاع ولهم غناء معجب ولهم السكناكة وهي وتر واحد يمر على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة ولهم السحر والتدخين والدمازكية ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضاً كثيرة ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب في الفلسفة والادب وعندهم أخذ كتاب قليلة ودمنة ولهم رأى ونجدة وليس لاحد من أهل الصين ما لهم ولهم من الرأى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرن والسواك والاحتباء والفرق والخضاب وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق والى نسائهم تضرب الامثال ومن عندهم جاؤا الملوك بالعود الهندي الذي لا يعد له عود ومن عندهم خرج علم الفكر وما اذا يكلم به على السم لم يضر وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة .

هذا أجمل وصف للأمم القديمة في الحضارة وما امتاز به الأبيض والأصفر والأحمر والأسود والفروق لا ترتفع من بين الأجيال الا بالتربية والتهذيب والعلوم الأدبية الصحيحة وتبقى كل أمة في العاقبة على ما لا غنية لها عنه وهو من دواعي أفقها وتاريخها — والرجاء معقود بأن يكون الدور الجديد الذي تدخل فيه العرب اليوم دور التجدد والنشوء الاجتماعي الكبير فننبذ كل ما لا يمس

أصلاً من أصولنا القديمة ونقبل كل جديد فيه النهوض والاعتلاء وأن يعطينا الغرب القدر الذى أخذه من علم أجدادنا نستعين به على قيام أمرنا فان الأيام دول والدهر بالناس قلب حول فسمحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو القابض الباسط المعز المذل .

ارتقاء العرب وانحطاطهم^(١)

بحثت الأمم المتحضرة منذ الزمن الاطول فى الاخلاق وكان لمؤلفى العرب حظ وافر فى هذا الموضوع شأنهم فى أكثر العلوم التى عالجوها ونجحوا فى الخوض فيها . وأكثر العلماء على أن الاخلاق تصلح بالتعليم والتربية ولا سيما ما كان منها مستفاداً بالعادة والتدرب ، وليس من الغريزة فى شيء ، فان من غلبت عليه السويداء أو الحدة مثلاً لا يطمع فى استصلاحه الا بطول الزمن والتوفر على المعالجة والمرء ينتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً . ومن قال ان الخلق طبعى لا يخرج الانسان عن أحكامه فقد قال على رأى ابن مسكويه بابطال قوى التمييز والعقل وبرفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين وبترك الاحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم .

لا جرم أن للأقليم كالحرارة والبرودة والاعتدال والخصب والقلة تأثيراً كبيراً فى الطباع وهى من جملة العوامل فى ارتفاع الامم وتدليها ولكن ما ينقص بتأثير المحيط والبيئة والهواء قد تجبره التربية .

فقد رأينا العرب قاموا من جزيرتهم وهى فى غاية الحرارة وكانوا نصف متمدين فانتالوا على الشرق والشمال ففتحوا فارس والشام ومصر وغيرها ولم يعقهم عائق من اقليمهم وحرارته واوغلوا عليهم . رأيناهم وقد طهر الاسلام من اخلاقهم وهذنبهم وعلمهم الصبر والمضاء والرفق والتسامح والترفع عن الدنيا فنشروا فى البلاد المغلوبة فى سنين قليلة دينهم ولسانهم على صورة لم يكذب سبق لها مثيل فى العالم . ولا نذكر أنه كتب لأمة أن غلبت ونمت بمثل هذه السرعة فقلبت وجه الأرض وأطاعتها العناصر والاديان المختلفة فى آسيا وافريقية وأوربا

(١) محاضرة القيناها بدمشق على جماعة المعلمين والمعلمات فى مدارس الحكومة

فلو كان للحرارة في قيام الأمة أو الفرد كل ما يدعيه بعضهم من التأثيرات لما انشأت العرب مدنها ولا ارتفعت في الارض قروناً كلمتها . قال بنتام صاحب روح الشرائع : الظاهر كل الظهور ان سكان البلاد الحارة أقل قوة ونشاطاً من سكان البلاد الباردة وحاجتهم للعمل أقل لخصب أرضهم وهم أميل الى العشق واللذات تبادرهم مظاهرها

وهذا القول لا يصح على اطلاقه لأن التاريخ قد أتى بأمثلة كثيرة قديماً وحديثاً على نقض هذا الرأي فالعرب في القدماء واليابان في المحدثين أكبر دليل على نقض قول بنتام واذا كان للهواء بعض التأثير في النشاط فان للبرودة تأثيرات أخرى تعوق العقل الانساني عن كل ما ينتظر منه . واذا قيل ان شمالي كل مملكة في أوروبا وأميركا أرقى مدينة من جنوبها في العادة فلذلك عوامل أخرى تاريخية وسياسية فيما نرى واذا كان شمال فرنسا يتقدم جنوبها من حيث الارتقاء وشمال ألمانيا وشمال إيطاليا أرسخ في المدنية من جنوبها وأميركا الشمالية أعلى كعبا في هذا المعنى من أميركا الجنوبية فقد رأينا جنوب أوروبا على عهد الرومان والعرب يتقدم شمالها بل رأينا جنوب بلاد العرب أرقى من شمالها على عهد عز الأمة العربية ، وهذا يرجع الى الحكومة في أغلب الحالات واتخاذ البلد الفلاني مركزاً لنتوفر العناية به وبأهله فتتناول المدينة الأقرب فالأقرب من نقطة دائرتها .

فالقول بأن شعوب البلاد الحارة يحكم عليها اقليمها فلا تقوز بكبير أمر في المجتمع الانساني قول فيه نظر لأن العقل والتهذيب اللذين بهما حياة الممالك وسقوطها ينشآن من البلاد الحارة كما ينشآن من البلاد الباردة .

ولو اقتضى أن يكون سكان كل بلاد باردة راقين في مناحيهم وحضارتهم لاستلزم أن يكون سكان سبيريا أرقى من سكان انكلترا ولو كان أهل كل بلاد حارة منحطين لما شاهدنا المصريين اليوم أصبحوا بالتربية في أربعين سنة يشبهون الراقين من أهل أوروبا وأميركا بل ولترتب على ذلك أن يكون سكان جنوبي أفريقيا وأكثرهم من جالية هولاندة منحطين مثل جيرانهم السودان لغلبة الاقليم على طباعهم بعد بطون وأجيال .

قال فوليه الفيلسوف الفرنساوى : لقد خرج كثير من الشعوب الفاتحة من البلاد الحارة مثل العرب على عهد عمر وعثمان وكذلك الموحدون والمرابطون أما القول بأن البلاد الحارة تولد القسوة على رأى مونتسكيو فقد شوهدت القسوة ماثلة للعيان فى تاريخ عامة بنى الانسان . رأيناها متجلية فى اليونان ورومية وايطاليا واسبانيا وانكلترا وروسيا كما ظهرت فى مصر وأشور وفارس . ولقد سكن الاسكيمو فى بلاد بادرة فكانوا أكثر توحشاً من الذئاب والذئبة التى ملأت صحاريهم . اهـ

بغداد من البلاد الحارة نشأت فيها مدينة عربية مدهشة ولما انتظمت حكومتها وحسنت تربية سكانها أفاضت النور على الارض كلها فعد عصر المأمون فيها من العصور الزاهرة بكل العلوم والصناعات كما عد عصر بركيسى فى أتينة وعصر أغسطس فى رومية . وتعد القسطنطينية من الأقاليم الباردة المعتدلة حاول محمد الفاتح أن ينشئ لها مدينة مع ما كان فيها من أثر لا يستهان به من بقايا عز قديم فلم يوفق الى ذلك فغلبت طباع الترك طباع الاقليم . والترك أمة صربية لم تعهد للترقى الحقيقى عصرأ وكانت قرائح أبنائها محصورة على الدوام فى الحرب فقط فلما كانت الغلبة لهم والفتوح مواتية والعيش رخاء لم يتأدبوا بأدب النفس ولم يدخلوا فى التربية الصحيحة من أبوابها فلذلك لم تستقم لهم حضارة ثابتة وقضى الترك على آخر آثار مدينة البيزنطين يوم حلوا محلهم واستولوا على تراثهم كما قضوا على البقية الباقية من مدينة العرب وغيرهم من الامم ذات المجد المعتر ولم يتيسر لهم وبالله اسف اقامة شيء جديد وليس الذنب فى ذلك كله على طباع رسخت فيهم بل العيب كل العيب على نظام حكومتهم وغلوهم فى تكبير رقعة مملكتهم مع سوء ادارتهم فقد رأينا شعوباً حط منهم جنساً أنشأوا لهم مدينة وأحسنوا لمن انضوا تحت رايته على الاغلب أما الترك فكان رائدهم فى فتوحاتهم الغزو واستجلاب الغنائم ففتحوا بلاداً يستحيل عليهم ان يخضعوها لسلطانهم أبداً لان أهلها أرق منهم مدينة وعنصرأ ولا يرجى أن يكونوا منحطين عنهم أبداً . وفى تاريخ استيلاء الترك على المجريين واليونانيين والرومانيين والصربيين والبغايرين وفى

حالة هذه الامم على عهد الترك وحالتها بعدهم أكبر دليل على أن العبرة في الفتوح بالاخلاق الفاضلة والطباع اللينة واقتباس النافع من أسباب النشوء والارتقاء بالقوس والنشاب والمدافع والحرب

حكى لي أحد قناصل فرنسا على عهد العثمانيين في هذه الحاضرة انه كان قنصلاً في طرابلس الغرب وكان صديقاً لأحد كبار عمال الاتراك هناك وكان هذا لا يفتأ يظعن في العرب ويبدى الاشمئزاز من حالهم . فلما عيل صبر القنصل الفرنسي وكان محباً للعرب يعرف لسانهم وتاريخهم ومدنيتهم فاتح صاحبه ذات يوم بالأمر وسأله عن سر كراهيته للعرب فأجابه العامل التركي اني لا أعرف لذلك سبباً الا ما أراه من انحطاطهم . فقال له : ساحبك الله ان العرب استولوا قروناً على كثير من البلاد التي استوليتم أنتم معاشر الترك عليها كما استولوا على غيرها ، وهاهي آثار مدنيتهم ظاهرة الى اليوم من بلاد اسبانيا الى بلاد الصين وأتم قد حكمتهم قروناً أيضاً فأين مدنيتكم ان لم تكونوا قضيتهم على حضارة من سبقوكم وخربتم العامر منها فاذا انحط العرب فبسياسةكم أنفسم . فدهش العامل التركي ولم ينبس ببنت شفة ورجع عن النيل من العرب .

وعندى ان ذاك العامل لو درس ولو قليلاً لغة العرب وتاريخهم لما بدا منه هذا السخف في اسقاط أمة عظيمة جديرة بالتجلة . وهيئات أن يلبسها غير صورتها الحقيقية بمجرد ثرات يلوكلها وترهان يدلى بها .

ومثل هذا العامل اذا تولى ولاية وكان ذا ارادة قوية يؤخر من تحت يده ولا سيما اذا كانوا عرباً عقوداً من السنين الى الراء ، وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة وقعت لي بالذات مع وال من ولاية دمشق على عهد العثمانيين وكان ثنائراً مثل أكثر عمالهم تظنه لأول وهلة على شيء من العلم والفهم حتى اذا ما درست أخلاقه وجدته قاسياً جاهلاً ليس عنده شفقة ولم تتشبع روحه بالترية الفاضلة وعلمه طلاء كالقصب الذي يعلقه على صدره ليتراءى لك لاول أمره ذهباً ابريزاً . كتب الى قائم مقام مجلون مرة يقول لي إن أهل قضائه عزموا على ان ينشؤا ستين مكتباً أهلياً لتعليم أبنائهم وانهم جمعوا لذلك المال فهو يرجو ان انتخب له ستين معلماً فشرعت أبحث مدة ثلاثة أشهر عن كفاة يليقون للتعليم فلم أجده سوى ثلاثة

عشر ولما عزم على تسفيرهم من الغدا أخذتهم الى الوالى وذكرت له قضيتهم ليطلع على الامر قبل أن يطلعه عليه جواسيسه فكان أول سؤال سألهم اياه هل تعرفون التركية فلما أجابوا بغير الايجاب امتقع لونه والتفت الي قائلًا : وكيف ذلك فقلت له : أرجو أن يتعلموا ومهمتهم الآن تعليم أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والكتابة والحساب والامور الدينية فقط فسكت وانصرفنا . وبعد ساعتين اتتني برقية من قائم مقام عجلون يتوصل الى أن لا أرسل المعلمين بعد ان كان يلح في ارسالهم فعلمت عقيب ذلك ان الوالى أبرق لعامله في جبل عجلون بعد خروجي من عنده يلومه على اعتماده على في انتقاء معلمين لمدارس أهلية . ولما عاتبت الوالى في إحدى العشايا قال لى : وهل أنت وكنت تظن أن الدولة تعطيك سلاحاً تقاثلونها به . ان من سياستنا ان لا نتعلموا . فتألمت نفسى وأقسمت في سرى أن هذه الدولة لا تدوم وكل دولة تعد جهل الامة سلاحها في التحكم برقاب من تحكمه تهلك وإياهم . والعدو العاقل خير من الصديق الجاهل .

رجع الى العرب ومدنيهم — وان أخلاقهم كانت سبباً في علوهم فلما فسدت فسدوا وتراجع سلطانهم فقد ذكر المؤرخون ان العرب أسسوا أيام جاهليتهم ممالك صغرى في العراق والشام وانتشروا خلف شبه جزيرتهم ومنهم من سكن بوادى مصر وملكوا بالارث جميع صحارى أفريقيا منفصلين من أعلى شمال آسيا برمال كالبحار أمنوا بها هجمات الفاتحين وانفردوا بحريتهم وعظمتهم لجلالة أصولهم وشهامتهم وفصاحة لغتهم الباقية على نقائها وتجروا مع من يأتى الى مراكزهم من تجار الجنوب والمشرق واكتسوا معارف من جاورهم من الامة فكانت الامة العربية متغلبة على من جاورها مدة أربعة آلاف سنة

قال سيد يلبسو صاحب تاريخ العرب : وبما انفردت به الامة العربية من جميل الأخلاق والعادات كانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأموها متأهبة للاغارة على مجاورها فقد استولت على مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الأجنبية وانحصرت سلطتها في مملكتها الأصلية فأخذت تحارب الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش ملك الفرس

والاسكندر المقدوني وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان العالم القديم ثم جاء النبي (عليه الصلاة والسلام) فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنهم حتى امتدت سلطنتهم من نهر التاج (المار باسبانيا والبرتغال) الى نهر السكينج (أعظم أنهار الهند) وانتشر نور المعارف والتمدن في المشرق والمغرب وأهل أوروبا اذ ذاك في جهل القرون الوسطى وكانهم نسوا ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان

وقد غنى العباسيون ببغداد والأمويون بقرطبة والفاطيون في القاهرة بنشر العلوم والفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية ولم تبق لهم الا السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر ارجاء ممالكهم وكان لهم من العلوم والصناعات والاكتشافات ما استفاد منه نصارى اسبانيا حين طردوهم منها ، فقد العرب في أواخر القرن الثامن بعد الميلاد حماسهم الحربية وشغفوا بالمعارف فما لبثت قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقّة واصفهان وسمرقند تناظر بغداد في الأخذ بأسباب العلوم والمعارف ، وقرىء ما ترجم الى العربية من كتب اليونان في المدارس الاسلامية وبذل العرب همهم في الاشتغال بجمع ما ابتكرته العقول البشرية من العلوم والفنون واعرفوا في معظم البلاد خصوصا في الاصقاع المسيحية من أوروبا بابتكارات تدل على أنهم أئمة المعارف وقد مارسوا العلوم الصحيحة على غاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر (من سنة ٢٨٨ — ٩٠٧ هـ)

وقال جيون في كلامه على حماية المسلمين للعالم في الشرق وفي الغرب ان ولاية الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الاتفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان من ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة وقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد (المدرسة النظامية) وجعل لها من الريع ليصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصانع

فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الربيع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال أبيه وكان المعلمون ينقدون رواتب وافرة

ذاك رأى سيديليو في العرب وأخلاقهم وما نشأ عنها وهذا رأى جيون وإعجابه بمدنيتهم فاذا وقع لتلك النفوس الأبية وذاك العمران المستمر ، لا جرم ان لانحطاط الشعوب عوامل كثيرة طبيعية وأخلاقية وبهذه العوامل أصيبت الأمة العربية كما أصيبت الأمة الاسبانية . فالعرب والاسبان يتشابهون من وجوه كثيرة . نشأ العرب كالاسبان من شبه جزيرتهم في الجنوب الغربي من أوربا وأولئك نشأوا من شبه جزيرتهم في الجنوب الغربي من آسيا . العرب فتحوا بلاداً كثيرة ومنها البعيد الذي وزعوا قواهم في استصفائه وادارته وكان يفصلهم عنها البحر ففتحوا الأندلس وصقلية بل وجميع الجزر الكبرى في جنوبي أوربا كما توسع الاسبان في فتوحهم على عهد شارل كان فحكوا جزءاً مهماً من أوربا ثم ركبوا البحر فاستعمروا معظم بلاد أميركا الجنوبية . ولو تأملنا عوامل الانحطاط التي فعلت في الاسبان لاثبتنا لها مثالا في مجتمعا فقد ذكر نوليه ان العنصر الاسباني أصيب بما استنزف دمه وصرف من قواه كل طاهر وحى وكثيراً ما أنت عليه أدوار هلكت في خلالها عناصره الحية وطبقاته العالية فان ديوان التفطيش الديني قضى على كل من كان من ايمان ومعتقد خاص وفكر مستقل واردة لا تقف أمام ما فيه المصلحة ووجدان لا يلتوى ولا يتحول وعلى ذلك العهد وبسوء هذه السياسة تداعت كثير من البيوت والأسر ، ومنها ما كان بنوه من أهل الطبقة الممتازة بقرائحها وعقولها فدعا فقدها الى انقراض الصناعة والعلوم والآداب .

ولقد استعملت اسبانيا أقصى الشدة في قصاص من خالف دينها الذي تعتقد به ثم أخذت تختار ممن تعددهم مؤمنين أناساً هم من أذكائها وتقضى عليهم بالتبتل والترهب فلم يولد لهم واندثرت أنسالهم وذرايرهم . وما من زمن جاء على اسبانيا كان فيه السعد والرغد والحياة والنماء على حصة موفورة أكثر من أيام الرومان ومن غيرها على عهد الحضارة العربية في القرون الوسطى فكان اذ ذاك في اسبانيا أربعون مليوناً من النفوس أرباب صنائع وأهل عمل وفي تلك الايام

قامت فيها المدن الكبرى الجميلة التي لم نبرح نعجب بحسن هندستها وندهش
بجرائها وعلى ذاك العهد كانت زراعتها ناجحة وبفضل هندسة العرب كان الماء
يجرى الى كل مكان في فلولات اسبانيا وقفارها

ثم نشبت حروب شارلكان التي جن بها وأهلك من الاسبانيين كل قوى
الشكيمة في سبيلها وكذلك ما تذرعت به اسبانيا من فتوحاتها في أميركا وهي
فتوحات فقد منها المحاربون الاشداء أصحاب العزائم والارادات القوية ثم ان
طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) وطرد العرب أجمع (سنة ١٦٠٩ — ١٦١٠)
قد حرم اسبانيا من شعب عامل نشيط . وفي أساطير الشعب الاسباني ان اسبانيا
طلبت الى الخالق منذ البدء سماء جميلة فنالها وطلبت بحراً جميلاً فزرقته وأثماراً
طيبة ونساء حسناً ففازت بهما ولما طلبت حكومة صالحة رد قولها لانها اذا تم لها
ما تريد تصبح جنة أرضية لا محالة . قلنا وهكذا كان شأن الشعب العربي تفرق في
جنوبي أوروبا وشمال أفريقيا وغيرها وجاءت عليه سبعة قرون وهو السائد في
العالم بسياسته وعلمه وصناعاته وآثاره فكان قوله الفصل وسياسته هي الرشيدة
فلما أخذ بعض ملوكه يحاربون العقل ويعادون الفلسفة بل يقتلون أهلها وجمدوا
بأن أوصدوا باب الاجتهاد في كل شيء وزهدوا في الصنائع النفيسة مدعين أنها
مما يحظره الشرع مع أن الشرع مرئي يليق لكل عصر ومصر . تسربت اليهم الخرافات
فانشأوا يعتقدون بالقضاء والقدر على خلاف ما كان يعتقدوه أهل الصدر الأول
فقل فيهم أرباب البصيرة وضعفت فيهم الأسرار الزكية . ثم ان الحروب والفتن
الاهلية والخارجية التي تذاذعتهم قروناً قد هلك فيها أناس من أهل الطبقة النبيلة
فيهم ، ومنهم من لم يعقب والغنى الذي خلف أولاداً فطروا على الترف والرفاهية
فاسرفوا في أموالهم وقواهم في الموبقات فدثروا ودثرت أنسائهم — ومما عاق
مجتعننا في ميدان الترقى تسلط رجال الدين على جمهور الشعب وعلى أكثر
الحكومات زمناً طويلاً فساقوها الى دركات التأخر بحسب أهوائهم وضعف
مداركهم وعلمهم الناقص ومن رجال الدين والقضاء من ليس لهم من العلم الا
العمائم ومن الأخلاق الا اختراع الطرق السافلة لاخذ الأموال بالباطل . وما برحت

الحكومات التي تسلطت على العرب تقرب عن قصد الجاهل من أهل تلك الطبقة على العالم فيعيب الجاهل بالمقدسات ويستحل المحرمات عن علم وعن غير علم حتى جاء زمن على الأمة كانت فيه جاهلة متعصبة فقيرة ذليلة متسفلة في أخلاقها وعاداتها . ومن عيوب الحكومات التي استولت علينا وكان أثرها ظاهراً في الاخلاق اعتماد الناس على الشفاعات والمصانعات والرشوات حتى كان الملك نفسه اذا لم يهد اليه حامله هدية يريد بها يعزله أو يقتله فكانت الأمة من أرقى رجل يحكم في أرواحها الى أدنى الطبقات فيها بين راش ومرتش وسارق ومسروق فضعفت ملكة الشعم وعزة النفس والمفاداة والأمل وحل مكانها الذل والكسل واليأس ثم ان تلك الحكومات المشؤمة لم تنظم شؤونها ولم يكن لها تسلسل في أفكارها فما كانت تقررده وتعتمد عليه من القوانين زمن الحاكم الفلاني يأتي خلفه فينقضه من أساسه ويبتدع غيره ولذلك لم يقدّم لها عمل يذكر من أعمال العمران لان حكامها يحكمون باذواقهم فهم أبداً ما بين مبرم وناقض يعيب الخلف بما تعب فيه السلف .

ومن جملة الأمور التي عمت بها البلوى فساد نظام البيوت بتعدد الزوجات والاكثر من التسرى على غير داع ففسد كثير من الأسر ونقلت نيات الأولاد وقل تبادل الحب بين أبناء الأب الواحد وانحطت التربية ولم تنتقل ثروة قروناً من الاجداد الى الاحفاد حتى ولو وقفها صاحبها الأول اذ يجيء أناس من بعده يستحلون أكلها وتغيير شرطها . ثم ان التربية الاتكالية تأصلت في الأمة حتى لا ترى فيها على الاكثر الرجال يفكر في الطرق القريبة للأثراء والراحة فان كان ابن ذى نعمة ينتظر منذ وعيه على نفسه أباه أو أمه أو مورثه حتى يموت فيستمتع على هواه بالمال من دون تعب ويطلق لشهواته العنان والغالب أن ابن الموسر لا يعمل ولذلك قلما دامت ثروة هنا ثلاثة بطون وقلما رأينا شبانا يعتمدون على أنفسهم في تحصيل الثروة ويعدون الماهر فيهم من يساعده التوفيق فيتزوج من فتاة عندها مال غير ناظرين الى شروط الزواج بين المتزوجين . ولحفظ الثروة رأى بعض الاسر ان تتساهل في تزويج الاقارب فتزوج شبانها من بناتها حتى ضعف النسل وكثر البله والزمنى والمرضى فيهم وربما عضل كثير من الناس بناتهم

ومنعهن عن الزواج استبقاء للارث في الذكور دون الاناث وكثير من الاسر تحرم الاناث ارثهن وتعاملهن معاملة البهائم ولذلك تعطل جانب عظيم من الامة وهم النساء وظلمهن الرجال أى ظلم فلم يفكروا في تعليمهن حق التفكير ولا في سعادتهن الحقيقية كأن المرأة خلقت بلا نفس كما كانوا يعتقدون في القديم في بعض بلاد الافرنج

ومن دواعي الانحطاط أن الهمة في الفرد عندنا لا تنبعث الى أقصى حدودها فاذا تذوق المتعلم لماظة من العلم يظن من نفسه الغناء في كل علم ويكتفى بما لقنه في صغره فلا يعمد الى البحث والنظر وتنمية معلوماته وايجاد الجديد واختراع المفيد بل يعتقد أن العمل كله في المدرسة فاذا انتهت أيامها فليس له الا الراحة واستثمار ما تعلم خفاء متعلمونا وسطاً في كل شيء . والوسط لا يعمل عملاً في هذا المجتمع البشرى . وكذلك الحال في الصانع والماهر والزراع فأصبحنا أمة لا ترى فينا مالياً متفناً ولا زارعاً من النمط الاول ولا رساماً نابغة ولا نقاشاً ولا كيميائياً ولا ميكانيكياً ولا غير ذلك ممن تشتد حاجة العمران الى تكثير سواد العاملين فيه ولذلك ندر فينا النوابع وانقطع سند هذه العلوم من الامة خفأت عليها قرون وهي تحسب أن العلم كله محصور في بعض العلوم الدينية واللسانية وعندهم ان من روى حديثاً نبوياً أو شارك في مسألة من فروع الفقه أو قرض بيتين من الشعر عد محدثاً أو فقيهاً أو أديباً

ومن بواعث تدلينا في سلم الاجتماع اننا لانحسن العشرة ولا نحسن الاجتماع وذلك لاختلافنا في طرق التربية لأن ابناء الوطن الواحد لا يرمون في تعاليمهم الى مقصد معين فاذا حللنا تحليلًا كيمياوياً دقيقاً نجد الامراء المتعلمين منا لا بأس بهم بالنسبة للمجموع هنا بل بالنسبة للمتعلمين من الغربيين ولكن اذا جئت تنظر فينا مجتمعين تكبر علينا أربع تكبيرات ولذلك جاء كل عمل يقدم بعناية الجماعة عندنا منحطاً أكثر من عمل الفرد على خلاف سنة الامم . من أجل هذا لم تنشأ لنا حتى اليوم جمعيات ولا مجامع ولا مجالس ولا شركات تجمع من القليل كثيراً وتضم متفرق القوى ومشتت القرائح والافكار فتحيي المعالم وتقيّد البلاد في اقتصادياتها ومعنوياتها . هذا القول في الرجال فما الحال بربات المجال

اللاتى ضاهين فى الغرب الرجل فى علمه وعمله الا قليلا وانحططن عندنا أى انحطاط
بعد ان كان منهن عندنا المفسرة والمحدثة والراوية والشاعرة والادبية والطبية
والواعظة والخطيبة المؤثرة

قال صاحب روح الشرائع : اذا أردت أن تعرف ملكات أمة من الامم
مادية كانت أو أدبية فارجم الى إدارة التربية فيها وتوزيع الخدم ونشر المكافأة
وتوقيع العقوبات تعلم ماتريد . وقال انظر الى بلد كثرت فيها المظالم وامتد بقاؤها
وارتفعت ثقة المالك فيما ملكت يمينها ترى الزارع تسقط همته وتنحل قوته وان
استمر على الزراعة فلنكيلا لا يموت جوعا كانما يطلب من الكسل مسليا على آلامه
ومصائبه وكذلك تسقط الصناعة لسقوط الامل فى النجاح وينبت الشوك فى
أجود الاراضى

وقال فوليه : لنشوء الشعوب على ما أبانه الدروينيون طريقان : الجماعة
والانتخاب الطبيعى فالشعب فى الحاله الاولى خاضع لتأثيرات متشابهة من المحيط
والاقليم وفى الحاله الثانية يعيش فيه بعض أفراد فقط يكون نظامهم الخاص عونا
لهم على التمثل والاحتذاء فيعيشون ويتركون لهم أنسالا وهكذا يتحول المجتمع
باطراح بعض الاسرات وبعض العناصر الخاصة ويعمل الانتخاب الطبيعى على
كل سرعة أكثر من المحيط والاقليم ولكن يهلك فى سبيله كثير من الخلق فلا
يتوهم متوهم أن شعباً ينتقل بمجموعه من الشباب إلى سن الرشد ثم إلى
الشيخوخة بل ان الشعب يرتقى بواسطة الانتخاب الطبيعى وتحكيم الصفات التى
تحمى الافراد ومتى ظهر الهرم والسقوط تصبح أحسن مقوماته وقد دأمتها عناصر
أصغر منها ونزلت منازلها

قال : وعوامل الانتخاب الطبيعى التى تجرى بين الشعوب المختلفة هى الحرب
والاستعمار ونمو السكان والمنافسة فى التفوق الاقتصادى والسياسى والعلمى .
أما عوامل الانتخاب الطبيعى التى تفعل فى نفس الامة فهى الحرب والخدمة
العسكرية وتنقل الافراد فى ربوع الوطن الواحد ونحو سكان المدن وعقوبة
المجرمين ومعاونة الفقراء والمحاويج وتشريد المسيئين للدين أو لغيره واضطهادهم
وانتشار الشغاعات السياسية كأن لا يحمى صاحب الشأن غير جماعته وجملة حاشيته

والنفور السياسى والفردية والشرائع والعادات والافكار الاجتماعية والدينية بشأن الزواج واجتماع الجنسين الذكر والانثى وارادة النهوض . هذه أهم العوامل التى تنمى أمة أو تقرضها وتحسن سيرها أو تسيئته

وبعد فان الناظر فى ماضى الامة العربية وحاضرها يدهش للفروق الكثيرة المحسوسة وعند ما يشاهد جرائم النهضة وعوامل الحياة تنشر وتذب فى جسمها اليوم يعتقد بان الحاضر سيكون على مثال الغابر أو أجمل منه وعلى طريق نافع والامل معقود فى هذا الشأن على المعلم والمعلمة فقد قيل : لولا المربي ما عرفت ربي .

لاجرم أن الغيور على قوم يفادى بكل نفيس ليحمل اليهم الخير والسكامل من سعى الى تكميل غيره وان كان ناقصاً والجاهل فى ذمة العالم له عليه حق التعليم والاشراك فى النعمة .

أنتم أطباء أرواح . والارواح تفضل الاشباح . فهل عهد طبيب لا يعالج حتى عدوه بما يصلحه وينفعه فى صحته دع صديقه وأخاه وابنه وابنته . بأيديكم إصلاح هذه النفوس الضعيفة المنحطة فى معارفها وتربيتها وترقية مستوى البيوت وثقوا أن فتى واحداً وفتاة واحدة اذا تعلم وتهذب يدخل على أسرة كبيرة النظام وفى الجملة يلقنها الشعور بالحاجة الى التعلم أى أنه يسوق آله الى أول مراتب الكمال وكل هذا العمل الجليل هو عمل المعلم والمعلمة لا محالة .

وربما كان واجب المعلمة فى هذا الشأن أعظم من واجب المعلم لان مجموع النساء عندنا فى الغاية من الانحطاط ولا عبرة بالقليلات المتعاملات مهين وأكثر ما تعلمن حتى الآن القشور ولم ينفذن فيه الى الباب على ما يجب . وأى وطنى لا يبكى لجهل المرأة المسامة علة العلل فى انحطاط المجتمع الاسلامى ومن منا ينكر تأثير المرأة فى كل نهضة . وهذه المرأة المصرية والمرأة التركية قد أتيا فى الحوادث الاخيرة مادل على أن القوم فى القاهرة والاسنانة أخذوا بخط وافر من العناية بالمرأة وما أحرانا فى الشام أن نحتذى مثاهم وهذا قريب الحصول اذا قام المعلم والمعلمة بواجبهما حق القيام والسلام

اعداء الاصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق افراد
لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصدا
والناس في غفلة عما يراد بهم خجلهم عن سبيل الحق رقاد

ما خلا عصر من عصور الاسلام من اعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون كل مالا يألفون . فقد لقي المعتزلة والفلاسفة والمتكلمون والنظار من اعداء العقل كل شدة في القرون الراقية ، وكان عقل الملوك هو الذى يحول على الاغلب بين الجامدين وبين ما يشتهون ، من الاعتداء على القائمين بتأييد سنن العقل ، والناصرين بأقوالهم وأفعالهم مذاهب السنة والنقل . ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض في سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار ، يجدهم جروا على غير ما يعتقدون وطلبوا بمقاومة المصلحين ارضاء العامة ونيل الحظوة لديهم ، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلطين ، وقليل جداً من كان الاخلاص رائدهم في اعمالهم وما آتيهم .

يقاوم في العادة الخامل الذابة لتكون له مكانة كمكانته ، ويتحامل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه في صناعته ، ومثيله في فضيلته ، ويطعن الجامد الممخرق على من يجب أن يعبد الله بعقل ، ويبحث في عالم الكون والفساد بروية ، ليتظاهر بأنه بعيد الغور شديد الغيرة ، وما أقواله الارياء ، وما افعاله الا وساوس وأهواء .

لقي المصلحون من الهاويل في الأمة العربية أكثر مما لقيه أمثالهم في الأمم الاخرى فيما نحسب ، وخصوصاً بعد القرن السابع وقد توزعت بلاد الاسلام ملوك الطوائف ، وكان أكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لا يهتمهم الارضاء المشعبذين بالدين ، ليحولوا العامة اليهم فيقوى بهم ضعفهم ، ويستعينون بهم على تكبير رقعة ممالكهم ، وبسط ظل سلطانهم على النفوس فيستمتعون بشهواتهم وبذخهم ورفاهيتهم .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري ديناه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب
ساعد على الانتقام من العالمين أناس من أرباب المذاهب سرت احكامهم
بقوة أربابها ، فكان الحكم يجري على المبتدعة وأرباب الاهواء يزعمهم بموجب
قوانين لهم سنوها ، ومنها المذهب المالكي الذي كان بحكم قاضيه يقتل أكبر عالم
في الأمة — والقتل يعد من التعزير في مذهب مالك — خالف المألوف من العادات
التي اعتقدتها من أصل الدين ، وعد الخروج عنها كفراً والحاداً ، وما أسهلهم
وأسهل صدور الحكم بهما من اعداء الاصلاح المباحين
سالت الدماء كلاً ودية في بغداد للقتل بين الحنابلة والشافعية مرات ، وسالت
دماء كثير من الخاصة في كل قرن وعذبوا وأودوا بواسطة أرباب المظاهر من
المتنطعين ، ممن شق عليهم ان يروا كلمة الاصلاح الديني والديوي تفعل في الارواح
فعلها المطلوب ، فحدثهم أنفسهم ان يتساوى المفكرون وغيرهم في نظر العامة
ان لم يتمكنوا من اسقاطهم ، ليخلو لهم الجو . ويقتصر في تقبيل الايدي ، وطلب
الدعوات ، والتماس البركات ، عليهم دون سائر المنتسبين للعلم والشرعة .
ومن غريب اسرار الله في خلقه ان جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين
دثروا ودثرت اسمائهم ، وظلت اسماء من عادوهم وآذوهم تشهد بالجهل المركب
على اعداء العقل السليم والتعاليم الصحيحة
أين اعداء الغزالي والسهروردي والآمدى وابن جرير وابن تيمية وابن رشد؟
ذهبوا كلهم كأمس الدابر ، وبقيت الامة تردد على وجه الدهر أسماء هؤلاء
المصلحين العالمين ، وتتناقل ما خطته أناملهم من سطور الاصلاح « فأما الزبد
فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »
لا يذكر التاريخ اليوم إلا افراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرجيع ، والنقل
الصحيح ، اشتهروا لاحتكاكهم بالحكام وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر
ديوي أرادوه وحطام الدنيا تطالت نفوسهم لان يقتنوه كأن يكون أحدهم
قاضياً يخاف أن يشركه ذاك العالم المستنير في قضائه ، أو شيخ عامة حديثه نفسه
بالاستئثار بهذا المظهر الذي يعتقده جماع فضائل الدنيا والاخرة .

أمثال هؤلاء المخترقين المنافقين ، بدلوا المعالم والتعاليم مرضاة لارباب
الرئاسات والزعامات ، وسجلوا على أنفسهم العار للبت فيما لم ينزل به سلطان ،
وجازوا حد الشرع وهم يتظاهرون بأنهم المؤتمنون عليه ، ومنهم ومن أعمالهم
يشكوا ويئن كما تشكو المدنية والانسانية

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

ان من يتظاهرون بالدين وباطنهم منه برىء أضر على الدين ممن يعقونه . ومن
يدعو في الغالب الى الاصلاح ويتخذ التقية أمام العامة درعه ، يكون أقرب الى
الانحلال والاضلال ، منه الى من لا يطنطنون بأنهم دعاة الدين والقائمون عليه ،
وعنهم يؤخذ ، وبهديهم يهتدى . وشر الناس من يسرون غير ما يظهررون ويتلونون
باللون الذي يرون أنه أوفق لهم لجر مغم ، واحراز مظهر

ان هؤلاء العامة ممن يتطاولون الى مقامات العلماء ، هم أفسد من العامة لأن
شيطانهم يتكلم ، وشيطان هؤلاء أخرس لا يبدي ولا يعيد . هم سوس الفساد
في كيان هذا المجتمع ، يدعون معرفة كل شيء وهم لم يتقنوا شيئاً الا ما سولته
لهم أنفسهم ، وحدثهم به شياطينهم . شعارهم التدليس والتظاهر بالغيرة على المحارم
ولو بحثت عن اعمالهم لرأيتهم أول المجترئين على انتهاك حرمت الأديان والشرائع
وهم يقدسونها بلسانهم ، والعابثين بحدودها ، وهم يدعون الناس الى الوقوف
عند مراسيمها ، والسعاية بالمصلحين ليفتوا في اعضادهم ، ويفسدوا عليهم أمرهم ،
ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره أبالسة التدجيل والتضليل من علماء سوء

لو كان اعداء المصلحين على شيء من التدوين الحقيقي ، لكانوا اشتغلوا منذ
القديم بارشاد العامة وانكار المنكرات الماثلة في كل عصر أمامهم مثول الشمس
في السماء وأد الضحى . ولكن المتدلسة أمثالهم يتعاملون من قشور العلوم ما
يستعينون به على الاخذ من اموال الحكومات والاغنياء والتفريز بالعامه ،
ولذلك كان أكثر اشتغال من سمو أنفسهم بالعلماء في كل عصر بالفقه ، لانه سلم
الى ما يتطاولون اليه من الجاه والمال وحسن الحال

قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء : « اعلم ان الخلافة بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم تولاهم الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله

تعالى فقهاء في أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الاقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام . اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء ، والى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين ومواظب على سمع علماء السلف فكانوا اذا طولبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء الى الالحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأي أهل تلك الاعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم واعراضهم عليهم فاشترأبوا لطلب العلم . توصلاً الى نيل العز ، ودرك الجاه ، من قبل الولاة فاكبوا على علم الفتاوى ، وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبيين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين ، أذلة لإلأمن وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله

وقد كان أكثر الاقبال في تلك الاعصار على الفتاوى والاقضية ، لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمرء ، من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام ، فاكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات ، في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله ، والنضال عن السنة ، ووقع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين ، وتقلد أحكام المسلمين ، اشفافاً على خلق الله ونصيحة لهم ، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور ، من لم يستصوب الخوض في الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة ، والخصومات الفاشية ، المفضية

الى اوراق الدماء ، وتخريب البلاد ، ومالت نفسه الى المناظرة في الفقه ، وبيان
الاولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص فترك
الناس الكلام وفنون العلم ، واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة
على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان واحمد رحمهم الله تعالى
وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ،
وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها
أنواع المجادلات والتصنيفات ، وهم مستمررون الى الآن ، وليس ندرى ما الذى
يحدث الله فيما بعدنا من الاعصار . فهذا هو الباعث على الالكاب على الخلافات
والمناظرات لا غير . ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع امام آخر من
الائمة أو علم آخر من العلوم لما لوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بان
ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب الى رب العالمين اه
هذا موجز من تاريخ المتحذلقين فى الدين ، وصف به حجة الاسلام طغمتهم
فى عصره ، وعصره الخامس من أفضل عصور النور فى الاسلام ، فما بالك بامثالهم
بعده وقد حدثت من الاحداث ما كان الجهل سداها ولحمتها ، والنيل من المخلصين
مبدأها وغايتها ، وما أصدق ما قاله حجة الاسلام أيضاً فى هؤلاء الطغام أعداء
الاسلام والسلام فى أول كتابه التفرقة بين الاسلام والزندقة قال : « وأنى
تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم
دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، وارادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم
خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وسواسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط
الحيلة لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء
الايمان ، أباهام إلهى ، ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها ، أم بكال
علمى وانما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها ، هيئات هيئات
هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى ، أو ينال بالهويناء ، فاشتغل أنت
بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك . (وأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد
الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو
أعلم بمن اهتدى)

وبعد فان في هذا العصر فئات في هذا الشرق ممن استعاذ منهم المصلحون في كل عصر ، ولكنهم وبالأأسف حثالة الخثالة ، ومثال الجبال والضلالة ، ان قلت لهم تعاليم فلان ، قالوا لك أونسيت تعاليم فلان فـهـى أحسن وأسلم ، وان حرصتهم على علم كذا قالوا علم كذا أفضل ، وان شرحت لهم أساليب المدنية ، قالوا اننا لم نؤت الا من قبل ديننا فتركناه فصارت حالنا الى ماترى ، وان حدثتهم بطرق الارتقاء قالوا انه يدعونا الى الانحلال كانه ما كفانا مانحن فيه من البدع ، وان دعوتهم الى الاخذ بما صح من أحكام الحلال والحرام ، أوردوا لك من أقوال شيوخهم ، وأقاصيص عجائزهم ، وأحلام حالميههم ، ومثبطات المتزهدين والمتورعين منهم ، ماتسأل الله معه السلامة ، وان حببت اليهم المعروف ، قالوا لك ما أكثر المنكرات .

حملة أهواء ، لاحملة شريعة ، وجعاب لغو وحشو ، لاقوام على ما يقوم العقل ، سلاحهم المغالطة ، ومجنهم السفسطة ، رأس ما لهم الثروة ، وربهم الغلبة بالباطل ، والمهارة في المهارة على غير طائل ، مناهم من دينهم وديناهم ، ان تفخم القبحهم ، وتملاً كراشهم وعبابهم ، وترفع بين الغاغة منازلهم ، ويزيدوا بسطة في الجسم لافي العقل ، وتكتب لهم في العالمين شهرة بعيدة ، بدون ان يعدوا لها أداة من أدواتها ، ويصرفوا في التحصيل ساعة من أوقاتهم ، دأبهم الخط من الفضلاء ، وهجيراهم النيل من العظماء

يرقعون ويلفقون ، ويراوغون ويماحكون ، واكسون ما كسون ، مدلسون موالسون ، يعادون مايجهلون ، يجمدون على ما يعرفون ، يصانعون ولا يتلطفون ، يفتنون وهم لا يعلمون ، يجتهدون ويخطئون ، يهرفون بما لا يعرفون ، يعدون علوم البشر ذرة من معارفهم ، ويحتقرون ما لا تبلغه مداركهم ، كأن فضل الله محصور فيهم ، وكأن من لا يجري على هواهم محروم من السعادة هالك ، أولئك هم ثعالب الانس يأكلون لحم اخوانهم بالغيبة والوشاية ، ويمشون بين الناس بالنميمة والسعاية ، أسود ولكن على نحت أثلاث مخالفهم ، نمور ولكن لا يحسنون الثوب .
الا على من لا يصلحون خدمة لهم . يفترون ويغرون يغوون ولا يخافون ، يخربون ولا يدرون ، يخرفون ولا يستحون ، يمخرقون ولا ينتهون ، فهم أضر على

الناس من قطاع السابلة ، وأفسد في جسم المجتمع من الادواء القتالة ، يرجعون بالامة القهقري ، والدواعي تهيب بها الى التقدم ، ويزينون لها الفناء والعدم ، والمصلحة قاضية بالتماسك والتعاون ، ويملون لها الذل والصفار ، وركوب متن العار . والحالة تدعوا الى تحكيم العقل ، في كل قول وعمل

فاللهم ثبت أقدام المصلحين ، وهي لهم من الكفاية ما يقوون به على رد غارات أعداء الامة في إصلاحها ، فقد كفهاها جهلا وضلة بما كسبت أيدي المنافقين وما جلبوا عليها من الخزي المبين (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً)

تعليم اللغات^(١)

ان تعليم اللغات على الطريقة التي جري عليها الغربيون واقتبسها المشاركة قد تكون نظرية أكثر مما هي عملية ، فيطول أمرها ويصعب تناولها ، ولطالما رأينا من يترجم أشعار سكسبير الانكليزي أو بوالو الافرنسي ، اذا رمته الاقدار في شوارع لندن أو باريز لا يطاوعه لسانه أن يلفظ كلمات يهتدى بها لوجه طريقه ذلك لان الطريقة في تعلمه تلك اللغة الاجنبية هي عين الطريقة التي يستخدمها الاوربيون في تعليم الصم البكم بل عين النهج الذي ينهجه المغاربة في تعليم إحدى اللغات الميثة من لاتينية ويونانية ، أو إحدى اللغات الحية من انكليزية وفرنسية وإيطالية وغيرها . اذ يكون تدريس النحو والصرف والترجمة من الكتب هو العدة في اتقان اللغات ويسهل على المعلم أن يدرس تلميذه على هذا النحو وربما أخذ في تعليمه لغة وهو لا يحسن أن يؤلف بين جملتين صحيحتين في تلك اللغة التي عهد اليه تدريسها ، ولم يوجد التلفظ بها فكان شغله الشاغل تعليم تلامذته .

(١) نشرت في العدد الاول من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٤ و ١٩٠٦

أصول التصريف والاعراب والترجمة على حين قد ثبت أن الدارس قد يستظهر قواعد لغة وقوانينها ولا يبرع في اللغة نفسها . وأسقم المذاهب في تعلم لغة أن يتكلم المرأ بلغته في خلال تعلمه لغة غيرها .

من أجل هذا قضت الحال أن تكون دراسة قواعد الاعراب والتصريف بعد معرفة اللغة معرفة عملية لا نظرية ، ولا تفيد الترجمة والنقل الا اذا توفرت للطالب بادىء بدء معرفة الاساليب في اللغة الغريبة . فعلى من رام أن يتكلم لغة ويكتب فيها أن يفكر في تلك اللغة ويكون شعوره شعور أهلها فيها . لا أن يصيغ تراجم وينقل جملا . فتستدعى الافكار والافعال للحال ما يحتاج اليه الطالب من الالفاظ التي يعبر بها عنها ، فتصير اللغة التي يتعلمها لغة ثانية له . ولا تكون الترجمة من لغته أو اليها اذا دعت الحال حرفا بحرف بل على طريقة تنقل بها الصورة الى التعبير عنها . وقاما يسمع المتعلم في معظم المدارس اليوم صدى اللغة التي يتعلمها ويقتضى له أن يربى عليها أذنه وذاكرته ما أمكن . وما أشبه المدرس وهو يشرح للدارس دروسه بلغته الاصلية إلا بأمر تود أن تعلم طفلها وهو ألكن تمام قواعد الفعل الماضي وتصريف الافعال الشاذة بدلا من أن تعنى بتعليمه أن يحسن تلفظ الكلمات الاولى التي يحاول التللفظ بها .

وما فتى تعلم اللغات يختلف باختلاف الاجتهاد في كل قوم ومعظمه دائر في الغرب منذ ثلاثين سنة على طريقتين وهما إما أن يقيم المتعلم زمناً في بلد اللغة التي يريد تعلمها أو أن يكون أهل الطفل في سعة من العيش فيتخذون له مؤدباً أو مؤدبة يعلمه اللغة بالعمل بين ظهرائى أهله وأسرته . وقد ابتدع الاستاذ برليتز الامريكاني طريقة سهلة لتعليم اللغات جرى عليها بعضهم في أميركا وأوربا فأسفرت عن نجاح أكيد . وطريقته عبارة عن نظر عقلى وعلم عملى . وبلفظ آخر نظر في المحسوسات لا المجردات اذ اللغة عبارة عن أصوات محكية لا اشارات مكتوبة . والتعليم سماعى أولاً ثم نظرى . ولا يعتمد في طريقته الى الترجمة ولا الى النقل ولا يستخدم فيها الطالب معجماً ولا يستصحب كتاب قواعد بل يتعلم الانسان القوانين بعد كمال المعرفة العملية على نحو ما يتعلم الطفل لغة أبيه وأمه . وليس لتعلم القواعد نفع حقيقى الا متى عرف المرأ اللغة . فالقواعد

تشرح اللغة شرحاً علمياً فتبحث عن علل يتأتى الاستغناء عنها بادية بدء وقبلما تنفع في تلقين اللغة شأن المصور لا يحتاج الى اتقان العلوم الطبيعية والكيمائية ليصنع صوراً شمسية بديهة .

ماللغة في الحقيقة الا صورة محكية من الحياة فاقتضى في تعلمها أن يسير الانسان من نفس الحياة لا أن يعتمد الى اشكال من ، التعبير لا تمس ولا تتحرك وقبلما تتلاءم الالفاظ وصور الافكار بين لغة وأخرى كل التلاءم فالبدء بالترجمة الحرفية من لغة الى لغة يراود تعلمها إضاعة للوقت واتعاب للذهن على غير طائل ومن العسر المعتذر أن يرسم المرء صورتين رسماً خفيفاً على حين لا يضع احدهما على الاخرى . وكذلك الحال في اللغات فقد امتنع أن يحكم وضع لغتين احدهما على الاخرى .

واللغة بموجب هذه الاصول الجديدة عبارة عن محادثة دائمة باللغة الغريبة . فكل ما يقع نظر التلميذ عليه مباشرة يكون له منه مادة درس وموضوع تعلم . وذلك بتربية الاذن والحواس الصوتية . فيلقن الاستاذ تلميذه حسن اللفظ وسرعة التركيب فيدرس الافعال الاولى بالاعمال والحركات : يقوم ويذهب الى اللوح الاسود فيكتب أو يفتح الباب ويرفع الكتاب ويضعه ثم تعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية فيسهل عليه تأليف جمل صغيرة يزايد كل يوم عددها بسرعة فيكون التلميذ بهذه الطريقة في تأليف الجملة ما يلزمه من أوليات القواعد والروابط - والامم باسرها تتعلم لغاتها بالعمل أولاً ثم بالنظر . فيتعلم المتعلم ما تمس حاجته اليه الى أن يكتب بدون غلط أو يتعلم التلميذ أولاً معاني الكلمات الغريبة ثم يلقي التمرينات العديدة بعد معرفة اللغة معرفة فطرية فمعرفة عقلية . ومن اللازم للالازب الاعتياد على الصور قبل القواعد . ثم يبدأ المعلم بالسؤال فيجيبه المتعلم ولا يزالان ينتقلان من البسيط الى المركب ومن شرح المفردات الى تفسير العبارات ويكون كل ذلك باللغة التي يراود اتقانها

وللفظ في هذه الطريقة المقام الاعلى . ولم يكن يعنى بتقديمه من قبل . والاساتذة الذين يحسنون التلفظ بلغة ما هم ممن تعلموها من الاسلوب الطبيعي في طفوليتهم أو أتقنوها بمقامهم في البلاد التي تتكلم فيها تلك اللغة . وجود التلفظ هو روح

اللغة على التحقيق . ولا تعد العبارة شيئاً مهما بلغت من الضبط متى قبح اللفظ وتجلت اللهجة الاعجمية فيه عياناً . ومن المؤكد ان التناظر لا يكاد يصلح اذا فسد لأول مرة . وصعب على الانسان ما لم يعود . فالطريقة المشار اليها مغايرة لطريقة الترجمة المألوفة في الاغلب . اذ كل معرفة يرشد اليها المتعلم على هذه الصورة لا تحسب ناقصة الجهاز مشوشة الاسلوب . وقلم تجد الالفاظ في لغة ما يقابلها في لغة ثانية ولكل لغة اصطلاحاتها الخاصة بها ليس للترجمة مهما اتقنت أن تنقلها على أصلها إذ التصورات التي تمثلها لغة لا تتحد مع تصورات تمثلها ألفاظ لغة أخرى اتحاداً ذاتياً معنى ومبنى . كتب أحد الغرباء الى فنلون العالم الفرنسي المشهور (أن لي منك يا مولاي أمعاء والد) يريد أن يقول « قلب والد » وقال الغونس الثاني عشر ملك أسبانيا وقد جاء قصره في يوم احتفال ! « أتود أن تتعب معي نحو النافذة » يعني بذلك أن تقترب نحو النافذة .

ولو تعلم ذاك الكاتب وهذا الملك أن يتكلموا بالفرنسية على طريقة الاستاذ برليتز اذاً لنجيا من هذا الغلط الشائن وكان شأنهما في سهولة التعبير وجودة التصوير شأن أولئك التجار والسوقة ممن ينزلون بلاداً لا يحسنون لغتها فهاهو الا قليل حتى يمرنوا على تكلمها زمناً فيحسنونها ولا احسان من تعلموها على دكات المدارس وهم يقبلون المعاجم ويتأبطون كتب نحوها وصرفها وبيانها ناقلين ناسخين مستظهري ناسين . وطريقة برليتز هذه أن يستعمل أولاً اللغة المتعلمة خاصة وأن يتابع التصور في اللغة الغريبة مباشرة بدون وساطة اللغة الاصلية وأن تعلم أسماء الاعيان بقوة الحس وتعلم اسماء المعاني بتتابع التصور أو يدرس النحو بالامثلة والشوهد

هذا مذهب الاستاذ برليتز في اتقان ملكة اللغات وقد انتقل من نيويورك الى باريز عام ١٨٨٩ فأسست في هذه العاصمة أول مدرسة على تلك الطريقة وانتقل هذا المذهب في تلك السنة الى انكلترا وألمانيا فأسست في كل من لندن وبريس مدارس لهذا الغرض وما برحت مدارسها تتكاثر في الاصقاع الاوربية حتى كانت في بدء هذه السنة ٣٤٣ مدرسة في أوروبا وحدها وكلها أسفرت عن ارتقاء واقتصاد في الوقت والمال . وطريقة القائمين بهذا الامر أن يكون لكل

تلميذ استاذ الخاص به فيأخذ هذا يعلم تلميذه ما يقع نظره عليه في قاعة الدرس من منضدة وكرسى وكتاب وباب ونافذة يلفظها بلفظها ولا يزال يكررها المتعلم حتى يتقن التلفظ فاذا نفذت المسميات لدى الاستاذ في الغرفة يعتمد الى صور سهلة واضحة رسمت على صفحات مجموعة فها هو الا أن يتعلم التلميذ أسماء الاشياء الواقعة تحت بصره مع الالوان التي يمتاز بها كل منها ثم ينتقل الى صفات الجسم وأفعال الحركات والاعداد . فاذا أنجز درس الاشياء يشرع المعلم في اختيار جمل يكون التلميذ قد عرف أكثر مفرداتها . فلا يمضي ثلاثون درساً الا وقد عرف التلميذ الافعال الشائعة في الاستعمال والمفردات التي تدخل غالباً في الاحاديث العامة ويتمكن في ستين درساً من بيان فكره أصبح بيان في كل حالة علاقة بمجرى الحياة الاجتماعية العادى . ويحسن في اختيار المعلمين أن يكونوا ممن لا يعلمون لغة المتعلم .

ومما يضحك ما وقع لولد أحد كبار المنشئين الفرنسيين وكان يدرس الالمانية على طريقه برليتز قيل انه لما بلغ به المعلم الى تمييز الفعل المعتدى من اللازم لم يفهم التلميذ المراد من المعتدى واللازم وأخذ معلمه يشرحه له بالاشارة تارة والتشبيه طوراً فلم يفلح وكان تلميذه معه كأنه طمطم لا يفهم ولا يفهم . وأبى الاستاذ على تلميذه أن يفسر له شيئاً بلغته مع الحاحه عليه في ذلك وراح الطفل الى دار أبيه وقد بلغ منه الغيظ وأنشأ يقلب كتاب نحوه يفتش عن الاشكال فاهتدى بنفسه الى حله وشكا أمره الى والده فقال له : أى بنى لقد احسن الاستاذ أن أبى عليك شرح ما يريد تعليمك بلغتك ولو قاله لك لعزب عن ذهنك وأصبح لديك بعد زمن نسياناً منسياً . أما الآن فاني على ثقة من انك لا تنس التفرقة بين الفعل اللازم والمعتدى ولو بعد مئة سنة .

قال الكاتب الذي عربنا عنه أكثر هذا المبحث وقد كان أرباب الافكار والحصافة يجمعون على أن اللغات الحية لا تعلم كاللغات الميتة بل انه لا يد في الاولى من المرات على التكلم بها من أول وهلة وانه مامن لغة مهما تراءى من صعوبتها على المتعلمين لاول الامر سواء كانت اللغة الروسية أو الهندية أو العربية أو الصينية الا ويتيسر اتقانها على طريقة برليتز في مدة تختلف باختلاف ذكاء المتعلم وصعوبة اللغة والله أعلم .

اللغات الأفرنجية^(١)

لهجت بعض الألسن في منافع اللغات الأوروبية ومضارها في مجتمعتنا عقيب ان قام صاحب المؤيد في الجمعية العمومية في الربيع الماضي وناقش ناظر معارف مصر في وجوب تعليم العلوم في المدارس الأميرية باللغة العربية فكان من أثر ذلك الحوار ان بطلت دروس الاشياء وجعل تدريس علم تقويم البلدان باللغة العربية في المدارس الابتدائية كما شرع في تعليم الرياضيات في السنين الأولى من المدارس الثانوية باللغة العربية أيضاً .

فقام بعض الناس متخذين من هذا الاصلاح حجة على قلة غناء اللغات الأفرنجية زاعمين ان في العربية ما يكفيها من العلوم . على حين كان مادعا اليه الداعون من التدريس بالعربية لمقصد آخر أريد به إحياء لغة البلاد اذا درست العلوم بها وإشراب نفوس المتعلمين حب أممهم ليعم النفع مما يتعلمون لا للتنفير من تعلم اللغات الأفرنجية التي لا يمتري عاقلان في وجوب تعلمها على فريق كبير من الناس ولا سيما من تصدوا للنفع والتأليف والكتابة على نحو ما يفعل علماء اليابان فيتعلمون الانكليزية كما يتعلمون لغتهم الاصلية .

نقول تعلم اللغات الأجنبية وما أحرانا ان نقول اتقانها لان المبادئ البسيطة منها قد لا تفيد المتعلم الا توهمه انه أصبح من العارفين . فان تعود علماؤنا قديماً من نصف فقيه ونصف صوفي ونصف كاتب ونصف شاعر فما أحرانا ان نتعود من ناشيء يتعلم طرفاً من لغة لا يستفيد منها ولا يفيد . وليس معنى هذا انه يتحتم وجوباً على كل متعلم للغة أجنبية أن يكون فيها مؤلفاً خطيباً كاتباً مترجماً فهذا مناف لسنة الكون ولكن المطلوب ان يعرف الناس في تعلم احدى اللغات الأوروبية القدر الذى يؤهلهم للانتفاع بها في التجارة وأعمال الادارة والقضاء والعلم .

(١) نشرت في جريدة المؤيد (١٣٢٥ — ١٩٠٧)

ولا مشاحة في أن أكثر من تعلموا اللغات الأجنبية من أبنائنا لم يتقنوها
وان حذقوها فلا يكون لهم من المعرفة بلغتهم ما يستطيعون معه ان يعبروا به
عن أفكارهم وينقلوا اليها ما يعوزها من علوم الغرب وحضارته . بيد أن اللغة وان
أتقنها صاحبها لا تنفعه وينتفع بها النفع المطلوب الا اذا أضاف اليها علماً أو فناً
أخصى فيه واللغة آلة لا غاية وان كان من يتقن لغة أوروبية لا يتسنى له ذلك الا
بعد ان ينظر نظرة اجمالية في الفنون المتعارفة . أما ما يقوله بعض من لا يساعد
الوقت على تعلم لغة أجنبية من أنه ليس في النقل من اللغات الغربية كبير أمر وأن
العالم يستفيد من الوجود أكثر من استفادته مما دونه كبار أرباب العقول من أمم
الحضارة فهذا من الآراء التي يقصد بها الاعتذار عن التقصير ومن جهل شيئاً
عاداه . اذ من الثابت المقرر أننا مهما تأملنا في صحيفة الكون لانستطيع أن
ندرس فيه نظام الاجتماع ولا تقنين القوانين ولا الطب ولا الهندسة ولا الفلك
والطبيعة والكيمياء وفنون الأدب والتاريخ ورسم الأرض وغيرها من الفروع
الكثيرة التي لا أسماء لها في العربية اذ لم يكن للعرب عهد بها ولا تتم سعادة
مجتمع اليوم الا بتعلمها واتقانها . ومن قال بان أسلافنا من العرب قد أجالوا في
هذه العلوم قد اح أنظارهم ووضعوا فيها ما وضعوا من رسائلهم وأسفارهم فهو
على صواب وخطأ . وذلك ان أجدادنا قاموا بالواجب من خدمة هذه العلوم في
عصر تماسكهم وانبساط ظل دولتهم الا أنه انقطعت سلسلتها بعد القرن السادس
الى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وهي القرون التي كانت فيها الأمة العربية
في غفلة والامم الغربية في انتباه فأخذ الغرب عن الشرق ما عنده من حضارة وزاد
عليها أضعافاً ولا يزال يركض طرف عقله في مضمار البحث والاستقراء ويعانى من
ضروب العلم مانحن فيه معه أجهل من تلميذ مبتدئ بالتهجئة بالنسبة الى عالم
يكتب الكتاب ويقصد القصيد

فالأمة العربية اذا أرادت النهوض العقلي والعلمي يجب عليها ان تأخذ من
كل علم بالسهم الأوفر ولا يتم لها ذلك الا بالنقل عن الامم الغربية وهذا لا يتأتى
الا بعد أن تخرج مدارسنا الالوف من الطلبة المتعلمين على الاساليب الحديثة
لينشأ لنا منهم عشرات يكونون لنا عوناً على ما ينقصنا من أسباب نهضتنا وما

تشدد حاجتنا اليه . ويكاد ذلك الى الآن يعد مفقوداً بيننا اللهم الا طائفة من أسفار نقلها بعض المولعين بالعربية وما يتيسر للمجلات تعريبه من حين الى آخر من علوم الغرب . وكله دون حد الكفاية بكثير .

قال ابن رشد في فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال : اذا تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس الفقهي فبين انه ان كان لم يتقدم أحد من قبلنا بفحص عن القياس العقلي وأنواعه انه يجب علينا أن نبتدىء بالفحص عنه وأن يستعين في ذلك المتقدم بالمتأخر حتى تكمل المعرفة فانه عسيراً وغير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه وابتداء على جميع ما يحتاج اليه من معرفة أنواع القياس الفقهي بل معرفة القياس العقلي أخرى بذلك وأن كان غير ناقد لخص عن ذلك فبين انه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة فان آراءه التي تصح بها التزكية ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونه آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة وأعني بغير المشارك من نظر في هذه الاشياء من القدمات قبل ملة الاسلام

« واذا كان الامر هكذا وكان كل ما يحتاج اليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عنه القدمات أتم فحص فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك فان كان كله صواباً قبلناه منهم وان كان فيه ما ليس بصواب نهينا عليه فاذا فرغنا من هذا الجنس من النظر وحصلت عندنا الآلات التي بها يقدر على الاعتبار في الموجودات ودلالة الصنعة فيها فان من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع فقد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية وبين أيضاً أن هذا الغرض انما يتم لنا في الموجودات بتداول الفحص عنها واحداً بعد واحد وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم على مثال ما عرض في علوم التعاليم فانه لو فرضنا صناعة الهندسة في وقتنا هذا معدومة وكذلك صناعة علم الهيئة ورام إنسان واحد من تلقاء نفسه أن يدرك مقادير الاجرام السماوية وأشكالها وأبعاد بعضها عن بعض لما أمكنه ذلك مثل أن يعرف

قدر الشمس من الارض وغير ذلك من مقادير الكواكب ولو كان أذكى الناس طبعاً الا بوحى أو شىء يشبه الوحى . بل لو قيل ان الشمس أعظم من الارض بنحو ١٥٠ ضعفاً أو ستين يعد هذا القول جنونا من قائله .

وهذا شىء قد قام عليه البرهان فى علم الهيئة قياماً لا يشك فيه من هو من أصحاب هذا العلم » قال وهذا أمر بين بنفسه ليس فى الصنائع العلمية فقط وفى العملية فانه ليس منها صناعة يقدر أن ينشئها واحد بعينه فكيف بصناعة الصنائع وهى الحكمة . واذا كان هذا فقد يجب علينا ان لقينا لمن تقدمنا من الامم السالفة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نهينا عليه وحذرنا منه وعذرناهم :

هذا ما قاله الفيلسوف الاسلامى فى عصر كان العرب أساتذة العلم فى العالم وقوله كما رأيت غاية الحكمة وما الغربيون الآن بالنسبة اليها الا قدماء متقدمون ويهديهم يجب علينا أن نهتدى فى العلوم . وهذا لا يقدر فيما خلفه لنا أسلافنا من آثارهم أيام استبحار عمرانهم واتساع سلطانهم . أما اللغات الحديثة التى تشتد حاجتنا الى الاخذ منها فهى الانكليزية والافرنسية والالمانية . وفى كل لغة من هذه اللغات من أنواع المعارف ما لا يكاد يحلم به من لا يعرف لغاتهم . وليت شعرى اذا كان بعض أهل الغرب والعلوم قد بلغت عندهم ما علمت من الارتقاء الغريب يتعلمون لغات الشرق لينقلوا منها الى لغاتهم بعض الكتب التاريخية والادبية والاخلاقية والشرعية ويستعينوا بها على قراءة آثاره وما زبر على أحجاره أسنانا نحن أحرىء بان نتعلم لغاتهم على مقرنا الثابت ونقتبس منهم ما يعوزنا من علوم البشر ؟

الا أن ما تفاخر به من علم أسلافنا وحضارتهم العظيمة انما قام باحيائهم مدنية من قبلهم من الامم كالروم والفرس وغيرهم ولم يتأت لهم ذلك الا بترجمة علومهم والزيادة عليها وتحسينها فكانوا بذلك أحسن صلة وعائد بين أمم الحضارة السالفة والامم الاوروبية الخالفة . فحضارة الاسلام إذا أنصفنا قامت بفضل

التراجمة والنقلة من اليعاقبة والاسرائيليين والمسلمين لا يابدى علماء الكلام مثلاً .
وقد كان على يد هؤلاء التشيت وعلى يد أولئك الجمع . وشتان بين المفرق
والجمع . وليس معنى هذا انكار فضل من تمحضوا لخدمة الشريعة واللغة في
القرون الاولى للاسلام وما في الناظرين من يقول بان الخليل والمجاهد والغزالي
والمأوردى هم في حسن بلائهم في خدمة هذه الأمة دون أبى الريحان البيروني
ونصير الدين الطوسي وحنين بن اسحق وثابت بن قرة . وما كان قط أهمل
الفريق الاول يحتقرون علم الفريق الثانى ولا العكس لما وقر في النفوس من أن
المجتمع لا يقوم على أمتن الدعائم الا اذا اتقن كل ذى علم عمله

قال الجاحظ : الانسان وان أضيف الى الكمال وعرف بالبلاغة وناقش العلماء
فانه لا يمكن أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمد بكل
نظار عظيم واستعان بكل بحاث واع وكل نقاب في البلاد ودارسة للكتب . وما
أشك ان عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ما ليس
عند الوزراء ، وعند الانبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند
الانبياء ، وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق في بلوغه أعجز ، وانما علم الله
كل طبقة من خلقه بقدر احتمال فطرهم ومقدار مصلحتهم .

وقال الراغب الاصفهاني في الذريعة : العلم طريق الله تعالى ذو منازل قد وكل
الله تعالى بكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو
ضمن منازل معرفة اللغة التي عليها بنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع
الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من
الوسائط ومعرفة أصول البراهين والادلة ولهذا قال (هم درجات عند الله) وقال
(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وكل واحد من هؤلاء
الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته في حق ما هو بصدد فهو في جهاد يستوجب
من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر علمه لكن قلما ينفك كل منزل منها من
شرب في ذاته ، وشربه في مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه ، بصير
لاجل تنفيق سلطته ، صارفاً عن المنزل الذى فوق منزلته من العلم ، وعائباً له ،
فلهذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلم دون الغاية طائفاً لما فوقه ،

وصارفاً عن رame فان قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل أو ينفر الناس فعل اه .

وان ما في عبارة هذين الخبرين ليذكر بما يجب للمجتمع من مراعاة مبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي وقد قال أحد كبار شيوخ العلم من المعاصرين إن مما يؤخر الشرق في العلم عدم مراعاة أبنائه لمبدأ التعاون والتكافل الاجتماعي ففيه من يحسن التفصيل كما فيه من يحسن الخياطة وليس بينهما من يضم أعمال الفئة الاولى للثانية لينتفع بها المجتمع حق الانتفاع ومثل ذلك بمن نقلوا لنا العلوم على عهد الحضارة الاسلامية الاولى فقال : انه كان يندر أن يجمع المترجم بين معرفة العلم الذي يترجمه واللغتين اللتين ينقل منهما واليهما فمن كان يجيد السريانية لا يحسن العربية الا انه كان يترجم ما يفهم بعبارة ركيكة أو عامية فيجىء المصححون يصلحون العبارة على الاسلوب العربي فتجىء معرباتهم من أصح ما يكون لفظاً ومعنى وعلى هذا درج ديوان الترجمة في الدولة العلوية الخديوية في القرن الثالث عشر في مصر فكان المترجم غير المصحح ولذلك جاء فيما نقلوه روح العربية أكثر من المصنفات التي نقلت الى العربية حتى في هذا القرن قال وهكذا عرفت دولة العباسيين في بغداد والامويين في الاندلس والاسرة العلوية في القاهرة أن تجمع بين من يحسن التفصيل ويحسن الخياطة فكان من هذا الجمع ما كان كما حسن النفع من كل ما تصرف تحت اسم علم .

الحافظة والحفاظ^(١)

أى نعمة ينالها المرء أعظم من أن تعى ذاكرته كل ما تريد وعيه ، وتدخره الى ساعة الحاجة للانتفاع به . الحافظة من العوامل المؤثرة في ترقية الافراد والجماعات ، وبدونها يصعب الوصول الى إدراك الحقائق وتمحيصها ، لانا اذا لم نستعن في كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ، ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله ، كننا أشبه بمن يريد أن يبني له كل يوم بناء ، وظلت العلوم

(١) نشرت في المجلد الثالث من مجلة المقتبس (١٩٠٩)

والصناعات والآداب في طفولتها الاولى تجرى على نظام مضطرب ، اذ يكون كل امرىء وما يختار

والذاكرة أو الحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرات وقعت فهي بذلك كما قال مونتين الفيلسوف (١٥٩٢ م) وعاء العلم وصوان الحكمة . وقال لاروشفو كولد الكاتب (١٦٨٠) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما شكا قط أحد من عقله . قال آخر : ان الذكاء بدون حافظة أشبه بفربال لا يكاد يمسك ما تضعه فيه . وقال أحدهم . الحافظة واسطة من وسائل الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ أن يقلد شيئاً وينسج على منواله . وقال كورنيل الشاعر : يجب لمن يتعمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة . وهذا مثل قولهم اذا كنت كذوباً فكن ذكوراً . وقال بيكته الأديب السويسرى (١٨٧٥) : لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس في العصور الأولى أكثر مما صار لها في القرون اللاحقة . كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هي التي تتولى خاصة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التي قلما نحفل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه

اختلف مذهب الفلاسفة فيما اذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها ، أو فيما اذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة ، ومعظم الحكماء وعلماء النفس على ان الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الانسان ، ولا يكاد أحد يدرك كيف تعي الحافظة الارقام والأعداد ، وتحفظ العبارات والمفردات . وتحكم اللغات واللهجات وتردد الالحان والاصوات . ويقول علماء النفس . إن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن متوقفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ وحسن تغذية هذه الأنسجة . والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة في ضعف الحافظة لانهما ملازمان لضعف تغذية الأنسجة . ولذلك قالوا إن درجة الحافظة لا تختلف بحسب الاشخاص بل تختلف في الشخص الواحد في أدوار مختلفة من حياته ، واذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التي تضر بها فان هناك أيضاً أحوالاً أقل منها تزيدها ضعفاً الى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة ، فان

جميع هذه العوارض على الجسم يغيرها تغييراً محسوساً

ولتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين الطبيعى الرومانى أن رجلاً نسى حتى رسائله بعد أن أصيب بشجة في رأسه . وزعم البابا كليمان السادس أن حافظته قويت قوة عجيبة عقب أن أصيب برضة شديدة في دماغه . وكيفما كانت الحال فللمتمرين يد طولى في تخصيص الحافظة بشيء معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهى من اللوازم لهم في صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكر صور الاشخاص وليس البشر كلهم سواء في الحفظ والاستظهار ، فمنهم من يحفظون الاشكال الهندسية وهم الذين خلقوا رياضيين بالفطرة ومنهم من يرزقون حافظة قوية في الانعام كالْموسيقين وغيرهم في غير ذلك . ومن الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة ومن الاطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهِرونها في الحال ويتلونها على مسامعك لأول مرة . وتذكر الالفاظ خاصة يمتاز بها الاولاد في العادة أكثر من الكبار في السن ممن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكير فيحفظون الكلمات التى يسمعونها على أيسر وجه بدون أن يفهموها . والسبب في سهولة الحفظ عليهم فقدان قوة التفكير فيهم ، وعند ما يبدأ التفكير في معظم الناس تضعف الحافظة فيهم وقد تزول من بعضهم . والحافظة الشفاهية اذا كانت هى وحدها فى الانسان لا تكون له سبيلا الى التفكير ومن فقد الاولى فلا يأسف لحاله لانه يستطيع بقوة التفكير ان يأتي بالجميل من الافكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر العوائق عن جودة التصور

وبعد فان للحافظة شأنًا عظيمًا فى ترقية الفكر الانسانى وبدونها يكون كل شيء عقيماً لا ثمرة له ، لأنها واسطة لبقاء الافكار التى صدرت ، وأحسن ذريعة للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذى تسير عليه كما أن جوهرها لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ما عرف من أمرها أنها تقوى بالانتباه والتمرن كما تقدم ، وان الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة ان لم نقل يقتلها ذكر التاريخ كثيرين من أرباب الحافظة النادرة فمنهم فى القديم ميتريداتس الكبير ملك شمالى غربى آسيا الصغرى (١٢٣ — ٦٣ ق . م) فقد كان يحكم على

اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب امام كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه . وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وتيمو ستقلس وسيبيون الاسياوى والامبراطور اديان ويقال ان مزية الحافظة هيأت لاونون الرومانى تولى الملك . وتعلم تيمو ستقلس اللغة الفارسية فى سنة

وكان ليس اللغوى الأديب البلجيكى (١٦٠٦) يحفظ تاريخ تاسيت المؤرخ اللاتينى بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال انه يرضى أن يقف جلاد ويده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فاذا أخل بحرف واحد يضرب عنقه

وكان لرينودى بون حافظة سعيدة يذكر جميع الابيات اللاتينية واليونانية التى قرأها فى صباه ويتلو صفحات برمتها من ديوان هو ميروس وان كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة . وكان هودج دونو الفقيه المشهور فى القرن السادس يستظهر القوانين المعروفة فى عصره بالحرف الواحد . وحفظ يوسف سكاليجه الأديب (١٦٠٩) الالياذة والأوديسية فى واحد وعشرين يوماً . ومن أطف مايروى فى باب الحافظة ان أحد الفلاحين فى فرنسا جاء الى باريز يقصد صاحباً قديماً له كان استلف منه خمسة فرسكات منذ خمس عشرة سنة وطلب اليه ان ينقده ماله قبله فتركه صاحبه وعاد فدفع اليه ليرة واحدة وخمسة فرسكات وقال له : هذا يا صاح فقد كنت نلت وأنا فى المدرسة ليرة جائزة على حافظتى فرأيتك أحد منى ذاكرة وانك أحق بهذه الجائزة منى

ليس فى الدنيا خير محض ، فقد اخترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم نفعها أهل الارض كافة ، ولكن ماعتمت ان نتج عنها بعض شر اذا أصبح الناس يعتمدون على الكتب فى جماع علومهم وآدابهم ، بعد ان كان جل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم . والغالب ان الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان فى الاسلام على أشده قبل تدوين الكتب وتأليف الرسائل والمصنفات ، ولما بلغ بعض الأئمة تدوين الكتب اسفوا وعدوه من دواعى تقهقر العلم ، وانقطاع سند الرواية ، وما زالت الحال ترتقى بعض الشئ فى بعض الاعوام ثم يزهى فى الحفظ حتى انتشرت الطباعة فى بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية ، فأسمى الناس يستندون

الى السطور بدل الصدور ، والقراطيس والاسفار بدل الحفظ والاستظهار .
فضعفت بهذا الضعف الحافظة ، وان قويت المفكرة ، وقلت الرواية ، وان لم
تقل الدراية .

انقطع سند الحفظ الا في بعض مالا يسع الامة جهله من القرآن وعلومه
فأخذ بعضهم يقتاتون على من عرفوا قديماً بسعة محفوظهم ، ويزيفون ولكن بدون
برهان مارواه طائفة الراوين من أنباء الأذكياء الحافظين . ولو صح الاعتماد على
القاء الكلام على عواهنه في هذا الباب اذا لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل
خبر حتى من مجيء الرسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن وما اليها . وما
أشبهه من يكذب بادىء الرأى بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء . وشتان
بين الخرب والمعمّر ، والمتلف والمخلف ، والمفسد والمصلح .

ما عنيت أمة بتدوين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسلمين بدينهم
ولغتهم فكان من أمر حفظة الكتاب العزيز ما اشتهر في كل مصر وعصر ولا يزال
في البلاد اثر من آثار تلك العناية . اما الأحاديث فقد عنوا بها قديماً وجمعوا
أشتاتها ، وبينوا اصالحها من موضوعها . وضعيفها من قوتها ، مما يدركه كل من كان له
الملم بالمرجعة ونظر في كتب القوم . لم يكن العلم في القرون الأولى للاسلام بالارث
ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقاق وكد القرائح يسير
على قوانين بقيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألوفاً من
الأحاديث بأسانيدھا فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروى الحديث
بأسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له الا مجرد رواية ويطلقون اسم المحدث
على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم المتن والاسناد جميعاً والفقهاء على من
يعرف المتن ولا يعرف الاسناد والحافظ على من يعرف الاسناد ولا يعرف المتن
والراوى على من يعرف المتن ولا يعرف الاسناد . وكان السلف يطلقون المحدث
والحافظ بمعنى . والمحدث من عرف الاسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل
وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتن وسمع الكتب الستة ومسند أحمد
ابن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضم الى هذا القدر الف جزء عن الاجزاء

الحديث، هذا أقل درجاته، فاذا سمع ماذكر وكتب الطباقي ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين . وكان السلف يستمعون فيقرؤن فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعملون قال بعضهم

ان الذي يروي ولكنه يجهل مايروي وما يكتب

كصخرة تنبع أمواها تسقى الاراضى وهى لا تشرب

سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزى عن حد الحفظ الذي اذا انتهى اليه الرجل جاز له أن يطلق عليه الحافظ قال : يرجع الى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال : أقل مايكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له : هذا عزيز في هذا الزمان أدركت أنت أحداً كذلك فقال : ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي ثم قال : وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة . قال فتح الدين بن سيد الناس وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل في الحديث رواية ودراية وجمع رواة واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه فان توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقاته أكثر مما يجمله منها فهذا هو الحافظ وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لانعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين الف حديث من الاملاء فذلك بحسب أزمنتهم .

وقال أبو ذرعة الرازي : كان أحمد بن حنبل يحفظ الف الف حديث قيل له وما يدريك قال : ذاكرته فاخذت عليه الابواب . وقال البخاري . احفظ مائة الف حديث صحيح ومائتي الف حديث غير صحيح . وقال الحاكم في المدخل كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة الف حديث : سمعت أبا عبد الله بن وارة يقول كنت عند اسحق بن ابراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق : سمعت احمد بن حنبل يقول صح من الحديث سبعمائة الف وكسر وهذا الفتى يعنى أبا زرعة قد حفظ سبعمائة الف حديث قال البيهقي : أراد ماصح من الاحاديث وأقاويل الصحابة والتابعين وقال غيره : سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق

أن أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث هل يحنت قال لا . ثم قال احفظ مائة ألف حديث كما يحفظ الانسان سورة قل هو الله أحد وفي المذاكرة ثلثمائة ألف حديث وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازي الحافظ : كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة ألف حديث وكان يحفظ مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن : وكان اسحق بن راهويه يملئ سبعين ألف حديث حفظاً وأسند بن عدى عن بن شبرمة عن الشعبي قال : ما كتبت سواداً في بيضاء الى يومى هذا ولا حدثنى رجل بحديث قط إلا حفظته فحدثت بهذا الحديث اسحق بن راهوية فقال : تعجب من هذا قلت نعم قال ، ما كنت لأسمع شيئاً الا حفظته وكأني أنظر الى سبعين ألف حديث أو قال أكثر من سبعين ألف حديث في كتي . وأسند عن أبي داود الخفاف قال سمعت اسحق بن راهوية يقول : كأني أنظر الى مائة ألف حديث في كتي وثلاثين ألفاً أسردها : وأسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن خالد قال . سمعت اسحق بن راهوية يقول : أعرف مكان مائة ألف حديث كأني أنظر اليها وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي وأحفظ أربعة آلاف ضرورة وقال عبد الله ابن احمد بن حنبل قال أبي لداود بن عمرو الضبي وأنا أسمع : كان يحدثكم اسماعيل ابن عباس هذه الاحاديث بحفظه قال : نعم ما رأيت معه كتاباً قط قال له : لقد كان حافظاً كم كان يحفظ قال شيئاً كثيراً قال : أ كان يحفظ عشرة آلاف قال عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبي هذا كان مثل وكيع . وقال يزيد بن هرون أحفظ خمسة وعشرين ألف حديث وقال الآجري : كان عبد الله بن معاذ العنبري يحفظ عشرة آلاف حديث

قال السبكي لم تر عيناي أحفظ من أبي الحجاج المزى وأبي عبد الله الذهبي والوالد وغالب ظني ان المزى يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي يقول ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ من الامام أبي الحجاج المزى وبلغني عنه انه قال ما رأيت أحفظ من أربعة : ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزى فالاول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالانساب والثالث بالمتون والرابع باسماء الرجال . وكان الدمياطي يقول : ما رأى شيخنا أحفظ من زكي

الدين عبد العظيم وما رأى الزكي أحفظ من أبي الحسن علي بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغني ولا رأى عبد الغني أحفظ من أبي موسى المديني إلا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى بن عساكر والمديني أحفظ من أبي القاسم اسماعيل بن محمد التيمي ولا رأى اسماعيل أحفظ من أبي الفاضل محمد بن طاهر المقدسي ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ماكول ولا رأى ابن ماكول أحفظ من أبي بكر الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبي نعيم وأبو نعيم ما رأى أخف من الدارقطني وأبي عبد الله بن منده ومعهم الحاكم وكان ابن منده يقول ، ما رأيت أحفظ من أبي اسحق بن حمزة الا صبهاني وقال بن حمزة : ما رأيت أحفظ من أبي جعفر احمد بن يحيى بن زهير الشقيري وقال ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي وأما الدارقطني فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأى أحفظ من الدارقطني بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبي علي النيسابوري ومن أبي بكر ابن الجعابي وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس بن عقدة ولا رأى أبو علي النيسابوري مثل النسائي ولا رأى النسائي مثل اسحق ابن راهوية ولا رأى أبو زرعة مثل أبي بكر بن أبي شيبة وما رأى أبو علي النيسابوري مثل بن خزيمة وما رأى بن خزيمة مثل أبي عبد الله البخاري ولا رأى البخاري فيما ذكر مثل علي بن المديني أولا رأى أيضاً أبو زرعة والبخاري وأبو حاتم وأبو داود مثل احمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهوية ولا رأى احمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أيوب السخيتاني نعم ولا رأى مالك مثل الزهري ولا رأى الزهري مثل أبي المسيب ولا رأى بن المسيب أحفظ من أبي هريرة ولا رأى أيوب مثل بن سيرين ولا رأى مثل أبي هريرة نعم ولا رأى الثوري مثل منصور ولا رأى منصور مثل ابراهيم ولا رأى ابراهيم مثل علقمة كابن مسعود

هذا كان مبلغ القوم في حفظ الحديث وروايته على كثرة المتشابه فيه وتوفر الاسانيد والرواة بحيث لو ارد أحد لهذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لا ختار استظهار اللغة الصينية واستسهلها أكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هذه العلوم الجليلة الا قليلا

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون من أعيان حفاظ الاسلام قال ابن عساکر انه أحفظ شيخ لقيه وشيوخ بن عساکر زهاء الف ومائتي شيخ وكان الفقيه أعلم الدين القمني يحفظ ما سمعه من مرة واحدة . وكان الشافعي من أحفظ أهل دهره قضى عشرين سنة في تعلم الادب والتاريخ وقال ما أردت بهذا الا الاستعانة على الفقه : ويروى أنه نظر في كتاب لابي حنيفة فما كان من الغد الا أن غدا راويا له مستظراً إياه بحملته . وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله في اتساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى إملائها من محفوظه . وقيل ان أحمد بن حنبل امام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث . قال سعيد بن جبیر من أعلام التابعين قرأت القرآن في ركعة في البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك كان سعيد بن جبیر يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا أبداً ولا عجب وهو الذي قال فيه احمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيد ابن جبیر وما على وجه الارض أحد إلا وهو مفتقر الى علمه

وكان على الرازي يقول من فهم هذا الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وان المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون أحداً القضاء حتى يمتحنوه فان حفظه قلده القضاء ولا أمره بالحفظ . وذكر صاحب نصح الطيب انه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القائل منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة وكان بديع الزمان الهمداني يحفظ خمسين بيتاً بسمع واحد ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر في كتاب نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها الى آخرها وينظر في الاربعة والخمسة الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذه عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها . وكان أبو ريش أحمد بن ابراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين ألف بيت شعر الا أن أبا محمد المافروخي بذ عليه لانهما اجتمعا أول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة

فيأتي أبو رياش على عيونها فيقول أبو محمد الا أن تهذهبا من أولها الى آخرها
فينشد معه ويتناشدا الى آخرها ثم أتى أبو محمد بعدة قصائد لم يتمكن أبو رياش
ان يأتي بها الى آخرها وفعل ذلك في أكثر من مائة قصيدة حدثني بذلك من
حضر ذلك المجلس معها — قاله ياقوت في معجم الادباء .

وكان الحفظ في كل فن شائعاً بين أهل الأدب وطلاب العلم على اختلاف
ضروبه عند العرب على نحو ما يتضح من تصفح سير رجالهم ولو لم يكن استناد
المؤلفين في الاغلب الا على ما في لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف أحدهم
عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن تصفحها

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم وأغاني حداثهم كما يؤخذ
من اجتماعاتهم في سوق عكاظ ومربد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة
لأن أمراء الكلام لم ينبغوا الا في الاسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب
العزيز . ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ
أحدنا لهذا العهد الايات القليلة غير متعلم ولا متردد . خذ مثلاً لذلك حماد
الرواية المتوفى سنة ١٥٥ فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروي المئات من
القصائد للجاهليين والمخضمين كما يروي فاتحة الكتاب ويذكر أشعار العرب وأيامهم
وأنسابهم ولغاتهم كأنه يروي قصة وكان ملوك بني أمية يرجعون اليه في هذا المعنى
ويحلونه منزلة عالية من التجارة والاكرام روى الوليد بن يزيد الاموي قال له يوماً
وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقبل لك الراوية فقال : بأني أروى
لكل شاعر تعرفه يأمر المؤمنين أو سمعت به ثم أروى لاكثر منهم ممن تعرف
انك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدني أحد شعر أقديماً ولا محدثاً الا ميزت القديم
من المحدث فقال : ثم فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال : كثير ولكني أنشدك
على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر
الجاهلية دون شعر الاسلام قال : سأمتحنك في هذا ثم أمره بالانشاد فأنشدني
ضجر الوليد ثم وكل به من استخلفه ان يصدقه عنه ويستوفي عليه فأنشده
ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم
ونوادره كثيرة

وكان الأصمعي المتوفى سنة ٢١٨ أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً في أخبار العرب وملحهم وغرائبهم قال عمر بن شبة سمعت الاصمعي يقول . احفظ ستة عشر ألف أرجوزة وقال اسحق الموصلي : لم أر الاصمعي يدعى شيئاً من العلم فيكون أعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر ابن المنى فقال له كم كتابك في الخيل فقال الاصمعي مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال خمسون مجلدة فقال له : قم الى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منه وسمه فقال . لست بيطاراً وإنما هذا شيء أخذته عن العرب فقال للاصمعي قم وافعل أنت ذلك فقام الاصمعي وأمسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يده عليه وأشد ما قالت العرب فيه الى ان فرغ منه قال أبو حمدون الطيب ابن اسماعيل شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف مجلد عن أبي عمر بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير المجلد عشر ورقات

قال أبو نواس . ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال . قلت ولذلك جاء شعر أبي نواس أحسن شعر المولدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضل شعره على شعر العرب العرباء قال اسماعيل بن نوبخت ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا فيه الا قطراً فيه جزار مشتمل على غريب ونحو

قال ابو العباس احمد بن يحيى نعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه وستيجتان من حبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب وكان أبو عمرو عالماً بأيام العرب جامعاً لأشعارها ويروي عن عمرو بن أبي عمرو قال لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيناً وثمانين قبيلة وكان كلياً عمل منها قبيلة وأخرجها الى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى انه أخذ عن المفضل الضبي دواوين العرب وسممها منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبي عمرو الشيباني من العلم والسماع أضعاف ما كان مع أبي عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم قال سلمة . أملى القراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده

نسخة الا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار
الكتابين خمسين ورقة . ويقال ان الاصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل
يحفظ نصف اللغة وكان أبو فيد يحفظ الثلثين وكان ابو مالك يحفظ اللغة كلها
وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب والنوادر . وكان ابن الاعرابي أحفظ
الناس للغات والايام والانساب وقال ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب : قال لي ابن
الاعرابي . أملت قبل أن تجميعني يا أحمد حمل حمل وقال ثعلب : انتهى علم اللغة
والحفظ الي ابن الاعرابي وقال ثعلب سمعت ابن الاعرابي يقول في كلمة رواها
الاصمعي سمعت من الف اعرابي خلاف ما قاله الاصمعي .

وكان قتادة عالماً نحريراً وأجمع الناس لاشعار العرب وأنسابهم قال ابو عبيدة
ما كنا نفقد كل يوم راكباً من ناحية بنى أمية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن
خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس . وكان ابن الكلبي النسابة واسع
الرواية ومن أعلم الناس بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال : حفظت ما لم يحفظه
أحد ونسيت ما لم ينسه أحد كان لي عم يهايتني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً
وحلفت ان لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام وتصانيفه يزيد
على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفي سنة ٢٠٤

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم
وأشعارهم قال الجاحظ لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي اعلم بجميع العلوم
منه ومع انه كان يلحن ويخطئ اذا قرأ القرآن واذا انشد بيتاً لا يقيم وزنه واذا
تحدث او قرأ لحن اعتماداً منه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يري رأي
الخوارج ولذلك كثر الطاعنون في نسبه ومشربه ومذهبه وتوفي سنه ٢٠٩

كان أبو المحاسن الرؤباني المتوفي سنة ٥٠٢ من رؤوس الافاضل في أيامه
يقول : لو احترقت كتب الشافعي لأملتيا من خاطري . وقال ابو بكر النحوي لما
قدم الحسن بن سهل العراق قال : أحب ان أجمع قوماً من أهل الادب فأحضر أبا
عبيدة والاصمعي ونصر بن علي الجهضمي وحضرت معهم وأفضنا مرة في ذكر
الحفاظ فذكرنا الزهري وقتادة ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها

الامير في ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ما قرأ كتاباً قط فاحتاج الى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء نخرج عنه فالتفت الاصمعي وقال انما يريدني بهذا القول أيها الامير والامر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب اليك قد نظر الامير فيما نظر فيه من الرقاع - وكان نظر قبل أن يلتفت اليهم في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة - وأنا أعيد ما فيها وما وقع به الامير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع . قال الاصمعي سألت صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف وأربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن علي فقال أيها الرجل ابق على نفسك من العين فكف الاصمعي .

ومالي وتعداد الاسماء على هذا النحو فكتب القوم طائفة بها وانما يكفي منها التمثيل والقليل يغني . ولقائل ان هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً في القرنين الاولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتى في نقض هذا الا وقوع أمثال أمثاله في كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتحرزوا في اثباته . ولقد كان الغرب في هذه المزية كالشرق اذ قد حذا المغاربة في حضارتهم وعلومهم حذو المشاركة . فقد كان ابن عبدون أحد فحول شعراء الاندلس وكتابها مستكثراً من الحفظ قال الوزير أبو بكر بن زهر : بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل شيخ أمرته أن يكتب لى كتاب الاغانى فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : أين الأصل الذى كتبت عنه لا قابل معك به قال : ما أتيت به معنى فبينما أنا معه في ذلك اذ دخل رجل بذ الهيمئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاها من غير اتقان وقال لى : يا بنى استأذن لى على الوزير أبى مروان فقلت له : هو ناظم . هذا بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف حملتنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكنت عنى ساعة وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما فقلت له : ما سؤالك عنه فقال : أحب أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف اسماء الكتب فقلت : هو كتاب الاغانى فقال : الى أين بلغ الكاتب منه قلت : بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على

قالبه فقال : وما لكاتبك لا يكتب قلت : طلبت منه الاصل الذي يكتب منه لاعارض به هذه الأوراق فقال : لم أجد به معنى فقال : يا بني خذ كراسيك وعارض قلت : بماذا وأين الاصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال يا بني أمسك على قال : فامسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واوآ ولا وفاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتقاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه ويقول : يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف الا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفني وأبي يقول : هبه ماعرفك فما عذره في حسن الأدب . ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدايته التي يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع اليه أبداً فلما انفصل قلت لابي : من هذا الرجل الذي عظمت هذا التعظيم قال لي : اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغاني — رواها المراكشي

وروى أيضاً قصة تشبهها قال انه لزم أبا جعفر الحميري آخر من انتهى اليه علم الآداب بالاندلس المتوفى سنة ٦١٠ نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بادب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجع مستحسن منه أدرك جلة من مشايخ الاندلس فاخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت على أو أكثرها فالقيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحزرت في نقلها فقال لي . ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل اصح من الاصل الذي كتبت منه فقلت له : أين هو فقال لي عن يمينك فعلمت انه يريد الشيخ فقلت : ما على يميني الا الاستاذ فقال لي : هو أصلي وباملائه كتبت كان يملى على من حفظه فجعلت

اتعجب فسمع الاستاذ حديثنا فالتفت اليينا وقال : فيما انما فاخبره ولده الخبر فلما رأى تعجبي قال : بعيد أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً ومن نظر فيما أثر عن الاندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكنت قرأت في الاستقصاء ان من جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد الغرب في البحر باسطوله الغريق وكان مؤلفاً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء والعلماء والاشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير اربعمائة فائدة

وقيل إن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن المرحل من أئمة الشافعية حفظ المفصل في مائة يوم ويوم والمقامات الحريية في خمسين يوماً وديوان المتنبي على ما قيل في جمعة واحدة

وذكر المقرئ عن حكايات أهل الاندلس في الحفظ ان الاديب الواحد حافظ اشبيلية بل الاندلس في عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية للاشعار والاخبار قال ابن سعيد : اخبرني من أتقن به انه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء اشبيلية جري ذكر حفظه وكان ذلك من أول الليل فقال لهم ان شئتم تخبروني أجبتكم فقالوا له بسم الله انا نريد أن نحدث عن تحقيق فقال اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من أول الليل الى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلي يارق) وسماره قد نام بعض وضج بعض وهو ما فارق قافية القاف وقال أبو عمران بن سعيد دخلت عليه يوماً بدار الاشراف باشبيلية وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة فد الهيثم يده الى الديوان المذكور فنه أحد الادباء فقال . يا أبا عمران اوجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فاكذبت الجماعة فقال اسمعوني ، وامسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فاقسمنا عليه أن يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية في سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن بن سعيد . عهدى به في اشبيلية يملئ على أحد

الطلبة شعراً وعلى ثمان موشحة وعلى ثالث زجلا كل ذلك ارتجالاً .
قال ابن خلكان: كان أبو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الاغانى يحفظ من الشعر
والاغانى والاخبار والآثار والاحاديث المسندة والنسب ما لم ارقط من يحفظ
مثله ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازى
ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والسيطرة وتنف من الطب
والنجوم والاشربة وغير ذلك وذكر صاحب الصبح المنبى ان العلم الفرد فى قوة
الحافظة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . ولقد شرط الملك المعظم عيسى لكل
من يحفظ المفصل للزخشرى مائة دينار وخلمعة خفظة لهذا السبب جماعة

قال أبو عمر الطائى دخلت مرسية فتشبت بى أهلها يسمعون على الغريب
المصنف فقلت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابى فأتونى برجل أعمى
يعرف بابن سيدة (وهو صاحب المخصص فى اللغة الذى طبع . وخرأ) فقرأه على
من أوله الى آخره فعجبت من حفظه . ولقد لازم ثعلب بن الاعرابى فما رآه
نظر فى كتاب . وأخبار الاصمعى فى الحفظ والرواية أشهر من أن تذكر وكذلك
خلف الاحمر والاكبى وعبيد ودعل . وكان أبو تمام لا يلحق فى محفوظاته وقيل
انه كان يحفظ أربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع . قال أبو
الحسن محمد بن على العلوى كان المتنبي يلزم الوارقين فاخبرنى وزان كان يجلس
اليه قال مارأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقى (المتنبي) قلت له . كيف
قال اليوم كان عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الاصمعى يكون نحو
من ثلاثين ورقة لميعة فأخذه فنظر اليه طويلاً فقال له الرجل أريد بيعه وقد
قطعتنى عن ذلك فان كنت قد حفظته فى هذه المدة فالى عليك قال . أهب لك
الكتاب قال . فأخذته من يده فأقبل بهذه على آخره ثم استسلمه فجعله فى كمه
وقام فتعلق به صاحبه طالباً بماله فقال ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لى قال .
فمنعناه منه وقلنا . أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه . والامثلة
كثيرة فى هذا الباب والله أعلم

الانشاء والمنشؤون^(١)

إذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم ومصنفاتهم وبدأنا بأهل القرن الأول للإسلام ، نرى على رأسهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ، فانه سيد البلغاء على الإطلاق ، وواضع بنيان البيان العربي ، وكلامه كما قال العارفون بعد كلام الله وكلام رسوله (عليه الصلاة والسلام) أبلغ كلام ، ونهج البلاغة (٢) الذي جمعه الشريف الرضى من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد . وقد عدد كثير من الصحابة أئمة في الكتابة والخطابة (راجع « اعجاز القرآن » للباقلاني و « الاتقان » و « المزهر » للسيوطي)

ولم يؤثر عن عصور الجاهلية خطب ورسائل كثيرة لان التدوين لم يحدث في الامة العربية الا في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وكانت العرب تعتمد على ذاكرتها ومحفوظها ورواياتها المتسلسلة . قال الرقاشي : ماتكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنشور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة . ومعظم الذي أبقته الايام من أدب العرب لم يبرح محفوظاً في الخزائن لم يطبع وأكثره محفوظ في جامعات أوروبا ودور كتبها . ختم القرن الاول بأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فان رسائله الموجزة وخطبه الغراء التي نقلها ابن سعد في « الطبقات الكبير » وابن الجوزي في « مناقبه » ، آية في البلاغة ، وفيها من أدب العرب مسحة وطلاوة ، ورسائله وخطبه في الادارة والسياسة على قلتها ، تربي فيمن يتدبرها ملكة الانشاء وتقف به على أصول الادارة العربية . ومن بلغاء هذا القرن زياد بن أبيه والحجاج ابن يوسف الثقفي وقطري بن الفجاءة وعمران بن حطان . وهذان الاخيران من

(١) نشرت أولاً باللغة الافرنسية في مجلة التعليم Bulletin de l'enseignement التي تصدر في بيروت وفي جريدة البلاغ المصرية بتاريخ ١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٧ جمادى الاولى ١٣٤٣ (١٩٢٤)
(٢) جميع الكتب الواردة أسماؤها في هذا المبحث مما طالعناه وتدارسناه وحكمنا عليه بأنفسنا .

خطباء الخوارج . وقد استغرقت أخبار الخوارج الذين خرجوا على الخليفة الرابع يوم النهروان ، جزءاً مهماً من كتاب «الكامل» للمبرد تتمثل بها بلاغة الفوضيين والعدميين والشيوعيين في الاسلام.

جاء القرن الثاني وقد نبغ في أوله عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وهو النهاية في البلاغة والفصاحة ، اختط للناس خطة الترسل والانشاء ، ثم عبدالله بن المقفع الذي أسلست له الكتابة قيادها ، فلم تعد له هنة واحدة في باب التكلف ، بل كان في «اليتيمة» وسائر مافاضت به قريحته من رسائله ابتداء كما كان في ترجماته «ككيلة ودمنة» طبقة عالية في البلاغة . ولو عمر ابن المقفع (عاش ستاً وثلاثين سنة) لابقى لنا أمثلة في البيان ، يتخرج بها طلاب الادب من العرب ، على غابر الحقب . ونبغ في هذا القرن سهل بن هرون وهو بالقليل الذي وصلنا من رسائله نابغة في علمه وأدبه ، وناهيك بمن كان الجاحظ ينوه به ، وينقل عنه في كتبه . وكان كثيراً ما يؤلف الكتاب وينسبه لسهل بن هارون فيجمع الناس على استحسانه ، أكثر مما كان لو نسبته لنفسه ، وكتابة سهل من السهل الممتنع ، لاحوشى فيها ولا مبتذل ، أو كما قال الجاحظ في الكتاب «انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً» ومن خطباء هذا القرن داود بن علي وشبيب بن شيبه ومن كتبه اسماعيل ابن صبيح كاتب الرشيد وعمر بن مطرف كاتب المنصور والمهدى والهادى والرشيد . وصالح بن جناح صاحب كتاب «الادب والمروءة» وكلامه رشيق دقيق مستفاد في الحكمة .

وكان يقال بلغاء الناس عشرة عبد الله ابن المقفع وعمارة بن حمزة وخالد بن يزيد وحجر بن محمد وأنس بن أبي شيبخ وسالم بن عبدالله ومسعدة والهبزو وعبد الجبار ابن عدى وأحمد بن عدى وأحمد بن يوسف . قال صاحب «الفهرست» ومن البلغاء الحدث ابراهيم بن العباس الصولى والحسن بن وهب وسعيد بن عبد الملك ولم يصل إلينا من كلام هؤلاء الجهابذة شئ يذكر اللهم إلا ما عرف من كلام ابن المقفع وأحمد ابن يوسف والصولى والباقون دثرت كتاباتهم إلا تنفأ قليلاً لا يبنى عليها حكم

ومن كتاب هذا القرن أبو اسحاق الكاتب ابراهيم بن محمد المدبر وزير المعتمد

على الله المتوفى سنة ٢٧٩ « صاحب النظم الرائق والنثر الفائق » وهو صاحب « الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة » التي نشرناها في « رسائل البلغاء »

وامتاز القرن الثالث بظهور الجاحظ (٢٥٥ هـ) الذي رزق الاجادة في كل ما كتب وهو رب البديهة في أفكاره ومظاهر علمه وتقديره . ولم يعهد قبله أن تبرز الموضوعات المختلفة في هذا القالب الفتان ، الذي يظهرها فيه غير متكلف ولا متمسك . وكلما كررتها حلت وبقدر ماتتوها تتجلى لك رقة معانيها . ومتانة مبانيها ، وتدهش وأنت تطالع كلامه من تملكه ناصية اللغة وبراعته في استعمال الألفاظ في أماكنها وربما تساهل فأورد ألفاظاً عامية في معرض كلامه لينقل الأفكار بجالاتها . ولم يكده يعهد مثله في المجودين من المؤلفين من يريك ببيان الباطل حقاً ، والحق باطلا ، يقول الشيء ونقيضه . ويقنعك في الأول حتى لا تظنك تقنع بعد بكلام ، ويرجع عليك بكلم طيب ، فينسيك ما أصاب في الأولى . وهكذا يلعب بالعقول كالسحر ولكنه السحر الحلال

افتح أى كتاب من كتب الجاحظ التي أبقها الايام للمكتبة العربية ذخراً ونفراً ، تشهد العجب من تفننه وإبداعه ، وتذكر كيف تستجيب له المعاني ، وتنقاد الألفاظ برشاققتها وجزالتها ، وقد يشوب كلامه ببعض الظرف والهزل والنوادر أحياناً لئلا يمل مطالعها هكذا تراه في « كتاب الحيوان » و « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « المحاسن والاضداد » و « الحاسد والمحسود » وغيرها من رسائله وهي بضع وعشر رسائل مطبوعة وكل صفحة من صفحاتها أفيد من مجلد برمته ومن يحىء بعد الجاحظ أبو حنيفة الدينورى صاحب كتاب « الاخبار الطوال » و « أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لا تطفأ بالنفس ، سهلة في السمع ، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل في أساليب العرب قال أبو حيان التوحيدي والذي أقول وأعتقده وأخذ به وأسأهم عليه انى لم أجد في جميع من تقدم وتأخر الا ثلاثة لو اجتمع الثقلان (؟) على تقريرهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، وذكر الجاحظ والدينورى

وثالث بأبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، ووصف كل واحد بألفاظ عجيبية .
ومما امتاز به هذا القرن ان علوم الاوائل التي بدىء بترجمتها في منتصف القرن
الاول في دمشق بمعرفة خالد بن يزيد الاموي وغنى بها عمر بن عبد العزيز
أواخره ، قد زادت العناية بها في بغداد على عهد المنصور العباسي ، ثم بلغت
أشدها في زمن المأمون . وقد أدخلت هذه العلوم والصناعات في العربية روحاً
جديداً ، فترجم اليها من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وغيرها ،
فاغتنت اللغة ورأت من الاساليب والافكار مالا عهد لها به . وهذا أول تأثير
من آداب الامم الاخرى أصاب اللغة العربية فأصبحت لغة علم وصناعة ، بعد أن
كانت لغة شعر وحكمة فقط . وعصر المأمون هو في الحقيقة العصر الذهبي في
الادب والكتابة والعلم وسائر مقومات الحضارة العربية .

قلنا إن أحمد بن يوسف الكاتب هو من أوائل البلغاء ، وقد أورد بعض
رسائله الصولى في كتاب « الاوراق » المخطوط وأورد له ابن طيفور صاحب
« كتاب بغداد » المطبوع نموذجاً من رسائله ، وفي كتب التراجم المطولة شئ
عن كتاباته المسجعة على مثال السجع الذى يقع في كلام أئمة البلاغة في القرن
الاول وناهيك برجل أعجب المأمون بعقله وأدبه فاستوزره واستكتمه . والكاتب
المجودون في هذا القرن كثيرون ومنهم عمرو بن مسعدة وزير المأمون « وكان
كاتباً بليغاً جزل العبارة وحيزها ، سديد المقاصد والمعانى » وصدق عليه ما قاله
الرشيد في البلاغة « البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ،
والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » . وأبو على الدامغانى الوزير
وأبو الفتح البستى « صاحب الطريقة الانيقة في التجنيس النفيس البديع التأسيس »
ومن أهم من انتشرت كتبهم ابن قتيبة (٢٧٦) فهو ثانى الجاحظ بعلمه وجوده
انشائه وتأثيره ، وفي كتابه « الامامة والسياسة » و « كتاب العرب » و « مختلف
« تأويل الحديث » و « الاشربة » و « المعارف » و « عيون الاخبار » و « أدب
الكاتب » ما يدل على روح سام سار فيه الأدب مع العلم سيراً متساوياً ويعمد
من كتاب الدرجة الأولى في القرن الرابع أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية
(٣٤٠) بغدادى الاصل انتقل أبوه الى مصر وكان أحمد من كتاب الدولة الطولونية

وقد عرفناه من كتاب « المكافأة » الذي نشر له مؤخراً مع قطعة من كتابه « حسن العقبى » وهى عبارة عن حكايات فيها حكمة ومواعظ واعتبار آية فى البلاغة ومنهم أبو بكر الصولى (٣٣٥) صاحب كتاب « الاوراق » و « أدب الكتاب » وأحمد بن عبد ربه (٣٢٨) صاحب « العقد الفريد » وجعفر بن قدامة ابن زياد الكاتب (٣١٩). وعرفنا من أهل هذا القرن زمرة من الكتاب الذين زانوه بأقوالهم وأفضالهم ومنهم أبو الفضل بن العميد وزير بنى بويه (٣٦٠) وكان أبوه أيضاً كاتباً مترسلاً من كتاب الدولة السامانية وابن العميد أول من فتح باب السجع وأكثر من أنواع البديع . وكان يقال فتحت لرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد كما قيل بدىء الشعر بملك أى امرئ القيس وختم بملك أى أبى فراس الحمدانى . وما قيل فى ابن العميد يقال فى صاحب بن عباد (٣٨٧) فهو أيضاً ممن تناغى بالجناس . واكثر من الاسجاع وكان يقول . كتاب العصر أربعة . الاستاذ الرئيس يعنى ابن العميد . والاستاذ أبو القاسم يعنى عبد العزيز بن يوسف . وأبو اسحق يعنى الصابى ولو شئت لذكرت الرابع يعنى نفسه

ويجى مع هذه الطبقة ابو بكر الخوارزمى (٣٨٣) وكان يعيل الى طريقة ابن العميد فى الكتابة و « رسائله » المطبوعة المشهورة مثال البلاغة والفصاحة على كثرة الاسجاع فيها حتى لا يكاد يعدوها . وقلمها تقوته . وأما بديع الزمان الحمدانى (٣٩٨) صاحب « الرسائل » و « المقامات » المشهورة فانه سار مع الطبع أكثر من الخوارزمى وكثيراً ما يترك التسجيع وأنواع البديع . واذا استعملها ففى مواطن خاصة وجمل معينة ثم يعود الى طبعه فتأخذ أقواله بمجامع القلوب . وأكثر ما قرأناه من « رسائل الصابى » (٣٨٤) الصادرة عن الخلفاء وغيرهم ومنها ما طبع على حدة ومنها ما اقتبس فى « صبح الاعشى » — قد أفرغ فى قالب من السجع البديع المستملح وقد يتخلى عنه فى بعض التقاليد والعهود ، ولو تيسر له أن يطرح السجع على طريقة البديع لجاءت كتاباته منفخر الأسلاف ، وأعظم معلم للاخلاف

وممن نبغ فى ذاك القرن أبو الفرج البغفا وعبد الله بن عمرو الفياض كاتب

سيف الدولة ونديمه وأبو القاسم على الاسكافي النيسابوري وكان من علو الرتبة في النثر وانحطاطها في النظم كالجاحظ . وعلى بن هند صاحب « الكم الرواحية » ويحيى بن عدى صاحب تهذيب الاخلاق أو سياسة النفس (٣٦٤) وابن حبان البستي (٣٥٤) صاحب « روضة العقلاء » والحائمي صاحب « الرسالة الحاتمية » التي شرح فيها ماجرى بينه وبين أبي الطيب المتنبي من اظهار سرقاته وابانة عيوب شعره والقاضي التنوخي (٣٨٤) صاحب « النشوا » و « الفرج بعد الشدة » وقدامة بن جعفر الكاتب (٣٣٧) صاحب « نقد الشعر » و « كتاب الخراج » وابن نباتة صاحب « الخطب » المشهورة ومنهم أبو جعفر محمد بن العباس وزير المكتفي والمقتدر وابو منصور البغوي (٧٥٠) ورأس أدباء هذا القرن ابو العلاء المعري والشعر غالب عليه وكتابته مصنعة فيها كثير من عويص اللغة وسبكها لا يخلو من يبوسة وجفاء طبع ولكن « رسالة الغفران » التي كتبها رداً على رسالة ابن القارح وكلاهما مطبوع اشبهت رواية دانتى الشاعر الايطالى *La divine comédie* وكانت من أعظم الروايات الخيالية الدالة على أن أعمى المعرفة كان معلماً لنا بغة ايطاليا في الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المشرقين في أوربا على ان دانتى في روايته الالهية المؤلفة من ثلاث روايات وهى جهنم والمطهر والجنة التي ألفها بين سنتي ١٣٠٠ — ٣١٨ م قد اقتبسها ولا سيما رواية جهنم من رسالة الغفران للمعري ونسج على منواله في التصور وان ما كتبه المعري على ديوان أبي تمام الطائي وسماه « ذكرى حبيب » وعلى ديوان أبي عبادة البحرى وسماه « عبث الوليد » وما كتبه على ديوان أبي الطيب المتنبي وسماه « معجز احمد » بدل على احاطة المعري باسرار العربية وفهم كلام العرب ومرايمهم وشدة ملكته في النقد الادبي . دع فلسفته في « لزومياته » و « دواوينه » فالمعري فيلسوف لغوي وليس بكاظم . ومنهم على ابن خلف صاحب « مواد البيان » الذي نقل القلقشندي في صبح الاعشى جزءاً مهماً منه .

وتميز القرن الخامس بظهور كثير من الكتاب فيه ومن أشهرهم الذين تركت الأيام لنا شيئاً من كتاباتهم الامير قابوس بن وشكمير (٤٠٣) صاحب « كمال البلاغة » فان كتاباته هي الموسيقى برنتها ، والشعر الفتان ، ولكن بدون قافية وروى ، الا ان الاسجاع غالبه عليه ، مستحكمة في حواشى كلامه ، آخذة بجماع أدبه خلافاً للثعالبي (٤٢٩) سيد كتاب هذا العصر ، ومن أعظم مؤلفيهم في اللغة والآداب ، فان مقدمة كتابه « فقه اللغة » طبقة عالية في الكتابة المرسلة في عصره وبعده ولو تخلى عن السجع في « يتيمة الدهر » التي ترجم فيها أدباء عصره على نحو ما تركه في « المضاف والمنسوب » و « لطائف المعارف » وغيرها من كتبه ورسائله لما عيب عليه في شيء . ومثل ذلك يقال في ابن رشيق القيرواني (٤٥٦) صاحب « العمدة » أحد أمهات كتب الأدب الذي انتقده أبو عبد الله ابن شرف القيرواني في (رسائل الانتقاد) وكان الناس في الدهر القديم يعتمدون على أربعة كتب لاتقان فن الأدب . « البيان والتبيين » للجاحظ و « أدب الكاتب » لابن قتيبة و « الكامل » للمبرد و « الامالى » لابن علي القالي . ومن هذه الكتب الاربعة ما شرح ومنها ما اختصر ومنها ما انتقد شرح « أدب الكاتب » لابن قتيبة بن السيد البطليوسي ومن انتقدوا « آمالي القالي » أبو عبيد البكري صاحب « معجم ما استعجم » في جزء لايزال مخطوطاً سماه « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه »

ومن توفي على رأس الاربعمائة أبو حيان التوحيدى وهو مبتدع طريقة خاصة به قرأناها في كتاب « المقابسات » و « رسالة الصديق والصدقة » و « الاشارات الالهية » . وذكر الثعالبي ثلاثة من كتاب آل بويه وهم أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وابو احمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازى وأبو القاسم علي ابن القاسم القاشانى وأورد من كلامهم نموذجات لطيفة . ويعمد في الطبقة الاولى من المؤلفين والكتاب المجيدين ابو الفرج الاصفهاني صاحب « الاغانى » وأبو الحسن علي بن عبد العزيز صاحب كتاب « الوساطة » بين المتنبي وخصومه والامير عبد الله الميكالى فانه من الكتاب المجيدين والسجع غالب عليه ومثله أبو النصر العتبي واضع « تاريخ بن سبكتكين » المعروف باليمنى وهو التاريخ

المسجع البديع ويعد مؤلفه من أكبر المنشئين
ومن كتاب هذا القرن ابن موصلايا (٤٩٨) وابن نايقيا (٤٨٥) والموفق
ابن الخلال صاحب ديوان الانشاء على عهد الحافظ العبيدي بمصر (وكانت له قوة
على الترسل يكتب كما يشاء) وكان الغالب على الموفق بن الخلال في رسائله
العناية بالمعاني أكثر من طلب السجع وكان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة
الملوية غصاً طريا وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبياناً
ويقيم لسلطانه بقلعه سلطانا، «ومن أثرت بعض رسائله في هذا القرن هلال بن
الحسن الصابي (٤٤٨) حفيد أبي اسحق صاحب الرسائل ومؤلف كتاب
«أخبار الوزراء» ومن المجيدين في الانشاء وأن عدم الناس في طبقة الحكماء
أحمد بن مسكويه (٤٢١) مؤلف «تهذيب الاخلاق» و«الفوز الاصغر»
و«تجارب الأمم» فان كتابته مثال الانشاء المرسل البديع ومنهم أبو طاهر
محمد بن حيدر (٥١٧) صاحب «قانون البلاغة» وهو لم يطبع

وفي هذا العصر نبغ في الاندلس الوزير ابن زيدون (٤٦٣) في النظم والنثر
و«رسائله» على لسان ولادة بنت المستكفي بالله أدبية عصرها من المرقص
المطرب. ومثل ذلك يقال في الوزير ابن حزم الاندلسي (٤٥٦) فانه من اكتب
العلماء في عصره، ومن المكثرين من التأليف المجودين فيه. وناهيك بكتابته
«طوق الحمامة» و«رسائله في الاخلاق» دليلا على أدبه الراقى، ومثالا من
أنشاء عصره الذي أشبه في الادب عصر لويز الرابع عشر في فرنسا

ونشأ في هذا القرن والذي يليه في الاندلس طبقة من الكتاب ومنهم من تولى
الوزارة. والغالب ان الكتاب المجيد في الدهر السالف يكون وزيراً كالخطيب
المصقع في هذا الدهر يكون رئيس وزراء. مثل الباجي وابن الدباغ وابن الجدد
وابن القاسم وأبي الاصبع وابنه أبو عامر وابن سفيان وابن الحاج وابن عبدون
وابن أبي الخصال وابن عبد العزيز وابن السقاط وابن القصيرة «وكان هذا على
طريقة قدماء الكتاب من اتيان جزل الالفاظ، وصحيح المعاني، من غير التفات
الى الاسجاع التي أخذها متأخرو الكتاب اللهم الا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً
من غير استدعاء» ومنهم ابن عبد الغفور وابن عمار وابن الافطس وابن سالم

ومنذر بن سعيد وابن أيمن وابن البانة وابن عبد البر والفرضي وابن سعيد المؤرخ وابن حيان وابن القوطية وأبو عبيد البكري صاحب «معجم ما استعجم» و «المسالك والممالك» وابن الطفيل صاحب «رسالة حي بن يقظان» وفيها اشارات لمذهب النشوء والارتقاء. ومنهم البطليوسي وابن تومار وابن هود والنحلي والاشبوني والقسطلي وابن لبون وابن رزين والنمري والسرقسطي وابن القلاس والقصاعي والبهارى والحجارى والدائى والبلنسى والطليطلى وغيرهم وما منهم الا منشىء مجود ومؤلف جزل العبارة رشيق الالفاظ. ولا غرو فان الاندلس أخرجت للادب رجالا عظاماً ، تشم من مكتوباتهم أرج الغرب ، وقد جمع أحد علماء المشرقيات من الاسبان تراجم الاندلسيين من العرب فكانوا ثلاثين الف عالم وأديب وفقه ومهندس وطبيب الخ من أصحاب المنزلة . وترجم الفتح بن خاقان (٥٣٥) صاحب «قلائد العقيان» و «مطمح الانفس» لبعض أولئك الادباء بالاسجاع المطبوعة كما ترجم لهم ولغيرهم ابن بسام في «الذخيرة» واشتهر بالوزارة من الكتاب الجودين في بغداد الوزير على بن عيسى والوزير أبو الحسن ابن الفرات . ولعل بن عيسى (مذهب في الترسل لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات) ومنهم أبو على محمد بن خاقان ومحمد بن عبد الملك الزيات الى غيرهم من الكتاب النابيين والخاملين وربما كان في الخاملين من هم أعلى كعباً من النابيين ومن اشهر بنثره في هذا العصر الحريري (٥١٠) صاحب «المقامات» و «درة الغواص». وقد رزق بالمقامات الحظوة التامة ولكنها أيضاً من النثر المتكلف لا المرسل ولو خيرنا بين نثره ونثر حجة الاسلام الغزالي (٥٠٥) لاخترنا كتابة الغزالي ولا سيما في الجزء الثالث من «الاحياء» ورسائله التي أبان فيها عن طبعه خصوصاً «التفرقة بين الاسلام والزندقة» و «تهافت الفلاسفة» و «الرد على الباطنية» أو نثر الراغب الاصفهاني في «الذريعة الى مكارم الشريعة» و «تفصيل النشأتين» و «المحاضرات» أو الماوردي في «أدب الدنيا والدين» و «الاحكام السلطانية». وفي كلام الحريري مسحة من التعمل قد يصل اليه معظم من جمعوا أدواته من اللغة وكلام العرب لو شاءوا أن يحصروا وكدهم ويتعملوا في منشورهم . وكان ابن الخشاب يقول ان الحريري رجل مقامات أى

انه لم يحسن من الكلام المنثور سواها فان أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . ولعل جار الله الزخشري (٥٣٨) يفوقه باجادة صناعة النثر فسجحاته في « تفسيره » و « المفصل » و « أساس البلاغة » و « مقاماته » و « أطواق الذهب » و « الكلم النوابع » و « الفائق » في الغاية من الرقة والجزالة وكانت بينه وبين رشيد الدين الوطواط صاحب « الرسائل » المطبوعة بالمسجعة محاورات ومرادات والزخشري أرقى بياناً وأوسع علماً . ويعد في كتاب هذا القرن أبو الفتوح ابن الجوزي (٥٩٧) الواعظ المؤلف فانه خلف كتباً كثيرة ومنها كتاب « الاذكياء » و « أخبار الحمقى والمغفلين » وأمثال هذه الكتب أشبه شيء بما يطلق عليه الافرنج اسم « Folklore » أي العادات والتقاليد ومن مثل هذا كثير في العربية مثل أخبار « عقلاء المجانين » للحسن بن حبيب المفسر . وقد حدثنا التاريخ ان كثيراً من الكتاب ولا سيما في القرون الأولى وضع حكايات أشبه شيء بقصص الغربيين اليوم يقصدون بها تلقين فكر ، أو بث دعوة ، أو أحداث مشغلة للعامة ، لصدهم عن البحث في شأن مهم للدولة ، وقد صنفوا كثيراً في الاسمار والخرافات منها ما عرّبوه عن فارس والهند والروم وبابل ومنها ما ابتدعوه ومنهم كتب روايات غرامية ذكروا فيها أخبار العشاق الذين عشقوا في الجاهلية والاسلام ومنهم من ذكر الحبايب المنتظرات أو اكتفى بأخبار العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر . وصنع المتأخرون قصة ألف ليلة وليلة فاشتهرت في الغرب ، ونقلت الى معظم لغات أوربا ، كما اشتهرت في الشرق العربي ومثل ذلك يقال في قصة السندباد البحري والظاهر وتغريبة بني هلال الى غير ذلك مما لا يعد في الادب الراقي لانه كتب للعامة ولم يكتبه كتاب مجودون

ومن نشأ في هذا القرن ضياء الدين بن الاثير صاحب « المثل السائر » فهو أيضاً كاتب مسجع مبدع وهو الذي تصدى ابن أبي الحديد المدائني لمؤاخذته والرد عليه وعنته وجمع هذه المؤاخذات في كتاب سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » . وسيد المنشئين على التحقيق في هذا العصر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين ، فهو حجة المنشئين سواء توسل بالسجع أو تخلى عنه ، مع انه لم يكن يفارقه على الاغلب ، ولو انتهت اليينا رسائله كلها لجاءت بضعة مجلدات والقليل المقتبس

منه في صبح الاعشى « ورسائله » المخطوطة وما نقل له في « الروضتين » مما تنبسط له النفس ويحيى بعده في المرتبة عماد الدين الكاتب الاصفهاني فهو سالك طريقته ، ولكنه في دعواه التفوق على غيره من الكتاب أشبه الناس بصاحب المثل السائر . والدعوى تذهب بهجة العلم وان كانت صحيحة وكتابه « الفتح القسى » « وزبدة النصرة » نموذج أدبه ، وراموز صالح من سجمه وترسله ، وقد نشأ في عصر القاضي الفاضل والعماد الكاتب ، كاتب هزلى اسمه الوهراني (ركن الدين ابو عبد الله محمد ٥٨٥) عمل « المنامات والرسائل » المشهورة التي لم تطبع وذلك لانه أيقن لما دخل الشام مهاجراً من الجزائر أن بضاعته لا تنفق مع وجود القاضي الفاضل والعماد الكاتب وتلك الحلبة كما قال بن خلكان في « وفيات الاعيان » فعمد الى الهزل ونفق سوقه ومنهم ابن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » ذكر فيه قصصاً في الشجاعة وقعت له ولاسرتة أصحاب قلعة شيزر على عهد الحملات الصليبية الاولى وذكر شيئاً من عادات الصليبيين وأخبارهم وشجاعتهم على صورة مستغربة ، ومنهم يحيى بن زيادة الشيباني انتهت اليه المعرفة بامور الكتابة والانشاء وابن الصيرفي صاحب « الاشارة الى من نال الوزارة » و « قانون ديوان الرسائل » وممن كان في القرن السابع من الكتاب وسار على الطريقة الفاضلية في الانشاء يحيى الدين ابن عبد الظاهر (٦٩٢) وابنه محمد فتح الدين ويعبد الاب والابن من واضعى نظام الانشاء في عصرهما والعصرين التاليين . وابن عبد الظاهر أضعف في البلاغة بما ورد له في صبح الاعشى من الفاضل والعماد ومن تقدمه في الميلاد وممن عرف بالبراعة في تصوير البلدان والآثار عبد اللطيف البغدادى الفيلسوف (٦٢٩) فان كتابه « الافادة والاعتبار » شاهد له بانه من خيرة البلغاء في عصره ومنهم الوزير عبد المحسن ابن حمو (٦٤٣) وبهاء الدين الاربلى والكمال بن العديم (٦٦٦)

وتعد رحلة بن خبير الكناني الاندلسى (٤١٦) الى الشرق من الادب العالى فقد وصف البلدان في عصره وصفاً فاق فيه من تقدمه مثل بن بطلان وابن فضلان كما فاق من تأخر مثل العبدري (٦٨٨) والبلوى (٧٤٠) وابن بطوطة (٧٧٩) والتركشى (٧٩٤) وابن أبى البركات النجدى (٨٩٥) على ان الجمل

التي أثرت عن بن بطلان في مطولات الجغرافية ، وكانت رحلته من العراق الى الشام في النصف الاول من القرن الخامس — ثم عن أدب وفضل ذوق في وصف البلدان والسكان ، والقليل مما قرأناه من هذا القبيل في معجم البلدان ولاحمد بن فضلان — وكان المقتدر بالله العباسي أرسله الى ملك الصقالبة سنة ٣٠٩ هـ — يدل أيضاً على ذوق وفضل علم وأدب

وعلى ذكر الجغرافية يجب أن يعد في جملة الادب الجيد ما كتبه ياقوت الحموي فان « معجم البلدان » و « معجم الادباء » من أنفس ما كتب الكاتبون في هذا القرن كما ان ما كتبه القفطي (٦٤٦) في « أخبار الحكماء » وما كتبه ابن أبي أصيبعة (٦٦٨) في « طبقات الاطباء » يعد من الادب العالي في تراجم الناس . ومن هذه الكتب الاربعة التي طبعها المستشرقون استفدنا أموراً كثيرة في الحضارة العربية لم نكن نعرفها من قبل كما استفدنا أى استفادة من نشرهم لنا (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبري « ومروج الذهب » للمسعودي و « السكامل » لابن الاثير و « تاريخ اليعقوبي » و « تاريخ سني ملوك الارض والانباء » لحمزة الاصفهاني و « الفخرى » لابن الطقطقي و « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسي وغير ذلك من تواريخ الاولين وكذلك استفدنا من نحو خمسة عشر مجلداً للجغرافي العرب طبعوها فعلمونا بها تاريخ بلادنا لاقتصادى والعمراني وأشياء مهمة لم نكن نحلم بوجودها وكثر بها رأس مالنا من الفصيح والتعابير العامية

ومن كتاب القرن الثامن في مصر والشام بن فضل الله العمرى صاحب (مسالك الابصار) و (التعريف بالمصطلح الشريف) والصلاح الصفدى (٧٦٤) صاحب (الوافى بالوفيات) و (تحفة ذوى الالباب) و (نكت الهميان) و (جنان الجناس) و (دمعة الباكي) والشهاب محمود الحلبي صاحب (حسن التوسل في معرفة صناعة الترسل) وعلاء الدين بن غانم واحمد الانصارى وابن القيسراني وكمال الدين الزملاكنى . ونبغ في الاندلس لسان الدين بن الخطيب ولو لم يكن له الا (الاحاطة في أخبار غرناطة) لكفى في تفوقه في كتابته وشعره فانه صور

وترجم لهم كأنك تراهم فهو كاتب ومصور على ما يظهر . ونفع الطيب للمقرى يحوى طرفاً صالحاً من نظم لسان الدين ونثره مع زمرة من رجالات الاندلس . وقد حل لسان الدين بعض القيود فى الكتابة هو وصاحبه ابن خلدون (٨٠٨) وكان الكتاب قبلهما ولا سيما فى القرنين السادس والسابع يقلد بعضهم بعضاً فأصبحت الصناعة تسير نحو التقليد لا إبداع فيها ولا تجديد . فالمجددون فى الحقيقة فى القرن التاسع هما عبد الرحمن بن خلدون ولسان الدين بن الخطيب . ولم تسكد تكتب العلوم الاجتماعية والتاريخية قبل بن خلدون بمثل ذلك اللسان الذى استعمله ولا غرو فهو وصاحبه حسنة من حسنات الاندلس ، وزهرتان ناضرتان من الزهور التى أهداها المغرب للمشرق وبهما ختم عهد الاندلس

كانت دواوين الانشاء فى قرطبة وغرناطة والقاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من مراكز الحكومات فى القرون الوسطى مدارس لتعلم الانشاء ، والاخذ من فن الادب العربى الواسع فلما انحلت دولة الاندلس ، واستولى الترك العثمانيون على مصر والشام والعراق بطل التنافى بالادب والانشاء لأن التميز فى هذا الشأن ، أصبح لا يجدى صاحبه شيئاً ، وغدا فن الانشاء مقصوراً على بعض أفراد فى كل قطر عربى يستخدمونه حلية وزينة ، واذ لم يبق فى الحكومات من يقدر الادب قدره ، ضعف بحكم الطبيعة ، وزاد عدد الشعراء أكثر من الكتاب لسهولة الشعر ، وامكان الانتفاع به فى المديح . وان كان الشعراء فى كل دور من أدوار العرب فيما رأينا أكثر من الكتاب بما لا يقاس

طالع كتاب « عجائب المقدور » فى أخبار تيمور المسجع الجنس و « فاكهة الخلفاء » وكلاهما لابن عربشاه من أهل القرن التاسع وتأملهما وتأمل « تاريخ العتبي » وسجعه تجد حتى فى السجع فروقا وأى فروق . وطالع « مقامات السيوطى » و « مقامات ابن الوردى » وعارضها بمقامات الحريرى وبديع الزمان يتجلى لك الفرق بين النمط العالى على ما يقال فيه والذى دونه بمراحل . وقرأ « ربحانة الالباب » للشهاب الخفاجى ، وطالع سجعه الذى هو أرقى سجع فى القرن العاشر ، تجد بينه وبين نثر ابن بسام فى « الذخيرة » وابن خاقان فى « قلائد العقيان » فرقا

بيننا أيضاً ، كما أنك قلما تجد في الادباء الذين ترجم لهم الخفاجي وكانوا تقدموه وعاصروه في الشام ومصر والحجاز واليمن والمغرب الاشاعراً . والكتاب قلائل . والأدب العربي كاد يستحيل الى أماديخ وأكثره للترلف من الكبراء وهو ضيق العطن ، مبتذل الديباجة ، فللنثر أسجاع ، تشق على الاسماع ، وللنظم قواف لا تألفها الطباع ، والروح منقولة ، والالفاظ من جنس المبتذل مدخولة ، ومعظم المنشئين والمتأديين يكتبون نمطاً واحداً من عهد أبي اسحق الصباني وأحمد ابن يوسف الى عهد لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون وهما اللذان أثبتا أن للمعاني تأثيراً أعظم من تأثير الالفاظ ، فأتيا بالجديد المبتدع ، وخلص كلامهما من المصنع الغث ، وسارا مع الطبع في التأليف والوضع

وفي القرن التاسع نشأ الفلقشندي (٨٢١) صاحب « صبح الاعشى » وكتابه من السجع على الطريقة الفاضلية المتناسبة مع زمنه ، وقد جمع في كتابه نموذجات من انشاء العصور السالفة الى عصره ، فكان كتابه معلمة (انسيكلوبديا) للمنشئين كما كان كتاب (نهاية الارب للنويري) . وأهل البصر بعيوب الكلام يفضلون على الفلقشندي المؤرخ المقرئ وجمال الدين السيوطي . ومن كتاب القرن التاسع محمد بن أبي بكر الخزومي ومحمد بن عبد الدائم وابن حجة الحموي (٨٣٧) وكتابا (خزانة الادب) و (ثمرات الاوراق) لابن حجة مثال التكلف ، ومن اقتصر في درسه عليهما تحذشت فيه ملكة البيان لاحالة

والقرن الحادي عشر مبدأ قرون الظلمات في الكتابات فان (نفحة الريحانة) للمحيي صاحب (خلاصة الاثر) في أعيان القرن الحادي عشر نموذج من نثر ذاك العصر ، ومن ترجم لهم من الادباء وأكثرهم ممن ترجمهم في (خلاصة الاثر) عنوان أهل جيله وكذلك يقال في (سلافة العصر) لابن معصوم من أهل ذاك القرن فان سجمه متكلف ، ومن ترجمهم وليسوا من الكتاب قل فيهم النبوغ ، وغاية إجادة المجيد منهم أن ينظم قصيدة غزلية تقع موقع القبول من بعض القلوب ، أو قصيدة يتكسب بها من أرباب المظاهر ، أو يؤلف كلمات مسجوعة متشابهة كالشعر ، ومثل ذلك يقال في كلام الحسن البوريني (١٠٢٤) في تراجم الاعيان فانه من هذا البحر والقافية . وكان في أوائل هذا القرن رجل استفاضت شهرته لانه

جمع علومها كثيرة وكان أديباً بارعاً وهو بهاء الدين العاملي (١٠٠٣) صاحب (الكشكول) و (المخللة) و (أسرار البلاغة) فانه كان زينة عصره في الادب متفناً في تنويع موضوعاته

وما قيل في المحبى وابن معصوم والبوريني يقال في الغزى مترجم أهل القرن الحادى عشر والمرادى مترجم علماء القرن الثانى عشر وما أورد هذا لهم من الشعر والنثر في كتاب (سلك الدرر) وبعضه أثقل من رضوى وأبرد من عضرس وأين هو من السخاوى في (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ومثل هذا قل في كتاب أهل القرن الثالث عشر مثل سجع البربر (١٢٢٦) في (مقاماته) وابن شاشو في (تراجم أعيان دمشق) فانه غاية ما وصلت اليه الكتابة من الابتذال والسجع الثقيل على الطبع. ولكن هذا القرن تجلت في أواخر نصفه الأولى حركة تجدد فاختلف أهل مصر والشام بأهل الغرب ولا سيما مع علماء فرنسا وتخرج بعض أبناء القطرين في جامعاتها، فأخذت المترجمات في العلوم المختلفة على عهد محمد على مؤسس الدولة العلوية المباركة تؤثر تأثيرها المطلوب في روح الكتابة، وأخذوا طرفاً من آداب الغربيين ولا سيما الفرنسيون نقلوه الى العربية نقلاً ضعيفاً ركيكاً وأيقن الدارسون من أبناء مصر والشام ان الآداب العربية خلت في أرقى عصورها من التمثيل وان لم تخلو من القصص والروايات والحكايات التاريخية والأدبية، ولكن على صورة مصغرة

ومن المجددين الذين ختم بهم القرن الماضى أحمد فارس الشدياق اللبنانى فانه أقام سنين طويلة في إنجلترا وفرنسا ومالطة والاستانة ونقل للعرب طريقة جديدة في تأليفه، وترك أثرًا جميلاً من نبوغه وتقننه في أساليبه. وفي كتابه (الساق على الساق) و (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ومقالاته العلمية في جريدة الجوائب التي جمعت في (كنز الرغائب) و (الjasوس على القاموس) و (سر الليال) يتجلى للناقد البصير كيف قلب الافكار، وأتى العرب بنمط مبتكر في التفكير والبحث، وفهم الأدب على غير ما فهمه أهل عصره، ومن سلفه من الأعصار

ومن كان في النصف الثانى من القرن الماضى في مصر وعد إمام النهضة الحديثة

رفاعة بك الطهطاوى (١٢٩٠) فانه ترجم وألف كثيراً وبه تخرج عشرات من رجال مصر ، وكان السجع يغلب عليه . ومن أدبائهم عبد الله فكرى باشا وهو ملتزم السجع ، ولكنه السجع القصير البعيد عن التكلف فى الجملة ، وكذلك على مبارك باشا (١٣١١) وأهم الرجال الذين أدخلوا الانشاء فى طور جديد ، وحلوه من قيوده الثقيلة التى رسف فيها قروناً ، الشيخ محمد عبده المصرى (١٣٢٢) فانه كان خطيباً مصقماً وكاتباً بليغاً ، ولم يعهد لرجال الدين كاتب مثله فى القرون الأخيرة ، فكان كما قيل فيه يكتب الشريعة بلسان صاحبها ، تشهد له بذلك (رسالة التوحيد) و (الاسلام والنصرانية) و (رحلته الى ايطاليا) و (درس تفسيره) وقد تخرج به كثيرون من رجال مصر الحديثة ، كما تخرج بصديقه الشيخ طاهر الجزائري الدمشقى كثير من رجال النهضة فى الشام ، فان هذا أيضاً خلع الثوب القديم البالى فى الانشاء بعد أن لبسه فى أول عهده وأخذ يسير مع الطبع ، تاركاً للجناسات وأنواع البديع جانباً ، تشهد له الكتب الكثيرة التى ألفها فى الشريعة والطبيعة واللغة والآداب . ونشأ فى الشام كتاب عصريون منذ خمسين سنة ومعظمهم ممن تشبعوا باللغات الافرنجية والمبدع منهم قليل ، ولا نذكر انه نشأ فى الشام على عهدها الاخير كاتب مثل ابراهيم المويلحى المصرى فى ابداءه ولا سيما الجد فى قالب الهزل وكان يقلد الجاحظ فى سرد الحقائق على أسلوب . الرياليسست ، ونشأ فى الانشاء فى الشام أمثال ابراهيم اليازجى وابراهيم المصور وشكيب ارسلان ويعقوب صروف وغيرهم من المجودين وفى مصر أمثال حفى ناصف وقاسم أمين وابراهيم اللقانى واحمد سمير واضرابهم من الاحياء والاموات فى الاقطار العربية ولو كتب لبعض الكتاب المشهورين فى الشام والعراق أن يحدقوا أدب الغرب كما حدقوا أدب العرب لخدموا الادب كثيراً بيد ان الاجادة المتناهية قليلة ، وغيوب الانشاء تبدوا أكثر من غيوب الشعر وفى الثانى يغتفر مالا يغتفر فى الاول ، فقد قال لبروير . أربعة لا يطاق فيها الاعتدال الشعر والموسيقى والخطابة والتصوير

الى اليوم على كثرة اختلاط مصر والشام وتونس والجزائر بأدباء الغرب وأخذهم عنهم لم يكتب اللغة العربية اقتباس التمثيل كما هو الحال فى الغرب وذلك

لان التمثيل عارض في المدنية العربية ، وإيجاد المفقود أصعب من اصلاح الموجود ولكن الخروج بالكتابة عن روحها العتيقة مع لباسها الحلة العربية القديمة التي كانت لها في القرنين الثاني والثالث مثلاً والرغبة في القصص والنوادر آخذة بالترقى ، ومعظم قصصنا ونوادرننا ورواياتنا التشخيصية محتذاة من الافرنجية أو منقولة عنها بالحرف ، وهذا من أبشع ضروب الاقتباس ، ولعله لا يطول الامر حتى ينشأ للأمة العربية روائيون وقصصيون وكتاب فاجعات ومآس على الصورة التي جرت عليها أمم الحضارة الحديثة فيعود أرباب الاقلام الى الابداع والاختراع ويسير المنشئون بروح الامة يعالجونها بما يوائمها فما ينفع من أدب الغرب قد لا ينفع ولا يلتئم مع حالة ابن المشرق .

أكتب هذا بمناسبة سفر بديع ظهر حديثاً^(١) في عالم الادب العربي فأدخل السرور على قلوب أنصار التجدد واعنى به كتاب « مطالعات في الكتب والحياة » لكتاب من أفذاذ الكتاب بمصر الاستاذ العقاد ومؤلفه بحاث نقادة في الادب والشعر على مثال أدباء الغرب . نشر قبل سنين كتاب (الفصول) فأجاد والآن جاء يعبد وأهل حلقة ، تلك الطريقة وينشر على الادب جملة فضله الرائع ، الذي جمع فيه بين أجل القديم وأتقن الحديث . ومن حسنت ملكته وصحت قريحته كان جديراً بأن يختار الاطايب في كل ما يعرض له

تقرأ الاستاذ العقاد فتظنك تقرأ نقاداً من نقاد فرنسا أمثال : فاجية ، ولتر وبيدو ، وبريستون ولكن بديباجة عربية تشبه اللغة يوم عزها ، ويدهشك بسلامة ذوقه ، وسلاسة تعبيره ، ورصف جملة ، ورنة تراكيبه ، وقلم يكتب ذلك الا لافراد في كل عصر ، فقد كانت الطبقة السابقة التي حاولت ادخال هذه الطريقة في اللغة الى جانب القصور ، لضعف ملكاتها من اللغة التي حاولت تبديل قياقتها ، وكثيراً ما كانت ضعيفة أيضاً في اللغة التي حاولت الاخذ عن بنيتها تفهم الالفاظ ولكنها عن المعاني بمعزل . بيد ان هذا النابغة رزق السعادتين ،

(١) « مطالعات في الكتب والحياة » للاستاذ عباس محمود العقاد طبع بالمطبعة التجارية الكبرى في

فأثقت الادب الافرنجى إتقانه للعربى ، وجاء منه جهيد بحاثه ، ذو أسلوب مبتكر لا ينكره المنصفون من الغالين بتمجيد القديم ، ويفتبط به المجددون أية غبطة منذ أكثر من خمس وعشرين سنة وأنا أنظر فى الكتب العصرية التى تخرجها المطابع العربية فى الشرق والغرب ، فلم أكد أقرأ كتاباً فى الادب لمعاصر تأليفاً كان أم ترجمة إلا وتراءى لى كثرة تقريظه فى تأليفه ، وفلما رأيت إبداعاً الا فى بعض التأليف أمثال « حديث عيسى بن هشام » لمويلحى الصغير و (النظرات) و (العبرات) للمنفوطى و (ليلى سطيح) لحافظ وبضعة كتب أخرى ليست على خاطرى . رجوت لها الخلود ، وباقيها ومنه المسجع أو الممسوخ أو المسلوخ أو المنسوخ ، لا استحي أن اقول انها تتساقط كما يتساقط ورق الشجر فى الخريف ، وتضيع كما تضيع مقالات الصحف اليومية بعد صدورها بساعات معدودة

لم يبرح النزاع عندنا بين أنصار الجديد والقديم على أتمه ، ولكن التطور يعمل عمله ، رغم احتجاج المحتجين ، وصياح الصائحين ، والانتقال محسوس فى الادب ، كما هو محسوس فى كل أطوار الحياة عندنا ، وأنت اليوم اذا قرأت صفحة من (مقامات اليازجى) أو رسالة من (رسائل الاحدب) أو جملاً من مصطفى نجيب وحمزة فتح الله على تلميذ شدا شيئاً من الادب يضحك مما تسمعه ، ويقول لك هذا كلام يضعف اللغة ويذهب بهجتها وألفاظه أكثر من معانيه . ولكنك اذا تلوت عليه صفحات من السيد العقاد تطربه نغمته ، وتعجبه ديباجته ، فتستغرق معه ساعات فى المطالعة لاتمل ، وكلما أتممت فصلاً وددت لوطال ، أكثر . فقالات العقاد فى تحليل روح المعرى وحياة المتنبي وأدبه دلت عن أدب بارع ونفس طويل ، وخواطره فى ما كس نوردو وأناتول فرانس والشعر ومزايه والطبع والتقليد وعبقرية الجمال والتشاؤم وأدوار العمر كل ذلك مما يحمل للقارىء علماً طريفاً وتليداً ، ونبوذاً وعبقرية وتجديداً ، يروقك بأسلوبه فتستفيد من الفكرة ومن القوالب البديعة التى ظهرت فيه

طلق الاستاذ العقاد الاسجاع والجناس وأنواع البديع ، وجاءنا بانشاء فيه طلاوة الحديث بسبك ومعناه ، وجلالة القديم ببيانه ، وربما تلوت له فصلاً برمته

وليس فيه سجة أو معنى مكرر ، تراه يكتفى في تصويره بعشرة الفاظ ، وكان غيره يحشر له العشرين والثلاثين لفظة ، وإذا عمد الى استعمال الفصيح الذى لم يتبدل ، فانه يكون في كلامه بمقدار الخال في صفحة الوجه الجميل أما الترا كيب فتظن نفسك وأنت تقرأ كلامه أمام (أبدي بدوى وعلى طباع أفصح عربى)

وان أهل هذه الطبقة العالية ، قد أ كذبوا القائلين بأن العربية لا يتسع صدرها للمعاني الجميلة ، وان العرب عنوا بالالفاظ أ كثر من المعاني ، وما الالفاظ الا القوالب فقد قال بن جنى في الخصائص ، ردأ على من ادعى على العرب عنيتها بالالفاظ وأغفلها المعاني . ان العرب كما تعنى بالفاظها ، وتصلحها وتهذبها وتداعبها ، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالشجاع التى تلزمها وتكلف استمرارها ، فان المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدرأ في نفوسها ، فأول ذلك عنيتها بالفاظها ، فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقأ الى اظهار اغراضها ومرئياتها ، أصلحوها وبالغوا في تحييدها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في السمع وأذهب في الدلالة على القصد . فاذا رأيت العرب قد أصلحو ألفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا تريد ان العناية اذ ذاك انما هى بالالفاظ بل هى عندهم خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها ، وتشريف منها ، ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحسينه ، وتكوينه وتقديسه وانما المبنى بذلك منه الاحتياط للموعى ، وعليه جوازه بما يعطر نشره . . . وقال عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز) لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه . ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك ، من معناه الى قلبك وقولهم يدخل في الاذن بلا إذن ، فهذا مما لا يشك العاقل في انه يرجع الى دلالة المعنى على المعنى وانه لا يتصور أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذى وضع له في اللغة

قلنا وهذا ما جعله المجودون من كتابنا المعاصرين نصب أعينهم فلم يقنعوا بالقشور بل اهتموا باللباب ، وعنوا بالقوالب وماتحويه ، وإذ قد أرفهوا أقدامهم لنقد الكاتبين المتوسطين كانوا أحرىء بأن يظهر واكتاباتهم خالية من الشوائب اللغظية والمعنوية وأدبنا في كل عصر ما خلا من نقاد ، يوازنون بين كلام المبرزين في

منشورهم ومنظومهم ، ينوهون بالكلام الشريف ، ويرذلون الساقط الوضيع
ومعولهم في أحكامهم على قوانين البلغاء والدوق السليم
للمن لم تغفل عين العناية بعد القرن الرابع للهجرة عن الاقتباس عن الامم
الاخرى ولولم يكتف أهل الادب والعلوم بما حصل لهم وتفجوه وأضافوه حتى
القرن الثالث عشر أى لولم نقف بآدبنا عند حد ما عرفنا تسعة قرون ، لكننا
اليوم كفرنا بالشعر والادب نفهم منها ما يفهمه الفرنسيين ، بل سائر أمم الغرب
الراقي من الشعوب الانجلوسكسونية واللاتينية والسلافية ، ولكننا ننال
جوائز نوبل في الادب على نحو ما يأخذها الهولنديون والسويديون على الاقل
ونحن معاصر العرب بعددنا نحو عشرة أضعاف كل أمة من تلك الامم الصغيرة
الممدنة .

وانا نرى هذا التجدد محسوساً في الشعر كما هو محسوس في النثر ، فقد جاء
محمود سامي البارودي أواخر القرن الماضي في شعره عربياً قحاً ، وتلاه اسماعيل
صبري بشيء من أدب العصر فخل قيده من قيوده ، وجاء بعدها حافظ ابراهيم
بشعره الاجتماعي المرقص ففك قيود سابقه ، وسيجيء صاحب السلسلة الرابعة
بما ليس الآن في الحسبان والتجديد والنشوء الاجتماعي . لا جرم ان للصحف
والمجلات اليوم يدأ طوي في هذا التطور فانها تنقل إلينا كل يوم شيئاً جديداً
عن آداب الامم الاخرى وكلما تطورت مدنيتنا بطور العصر فالادب أول ما
يتطور فينا يعلم ذلك كل من تصفح سفرنا نشر قبل خمسين سنة ، وكتاباً نشر
اليوم ، ومن تلا الصحف لعهدنا وعارضها بما كان يكتب من نوعها أوائل عهد
الصحافة العربية في مصر والشام وتونس ، يدرك الخطوات السريعة التي خطوناها
نحو المدنية ، وجددناها على ما يوافق اقليمنا وطباعنا ، والبسناها حلة من حللنا
الشرقية البديعة . وأسأتد هذا الشأن بمصر اليوم العقاد وطه حسين والمازني
وعبد القادر حمزة وغيرهم من حملة الاقلام الذين يقودون قراءهم الى سوق
عكاظ جديد وفي الشاميين كتاب من هذه الطبقة يطرسون على آثار كتاب
مصر ولا نعلم في العراق وتونس والجزائر أناساً يصدق عليهم تعريف المجددين
في الانشاء .

ربما يتساءل القارئ ، وقد بلغ به البحث الى هذه الجملة ، وهل كان النساء ياترن بعيدات عن هذه الحركة الادبية على حين لم يكن في بغداد ولا الاندلس ولا في صدر الاسلام بعيدات عنها ؟ (راجع الجزء الخاص بأصحاحيات من طبقات بن سعد الكبرى) و (بلاغات النساء) لابن طينفور وأخبار الاندلسيات في (نفح الطيب) فالجواب انهن شاركن بقدر اللزوم ، ولا يزال عددهن ينمو بنمو روح العلم فيهن ، فقديماً رأينا المحدثات والواعظات والمتفقيات والاديبات واليوم نرى الكاتبات والاديبات والباحثات والخطيبات فقد افتخرت مصر بنبوغ السيدة عائشة عصمت التيمورية شقيقة الاستاذ احمد تيمور باشا العالم المشهور ، ولها ديوان شعر سلس رقيق ، وجاءت بعدها السيدة ملك ناصف الملقبة بباحثة البادية وهي ابنة حفي ناصف شيخ الأدب في عصره وصاحبة كتاب (النسائيات) وكانت كاتبة مبدعة فعاجلتها المنية وكان يرجى منها ان تقلب حياة المرأة المصرية رأساً على عقب . وقد حلت الكاتبة المشهورة السيدة ماري زيادة الملقبة بمحي حياة ملك ناصف في سفر بديع دل على علو كعبها في الأدب وتحليل النفوس . وفي الشام ومصر اليوم زمرة من الكاتبات المجيدات المتشبعات بالآداب الغربية لا تحضرني الآن أسماءهن باجمعهن . والنساء عندنا في دور الفهم والتطور والافتباس .

ولا يسعنا ان نختم هذه العجالة قبل ان نرسل سلاماً طيباً الى كتابنا الشاميين في المهاجر ولا سيما في الامريكيتين فأنهم تشبعوا بالأدب الافرنجي فأخذوا يكتبون لقومهم هنا وهناك بلسان جديد من التجديد . بل أكثر من التجدد ، واشتهر منهم أمين الريحاني صاحب (الريحانيات) ولا ملوك العرب وغيرهما من تأليفه وجبران خليل جبران وهو كاتب ومصور ولكن تصوير الكلام بالحروف يتعاضى عليه أحياناً أكثر من التصوير بالقلم والخطوط على ما يظهر ، فيبدو الغموض في تضاعيف سطره ومثال من ذلك كتابه (الأجنحة المتكسرة) ولكل منهما قراء ومعجبون بادهما ولو كتب لهما ان يرزقا حظاً من البيان العربي يوازي حظهما من الآداب الانجليزية اذا لجأ من شعرهما المنشور ، وخيالهما اللطيف ، مادة للمجددين في أدب لغتنا . وهناك بضعة من الكتاب نزولوا ممالك الجنوب

والشمال من أميركا فكتبوا وعلّموا قومهم ولم يكتب لنا الاطلاع على عامة ما خطته
أنا ملهم ، ونعقته أفكارهم

ولا بأس من التصريح هنا برأى لنا خاص في الكتاب الاقدمين منهم والمحدثين
وربما كان في حملة الاقلام من لا يساهمنا هذا الرأي ، ويعدون حكمنا من باب التهجم
على من عرفوا كلهم شهد الله بالفضل واغنوا غناءهم في جانب الآداب . ولكن
هو الرأي يصدره الصغير امام الكبير ولا اثم عليه ولا حرج . نريد ان نقول ان
عمر الطالب يقصر عن استيعاب جميع ما كتبه المنشئون في هذه الملة تصفحاً
ودرساً . فالأولى ان يختار الزبدة ويأخذ الالهم فالاهم بما يعينه على تحسين ملكته
في البيان ، وما نخاله من حيث الاسلوب لا يخترع طريقته بنفسه ، متى تمت أدواته
اللازمة ، وأتقن مالا غنية عنه من نحو اللغة وصرفها وبيانها وبلاغتها . والأولى
الاقتصار في الدراسة على من أجمعت الامة على تبريزهم في هذه الصناعة كهمرو
ابن بحر الجاحظ وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد بن يحيى وسهل بن هرون وأحمد
ابن يوسف واضرابهم ممن كتبوا مع طبعهم غير متعلمين . وما قيل في الكتاب
يقال في الشعراء جاهليهم ومخضرميهم ومولديهم وهم بحمد الله كثيرون جداً
والأولى الاقتصار على بضعة من الشهود لهم بالاجادة المتناهية . أما أدب أهل
العصور المتأخرة فان الطالب يقرأه حب الاطلاع أو لاخذ مادة عن تاريخ الادب
في عصورهم وبعبارة أوجز يعتمد في البيان على القدماء من قبل الاسلام الى
أواخر القرن الرابع كما يأخذ المعلوم عن المحدثين من أمم الحضارة وغيرهم
لاجرم ان الادب العربي قد اتسع أمامه مجال التجدد الآن وما حدث فيه
من التطور منذ نحو مائة سنة فكاد يلحقه بأدب الغربيين إلا قليلاً ، دليل على
قابلية هذه اللغة - بما فيها من الفصيح والمترادف والقلب والابدال ومالا تأباه
من التصريف والاشتقاق والوضع والدلالة والمجاز والكنائية - للتجدد في كل
عصر وبرهان على مرونتها للاخذ بالاصلاح على قاعدة الانتخاب الطبيعى مع مراعاة
قواعدها وروابطها التي استقرت باستقرار القرآن الكريم
ولذلك ساع لنا ان نقول : ان لغة القرآن صالحة للمدينة في كل زمان ومكان
وان أدبا عرف تاريخه منذ خمسة عشر قرناً هو من السعة بحيث لا يتسع مبحث
صغير كهذا لاستيعاب جرمه الكبير .

الخطابة عند العرب

(١) توطئة

دللتنا الحرب الحاضرة على كثير مما ينقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الأمم الغربية وكانت فاشية في القديم عند أجدادنا . ومن ذلك صناعة الخطابة وهي من أجل العوامل في تربية النفوس أيام الحرب والسلم أو في بث دعوة أو سفارة بين متخاصمين أو متحابين واقناع يوم الحفل ، واستمالة الافكار الى رأى أو حزب في المجالس والمؤتمرات والجامع والجوامع ، لاستغنى عنها أمة دستورية يحكمها مجلس نوابها اذ أن التنفير من مسألة والتذكير باخرى لا يتم الا بقوة البيان ، وسلاطة اللسان ، وفصاحة الحجة ، وظهور المحجة

والسبب في قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى اذا انقلبت الى حكومة شورية أحسننا بنقص في عامة مكونات الأمم ، وكان خطباؤنا المصاقع يعدون على الاصابع في جميع أدوار مجلسنا النيابي والمبرز منهم من كتب له ان كان أستاذاً في مدرسة أو مدرساً في جامع ففتقت السن أهل هذه الطبقة وقليل ماهي على أيسر وجه لانها كانت على جانب من الفضل ، ومعرفة باصول المجالس ، أما أكثر النواب فكانوا بمعزل عما ينبغي لهم من أدوات الفهم والكلام ، والحرية فضاحة فضحتنا بقللة المتكلمين والمفكرين منافع ان الخطابة مما أوجبته علينا الشريعة الاسلامية ، كما ظهر أمرنا ، وتبين عجزنا ، واستبان أفلاسنا في مسائل العلم والتأليف

فقد كان بعضهم يوهمون ان طبائع الحكومة المطلقة وهي قائمة بكم اللسان وحجز الأقلام هي التي تحول دونهم وما يشتهون من انبعاث علمهم ونشر اجاثهم ودروسهم وظهور أثر فضلهم ، وأدبهم وتحقيقهم ، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم وانهم لا يتوقعون الادور انطلاق ، حتى يظهروا ما كنتم صدورهم من العلوم والفنون وها نحن نعيش في ظل الحكومة الدستورية ولم نشهد أثراً لغير من عرفوا من قبل بالفهم والعلم ، وجل ما اتصل بنا انه نشرت مباحث ومناقشات قلما تفيد أمة تريد النهوض من طريق العلم والعمل

نحن موقنون ان التبريز في الخطابة صعب ، ولكن بالتعلم والمعاناة يصل المرء الى درجة حسنة في الجملة ، وفي العادة ان يكون النوابع قلائل في كل فن فاذا عد في الأمة عشرة منهم في كل شأن ومطلب تعدغنية بعلمها وعقلها . ولا انحطاط الخطابة الدينية في هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لا يسمعون خطباً لا كتبها الألسن منذقرون وليس فيها شيء من النفع ، ولقلة المجيدين بل المتوسطين في هذه الصناعة غدا الناس يسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلاً عامياً ، بل أُمياً غيبياً ، وعلى العكس رأينا في بعض البلاد خطباء بعض المساجد مجودين في الجملة يقولون ماله معنى في الوعظ والارشاد قد حببوا غشيان المساجد لمن كانوا لا يعرفونها ، وبتأثير الاخلاص والاجادة والكلام بحسب طبائع القوم ، وحاضر العصر ، كثر العاملون بأحكام الدين القائمون بتكاليفه .

وبلغت حال الانحطاط في ضعف البيان . وفسولة الرأي والحجة ، بأكثر خطباء الجوامع ومنهم الأميون الذين لا يكادون يقرأون الكتاب ان أصبحت نصف خطبهم زهداً في الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ثم هم يدعون بادية مردودة في الشرع شأنهم في بيان فضائل الشهور والايام والبلدان والجوامع حتى خطب بعضهم وكان حشويّاً جالجلوتياً في أعظم جامع في هذه البلاد عند ارادة الحث على تجديد بنائه فقال : ان الصلاة فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة وأورد لذلك أحاديث لا تعرفها الا عقول الوضاعين والقصاصين ، ولطالما خطبوا ان من صام يوم كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر الى غير ذلك من البدع والفضول التي لم تأت بها شريعة الرسول وقد أنكرها أئمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولا سيما شيخ الاسلام ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٢٨) وابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١) وابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٧

ولو كان الخطباء على جانب من فهم أسرار الشريعة ، ومعرفة طرق البلاغة ، وما يصلح الناس ، ما عالجوا من الموضوعات ما يرجع بالناس القهقري ، هذا في الخطب الدينية ، أما الخطب المدنية فهي أيضاً تنصرف على ذاك النحو نصفها تحميدات ومقدمات ، واعتذارات وسخافات ، واستطرادات منوعات ، ولو محصت

لما بقي منها الا التفاهة اليسير من المعاني . اما تأثيراتها في الافكار فضعيفة جداً .
ولعل هذا النقص البين يتلافاه أساتذة المدارس الابتدائية والوسطى والعليا
بتمرين طلبتهم أبدأ على الالتقاء وممارسة الكلم الفحل يوم الحفل وفي النوازل
والأمور العامة ، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد
في طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ويعرن الجميع على كتابة ما يريدون الخوض
فيه ، وعلى استظهاره أو القائه على نحو ماسارت الامم الحديثة والامم القديمة
الراقية ، فينبغ فيها خطباء ووعاظ ومرشدون داووا جهالة شعوبهم بأساليب
القول الجزل ، والمنطق الخلاب والبرهان الساطع
وهانحن نخطط لطلاب هذا الفن الطريق الذي سلكته العرب في تقوية ملكة
البيان ، معتمدين في النقل على أئمة هذا الشأن مشيرين الى تاريخ الخطابة ،
والمجودين فيها من أهل هذا اللسان ، قبل الاسلام وبعده تلقيحاً للعقول واهابة
بها الى ما يصلحها ويزكيها بالبلاغة فنقول :

(٢) حد الخطابة وأقسامها

نقل ابن رشد ان الخطابة صناعة تتكلف الاقناع الممكن في كل مقولة من
المقولات وغايتها اقناع الجمهور فيما يحق عليهم ان يصدقوا به من الامور السياسية
والوظائف الشرعية وقال أبو البقاء : الخطابة هي الكلام النفسى الموجه به نحو
الغير للافهام : قالوا : وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره
ولذلك كان على الخطيب ان يلم بكل صنف من المعارف فوجب عليه لبلوغ هذه
الأمنية ان يتبحر في العلم ويتفنن في ضروب الفهم حتى كان شيشرون خطيب
الرومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير
والنقش والموسيقى وغير ذلك

ومعنى اقناع الجمهور ارضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة
في الخطيب وهناك يقتضى له من العلم الواسع ونفاذ البصيرة وحضور الذهن وقوة
التأثير وطلاقة اللسان ولطف البيان ما يستميل به الجمهور اليه في موضوع ويصرف
أذهانهم عن أمر ويوجه أنظارهم الى آخر ويجرضهم ويقنعهم ولذلك أدخل الحكماء
الخطابة الشعر في أقسام المنطق كما نقل عن ارسطو لان المقصود منه أن يوصل الى

التصديق وأصولها عندهم ثلاثة الاول إيجاد المعانى الحقيقية بالاقناع من الادلة والآداب والثاني تنسيق المعانى أى سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطبة وارتباط أقسامها بحيث تكون آيين غرضاً واحسن فى النفوس وقهاً والثالث التغير الذى يراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعانى فى ألفاظ تنشر بها نفسه وتمتزع باجزاء فهمه . ويمكن ارجاع الخطابة الى قسمين : الخطابة المدنية والخطابة الدينية فالمدينة يتصرف تحتها كل ما فيه اصلاح المدينة والخطابة الدينية كل ما يرجع الى تطهير النفوس ليكون لاهلها مدينية فاضلة فى الدنيا وسعادة شاملة فى الاخرى الخطابة نوع من منشور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق وابلاغها النفوس من دون اتعاب ذهن ولا تكلف فى الاداء ومن النظم سلاسته وتأثيره فى النفس وقد كانت العرب فى جاهليتها تقدم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها الى الشعر الذى يقيدها ما ترها ويفخم شأنها ويهول على عدوها ومن غزاها ويهيب من فرسانها ويخوف من كثرة عددها ويهايبها شاعر غيرها . قال أبو عمرو بن العلاء : فاما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا الى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب . الخطيب والوصايا متقاربة يقصد بالاولى قوم لا على سبيل التعمين والتخصيص ، فتكون فى المشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتشاجر ، وامام العطاء والملوك والامراء والوفود ، وفى الصلح واشهار الحرب ، وفى الخطوب والنوازل ، أما الوصايا فتكون لقوم بعينهم فى زمن مخصوص على شىء منصوص وربما كانت من شخص لاهل بيته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو أجل أو هجرة فى الارض

(٣) الخطابة والانبياء

ذكروا ان العرب عنيت بالخطب فى جاهليتها أكثر من عنايتها بها فى الاسلام ولم يظهر لنا سر هذا لاننا رأينا هدى النبيين والمرسلين على خلاف ذلك رأينا الرسول صلوات الله عليه لم يتعلم الشعر وما ينبغى له وكان سيد الخطباء بلا مرء ، وكلامه خطب وحكم وبسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين ولكن كثر الشعراء أكثر من الخطب

لأن الشعر أقرب الى تقييد المآثر والتأثير ، ولأنه يحتمل من الخيال والحال ، ما لا يحتمله الخطاب بحال من الاحوال

قال صاحب (الريحان والريعان) : ان ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ، ومزدوج الكلام ، أكثر مما تكلمت به من الموزون الا انه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره لان الخطيب انما كان يخطب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهته الملوك أو الحالات أو الاصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح فاذا انقضى المقام حفظه من حفظه ونسيه من نسيه بخلاف الشعر فانه لا يضيع منه بيت واحد : قال ولولا أن خطبة قس بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الانام وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فاطر ذكرها ما تميزت عما سواها .

قال (القلقشندي) : وليس ما أشار اليه لرفض النثر عندهم ، وقلة اعتناءهم به لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم وخاصهم وعامهم بخلاف الخطابة فانه لم يتعاطها منهم الا القليل النادر من الفصحاء المصاقع فلذلك عز حفظها وقل عنهم نقلها وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدر الفضل ، وسبق الى زرى المجد . ويخصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويثني عليه ثم يذكر ما سنج له من مطابق قصده وموافق طلبه من وعظ يذكر ، أو فيخر ، أو اصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام

نعم ان الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لانهم يدعون الى الله ويكلفون بارشاد الخلق وهذا يقتضي البلاغة والبيان المتناهي لذلك قال موسى : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . وذلك لانه كان به لثغة فخشي أن يعدها قومه عيبا ، ويلووا بوجوههم عن دعوته ، أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الانبياء لما ورد في الكتاب العزيز من أسلوبه البديع في البيان وتلفظه في ابلاغ دعوته الى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة قال تعالى : (والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيا والميزان اني أراكم بخير

وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيظ ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . إلى أن قال . ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقي منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب : وياقوم لا يجر منكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود

ولشرف الخطابة وتأثيرها في تطهير النفوس أوجبها الشارع وسنها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة وعيد وفي الحج أى في عرفة وأوجب على الحضور التزام الأدب مع الخطيب بل علمهم حسن الاصغاء وفي الحديث : إذا قلت لصاحبك والامام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت . ولم يعين الشارع للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم موضوعاً خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدى الشارع ما يهذب به أرواحهم ويهيب بهم إلى بارئهم ، ويغرس فيهم مكارم الاخلاق ، ويطبعمهم بطابع الفضائل ويحذرهم البغى والظلم ، ويستل بلطف أسلوبه سخائمهم واحقادهم ، ويأمر بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويزين لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات

(٤) البلاغة للعرب

قال الجاحظ : انا لا نعرف الخطب الا للعرب والفرس وأما الهند فانما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ، وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة ، مذكورة ، ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان مع علمه بتميز الكلام وتفصيله . ومعانيه بخصائصه . وهم يزعمون ان جالينوس كان انطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفي الفرس خطباء الا ان كل كلام للفرس . وكل معنى للعجم . فانما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكير ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الاول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم وكل شيء للعرب فانما هو بديهية وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة ففكرة ولا استعانة ، وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصاص ، أو حين أن يمنح على رأس بر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناظرة أو عند صراع أو في حرب فها هو الا أن يصرف همه الى جملة المذاهب ، والى العمود الذي يليه بقصد ، فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر وأمهر ، وكل واحد في نفسه انطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطبائهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ ، أو يحتاجوا الى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب وان شيئاً الذي أبدينا جزء منه لبالمقدار الذي لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون .

« ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرواق العجيب ، والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان ، ان يقول في مثل ذلك الا في اليسير والنبد القليل ، ونحن لانستطيع ان نعلم ان الرسائل التي في أيدي الناس للفرس انها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون ان يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير . وأخري انك متى أخذت

يبد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخلف ، ومعدن الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفلق ، أو خطيب مصقع ، علم ان الذى قلت هو الحق وأبصر الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا وبينهم فتفهم عن فهمك الله ما أنا قائل »

هذه حجة الجاحظ فى أن العرب أفصح الأمم وقال أيضاً : « ان جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، على حزين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به ، وموضوع يحسن به ، ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة ، ومشاكل فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان ، والنتف الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شئ يستحق الحفظ وإنما حفظها التخليد فى بطون الصحف . قال ومتى شا كل ابقاك الله ذلك اللفظ معناه ، وأعرب عن خواه ، وكان لتلك الحال وفقاً ، ولذلك القد نفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وبانتفاع المستمع ، وأجدر ان يأمن جانبه من تناول الطاعنين ، ويحمى عرضه من اعتراض العيانيين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومن كان اللفظ أيضاً كريماً فى نفسه ، متجيراً فى جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب الى النفوس ، واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، ودهشت اليه الاسماع ، وارتاحت له القلوب وخف على السن الرواة ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وعظم فى الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الرريض .

فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان ممن يعم ولا يخص . وينصح ولا يغش ، وكان مشغولاً بأهل الجماعة ، شنفقاً لأهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسبقت اليه القلوب بازمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الالهواء على محبته ، وجبات على تصويب ارادته ، ومن أعاره الله من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنباً ، حنت اليه المعاني ، وسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف ، وأراح قارىء الكتاب من علاج التفهم ، ولم أجدر فى خطب السلف الطيب ، والاعراب الاقحاح ، ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً ردياً ، ولا قولاً مستكراً ، وأكثر مانجيد ذلك فى خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة

المتأدين سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج
التخير والتفكير اهـ

(٥) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

تقدم لك قانون البلاغة والخطابة الذي وضعه عمرو بن بحر الجاحظ في صفحة
وتدارسه يغني طالب الخطابة عن كتاب ، ورب مقالة خير من سفر ، ولقد عرفت
العرب مع ما كانت عليه من الغريزة الفاتنة في البيان صعوبة الخطابة وانها لا يوفق
اليها إلا أفراد ولذلك كانت تكرم الخطيب أكثر من اكرام الشاعر . وقد
ضربت المثل بالخطيب في قولها . (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو
المكان الذي تعرض فيه الدواب . وقالوا « عقل المرء من فوق لسانه » وكانت تتعاير
بالفهاة وقلة الاجادة في البيان . وتقول : نعوذ بالله من الالهمال . ومن كلال
الغرب في المقال . ومن خطيب دائم السعال . قال بشر بن معمر في مثل ذلك

ومن الكبائر مقول متعجب جم التخنخج متعب ميهود
وقال شاعرهم يعيب بعض خطبائهم :

ملء بهر والتفات وسعلة ومسحة عتنون وفتل الاصابع

وضربوا المثل بالبلاغة بسحبان وائل فقالوا فلان اخطب من سحبان كما
ضربوا المثل بالعي في الكلام بياقل فقالوا فلان أعى من باقل . وقد جمع الجاحظ
في البيان والتبيين كثيراً من أخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء ومما قال :

وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم
إطالة الخطبة باعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة ، وعن الحصر من فوق
درك الحاجة . والناس لا يعيرون الخرس . ولا يلومون من استولى على بيانه العجز
وهم يذمون الحصر . ويؤنبون العي . فان تكلفنا مع ذلك مقامات الخطباء .
وتعاطيا مناظرة البلغاء . تضاعف عليهما الذم . وترادف عليهما التأنيب . ومماتة
(ماطلة) العي الحصر البليغ المصقع . في سبيل مماتة المنقطع المفحم للشاعر المفلق
وأحدهما الوهم من صاحبه . والالسنه اليه أسرع . وليس الاجلاج « المتردد في
كلامه » والتمتام « من تسبق كلمته الى خنكه الاعلى والتمتمة رد الكلام الى التاء

والميم « والالئغ » الذى يحول لسانه من السين الى الشاء أو من الراء الى الغين «
والفاء « مردد الفاء » وذو الحبسة « الذى لا يسمع قوله » والحكمة « الذى
لا يسمع صوته » والرتة « العجمة » وذو اللقف « عي بطيء الكلام اذا تكلم
ملاً لسانه فيه » والعجلة فى سبيل الحصر فى خطبته والى فى مناضلته خصوصه كما
أن سبيل المفحم عند الشعراء والبكىء عند الخطباء . خلاف سبيل المسهب الثرثار
والخطل المكثار

ثم اعلم أبقاك الله ان صاحب التشديق « تكلف البلاغة » والتقمير « التكلم
باقصى النعم » والتقمير « تقصير الكلام » من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف
وشنعة التزيد . أعذر من عي يتكلف الخطابة . ومن حصر يتعرض لاهل الاعتياد
والدربة ومدار الأئمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف . وبياناً
يمارجه التزيد : الا ان تعاطى الحصر المنقوص مقام الدرب التام . أقبح من تعاطى
البليغ الخطيب . ومن تشادق الاعرابى القح . وانتحال المعروف ببعض الغزارة
فى المعانى والالفاظ وفى التعبير والارتجال انه البحر الذى لا ينزح . والغمر لا
يسير أيسر من انتحال الحصر المنخوب « الجبان » انه فى مسلاخ « صفة » التام
الموفر والجامع المحكك وان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : إياى
والتشادق . وقال . أبغضكم الى الثرثارون المتفهبون . وقال : من بدا جفا . وعاب
العدادين (الشديدى الصوت) والمتزידين فى جهارة الصوت . وانتحال سعة
الاشداق . ورحب العلاصم . وهذل الشفاء « ارساها الى أسفل » وأعلمنا ان
ذلك من أهل الوبر أكثر وفى أهل المدر أقل . فاذا عاب المدرى . بأكثر مما
عاب به الوبرى . فما ظنك بالمولد القروى . والمتكلف البلدى . فالحصر المتكلف
والعى المتزيد الوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده . وهو أعذر لان الشبهة
الداخلية عليه أقوى فمن أسوأ حالا أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشادقين .
ومن الثرثارين المتفهبين . ومن ذكره النبى صلى الله عليه وسلم نصاً . وجعل
النهى عن مذهبه مفسراً . وذكر مقتله له وبغضه إياه

(٦) الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشعر ملكة فطرية وملكة كسبية . اذا صاحبت

فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب . كل قول عجيب . وقد كان دمرستينوس وهو أخطب خطيب عند اليونان — كما ان شيشرون أخطب خطيب عند الرومان خطب في الجمهور أول مرة ولم يحسن الالتقاء لانه كان ألثغ مثل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة وكان ضعيف الصوت فحاول اصلاح ذلك وتمكن منه بوضع حصاة في فمه وانشاد أبيات وهو يركض على شاطئ البحر ويرتقى الروابي والآكام قال الجاحظ أخبرني محمد بن عباد وكان شاعراً راوية وطلابة للعلم علامة قال سمعت ابا داود بن جرير يقول وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه ، وصعوبة ذلك المقام وأهواله فقال : تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر في عيون الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه أول الكلام أسهاب ، قال : وسمعت يقول : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه

وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال : اني لأكره ان يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله ، قال أبو عثمان الجاحظ : هذا كلام شريف نافع ، فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه ، ثم اعملوا ان المعنى الحقير الفاسد ، والدنى الساقط يعيش في القلوب ، ثم يبيض ثم يفرخ ، فاذا ضرب بجراحه ، ويمكن بعروقه ، استفحل الفساد وبزل ، وتمكن الجهل وفرخ ، فعند ذلك يقوى دأؤه ، ويمتنع دواؤه ، ولأن اللفظ الهجين الرديء ، والمستكره الغبي ، أعلق باللسان ، وآلف للسمع . أشد التحاماً بالقلب ، من اللفظ النبیه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم ولو جالست الجهال والنوكى ، والسخفاء والحمقى ، شهراً فقط لم تنقذ من أضرار كلامهم ، وخيال معانيمهم ، بمجالسة أهل البيان والعقل دهوراً ، ولأن الفساد أسرع الى الناس ، وأشد التحاماً بالطبع ، واللسان بالتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف الى العلماء ومدارسه كتب الحكمة ، يجود لفظه ، ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك التعلم ، وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التخيير

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدى : ما هذه البلاغة التي فيكم قال : شئء تجيش به صدورنا ، فتقذفه على ألسنتنا ، فقال له رجل من عرض القوم : يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبشر والرطب . أبصر منهم بالخطب ، فقال له صحار : اجل والله انا لنعلم ان الريح لتنقحه ، وان البرد ليعقده ، وان القمر ليصبغه ، وان الحر لينضجه

قال أبو عثمان : قال صاحب البلاغة والخطابة ، وأهل البيان وحب التبیین ، انما عاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتشادقين والثرثارين ، والذي يتخلل بلسانه ، كما تتخلل الباقرة بلسانها ، والاعرابى المتشادق ، هو الذي يصنع بفكيه وشدقيه ما لا يستجيزه اهل الادب من خطباء أهل المدر ، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب ، والذم له أئزم ، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً يتمثلون بها الا لما فيها من المرافق والانتفاع ومدار العلم على الشاهد والمثل ، وانما حثوا على الصمت ، لان العامة الى معرفة خطأ القول ، أسرع منهم الى معرفة خطأ الصمت ، ومعنى الصامت فى صمته أخفى من معنى القائل فى قوله ، والا فالسكوت عن قول الحق ، فى معنى النطق بالباطل ولعمري ان الناس الى الكلام لأسرع ، لان فى أصل التركيب ان الحاجة الى القول والعمل ، أكثر من الحاجة الى ترك العمل ، والسكوت عن جميع القول ، وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله ، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله ، بل قد علمنا ان عامة الكلام ، أفضل من عامة السكوت ، وقد قال الله عز وجل ، سماعون للكذب أ كالون للسحت . فجعل سمعه وكذبه سواء وقال الشاعر :

بنى عدى ألا ينهى سفيهم ان السفیه اذا لم يینه مأمور

وقال الآخر :

فان انا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلج ويستشري وكيف يكون الصمت انقع ، والا يثار له افضل ، ونقعه لا يكاد يجاوز رأس حبه ، ونقع الكلام يعم ويخص ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين ، كماروت كلام الناطقين ، وبالكلام أرسل الله انبياءه لا بالصمت ، ومواضع الصمت

المحمودة قليلة ، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة ، وطول الصمت يفسد البيان وقال ابو بكر بن عبد الله المزني : طول الصمت حبة كما قال عمر : ترك الحركة عقلة . واذا ترك الانسان القول ماتت خواطره ، وتبلدت نفسه ، وفسد حسه ، وكانوا يروون صبيانهم الارجاز ، ويعلمونهم المناقلات ، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الاعراب ، لأن ذلك يفتق الالهة ، ويفتح الجرح (الصوت) ، واللسان اذا كثرت تحريكه رق ولان ، واذا أقللت تقلبيه وأطلت اسكاته جسا وغلظ ، وقال عبادة الجعفي : لولا الدربة وسوء العادة ، لأمرت فتياننا أن يمارى بعضهم بعضاً ، وأية جراحة منعتها الحركة ، ولم تمرنها على الاعمال ، أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع

(٧) نصائح لطالب الخطابة

مر بشر بن المعتمر بابراهيم بن جبلة الخطيب وهو يعلم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر : اضر بوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه ، وكان أول ذلك الكلام : خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وفرغ بالاك ، واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً وأحسن في الاسماع ، وأحلى في الصدر ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين ، وعزة من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، وأعلم ان ذلك أجدى عليك ، مما يعطيك يومك الا طول بالكد والمطاوله والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة ، ومهما أخطأك لم يخطئك ان يكون مقبولا قصداً ، وخفيفاً على اللسان سهلاً ، وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه ، واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراع معنى كريماً ، فليلتمس له لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما ان تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما ، وترتهن نفسك بملاستهما وقضاء حقهما ، وكن في ثلاث منازل ، فان أولى الثلاث ان يكون لفظك رشيقاً عذباً ، ونفها سهلاً ،

ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتصنع بأن يكون من معاني العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب ، واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، لطف مدالك ، واقتدارك على نفسك ، على ان تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الالفاظ الواسطة التى لا تطف عن الدهاء ، ولا تجفو عن الكفاء ، فانت البليغ التام

قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان . قال أبو عثمان : اما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقيماً واذا سمعتمونى اذكر العوام ، فاني لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعه ، ولست أعنى الا كراد فى الجبال ، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعنى من الامم مثل اليبير والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ، وانما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الامم لم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضاً .

قال بشر : فان كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تهتريك ، ولا تسنج لك عند أول نظرك ، وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة التى لم تقع موقعها ، ولم تصر الى قرارها والى حقها من أما كتبها المقسومة لها ، والنافية لم تحل فى مركزها ، وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الاماكن والنزول فى غير أوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختبار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك ، نصيراً بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك انه فوقك

فان ابتليت بان تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة ، وتعصى عليك بعد اجابة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه يياض يومك أو سواد ليلك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ، ان كانت هناك طبيعة ، أوجريت من الصناعة على عرق ، فان تمنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول ايهال ، فالمنزلة الثالثة ان تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فان لم تشبهه ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب ، والشئ لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة

(٨) ما يجب على الخطيب وما لا يجب

قال بشر بن المعتمر : وينبغي للمتكم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ، ويقسم اقدار المعاني على أقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات ، فان كان الخطيب متكلاً تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه ان عبر عن شئ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الالفاظ به ألفاظ المتكلمين اذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، والى تلك الالفاظ أميل واليها أحسن وبها أشغف ، ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا تلك الالفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الاسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع

قالوا : وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين أو على المنبر أوفى سدة دار الخلافة أوفى يوم جمع وحفل اما في اصلاح بين العشائر واحتمال دماء القبائل واستئلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخيم الشأن رفيع المكان : ثم ان الله عز وجل بعد ان أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم لاشاهم فتلاشوا ولولا ان المتكلم افتقر الى أن يلفظ بالتلاشي لكان

ينبغي أن يؤخذ فوق يده . وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته :
وأخرجه الله من باب اليبسية فأدخله في باب اليبسية الخ . قال : وكما لا ينبغي أن
يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن
يكون المتكلم بدوياً أعريباً فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما
يفهم السوقى رطانة السوقى ، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات
فمن الكلام الجزل والسيخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسميج ، والخفيف
والثقل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعابوا

فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، ولا بينهم في ذلك تفاوت ،
فلم ذكروا العى والبكى ، والحصر والمنجم ، والخلط والمسهب ، والمتشدد
والمتفهيق ، والمهزار والثرثار ، والمكثار والهزاز ، ولم ذكروا الهجر والهذر ،
والهذيان والتخليط ، وقالوا رجل تلقاة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدد)
وفلان يتلهمع في خطبته وقالوا فلان يخطىء في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض
في خبره ولو أن هذه الامور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي
ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الاسماء . قال أبو عثمان وأنا أقول أنه ليس في
الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنف ولا ألد في الاسماع ولا أشد اتصالا
بالعقول السليمة ولا أفنق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث
الاعراب الفصحاء العقلاء العلماء البلغاء

يروى أن مطرف بن عبد الله كان يقول : لا تطعم طعامك من لا يشتهي .
ويقول لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه . وقال عبد الله بن مسعود :
حدث الناس ما جدجوك باسماهم ولخطوك بأبصارهم ، فإذا رأيت منهم فترة
فأمسك قال : وجعل ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له حيث تسمع كلامه فلما
انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامي قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده
فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون
قد مله من فهمه . قال عباد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال : مكتوب في التوراة
لا يعاد الحديث مرتين . وسفيان بن عيينة عن الزهري قال : إعادة الحديث أشد
من نقل الصخر . وقال بعض الحكماء : من لم ينشط لحديثك ، فارفع عنه مؤنة

الاستماع منك ، وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حدي يحصره من العوام والخواص
قال ثمامة بن اشرس : كان جعفر بن يحيى أطلق الناس ، قد جمع الهدو والتهل ،
والجزالة والحلاوة ، وافهماً يغنيه عن الاعداء ، ولو كان في الارض ناطق يستغنى
بمنطقه عن الاسارة لاستغنى جعفر عن الاشارة كما استغنى عن الاعداء وقال مرة :
مارأيت أحداً كان لا يتجسس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنج ولا يرتقب
لفظاً قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد
اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى
ما البيان : قال ان يكون الاسم يحيط بمعناك ويحلى عن مغزاك ، وتخرجه من
الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بد منه ان يكون سليماً من التكلف
بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل

قال أبو عثمان : أعيب عندهم من دقة الصوت وضعف مخرجه وضعف قوته
ان يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرعدة والعرق . قال أبو الحسن : قال
سفيان بن عيينة : تكلم صمصمة عند معاوية فغرق فقال معاوية : بهرك القول
فقال صمصمة : ان الجياد نضاجة بالماء . والفرس اذا كان سريع العرق وكان هشاً
(كثير العرق) كان ذلك عيباً وكذلك هو في الكثرة واذا أبطأ ذلك وكان قليلاً
قيل قد كبا وهو فرس كاب وذلك يجب أيضاً

(٩) لطالب الاجادة في خطبته

رأيت بماضى بعض العيوب التي يجب على الخطيب ان يربأ بنفسه عنها مما ذكره
أبو عثمان الجاحظ وهاك الآن قطعة أخرى له قال : قال بعض الربازين من الادباء
وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشاقد والتعمق ، ويبغض الاغراق في القول ،
والتكلف والاجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودواؤه وما يعترى المتكلم
من الفتنة بحسن ما يقول وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذي يورث
الاقتدار من التهمك والتسلط والذي يمكن الحاذق المطبوع من التمويه للمعاني
والخلافة وحسن المنطق . قال في بعض مواعظه : أنذركم حسن الالفاظ وحلاوة
مخراج الكلام فان المعنى اذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأغاره البليغ مخرجاً سهلاً
ومنحه المتكلم قولاً متعشقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملاً والمعاني اذا

كسيت الالفاظ الكريمة ، والبست الاوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق اقدارها ، بقدر مازينت ، وعلى حسب ما زخرفت ، فقد صارت الالفاظ في معنى المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجوارى . والقلب ضعيف . وسلطان الهوى قوى . ومدخل خدع الشيطان خفى . فاذا كر هذا الباب ولا تنسه . وتأمله ولا تفرط فيه . فان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لم يقل للاخنف بعد ان احتبسه حولا مجرماً (تاماً) ليستكثر منه وليبالغ في تصفح حاله والتنفير عن شأنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان خوفنا كل منافق عليم . وقد خفت أن تكون منهم . الا لما كان راعه من حسن منطقته ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه قال الجاحظ : فالتقص في ذلك أن تحتنب السوقي والوحشى . ولا تجعل همك في تهذيب الالفاظ وشغلك في التلخيص الى غرائب المعاني وفي الاختصار بلاغ وفي التوسط مجانبة للوعورة وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه

وقد رد الجاحظ على من زعم ان البلاغة ان يكون السامع يفهم معنى القائل ، وجعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والممحون والمعرب كله سواء وكله بيانا قال : وكيف يكون ذلك كله بيانا ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفساد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه الا للتقص الذى فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معانى هؤلاء باكملهم (؟) كما لا يعرفون ركازة الرومى والصقلى وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأننا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بمحممة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بمواء السنور كثيراً من ارادته وكذلك السكب والحمار والصبي الرضيع

قال : وكانوا يمدحون شدة العارضة وقوة اللسن وظهور الحججة ، وثبات الجهاد ، وكثرة الريق ، والعلو على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك . ثم قال : وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة والتجوير والبلاغة والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلطة والهدر . والتكلف والاسهاب . والاكثر لما فى ذلك من التزيد والمباهاة واتباع الهوى . والمنافسة فى العلو والقدر . وكانوا يكرهون

الفضول في البلاغة لان ذلك يدعو الى السلاطة . والسلاطة تدعو الى البذاء . وكل مرء في الارض فانما هو من نتاج الفضول . ومن حصل كلامه وميزه . وحاسب نفسه وخاف الاثم والذم . اشفق من الغرارة . وسوء العادة . وخاف ثمرة العجب . وهجنة القبح . وما في حب السمعة من الفتنة . وما في الرياء من مجانبه الاخلاص

قال : وكانوا يأمرؤن بالتبين والتثبت . وبالتحرز من زلل الكلام . ومن زلل الرأى ومن الرأى الدبرى . والرأى الدبرى هو الذى يعرض من الصواب بعد مضى الرأى الاول وفوت استدراكه . وكانوا يأمرؤن بالتعلم والتعلم وبالتقدم فى ذلك أشد التقدم قال : وأنا أوصيك ان لاتدع التماس البيان والتبيين . ان ظننت ان لك فيهما طبيعة . وانهما يناسبانك بعض المناسبة . ويشا كلانك فى بعض المشاكلة ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة القرحة . ويستبد بها سوء العادة . وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ فى الخطابة والبلاغة . وبقوة المنة يوم الحفل . فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة . وأرفعها فى البيان منزلة ولا يقطع عنك تهيب الجهلاء . وتخويف الجبناء . ولا تصرفك الروايات المعدولة عن وجوها . والاحاديث المتناولة على أقبح مخارجها . فان أردت ان تتكلف هذه الصناعة . وتنسب الى هذا الادب . فقرضت قصيدة . أو حبرت خطبة . أو ألقت رسالة ، فايك ان تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بشمرة عقلك ، الى ان تنتحله وتدعيه . ولكن اعرضه على العلماء فى عرض رسائل أو أشعار أو خطب . فان رأيت الاسماع تصغى له . والعيون تزدج اليه . ورأيت من يطلبه ويستحسنه . فانتحله وان كان ذلك فى ابتداء أمرك أو فى أول تكلفك فلم تر طالباً ولا مستحسنأ فلعله أن يكون ما دام ريضاً أن يحل عندهم محل المتروك فان عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الاسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية . فخذ فى غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذى لا يكذبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه . قال : وقد يكون الرجل له طبيعة فى الحساب وليس له طبيعة فى الكلام ويكون له طبيعة فى التجارة وليس له طبيعة فى الفلاحة . ويكون له طبيعة فى الحذاء . أو فى التعبيرات فى القراءة بالالخان وليس له طبيعة فى الغناء

وان كانت هذه الانواع كلها ترجع الى تأليف اللحن ويكون له طبيعة في الناي ، وليس له طبيعة في السرناي ، ويكون له طبيعة في قصبة الراعي . ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين . ويكون له طبع في صناعة اللحن . ولا يكون له طبع في غيرها ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع . ولا يكون له طبع في قرص بيت شعر . ومثل هذا كثير جداً

وقال ليس في الارض كلام هو أمتع ولا أنفع . ولا آتق ولا ألد في الاسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة . ولا أفتق لسان . ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا إلا اني أزعج أن سخييف الالفاظ مشاكل لسخييف المعاني وقد يحتاج الى السخييف في بعض المواضع . وربما أمتع بأكثر من أمتع الجزل الفخم ومن الالفاظ الشريفة الكريمة من المعاني . كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً وانما الكرب الذي يحتم على القلوب ويأخذ بالانفاس النادرة الفاترة التي هي لا حارة ولا هي باردة . وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط وانما الشأن في الحار جداً والبارد جداً وكان محمد ابن عباد ابن كاسب يقول : والله لفلان أثقل من مغن وسط وأبغض من ظريف وسط . قلنا وهذا يشبه ما قاله لابرويير في كتابه الأخلاق : من الاشياء مالا يطاق فيه التوسط : الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العام .

قال اسحق بن حسان بن فوهة : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد ، سئل ما البلاغة قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في أمور كثيرة ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعمامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها ، والاشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة فاما الخطب بين السماطين ، وفي اصلاح ذات البين ، فلا كثار في غير خطل ، والاطالة في غير أملال ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته ،

كانه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل على عجزه فانه لاخير في كلام لا يدل على معنائك ، ولا يشير الى مغزاك ، والى العمود الذى اليه قصدت ، والغرض الذى اليه نزلت قال فقل له : فان مل المستمع الاطالة التى ذكرت أنها حق ذلك الموقف . قال : اذا أعطيت لكل مقام حقه وقت بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فانه لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فليست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيء لا ينال .

(١٠) خطباء الجاهلية والاسلام

قال الجاحظ فى الخطباء من يكون شاعراً ويكون اذا تحدث أو وصف أو احتج بليغا مفوها بينا ، وربما كان خطيبا فقط وشاعراً فقط ، وبين اللسان فقط ، ومن الشعراء الخطباء الانبياء الحكماء قس بن ساعدة الايادى والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم . ومن يجمع الخطابة والشعر قليل . ومنهم عمرو ابن الاثم المنقرى وهو المكحل . ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشعى واسمه خدش بن بشر بن لبيد . ومن الخطباء الشعراء الكميث بن زيد لاسدى وكنيته أبو المستهل ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائى وكنيته أبو نقر . ومنهم عمران بن حطان وكنيته أبو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياتهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلامة . ومنهم القعقاع بن شور . ومنهم نصر بن سيار أحد بنى ليث بن بكر صاحب خراسان . ومنهم زيد بن جندب الايادى وعجلان بن سحبان الباهلى وهو سحبان وائل وخطيب العرب

ومن الشعراء العلماء أعشى همدان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العرنى ومن خطباء الامصار وشعراهم والمولدين منهم بشار الاعمى وهو بشار ابن برد وكنيته أبو معاذ . ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ، ورواية كثيرة ، وحسن دل وإشارة ، عيسى بن يزيد بن دأب أحد بنى ليث

ابن بكر وكنيته أبو الوليد . ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كثوم بن عمرو الغتاني وكنيته أبو عمرو ، ومن جمع الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة سهل بن هرون بن راهبيوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة في معارضة كتاب كيلة ودمنة وكتاب الاخوان وكتاب المسائل وكتاب الخزومي والهدلية وغير ذلك من الكتب . ومن الخطباء الشعراء على بن ابراهيم بن جبلة بن مخزومة

ذكر الجاحظ ثمانية بن اشرس فقال : ما علمت انه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف . ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن اشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك ، باسرع من معناه الى قلبك . قال بعض الكتاب : معاني ثمانية الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الخريجي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة ازاء القلوب كركب وقوف

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلماً وكان قاصاً مجيداً وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبي عياش وكثير من الفقهاء وهورئيس الفضيلية واليه ينسبون : وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى ابن أبان الرقاشي من أصحاب أنس والحسن كان يتكلم في مجلس الحسن وكان زاهداً عابداً وعالمًا فاضلاً وكان خطيباً وكان قاصاً مجيداً . قال أبو عبيدة : وكان أبوم خطيباً وكذلك جدهم . وكانوا خطباء الا كاسرة فلما سبوا وولد لهم الاولاد في بلاد الاسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا في أهل هذه اللغة كمقامهم في أهل تلك اللغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء اليهم ففسد ذلك العرق ، ودخله الخور . ومن الخطباء زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وكان شاعراً بيناً ، وخطيباً لسنًا . ومن أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ،

والكلام الصحيح . والامثال السائرة ، والمخارج العجيبة ، هند بنت الحسن وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس

ومن الخطباء خالد بن سامة المخزومي من قریش . وأبو ماضر وسالم وقد تكلم عند الخلفاء . ومن خطباء بني أسيد الحكم بن زيد بن عمير وقد رأس ومن أهل اللسن منهم البيان الحجاج بن عمير بن زيد .

ومن الخطباء سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية قيل لسعيد بن المسيب من أبلغ الناس : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقل له : ليس عن هذا نسألك قال : معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة . فمن العجب ان ابن الزبير ملاً دفاقر العلماء كلاماً . وهم لا يحفظون لسعيد بن العاصي وابنه من الكلام الا ماله بال

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الاشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان ناسباً خطيباً وأعظم الناس كبراً وهو خطيب ابن خطيب ابن خطيب . ومن الخطباء سهيل بن عمرو الا علم أحد بني حسل بن معيص . وعبد الله بن عروة ابن الزبير قالوا وكان خالد بن صفوان يشبه به وماعلمت انه كان في الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه الذي يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما وما علمنا ان أحداً ولد لها حرفاً واحداً

ومن النسابين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وكان من ذوى رأى والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة في الشرف وكان هو السامح بين الازد وتميم في الصلح . ومن بني الحرقوس شعبة بن القلم . وكان ذا لسان وجواب وعارضة وكان وصافاً فصيحاً وبنوه عبد الله وعمر وخالد كلهم كانوا في هذه الصنعة غير أن خالداً كان قد جمع بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظرف وكان الحجاج لا يصبر عنه

ومن بني أسيد بن عمرو بن تميم أبو بكر بن الحكم كان ناسباً راوية شاعراً وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقاً وأكثرهم تصرفاً ومنهم معلل بن خالد أحد بني أنمار بن الهجيم وكان نسابه علامة راويه صدوقاً مقلداً ومنهم من بني العنبر ثم من بني عمرو بن جندب أبو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علامة ورواية

نسابة وكانت له حرمة بابي جعفر المنصور ومنهم عمر بن خولة كان ناسباً خطيباً وراويّة فصيحاً من ولد سعيد بن العاصي والذي أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب هو اسحق بن هشام الخزومي ومن خزاعة بن مازن أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان ومنهم أبو نوفل بن أبي عقرب كان علامة ناسباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة أحد بني عريج ومن بني كنانة ثم من بني ليث ثم من بني الشداخ يزيد بن بكر بن دأب وكان يزيد عالماً ناسباً وراويّة شاعراً . وولد يزيد يحيى وعيسى وهو الذي يعرف في العامة بابن دأب وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً . وكان أبو الاسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل ، وصواب الرأي ، وجودة اللسان ، وقول الشعر والظرف ، ومنهم زياد بن ظبيان التيمي العائشي وكذلك ابنه عبيد الله كان أفنك الناس ، وأخطب الناس . ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيد الله بن زياد ويضرب به المثل . وكان عثمان بن عروة أخطب الناس . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيه الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء

ومن خطباء قریش خالد بن سلمة الخزومي . ومن خطباء العرب عطارد بن حاجب ابن زرارة وهو كان الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم . ومن الخطباء عون ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً . وكان الجارود ابن أبي سبرة ويكنى أبا نوفل من أئین الناس وأحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً مقلقاً . ومن الخطباء الذين لا يظاهرون ولا يجارون عبد الله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل بملتقطات لا ترى بينها فضلا
كفي وشفي ما في النفوس ولم يدع لذي أربة في القول جدّاً ولا هزلاً
سموت الى العليا بغير مشقة فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلا

ومن الخطباء بني هاشم أيضاً داود بن علي وكان يكنى أبا سليمان . وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبة قط

وله كلام كثير معروف محفوظ . ومنهم عبد الله بن الحسن . ومن خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والى مكة قال المكي : سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام الا وسليمان أئين منه قاعداً ، واخطب منه قائماً . وكان داود بن جعفر اذا خطب اسحنفر (مضي مسرعاً فلم يرد شئ) وكان في لسانه شبهة بالثقة وكان أيوب فوق داود في الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود في الخطب . وكان اسماعيل بن جعفر من أدق الناس لساناً ، وأحسنهم بياناً

ومن خطباء بني هاشم جعفر بن حسن بن الحسين بن علي وكان أحد من ينازع زيداً في الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاباتهم فقط وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في اصالة الرأي ، وفي الكمال والجلالة ، وفي العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان العجيب ، والغور البعيد والنفوس الشريفة ، والاقدار الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء ، وفوق أصحاب الاخبار ، وكانوا يجلبون عن هذه الاسماء ، الا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك . منهم عبد الملك ابن صالح وعبد الله بن صالح والعباس بن محمد واسحق ابن عيسى واسحق بن سليمان وأيوب بن جعفر هؤلاء كانوا أعلم بقريش والدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الاخبار . وكان عبد الله بن علي وداود بن علي يعدلان بامة من الامم . ومن مواليتهم ابراهيم ونصر ابن السندي فاما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث وكان لا يعدو حديث ابن الكلبي والهيثم . وأما ابراهيم فانه كان رجلاً لا نظير له وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً . وكان نحوياً عروضياً ، وحافظاً للحديث راوية للشعر شاعراً ، وكان نغم الالفاظ ، شريف المعاني وكان كاتب القلم كاتب العمل .

ومن خطباء تميم جحذب وكان خطيباً راوية ومن ولد المنذر عبد الله بن شبرمة ابن طفيل بن هبيرة بن المنذر وكان فقيهاً عالماً قاضياً ، وكان راوية شاعراً ، وكان خطيباً ناسباً ، وكان حاضر الجواب مفوهاً ، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي وكان يكنى أبا شبرمة . ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان الاهتمي . ومن خطباء بني ضبة حنظلة بن ضار

وقد أدرك الاسلام وطال عمره حتى أدرك وقعة الجمل ومن خطباء بني ضبة
وعلمائهم منجور ابن غيلان خرشة وكان مقدماً في المنطق

ومن خطباء الخوارج حبيب بن جدره وقطرى بن الفجاءة وله خطبة طويلة
مشهورة وكلام كثير محفوظ . ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة
وكان صغرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج
شبيب بن غرزة الضبعي صاحب الغريب وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً ومن
الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف . وعبد الأعلى بن عبد الله
ابن عامر ويزيد بن عبد الله بن روبة الشيباني ومن خطباء الخوارج وعلمائهم
عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدره الهلالي . ومنهم المقعطل قاضي
عسكر الازارقة أيام قطرى ومنهم عبيدة بن هلال اليشكري ومنهم الضحاك بن قيس
ومنهم نصر بن فلحان

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبري . ومن خطباء عبد القيس مصقلة بن
رقبة وكرب بن رقبة . ومن الخطباء قيس بن خارجة . وكان أبو عمار الطائي
خطيباً مذحج كلها . ومن الخطباء أيوب بن القرية . ومن خطباء غطفان في الجاهلية
خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل بن هلال بن سمي بن مازن بن فزارة
وخويلد خطيب يوم الفجار . ومن الخطباء الواح بن خيشمة ومن أصحاب الاخبار
والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات بنو الكواء . ومن الخطباء
القدماء كعب بن لؤي وكان يخطب العرب عامة ويحضر كنانة خاصة على البر فلما
مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي الى عام الفيل

ومن الخطباء الايبياء العلماء الذين جروا من الخطابة على اعراق قديمة شبيب
ابن شيبه . قال أبو الحسن : كان أبو بكر خطيباً . وكان عمر خطيباً . وكان عثمان
خطيباً . وكان علي خطيباً . وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية
ابن يزيد وصروان وسليمان بن الوليد ووليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر
ابن عبد العزيز . ومن خطباء بني هاشم زيد بن علي وعبد الله بن حسن وعبد الله
ابن معاوية خطباء لايجارون . ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن أبي الحسن
البصري . ومطرف بن عبد الله الحرشي . ومورق العجلي . وبكر بن عبد الله المزني .

ومحمد بن واسع الأزدي ويزيد بن أبان الرقاشي ومالك بن دينار السامي . وليس
الأمر كما قال في هؤلاء القاص المجيد ، والواعظ البليغ ، وذو المنطق الوجيز ،
فاما الخطب فاننا لانعلم أحداً يتقدم الحسن البصري فيها وهؤلاء وان لم يسموا
خطباء فان الخطيب لم يشق غبارهم

ومن الخطباء من بنى عبد الله بن غطفان أبو البلا وكان راوية ناسباً . ومنهم
هاشم بن عبد الأعلى الفزارى . ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابي ومن بنى
هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من أخطب
الناس . ومن الخطباء عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي . ومن خطباء بني تميم عمرو
ابن الاهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب
منه ومن بنى منقر عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات . ومنهم
صفوان بن عبد الله بن الاهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان . ومنهم
عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند
الملوك ومن ولده شبيب بن شيبه بن عبد الله بن عبد الله بن الاهتم وعبد الله بن عبد الله
ابن عبد الله بن الاهتم وخاقان بن الاهتم . ومن خطبائهم محمد الاحول بن خاقان
وكان أخطب بني تميم . ومن خطبائهم معمر بن خاقان . ومن خطبائهم مؤمل
ابن خاقان ومن خطبائهم خاقان بن المؤمل بن خاقان . ومن بني منقر الحكم بن النصر
وهو أبو العلاء المنقري . ومن خطباء بني صريم ابن الحارث الخزرج بن الصدى .
ومن خطباء بني تميم ثم من مقاعس محاربة بن أبي سليمان . ومن ولد مالك بن سعيد
عبد الله وخير ابنا حبيب ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعباس ابنا رؤبة
وكان العباس علامة عالماً ناسباً راوية وكان عبد الله أرجز الناس وأفصحهم وكان
يكنى أبا الشعثاء وهو العجاج . ومن خطباء هذيل أبو الليح الهذلي أسامة بن عمير .
ومنهم أبو بكر الهذلي كان خطيباً قاصاً عالماً بيناً عالماً بالأخبار والآثار

ومن خطباء عمان مرة ابن فهم التليد . ومن العتيك بشر بن المغيرة بن أبي
صفرة ، ومن خطباء اليمن ثم من حمير الصباح بن شقي الحمري كان أخطب العرب
ومنهم ثم من الأنصار قيس بن الشماس . ومنهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب
النبي ، ومنهم روح بن زنباع ، ومن خطبائهم الأسود بن الكذاب كعب

العنسى ، وكان طليحة خطيباً وشاعراً وسجاءاً كاهناً وناسباً ، ومن خطباء الانصار
بشر بن عمرو بن محض وهو أبو عمرة الخطيب ومنهم سعد بن الربيع ، ومن
القدماء في الحكمة والخطابة والرياسة عبيد بن شرية الجرهمي وأسقف نجران
واكيدر صاحب دومة الجندل وأفيمي نجران وذرب بن حوط وعليم بن جناب
وعمر بن ربيعة وهو لحى بن حارثة بن عمرو مزيقيا وجذيمة بن مالك الأبرش ،
ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء
والنكرات لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع
سموه بذلك لسلطة لسانه ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقس بن كلاب . ومن
الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صيفي وربيع بن حذار وهرم بن
قطبة وعامر بن الظرب ولييد بن ربيعة

ومن النساك والزهاد من أهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم وعثمان
ابن أدهم وصفوان بن محرز والاسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمر بن عتبة
ابن فرقد وهرم بن حيان ومورق المعجلي وبكر بن عبد الله بن الشيخير الحرشي ومالك
ابن دينار وحبيب أبو محمد ويزيد الرقاشي وصالح المزني وأبو حازم الاعرج وزباد
مولي عياش بن أبي ربيعة وعبد الواحد بن زيد وحيان أبو الاسود ودهثم أبو العلاء
ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن هاشم وأم الدرداء
ومن نساء الخوارج البلحاء وغزالة وقطام وحماة وكحيلة ومن نساء الغالية ليلي
الناعطية والصدوق وهند ، وأبو الوليد الحكم الكندي ومحمد بن محمد الحراني
وكلاب وكليب وهاشم الأوقص وابو هاشم الصوفي وصالح بن عبد الجليل والخطفي
وهو جد جرير بن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلامة

ومن القصاص أبو بكر الهزلي وهو عبد الله بن أبي سليمان كان خطيباً بيناً
صاحب أخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبد الله بن الشيخير في مكان أبيه ، ومن
كبار القصاص ثم من هزيل مسلم بن جندب وعبد الله بن عرادة بن عبد الله بن
الوضين ، ومن القصاص موسى الاسواري وكان من أعاجيب الدنيا كانت
فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به
فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما

للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأى لسان هو أئين واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل منها الضيم على صاحبها الا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الاسوارى

قال أبو عثمان : وشأن عبد القيس عجب وذلك انهم بعد محاربة أياد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرّة البادية وفي معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة ابن صوحان وزيد بن صوحان وشيخان بن صوحان ومنهم صحرار بن عياش وصحرار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة علي ومنهم مصقلة بن رقة ورقبة بن مصقلة وكر بن رقة

نقل بن النديم من خط بن مقلة أسماء الخطباء فاذا هم : أمير المؤمنين علي عليه السلام طلحة بن عبيد الله ، خالد واهما عيل ابنا عبد الله القسري ، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، جرير بن يزيد بن خالد ، يزيد بن عبد الله بن خالد ، خالد بن صفوان ، عبد الله بن الأهم ، صعصعة بن صوحان ، ابن القرية ، محمد ابن قيس الخطيب ، زياد بن أبي سفيان ، قطري بن الفجاءة ، الوليد بن يزيد ، أبو جعفر المنصور ، المأمون شبيب بن شيبه ، العباس بن الحسن العلوي ، محمد ابن خالد بن عبد الله القسري وعبد الله ابنه ، شبة بن عقال

الخلاصة

قال ابو جعفر النحاس ان حفظ خطب البلغاء والتفنن في أساليب الخطباء من آكد ما يحتاج اليه الكاتب وذلك ان الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحكم بها تفاخرت العرب في مشاهدتهم وبها نطقت الخلفاء الأمراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشيت الكتاب ، قال أبو هلال العسكري : الرسائل والخطب متشاكلتان في انهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفيه وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فالفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما أن الخطبة يشافه

بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة اه
ونحن نوصي القارئ أن لا يغفل خصوصاً عن خطب علي بن أبي طالب كرم
الله وجهه فإن نهج البلاغة أكبر كنز للخطيب والكتاب يستقيان منه مادة عقل
وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة ونحن نضمن لمن كان له طبع شفاف اذا
استظهر نهج البلاغة وتفنن لما فيه من النكات العامية معتمداً مثلاً على شرح ابن
أبي الحديد المطول وتحرر في أساليب الخطابة على مناحي البلغاء والعرب المستعربة
والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من أئمة هذا الشأن في هذا العصر أيضاً فإن
كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته ، وكلما كرر حلاً ، ومهما
تأملته علا ، ففي كلامه عبقة من النور الألهي ، ونفحة من الروح النبوي ،
ولو لم يكن لسان العرب غير خطب الخليفة الرابع ، لكان كافياً في شرفه وبيانه
وأن يجري على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة

الخطابة عند الأفرنج

من تأمل في تاريخ الطرق الخطابية ير أن القدماء ^(١) أفرطوا في فن الخطابة
وأنه وإن صعب العثور على مبدأ معين في كتب الاقدمين وطريقتهم في خطاب
الجمهور فإن جميع المصنفات التعليمية تحوى إبهاماً خلطوا فيه بين علم الكتابة وعلم
الكلام ، فإن علم الخطابة لم يكن في نظر القدماء هو علم التكلم واللقاء ، بل علم
تحسين الكلام وتنميق الاشياء . ومن تلا كتاب الجمهورية لأفلاطون وفيه مباحث
جليلة في الخطابة عند اليونان يتجلى له أن جميع خطباء آثينة كانوا ينمقون
العبارات قبل أن يتلوها وتراءى له من خلال سطورهم آثار العمل والاستعداد
قبل إلقاء خطبهم على مسامع الجمهور ، وإذا كان يحظر على المحامي في آثينة أن يدافع
عن غيره اضطر بلغاء اليونان أن يكتبوا خطبهم في الدفاع ويعطوها لغيرهم
يستظهرها ليلقيها ولذلك قل المرتجلون من الخطباء في يونان وإن وجدوا فهم
على ندره

قال بعض المعاصرين لو لم يكن خطباء الاقدمين يهيئون خطبهم قبل إلقائها

ما كان بقي لنا من كلامهم إلا النذر اليسير ، وذلك لأن فن الاختزال لم يكن يعهد اذ ذاك بيد انه مما لاشك فيه أن بعض خطباء اللاتين الذين وصلتنا خطبهم قد ألقوها بدون أن يستعدوا لها بكتابتها ، وكان من العادة أن يعود الخطيب عندهم فيدون بالكتابة ما قاله من خطاب كما فعل شيشرون في بعض خطبه ، والحق الذي لامرية فيه ان الخطط طالما اعتبر في اليونان ورومية بانه الأسلوب الوحيد في الجملة لأعداد الكلام ليلقى على المسمع العام . ويجب أن يلاحظ أن الخطيب الاثيني مهما بلغ من ثقته بنفسه لم يكن يجسر أن يقف موقف الخطابة قبل أن ينظر نظراً بليغاً فيما سيلقى عليهم لانه عارف بدرجة مدارك الحضور ومعرفتهم نقد ما يقول وما بقي من خطب خطباء يونان هو مما هذبته أناملهم ، ونظرت فيه عقولهم ، ملاحظين في ذلك أنهم سيخلفون ذلك للاعقاب فلا يليق أن تكون إلا من أحسن ما يجب

وطالما هذب شيشرون خطبه وتمرن على إلقائها حتى انه في سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على كيفية الألقاء . وكان القدماء يعلقون شأنًا عظيمًا على الالتقاء في المجالس العامة حتى لقد افترط شيشرون في قوله بأن الخطاب العام يتطلب تعبيرات لطيفة منتقاة . فقد كتب الى أحد أصحابه ان الرسالة لا يمكن ان تشبه دفاع المحامي أو خطابا سياسياً فانه تستعمل فيه جمل شائعة بالاستعمال . بيد ان كثيرين من خطباء اللاتين وقداماء خطباء اليونان كانوا لا يحفلون بأعداد خطبهم ويظهر ان هورتانسيوس وهو استاذ شيشرون لم يكن موافقاً لتلميذه على قضاياه وهورتانسيوس هذا كان على جانب من الذكاء وحسن الذكرة بحيث كان يستطيع أن يتلو خطبه ويؤلفها في الحال جارياً في ذلك على طريقة شارلماد وميتروودور وهما خطيبان آثنيان كانا يعدان في ذهنهما ما يريدان القاء

وكانت طريقة القائد الخطيب الروماني « كالبا » غريبة في بابها فكان ينقطع في داره مع خدامه غداة يريد أن يلقي دفاعاً ويلقى عليهم ممرناً نفسه فيما يريد أن يخوض عبا به فكان يخرج من الغد في حالة تهيج خارقة للعادة وعيناه تقدحان شرراً وهو على غاية التحمس يعبث به هواه ويذهب الى ميدان الفوروم . واعتاد بعض شبان الخطباء من الرومان أن يأتوا الى المحكمة بدفاعهم مكتوباً على الورق

وكان كنتينيان من أساتذة الخطابة عند قدماء اللاتين يرى أن يتقيد الخطباء في أعداد ماسيتلون ولا سيما للمترشح للخطابة المبتدئ فيها ويرى ان الارتجال لا يتأتى للمرء الا في أواخر عمره بعد ان يكون ذاق الامرين في تعلم صناعة الخطابة وعرف حلوها ومرها . ولم يكن في عهده وهو القرن الأول للمسيح سوى خطيبين مرتجلين هما بورسيوس لاترو وكاسيوس وما عداهما فكانوا كسكل الناس يعدون خطبهم قبل القائها

وكان بوسويه خطيب الفرنسي المتوفى سنة ١٧٠٤ يكتب خطبه على الورق فيرسمها ثم يتوقع ما يوحيه اليه المنبر ليجعل فيها حياة وحركة وظلت الاصول المتبعة في فرنسا مدة القرن الثامن عشر بأن يقيد المحامون والخطباء أقوالهم . هكذا كان يسير أكبر المحامين كوشين . ولما حدثت الثورة الفرنسية الأولى اضطرابا في السياسة الى الارتجال فأخذوا يخطبون قومهم بدون أن يستعدوا من قبل ثم ارتقت الخطابة عندهم في الكليات والمحاكم والمجالس حتى قال موريس آجام ما من شيء يضاد الارتقاء في الخطابة أكثر من أعدادها بالكتابة قبل اللقاء فاذا كان وصل كبار المتكلمين الى أرقى درجات الفصاحة فبدونها وصلوا أو بعبارة ثانية على الرغم منها

ويرى ان يتمرن المرء على الارتجال بأن يرتجل كل صباح في موضوع من الموضوعات لنفسه ولوربع ساعة فيتمرن جرسه وصوته وذلك بأن يذكر دائماً قاعدة ينبون ان المرء يتعلم الارتجال بتكرار العمل فيه . وان الواجب تعويد الناشئة النطق منذ نعومة اظفارهم وان صناعة الخطابة ولا سيما الارتجال لا يتعلمها من جاز الأربعين من العمر ولا من جاوز الثلاثين فالأولى ان يبدأ بها منذ الصغر وانه من اللازم على من يريد تعلم الخطابة ان يستنصح صاحباً له يدلّه على عيوبه في النطق والاشارة وان يأخذ النفس كل يوم بسماع . صانع الخطباء لامتوسطهم حتى يتعلم منهم . فان المتوسط يفسد عليه ملكة الخطابة ولذلك كانت العواصم والحواضر أكبر ميدان للتخرج في الخطابة لان فيها من أهل الطبقة العالية أصنافاً من الخطباء . وذلك لأن السماع يجعل المتكلم متكلماً وفكر البشر يغتذى بالتقليد . وعليك يا هذا ان لا تعتمد الى استعمال الغريب ولا تنقع بل توخ السهولة

ومألف الناس من الكلمات تؤثر فيهم وتعمل في عقولهم . لا تعتمد لغير الوضوح ودع الكلمة النادرة للشاعر والكلمة العويصة للفيلسوف وإذا اعتقدت انه يكفي الانسان ان يتلو كتابا يبحث في أصول الخطاب حتى يصبح خطيباً فألق سريعاً هذا الكتاب طعماً للنار

كان بوسويه نصف مرتجل يعد مفكرات لخطبه ثم يزيدها عليها وينقص منها عند اللقاء وكان فليسيه وفنيلون في مواعظهما يعدان ما يلقيان من قبل ويستظهرانه وكان كوشين يعد من قبل مدافعاته حتى استطاع في آخر عمره ان يرتجل . وكان المحامي جريه يعد ما يخطب به مطولاً ولا يزال يحجو منه حتى لا يبقى على أكثر من عشرين سطراً وكان تارجه يكتب دفاعه برمته ويقرأه . وكان ميرابو خطيب الثورة ممن يعتمد على الكتابة ليخطب فاضطرته السياسة ان يرتجل وما كان يحسن الكتابة وهو مستريح البال اما اذا هاج فانه يعاود القلم ويكتب في الجملة وكان يبدأ بخطابه متأنياً في بادي الامر ويتحمس بالتدريج وكان فيرينو من خطباء الثورة لا يخطب الا اذا تألم لظلم يقع أو حاذر خطر أيدهم وعندها تفتبه حواسه ويفكر سريعاً ويعمل في ساعة مالا يعمل في ساعات . بدأ محامياً وكان يكتب دفاعه ويتلوه ثم كف عن الكتابة وكان يعد كل الاعداد خطبه الكبرى ولا سيما في تلاوتها لاصدقائه من قبل أن يلقيها على الجمهور وهذه الطريقة هي التي جرى عليها بعد حين تيرس رئيس الجمهورية الاول في الجمهورية الثالثة والعالم المشهور وكان كواديه من خطباء الثورة يكتب خطبه عند ما كان محامياً ولما أصبح خطيباً سياسياً صار يرتجل وكان ايسنارد من خطباء الثورة مرتجلاً ولكنه كان يكتب . وكان دانتون خطيب الثورة الخطيب التام الأدوات في الثورة وأقدرهم على ادراك حاجة عصره . وكان أرول دي سيشل من خطباء الثورة يكتب ويحفظ خطبه ويعمل بقول فولتير : ان الالفاظ يريد الافكار . وكان روبسبير من خطباء الثورة يعد خطابه ويعجو ويثبت كثيراً كتلميذ مبتدئ ومعظم خطبه اخترعت وألفت من قبل ان تنشر لم يتوسع فيها عند ما يقولها . وكانت طريقة بانجامان كونستان الكتابة لما يخطب به مثل القائد فواولافيت ودوبون ورويه كولار . وكان النائب مانويل مرتجلاً لا يكتب خطبه الا في أمور المالية . ولم يتخل

دى مارتيانيان عن كتابة مايريد القاءه مع انه يرتجل أحسن ارتجال ومن كان يسمعه يتكلم بصوت رخيم يستريح ويسكت وينوع لهجته يستدل على انه يرتجل . وكان لينه مثل كواديه ورافيه وفيرير من أمراء الكلام لم يجعل المتقيد بالكتابة الا مقاماً ثانوياً . وفيرير كان من أعظم من وجد من رجال المحاماة كان يفكر طويلاً فيما يريد أن يلقيه ويتأمله فلم يكن ممن يعتمد على الكتابة صرفاً . وكان هانكن من رجال المحاماة لا يأنف طول حياته من أعداد خطبه . وكان بريه المحامى لا يكتب خطبه ولم يعرفوا طريقته فى خطبه هل كان يحدث بها أصحابه قبل أن يلقيها كما كان يفعل فرنيو وتيرس أو يفكر فيها مثل فيرير أو يكتبها فى فكره مثل هورنانسيورس والذي عرف عنه وكان يكتم طريقة نبوغه ان كلامه كان يسبق فكره وانشاؤه كان منحطاً

وكان الاخوان دوين المحاميان يرتجلان ولكنهما يدرسان موضوعهما حق الدرس قبل النزول الى ميدان الخطابة وكان أحدهما يأسف لان الوقت لا يساعده ان يفكر ملياً فى خطابه ويقول لو أكثر ديموستين وشيشرون من الدفاع كثيراً لقلنا لم يكونا ديموستين ولا شيشرون . وكان تيرس يعد معظم خطبه من قبل بان يلقيها مرتين وأحياناً أربعاً على من يغشون مجلسه . ولم يكن فيكتور هوغر الشاعر الكبير خطيباً بل كان يضطر ان يكتب خطبه ويستظهرها ولطالما قال لا يستطيع المرء ان يكون خطيباً حقاً الا اذا كتب خطابه . زهد المحامى لاشوفى الكتابة وكان لا يقيد الارؤوس المسائل التى يتكلم فيها . وكان الوزير غامبتا لا يكتب ماخطب وهو يشبه نابليون بعقله وذاكرته وكان يعد بعض خطبه الاولى من قبل فلما نشبت الحرب أخذ يرتجل حقيقة وكان فى خطبه يبدأ بصوت منخفض جداً حتى يكاد يقول له الحضور اسكت وبعدهنية ترن القاعة من صوته وتدهش لفضل بيانه . وكان المحامى ليون دو فال يعد خطبه من قبل محتفلاً بها من وراء الغاية . وكان الدوج دى بروكلى يتأفق فى أعداد خطبه ولكنه يستطيع ان يرتجل على أيسر وجه وكان بوفه مرتجلاً يؤثر بفصاحته فى مجلس الشيوخ فى مسائل كثيرة وان كان عضواً من حزب قليل فى الوزراء . وكتب المحامى الايطالى هنريكوفرى

عن نفسه فقال : انه تعلم بان كان يقصد الضواحي ويرفع صوته ويجرب نفسه بالخطابة حتى حطب مرة ثمانى ساعات متوالية ومرة احدى عشرة ساعة

ونشر آجام عادات طائفة من الاساتذة والمحاضرين من العلماء فى الخطابة من الفرنسيين فكان منهم أناس يفكرون ملياً قبل أن يخطبوا أى أنهم يعدون الكلام أو معناه ومنهم من يكتب ما يريد قبل القائه وآخرون يرتجلون والاكثر فى هذه الفئة الكتابة قبل اللقاء لان خطبهم علمية على الاغلب ولا يرتجل عادة سوى السياسيين . وعلى من أحب أن يجودها ان يخطب لنفسه فى منزله أو قاعة خاصة مرة أو عشر مرات ربما يستجيم قريحته ولا تخونه الالفاظ وكل مرة فى الموضوع الواحد تزيد معانيه وتغزر ألفاظه ويجب أن لا يهتم لانتقائها والتنمط فيها بل يكتفى بما جاءه غفو الخاطر وابن الساعة

وقد سأل المؤلف كثيرين من المشتهرين بالخطابة من قومه المبرزين فيها عن طرقهم فى تعلمهم وارتجالهم ففهم من قال انه يفكر ملياً فى محاضراته بان يقولها بصوت منخفض أولاً وأحياناً يقولها فى عقله وانه لا يكتب كتاباً صغيراً قبل ان ينشئه فى عقله ويستظهر الجمل الرابع الاولى حتى لا يفجأه الحضور اذا مثل أمامهم . ومنهم من تحضره الافكار اذا أمسك القلم وقيدها ولكنه يحاذر استظهاره وهو يرى ان من يكتب محاضراته وخطابه يتعلم الارتجال مع الزمن ومنهم من تتمثل لعينيه المعانى والالفاظ عند ما يشرع فى الكلام كأنها مكتوبة امام عينيه . ومنهم من ينظم الافكار التى يحاضر بها على الورق ثم يرتجل ويستعد قبل الكلام ان يقول فى ذاته ما يجب القاءه على الجمهور مرة أو مرتين وقال انه بكتابته خطابه من قبل يسقط على الافكار التى لا تحيئه بصورة أخرى . ومنهم من قال ان خير طريقة لاستظهار ما يريد القاءه ان يكتب تلك القطعة ومنهم وهو استاذ عظيم يعد موضوعه أولاً ثم يعين فى عقله أفكاره ثم يخط لها خطة ثم يفكر فى البراهين التى عثر عليها ونظمها

ومنهم من ضعفت ذاكرته فيضطر للاستظهار أن يحرك شفتيه بما يحفظ حتى

يعلق شيء منه في ذهنه ومنهم من لا يحسن الكلام إلا اذا اضطربت نفسه وفرحت أو سخطت فانه في تلك الحال يسرع في خطابة غير مبال اما اذا لم يكن على حاله من تلك الحالات فيتلعثم ويتردد ولا يعثر على اللفظ الذي يريده والخبجل الذي يشعر به يزيد هذا الارتباك ومنهم من لا تأتيه الأفكار وتأتيه الا اذا كان القلم بيده . وآخر يستظهر المقدمة والخاتمة ومعظم الجمل الأساسية ثم يتكلم ويترك الباقي للمصادفات . وغيره يرى أن الكلمات تولد فيه الأفكار وتفتح أمامه أفقاً جديداً وهو يدرس موضوعه بالأيجاز ويفكر فيه قليلا أو طويلا بدون أن يحكيه ولا يكتبه في عقله ويكتب أو يحاول أن يكتب والكتابة تسهل بزوغ الفكر أحيانا وأحيانا يتضرر من الكتابة وتقلج قريحته . وبالجملة فان الكلام في الجمهور من شأن الحكومات الديمقراطية والخطباء يكثر من كما قال مونتيني حيث تكون الامور تتقاذفها العواطف الدائمة بين أخذ ورد

وقال ريبو ان معرفة الموضوع الذي يريد الخطيب الخوض فيه ورسم خطته في الفكر بسيطة للغاية من قبل وهما شرطان لازمان للأجادة في الخطابة وما عدا ذلك فهو من شأن الحضور المستمعين أكثر مما هو من شأن الخطيب وأسهل ضروب الأرتجال ما ساعد فيه الحضور بتراسل عيون الحب بينهم وبين خطيبهم والعبرة في معرفة روح الجمهور فان له مناحي خاصة في الحسن والتعقل والفهم حتى ولو كان مؤلفاً من فلاسفة وعقلاء قال ما كس نوردو : اجمع عشرين أو ثلاثين من أمثال كيتي وكانت وهلهولز وشكسبير ونيوتن واعرض على حكمهم وآرائهم المسائل العملية الحاضرة فان قراراتهم لا تختلف بتاتا عن مقررات أى مجلس كان . ولماذا يكون ذلك ؟ لأن كلا من العشرين أو الثلاثين منتخباً فضلاً من تفرد به بما يجمله رجلاً فائقاً قد ورث بعض صفات نوعه مما يكون به مثيلاً لجاره في المجلس بل شبيهاً لعامة الاشخاص الذين يمرون في الشارع فان الجوهر الأنساني مستحكم من شخصية المرء وطربوش العامل يغطي قبعة الفيلسوف

وبقدر ما يستطيع الخطيب قيادة جمهور سامعيه يفعل في أرواحهم ويسوقهم الى حيث يريد . ومن أجل ما قاله بريان من خطباء فرنسا ان الخطاب ليس قطعة أدبية بل هو عمل والخطاب لا يعمل ليقرأ بل ليسمع وصورته التي يظهر فيها

ثانوية فالتأثير يحدث والنتيجة الحاصلة هي كل شيء . ومراعاة القواعد مطلوبة في الخطاب ولكن مهما كانت قيمته من الوجهة الأدبية فانه اذا فصل عن محيطه الذي ألقى فيه وفارق الاسباب التي دعت اليه هل يكون له شأن صحيفة جميلة من الأدب استخرجت من قلم أستاذ في الكتابة

واليك بعض نصائح عملية لطالب النبوغ في الخطابة منها أن يجتنب حق الاجتناب كل استعداد كتابي للخطاب : أن يحمل الخطيب نفسه كل صباح ولو عشر دقائق على أن يتكلم كثيراً في مكان عام أياً كان نوعه وان لا يكتب مراسلة قبل أن يتكلم بمضمونها سواء كان في عقله أو بصوت جهوري . فالتفكير والكلام قبل الكتابة في أي شيء كان مطلوبان . وان لا يعد خطابه في آخر ساعة بل يجب أن تكون بين ساعة القائه وساعة الاستعداد له ليلة على الأقل . واستجماع الفكر خلال الساعات الاخيرة التي تسبق المحاضرة وأن لا يكثر من استعمال المفكرات بل يقتصر على قيد التقاسيم الكبرى والتواريخ وأن يحفظ حق الحفظ الاسماء الخاصة التي ترد في الكلام وأن يعود المرء نفسه النطق بالصعب من الحروف ومعالجة الخارج المختلفة من اللسان وأن يتفنن الخطيب في الجمل التي لا مناص له من استعمالها وهي من لوازم أكثر الناس فيجهد أن ينوعها ويكثر من الأساليب التي هي بمعنى واحد وبألفاظ متباينة وأن يبدأ الخطيب خطابه أبداً ببطء بل بانخفاض ثم يتدرج في رفع صوته . فكل خطيب يبدأ كلامه بصوت جهوري يوشك أن يختمه وقد أبح صوته وانخفض ويجب أن يعرض فكره بدون أن يثور غضبه فان الغضب ليس من الصحة في شيء وبه يبع الصوت . وينبغي له أيضاً أن يحدد بصره فيمن ينصتون اليه وأن لا يشغل نفسه بقراءة شواهد أو التقليل منها ما أمكن

والمحركات في الخطيب مكانة ولكن الأكثر منها لا يحتمل والأحسن أن يذهب الخطيب مع الطبع واذا قوطع الخطيب فعلية أن ينتظر ريثما يعود السكون الى المجلس وعلى الخطيب أن يلاحظ تنمة سلسلة كلامه قبل أن يعد

جواباً على البديهة . والجواب السديد هو على الغالب من جودة الذاكرة وعليه إذا خافته لفظة أن لا يضيع وقته أصلاً في البحث عنها فاللحن والخطأ أفضل من الوقوف في الالتقاء وإياك أن تضيع فرصة أسماع موسيقار حاذق في صناعة الكلام أى خطيب مصقع وفر من المدندنين فرارك من الوباء

هذا ما قاله المؤلف موريس آجام وكتابه علمى عملى معاً وهما الآن خلاصات لفقناها من كتاب آخر فى هذا الفن وهو علمى محض واسم مؤلفه سيلفن روديس (١) واسم كتابه الخطيب الحديث توخى فيه تعليم الخطابة فى الجملة لمن لا يستغنى عنها من الناس قال : أما النبوغ فيها فلا بد له من هبة إلهية . ولكن بالتعلم لاسلوب الخطابة يستطيع من يدخل المجتمع ويشارك فى بعض الجمعيات الخيرية وتقايات العملة والمعلمين والأندية والمجامع المختلفة أن يخطب على أسلوب حسن ولا ينجعل من التعبير عما فى قواده وإن على المرء أن لا يلقي بنفسه فى ميدان الخطاب العام إذا كان موضوعه لم ينضج أو تافهاً فالأولى قبل كل شئ دراسة الموضوع للخوض فى عباب الكلام الذى تكثر مناحيه والأسباب الملهمة إليه اليوم بعد اليوم

وخير ذريعة للمرء حتى لا ينجونه الكلام أن يستظهر كثيراً من المفردات حتى إذا نسى لفظة أقام غيرها مكانها من دون أن يتوقف فقد كان الشاعر تيوفيل غوتيه يقرأ كل يوم صفحة من المعجم ولا يبعد أن يكون شأن الشاعرين بالزك وبودلير والكاتب فلوربر على هذا النحو لما علم من تمكنهم من أساليب اللغة ومصادرها فكانوا يتصفحون أيضاً هذه الكتب الضخمة التى جمعت نبوغ عنصر باجمعه وبدت بها مظاهر مدنيته المتنوعة على اختلاف العصور . وأرى أن من المفيد التطريس على آثار أولئك الكتاب وأن يقرأ المرء كل يوم صفحة من معجم اللغة وكلم من لفظ تذكر به صاحب الفكر عالماً وروايات وتواريخ وصفحة من الطباعة وبلاداً وعصراً . ثم إن الالتفات وحدها لا تكفى لأكثر مادة الخطيب ولا بد له من القوالب فعليه أن يحفظ جملاً مأثورة لطيفة تعلمه أساليب البلغاء

Silvain Roudès : L'orateur moderne

(١) كتاب الخطيب الجديد

أو الترتيب على الكلام أو فن تعلم الكلام فى الجمهور لسلن رودس

وتركيب الجمل على مختلف الصور ولا يبالغ في الاستشهاد بها فانه بذلك يضيع شخصيته ويكون ناقلاً كلام غيره فقط . وعليه أن يركب لنفسه جملاً يمكنه أن قولها ويلفظ بها بصوت جهورى كل يوم من ١٥ الى ٣٠ دقيقة ونجاحه مؤكد لا محالة

تعلم الارتجال هو غاية الغايات التى يجب على مريد الخطابة أن يحاول بلوغها واليك ما عساه يهين لك الطريق الى ذلك : افرض انك بما لقفته سابقاً من المعارف قد استعددت لأن تكتب بعض الشئ خطاباً لك على الورق فاترك الآن عادة تقييد فكرك فى الكاغد وفكر فى موضوع لك مدة ساعة أو ساعتين وذلك بينا أنت سائر أو راكب فى حافلة أو منصرف الى عملك البدوى ان كنت ممن يتعاطون صناعة بيدك أو بينا تكون فى مكتبك فالخطب سيان . انظر الى جميع النقط التى تعرض لفكرك وأت بالاعتراضات وردّها بما لديك من الحجج تنقضيها بها وخمر المادة العقلية التى بلغت منزلتها حتى اذا كنت فى دارك بمعزل عن المكدرات وجلبة الخارج اطرء من ذهنك جميع الشواغل الخارجة وخذ نفسك بما تريد أن تأخذه بها واجمع كل قوتك العقلية فى الفكر الذى يأخذ من نفسك بخطط وتدبر فيما تريد بضع دقائق واشرع فى التكلم جهاراً جائئاً ذاهباً فى غرفتك تكلم على مهلك بدون أن تبحث عن تعابيرك ولا تهتم بحالة جملك ولا لصحتها من النحو والصرف وداوم بدون انقطاع ودع كلماتك تتساقط منك ولكن بان تصل بينها ما أمكن اتصالاً جيداً أو رديئاً فتقارب بينها وتكرر وتتشوش الافكار فالقطع على هذا الضرب من الكلام تنتهى فى الدمدمة أو لا تنتهى ابداً وأنت لا تأخذنى قلق من ذلك بل ظل مثابراً أيضاً ونحط العوائق واطرح وراءك الفقرات التى لم تتلطف فى رصفها ولا تبتئس أبداً لما لا تذكره حافظتك ولا لما يتخلل كلامك من المنافذ أو لضعف حججك وتفاهة براهينك وثابر ثم ثابر واذهب الى ادراجك لا تلوى على شئ وارفع صوتك حتى ينخفض ويخونك بطبعه

وإياك أن تحبط اذا لحظت ان النتيجة التى تحصل عليها حقيرة فان هذا الجهد الذى يبذل لك هزواً بالتحلل السياق والسباق بين أجزائه ربما عبث بنشاطك

وخيب من أملك فليس هو من العيب بالدرجة التي تتصورها بادی الرأي لاجرم
أن مثل هذه التجربة لتربية ملكة الخطابة لا تلتج شيئاً اذا اقتصر عليها . ومهما
بلغت من الثبات في الخطة التي اختطتها لنفسك ورزقت من الصبر لتجديدها على
الدوام فانك تصلح منطقك بالتدريج والكلام الذي تدعوه يأتيك هفواً أكثر
من قبل ولا تستمعي عليك الجمل وتلين مادة الكلام وتتلاحم أجزاءه على أسلوب
حسن وتنجلي الافكار فتنال كل مرة نتيجة تحمد غب سراها فتصل بعد بفضل
الثبات والصبر الى ما تريد بلوغه من مراقى الكمال وإياك اذ ذاك أن تقنع بغير
سلطة الارادات العالية . لا يكفي السهولة في المنطق بدون ارتجال فكثرة مادة
الكلام حسن ولكن الواجب تنظيمه وتخطيط الطريق الذي يجب عليه سيره
حتى لا يضل في تافهات لا منفذ لها : ان تعين الخطة ضرورية في انشاء خطاب
مكتوب وهو ضروري أكثر عند ارادة الارتجال . ان القرينه الخيلة والمنطق
في الخطيب التي تظهر بانها منبعثة من ذهنه هي عمرة التدريب والنظام العلمي بادی
بدء وبدونه لا رباط ولا سياق

ثم شبه الخطيب بالمثل في حركاته ولكن تمثيلاً حسناً بحسن استعمال حركاته
وسكناته لا تأخذه رهبة ولا جزع : قال والاحسن أن يعتمد من يجب التبريز في
هذا الفن أن يتمرن أمام أصحابه ويقوم بينهم خطيباً كما لو كان بين غرباء وهم
يدلونه على نقصه ويبينون له عوراته وبصحة الارادة وفضل الانتباه يتوصل
المراء الى ما يريد حتى اذا حصلت له أنسة بالكلام يشرع في خطابه بيطء والمستمعون
لا يستمعون له بكليتهم أولاً بل أن لهم من أحواله أعظم جاذب . وعلى الخطيب
أن يلاحظ وسط القاعة التي يخطب فيها أو آخر الحضور يحدد النظر فيهم ليدلهم
بلسان حاله انه يعنى بأسماعهم واقناعهم

هذا محصل ما اخترناه من الكتابين في الخطابة عند الفرنسيين وهم من
الامم المشهورة بفصحائها وخطبائها فالسياسي الخطيب منهم هو الذي يتسلط على
النواب ببيانه ويتولى الوزارات والسفارات وكلما برز في هذا الفن استجاش
أنصاراً وأحرز سمعة على وجه الدهر والخطيب بين العلماء هو الذي يستولى كل الاستيلاء
على المجامع العلمية والكلديات ويكهرب الشعب باقواله . ويكثر أشياعه وأعوانه .

أصل المعتزلة^(١)

من العادة ان كل فرقة أو أهل مذهب اذا أرادت أن تصف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها ، وربما نسبت اليها ما لم تقبله ، اعتقاداً منها بان تنفير الناس عن المخالف والدعوة الى المذهب لا يتيسر ان الا بهذه الطريقة الفتنة الباردة ، حتى ان بعضهم جوزوا الكذب على المخالف . وما ندرى أى دين سماوى أو مذهب فلسفى يجوز الكذب فى أمثال هذه المسائل .

والمعتزلة ماخلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم ، خصوصاً أيام استجرت المجادلات بينهم وبين الفرق الأخرى من أهل الاسلام ، أيام كانوا ممتعين على عهد أوائل الدولة العباسية بحريتهم الدينية على أصولها ، ولم يلاقوا من أرباب السلطة شدة ولا عناء وقد كثر بحث الغربيين فى العصر الأخير عن المعتزلة ومنشأهم حتى قال بعضهم ان من سوء طالع المسلمين ان ينقرض المعتزلة فانهم كانوا معدلين لامزجة الحكومات وأرباب المذاهب الأخرى ، اذ جروا مع العقل وطبقوا المنقول على المعقول ، ونظروا الى الجوهر أكثر من العرض ، ومن حكم العقل فى أقواله وأفعاله ، يحترمه أحبابه وخصومه على السواء .

ولقد استطلعنا طلع رأى أحد كبار علماء الاسلام^(٢) فى أمر المعتزلة فأملى علينا الجملة التالية فكانت خلاصة أحوالهم وغاية الغايات فى الإفصاح عنهم ، قال دام نفعه ! فى أواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الاسلام : أولاها الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التى اعترضت على على بن أبى طالب فى تجويزه التحكيم فى أمر الخلافة وكانت تحكم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلاً عن يسعى فى سفك دماء المسلمين لاجل مأرب دنيوى ومذهبها مبنى على هذه القاعدة ، وكان فى ذلك العصر قد دخلت الناس أفواجاً فى دين الاسلام بسبب الفتوحات العظيمة وأكثرهم ممن لم يتهذب بمكارم أخلاق الدين ، فكان الناس يسمون المتساهل فى الدين . فاسقاً ويجعلونه من المساهين البتة ، وكان كثير من الناس يصرح بان الامور كانت مقدرة عليهم تخفيفاً عنهم من الملام . وفى خلال

(١) نشرت فى السنة الثالثة من مجلة المقتبس (١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م)

(٢) هو العلامة المصلح أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٣٨ هـ

ذلك هبت فرقة لهم شدة تمسك بالدين وتحل بأدابه فأنكروا ذلك وصرحوا بان
الانسان مختار في أعماله وان الله تعالى لو أجبر الانسان على عمله لم يؤاخذ به ،
وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق : فالمؤمن من يقوم بجميع
شروط الدين ، والكافر الجاحد مطلقاً ، والفاسق من أتى بكبيرة . ومنعوا من
تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصري لانه لم يرضى بالتصريح
بسبب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة

وفي أثناء ذلك ظهرت فرقة هي بالفرقة السياسية أشبه منها بالفرقة الدينية
وهي فرقة الشيعة المشايعة لأمير المؤمنين على بن أبي طالب . والشيعة حزبان
حزب منهم كانوا يقولون انه هو الحق بالخلافة غير أن عوارض الاحوال أوجبت
تأخيرها لكثرة أعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون في الذين أخروه
عنها وقسم يقولون انما أخروه لعداوة في أنفسهم لارعاية لمصلحة الامة ثم أخذ
كل مذهب دوراً من الادوار كما يعلم من التواريخ المفصلة .

واذ كان الخوارج أرباب حرب وضرب وتحمس في الدين وعبادة ونسك
ولم يكن لهم بصيرة في العلم كانت أمورهم العامة بسيطة جداً وأكثر ما يقابلون
به السيف . أما المعتزلة فكانوا في أمرهم أرباب تؤدة وتأن واستبصار بما يقتضيه
الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بانكار المنكر ولو أفضى الأمر الى سل السيف
الا أن ذلك مشروط فيه الامكان . فكان المعتزلة يفيضون الى فريقين العامة والامراء
أما الامراء فلما يشترطونه في الامارة من الشروط التي اذا انتشرت في أفكار العامة
لم يتيسر لأمير ان ينطلق في أمر الامة بما يشاء . وأما العامة فلانهم ينفرون ممن
يخرجهم عن الدين بمجرد أتيان المنكرات التي أطلق لهم العنان فيها من طرف
خفي أمراء السوء الذين يهمهم ان تكون العامة ممن يعينونهم على مقاصدهم .
وكانت هذه الفرقة أعظم الفرق في المناضلة عن الدين ورد شبه الملحدين ، وكان
الجمهور يقولون لا حاجة لنا الى الجدل فان كل من خالفنا استتبناه فان قاب فيها
ونعمت والا طهرنا الارض بسفك دمه عليها .

ولم يزل الأمر كذلك حتى أفضت النوبة الى المأمون وكان ممن خالط ناساً
منهم وكان لهم دهاء عظيم في مخالطة الطبقات العالية مع انكاشهم وشدة ورعهم

فتلقف المأمون أفكارهم فقويت في نفسه فلما أفضت الخلافة اليه بادري أعلنها ، وكان مقتضى الحال ان يدعوا الى مذهبهم كما يقتضيه حال كل من أخذ بمذهب . الا أن المأمون للمبدأ والذي كان عليه وهو اطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد مني الواجب ان يطلق العنان لكل الفرق فالتى أخطأت يتيسر اقناعها بالحجة والبرهان والتي معها الحق ينبغي ان تتبع على مامعها منه . فانطلقت في عصره جميع الفرق وجعل في داره مجالس للمناظرات بين أرباب الملل والنحل وكان العصر المفرد في ذلك

ثم لما أفضى الأمر الى من بعده خف اطلاق العنان لهم . غير أنه بقيت من ذلك بقية حتى أفضت النوبة الى المتوكل فقام في اضطهاد الفرق المخالفة للجسمور لرعاية المشرب العامة وخلاصاً من فرقة اذا قوى أمرها في مشارق الارض ومغاربها كان فيها الخطر على أمر الخلافة لانها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير . ولم تزل حال المعتزلة بين انخفاض وار تفاع حتى انحطت الامة انحطاطاً زائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يسعى في ابادتهم بالسيف كما يعلم من التاريخ ولم يبق لهم ملجأ غير اليمن فان فيه تكون حزب ذو عده وعدة يصعب محوه وهم المسمون بالزيدية . فما الزيدية الا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم في بعض مسائل الامامة ونحوها . ومذهب المعتزلة في كون الانسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم فانهم ينقلونه على صيغة مستبشرة ينفر منها العوام فضلاً عن الخواص فمن ثم وافقهم عليه كثير من علماء أهل السنة كما وافقهم على كثير من مسائلهم الفرعية التي استخرجوها . وكانت هذه الفرقة كثيراً ما تذكر في التاريخ بأنها معتزلة مع أن المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة في باقي مسائلهم أشد المخالفة فكان يقع للنظر في التواريخ اضطراب . وحقيقة الأمر تفهم مما ذكره الناج السبكي في الطبقات فقد نقل في ترجمة القفال عن الحافظ ابن عساكر انه قال في القفال : بلغني أنه كان مائلاً عن الاعتدال قائلاً بالاعتزال في أول أمره ثم رجع الى مذهب الاشعري . قال السبكي : وهذه فائدة جلييلة انخرجت بها كربة عظيمة وحسيكة في الصدر جسيمة . فان مذاهب تحكى عن هذا الامام في الاصول لا تصح الا على قواعد المعتزلة وطال ما وقع البحث في ذلك حتى توهم انه معتزلي

واستند الوهم الى ما نقل ان أبا الحسن الصفار قال : سمعت أبا سهل الصعلوكي وسئل عن تفسير الامام أبي بكر القفال فقال : قدسه من وجه ودنه من وجه . أى دنه من جهة نصرة مذهب الاعتزال . والقفال هو أستاذ عصره قرأ عليه الاشعري علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية وعلم السبكي ذلك بقوله : أعلم

ان هذه الطائفة من أصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد يرعوا في الفقه ولم يكن لهم قدم راسخ في الكلام وطالعوا على الكبر كتب المعتزلة فاستحسنوا عباراتهم . والمعتزلة هم الذين أحدثوا علم الكلام وكان الاولون ينهون عنه كثيراً الا أن النفوس لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم وألغوا فيه كثيراً وأوهوا اللأئين لهم بأن الكلام المنهى عنه انما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير أن الكتب التي ألقت على طريقة المعتزلة أمتن جداً لما كان في أصولهم من منع التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وان كل انسان مكلف بقدر ما أداه اليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيد والمطلق .

وهم الذين وسعوا أصول الفقه حتى ان أكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم غير ان الأصوليين لم يجربوا ان يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن الاصول عصره فعصره وأما ما يرميهم به خصومهم من أن الاعتزال نشأ من انتشار كتب الفلسفة فهي فرية لأن الاعتزال وقواعده الاصلية نشأت قبل ترجمة كتب الفلسفة المتعلقة بالالهيات بالاخلاف وكثير مما قالوه كمسألة الاختيار المطلق ومسألة خلود العاصي مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم في الرد عليهم بها بكلام الفلاسفة . وانما كان دأب المعتزلة بمقتضى متانتهم ان يخوضوا في أى شيء كان من العلوم التي كانت قبل ولن يجروا على ما يظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بأنه لا توجد حقيقة تخالف الدين فكانوا أشد الناس اسراعاً للخوض في الفنون وأكثروا المؤلفات المهمة في العلوم المتنوعة ماعدا الفقه يدهم فيها أطول من يدهم يخالفهم اجمالاً . والتاريخ يظهر ذلك بأجلى مظاهره . وأما الفقه فانهم أخذوا فيه بما أخذ به غيرهم لاعتقادهم ان الخطب فيه سهل غير أن لهم في الفقه دقائق غريبة يجدها الانسان في تضاعيف الكتب هم منشأها وأما الحديث فانهم رأوا كثرة الوضع

وظهر لهم أن التمييز بين الصحيح وغيره يعسر لاسيما ماروى من طرق غيرهم فانهم لا يطمئنون اليه لاعتقادهم ان كثيراً من أهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوزون وضع الحديث للمصلحة وشاهدوا في عصرهم أحاديث وضعت في حقهم مثل « القدرية مجوس هذه الامة » فنفروا من المحدثين وتلبوهم أشد تلب ولما كان لهم علم الحديث أهم علوم الدين وهم أشد الناس ولوعاً به ذهبوا الى قاعدة غريبة وهى أن كل حديث لا يخالف القرآن وهو قريب من مقاصد الشارح أو كان مما يدل على مكارم الاخلاق سلموا به اجمالاً بدون نظر في رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردوه البته . ومن هذا نشأ كثرة ما تراه من ذكر الاحاديث في كتب مثل الجاحظ والمخشي وغيرهما من أئمة المعتزلة منهم يبحثون عن القول لا عن راويه .

غير أنهم يعتقدون ان من أخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشرعهم . وقد وقع في التواريخ مناقشات كثيرة في مسألة نحل كثير من المشهورين في العلم والفضل . والسبب في ذلك ان كثيراً من المتقدمين كانوا لا يصرحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعى ان فلاناً منهم ويظهر ذلك لمن راجع كتب مناقب المشهورين على طريقة المتقدمين فانهم كانوا يفيضون في كل شىء لا على طريقة المتأخرين الذين يطوون كل شىء لا يوافق ما ربه الخاص ظناً منهم انهم بذلك يحسنون صنعا وكثيراً ما يذكرون منقبة وهى في الباطن مثلبة وربما كانت موضوعة

ما يبلغ العاقل من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

هذا ما قاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذاك الامام الكبير . وقد قال المرتضى :
وأما ما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعان ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لا يدرك بحاسة ، عدلاً حكماً ، لا يفعل القبيح ولا يريده ، كلف تعريضاً للثواب ، ومسكن من الفعل وأزاح العلة ، ولا بد من الجزاء ، وعلى وجوب البعثة ، حيث حسنت ولا بد للرسول صلى الله عليه وآله من شرع جديد أو احياء مندرس أو فائدة لم تحصل من غيره وان آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وان الايمان قول ومعرفة وعمل ، وان المؤمن من أهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين

وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافرّاً الا من يقول بالارضاء فانه يخالف في تفسير الايمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً وأجمعوا على ان فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولى الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الاحداث التي أحدثها فكثرهم تولاه وتأول له وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمر بن العاص وأجمعوا على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصاييح لابن يزداد وغيره اهـ

هذا ماقاله واحد منهم في حقيقة ما أجمعوا عليه . واليك ماقاله الشهرستاني صاحب الملل والنحل وهولين منهم قال : والمعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً وقالوا لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب اذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبي عليه السلام القدرية مجوس هذه الامة وكانت الصفانية تعارضهم بالاتفاق على ان الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل تضاد فكيف يطلق لفظ الضد على الضد وقد قال النى عليه السلام القدرية خصماء الله في القدر . والخصومة في القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد لن يتصور على مذهب من يقول بالتسليم والتوكل واحالة الاحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم فالذى يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف لذاته ونقوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا يعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذى هو أخص الوصف لمشاركته في الألوية . واتفقوا على ان كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه فانما وجد في المحل عرض فقد فى في الحال واتفقوا على ان الارادة والسمع والبصر ليست معانى قائمة بذاته لكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفى رؤية الله بالا بصار في دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسعوا هذا النمط توحيداً واتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق

ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصالح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطيف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا النمط وعداً ووعيداً واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع . والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكليف الطاف للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة واختلفوا في الإمامة والقول فيها نصاً واختياراً .

وهنا ذكر الشهرستاني مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل «الواصلية» أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال و «الهديلية» أصحاب أبي الهذيل حمدان بن أبي الهذيل العلاف و «النظامية» أصحاب إبراهيم بن سيار بن هاني النظام و «الحائطية» أصحاب أحمد بن حائط و «الحديثية» أصحاب فضل بن الحديثي و «البشرية» أصحاب بشر بن المعتمر و «المعمرية» أصحاب معمر بن عباد السامي و «المزدارية» أصحاب عيسى بن صبيح المكي بأبي موسى الملقب بالمزدار و «الثمائية» أصحاب ثمامة بن اثمرس النخعي و «الهشامية» أصحاب هشام بن عمر الفوطي و «الجاحظية» أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ و «الخطاطية» أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخطاط و «الجبائية والبهشية» أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه أبي هاشم عبد السلام .

ومن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وأبو الأسود الدؤلي وعلقمة والاسود وشريح من أصحاب عبد الله بن مسعود والحسن البصري وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري وعبد الله بن

عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه صالحا في أبشع صورة لانه أنكر على بنى أمية سوء سياستهم في الرعية وواصل بنى عطاء وهو الذى أتقذ أصحابه الى الآفاق وبث دعاته في البلاد فبعث عبد الله بن الحارث الى المغرب فاجابه خلق كثير وبعث الى خراسان حفص بن سالم وبعث القاسم الى اليمن وبعث أيوب الى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمينية . ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه ورثاه وقاما عهدان الخليفة رثى رعية بقوله :

صلى الاله عليك من متوسل قبرا مررت به على مران
قبر تضمن مؤمنا متخشعا عبد الاله ودان بالقرآن
واذا الرجال تنازعوا في شبهة فصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقي صالحا أبقي لنا عمرا أبا عثمان

ومنهم أبو الهذيل العلاف الذى قال فيه المأمون . أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام . ومنهم ابراهيم النظام وهو الذى يقول فيه الجاحظ الاوائل يقولون فى كل الف سنة رجل لا نظير له فان كان ذلك صحيحا فهو ابو اسحق النظام . وبشر بن المعتمر الهلالي وأبو عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الرحمن بن كيسان الاصم واحمد بن أبى دوداء وثمامة بن الاشرس ومنهم الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل فى حسن السيرة بالعمرين وهما أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفى وابو الفضل جعفر بن حرب . ومنهم ابو جعفر الاسكافى وأبو عبد الله الدباغ وأبو على الجبائى ومنهم ابو العباس الناشئ ومحمد بن عمر الصيمرى والسيرافيان أبو القاسم وأبو عمران وقاضى القضاة عبد الجبار الهمداني . ومنهم الصاحب بن عباد والقاضى على بن عبد العزيز الجرجاني والجوهرى صاحب الصحاح والشرىف المرتضى وأبو بكر الرازي وأبو بكر الدينورى

ومما يؤثر من أخلاق أئمة المعتزلة وورعهم ما قاله الواثق لاحمد بن أبى دؤاد لم تولى أصحابى أى (المعتزلة) القضاء كما تولى غيرهم فقال : يأمر المؤمنين أن أصحابك يمتنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجهت اليه بعشرة آلاف درهم

فأبى أن يقبلها فذهبت اليه بنفس واستأذنت فأبى أن يأذن لي فدخلت من غير
إذن فسل سيفه في وجهي وقال الآن حل لي قتلك فما تصرفت عنه فكيف أولى
القضاء مثله . وروى أن أحد أئمتهم جعفر بن مبشر اضرت به الحاجة حتى كان
يقبل القليل من زكاة اخوانه فخره يوماً بعض التجار فتكلم بحضرته في خطبة
نكاح فأعجب به ذلك التاجر فسأل عنه فأخبر بمسكنته فبعث اليه بخمسة دینار
فردھا فقيل له قد غدرناك في رد مال السلطان للشبهة وهذا تاجر ماله من كسبه
فلا رجه لردك فقال جعفر : أنه استحسن كلامي افترائي ان أخذ على دعائي الى
الله تعالى وموعظتي ثمناً لو لم أكن فعلت هذا ثم ابتداء في قبلت . وروى أن
بعض السلاطين وصله بعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمل اليه بعض أصحابه بدرهمين
من الزكاة فقبل فقيل له في ذلك فقال ! أرباب العشرة أحق بهما مني وأنا أحق بهذين
الدريهين لحاجتي اليهما وقد ساقهما الله الى من غير مسألة وأغناني بهما عن الشبهة
والحرام .

وفي طبقات السبكي : قال ابن الصلاح هذا الماوردي عفا الله عنه يتهم بالاعتزال
وقد كنت لأتحقق ذلك عليه وأتأول له واعتذر عنه في كونه يورد في تفسيره
في الآيات التي يختلف فيها أهل التفسير تغير أهل السنة وتفسير المعتزلة غير متعرض
لبیان ما هو الحق منهما وأقول لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل
ولهذا يورد من أقوال المشتبهة أشياء مثل هذا الإيراد حتى وجدته يختار في بعض
المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة ومن ذلك مصيره في الاعتراف
الى أن الله لا يثائر عبادة الأوثان . قال في قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل
نبي عدواً شياطين الأنس والجن) وجهان في جعلنا أحدهما معناه حكمنا بأنهم
أعداء والثاني تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها . وتفسيره عظيم الضرر لكونه
مشحوناً بتأويلات أهل الباطل تلبساً وتدليساً على وجه لا يفتن له غير أهل العلم
والتحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب الى المعتزلة بل يجتهد في كتمان
موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فانه لا يوافقهم في جميع
أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل ما يأتيهم من ذكر
من ربهم يحدث وغير ذلك ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين
وعيبوا بهما قديماً انتهى .

أصل الوهابية ^(١)

لغطت ألسن الناس في هذه الايام بأصل الوهابية وتاريخهم ومعتقداتهم وتناقضت الروايات وكثر التخرصات والقوم بين مفرط في التشيع لهم . ومفرط في التشيع عليهم . وود الكثير لو كان في الايدي ما يستند عليه لاستقراء الحقيقة واستجلاء الغامض من هذا السر وما عاد الى ذلك الا اختلاط المتمسكين بذلك المذهب مع أهل الامصار كالقطر العراقي والمصري والشامي وغيرها من الاقاليم يتجرون بنتائج بلادهم من سمن وأبعر وشياه وأوبار وجلود تجارة رائدها الصدق في التعامل مع الكافة مما ضاعف الثقة بهم على تطاول الايام . وبعد فاني لا أتوخي في هذه العجالة الامام بعقائد تلك الطائفة لتأتى صبرة واحدة فان كتبهم المطبوعة أكثرها في بلاد الهند تتكفل بذلك لمن يروم الاستبقاء . ولا ان أصف بلادهم وأحوالهم وصف مداح متجامل . أو قдах متحامل . بل غاية ما اطال اليه ذكر طرف من أخبارهم مشفوعة بصحة النقل والناقل لا تبعة تلحقه اذا خلصت منه النية

قال الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار عند حوادث سنة ١٢١٨ هجرية ما نصه وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبا من الوهابي ولغط الناس في خبره ، واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجياً وكافراً ، وهم المكليون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه ، وأرسل الى شيخ الركب المغربي كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ونشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله . من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئاً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

(١) نشرت في المجلد الخامس والعشرين من مجلة المقتطف (١٣١٨ — ١٩٠١)

وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد فقد قال الله تعالى ، قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين وقال الله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . وقال تعالى : وما أنا كم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . وقال تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه أكمل الدين وأتم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف وقال تعالى اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون وقال تعالى : وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاياكم به لعلكم تتقون

« والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن . وأخبر في الحديث الآخر ان أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قالوا من هي يا رسول الله قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي

« اذا عرف هذا فاعلموا ما قد سمت به البلوى من حوادث الامور التي أعظمها الاشتراك بالله والتوجه الى الموتي وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها إلا رب الارض والسموات وكذلك التقرب اليهم بالنذور . وذبح القرбан والاستغاثة بهم في كشف الشدائد ، وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله . وصرف شيء من انواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً كما قال تعالى : فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار . فأخبر سبحانه انه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصاً لوجهه وأخبر ان المشركين يدعون

الملائكة والانبياء والصالحين ليقرّبوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده واخبر أنه لا يهدى من هو كاذب كفار . وقال تعالى . ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون فأخبر انه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة فقد عبدتهم وأشرك بهم وذلك ان الشفاعة كلها لله كما قال تعالى من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه وقال تعالى : يومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم وقال تعالى يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى : ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون فالشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وقال تعالى) ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذاً من الظالمين .

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع الا بأذن الله لا يشفع ابتداء بل يأتي فيخبر الله ساجداً فيحمد بحمده يعلمه إياها ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ثم يحده حداً فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الاولياء والانبياء وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين بل قد اجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج مناجهم . وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها واسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعياداً وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الاوثان . وهو صلى الله عليه وسلم حي جناب التوحيد أعظم حماية وسد كل طريق يؤدي الى الشرك

فنهى أن يجصص القبر وان يبنى عليه كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر وثبت فيه أيضاً أنه بعث علياً بن أبي طالب رضى الله عنه وأمره أن لا يدع قبراً

مشرفاً الا سواء ولا تمثالا الا طمسه ولهذا قال غير واحد من العلماء يجب هدم
القباب المبنية على القبور لأنها أسست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم .
فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر الى ان
كفرونا وقتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفروا بهم وهو
الذي ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة
رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع السلف الصالح من الامة ممتثلين لقوله سبحانه
وتعالى (وقتلوه حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فمن لم يجب الدعوة
بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات
وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأزلنا الحديد فيه بأس
شديد ومنافع للناس) وندعو الناس الى إقامة الصلوات في الجماعات على الوجه
المشروع وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف
وننهي عن المنكر كما قال تعالى (الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فهذا هو الذي
نعتقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ما علينا ونعتقد
أيضاً أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وأنه
لا يزال طائفة من أمته على الحق منصوره لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم
حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك انتهى قال الجبري بعد إيراد ما تقدم . أقول
ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضاً وهو خلاصة لباب التوحيد وما علينا
من المارقين والمتعصبين . وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في كتابه إغاثة
اللفهان والحافظ المقرزي في تجريد التوحيد والامام اليوسى في شرح الكبرى
وشرح الحكيم لابن عباد وكتاب جمع الفضائل وقمع الرذائل وكتاب مصايد
الشیطان وغير ذلك

وجاء في تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصري عند الكلام على الوهابية
ما يأتي . فمن اعتقادهم تكفير عموم المسلمين الذين على الكرة الا رضية إلا من اعتقد
اعتقادهم . وسموا أنفسهم بالسلف والمحمدين ويغضون ويلعنون جملة من علماء
السنة مثل أبي الحسن الأشعري ويقولون أنهم هم الذين أسسوا قواعد الأدلة

والبراهين في علم التوحيد ومنه نشأت الفرق والخلاف بين الأمة المحمدية وإلا فقبله كانت الأدلة هي القرآن والحديث لا غير . وأيضاً يكفرون الامام ابن السبكي الشافعي ولكن ما علم السبب في تكفيره دون سائر المصريين . وياليت شعري ما ذنبه معهم وأظنه لكونه كان يغري الملوك بآب تيمية وجماعته الخنابلة حتى حبسهم الناصر محمد بن قلاوون في الاسكندرية كما هو مذكور في الدرر الكامنة لابن حجر

قال والحاصل ان الوهابين آذوا الأحياء والاموات ومن محاسن الوهابيين أنهم أماتوا البدع ومحوها . ومن محاسنهم أنهم أمنوا البلاد التي ملكوها وصار كلها كان تحت حكمهم من هذه البراري والقفار سلكها الرجل وحده على حمار بلا خفر خصوصاً بين الحرمين الشريفين ومنعوا غزو الأعراب بعضهم على بعض وصار جميع العرب على اختلاف قبائلهم من حضرموت الى الشام كأنهم اخوان أولاد رجل واحد وهذا بسبب قسوتهم في تأديب القاتل والسارق والناهب الى أن عدم هذا الشر في زمان ابن سعود وانتقلت أخلاق العرب من التوحش الى الأنسانية وتجد في بعض الاراضي المخصبة هذا بيت عزى وبجنبه بيت عتي وبقربه بيت حربى وكلهم يرتعون كأنهم اخوان وبها تين الديستين خدعوا جميع العوام يعنى بمحو البدعة وتأمين الطرقات والسبل خصوصاً بين الحرمين وأحبهم سائر الامم وغفلوا عن باقى عقائدهم . ورأيت لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى رعاة غنمهم ومنها

وما الدين الا أن تقام شعائر وتأمين سبل بيننا وشعاب

فكانهم جعلوا تأمين الطرقات ركناً من أركان الدين ويفهم عقلا من سياستهم انه اذا فقد القاتل والسارق والناهب فأى سبب يمنع عموم الناس من الاشتغال بالزراعة والتجارة واقتناء المواشى في البادية المخصبة للتكسب من البانها وأصوافها وجلودها واذا اشتغلوا بالكسب الحلال فلا يسرقون ولا يتهبون ولا يقتلون فكان المسألة شبيهة بالدورية أى انه متى وجد الامان ارتفع السارق والقاتل

لاشتغالهم بمعاشهم الحلال ومتى اشتغلوا بالمعاش الحلال وجد الامان ولكن
هذا الدور منك الجهة

« ولولا ما فى الوهابيين من هذه النزغة أغنى تكفير من عداهم للمكوا
جميع بلاد الاسلام وأدخلوهم تحت حكمهم بطوعهم واختيارهم ولكن بسبب هذه
النزغة أبغضتهم الامم وتسلطت عليهم الدول وغزاهم أسد الديار المصرية ابراهيم
باشا بن محمد على باشا بأمر السلطان محمود سنة ١٢٢٨ وملك بلادهم ومحا آثارهم
وأبادهم وأسكن عائلة المقرن أى بيت الملك وعائلة بن عبد الوهاب الديار المصرية
(وما رجعوا الى بلادهم الا بعد ان عاد الحجاز الى الدولة العلية) وهذه الفرقة
المعبر عنها بالوهابيين هم اتباع محمد بن عبد الوهاب النجدى ولكنهم فى الحقيقة
يسمون أهل الحديث لأنه كان نظيرهم موجوداً فى زمن الدولة العباسية وينكرون
المناكير بالشدة والغلظة مثل الوهابيين ويشورون على الخلفاء بسبب ان الجهاد فى
اعتقادهم ركن من أركان الدين أنظر تاريخ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
من سنة ٣٠٠ هجرية وكانوا يسمونهم الحنابلة وأهل الحديث فى ذلك الزمن
ويقولون قام الحنابلة وثار الحنابلة وكسر الحنابلة حانات الخمر وأدبو من شرها
وكان بينهم وبين العباسيين مقابلات وحروب . ثم ثارت منهم فرق بالمشرق
وبجزيرة الأندلس ويسمون الظاهرية وهم أيضاً أهل الحديث وكانوا ينكرون
المناكير مع الغلظة ويشورون على الملوك وأكثرهم يموت بين قتيل وطريد .
ثم انه ظهر لهم فرق فى دولة يوسف صلاح الدين وكانوا يسمون أهل الحديث
ولهم ثورات وعداوات مع الملوك أيضاً وينكرون المنكر بغلظة وفضاظة وتسلسلوا
الى زمن ابن تيمية الحرانى وتلاميذه ابن مقلح وابن القيم وابن عبد الهادى . ثم
ظهرت هذه الفرقة التى عمت وطمت فى القرن الثانى عشر ويسمون بالوهابيين
نسبة الى محمد بن عبد الوهاب النجدى والا ففى الحقيقة أفعالهم وآثارهم هى أفعال
الحنابلة الأقدمين وهى أفعال أهل الحديث فى القرون المتوسطة وأفعال الظاهرية
فالمعنى واحد انما يسمون فى كل عصر باسم على اصطلاح أهل ذلك العصر اه »

أما ناظم عقد هذه الجماعة وصاحب دعوتها محمد بن عبد الوهاب النجدي
الآنف ذكره فقد ورد في كتاب بنصرة الناقد لأبي الفتح عبد النصير الهندي
ثم المدني نقلاً عن محمد بن ناصر الحازمي في رسالة فتح المنان في ترجيح الراجح
وتزييف الزايف من صلح الاخوان انه محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن
محمد بن احمد بن راشد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن مشرف هذا هو المعروف
من نسبه ويذكر أنه من مضر ثم من بني تميم والله به عليم . أخذ عن أبيه وهم
بيت فقه حنابلة ثم حج وقصد المدينة ولقى بها شيخاً عالماً من أهل نجد اسمه
عبد الله بن ابراهيم قد لقي أبا المواهب البعلی الدمشقي وأخذ عنه وانتقل مع
أبيه الى حريملا من نجد أيضاً ولما مات أبوه رجع الى العينية وأراد نشر الدعوة
فرضى أهل العينية بذلك ثم جرج عنها بسبب الى الدرعية وأطاعه أميرها محمد
ابن سعود من آل مقرن . ويذكر أنهم من بني حنيفة ثم من ربيعة والله أعلم .
وهذا في حدود سنة تسع وخمسين بعد المائة وألف وانتشرت دعوته في نجد
وشرق بلاد العرب الى عمان ولم يخرج عنها الى الحجاز واليمن الا في حدود
المأتين والألف وتوفي سنة ست بعد المأتين والألف اهـ

وقال أيضاً هو رجل عالم متبع الغالب عليه في نفسه الاتباع . ورسائله معروفة
وفيها المقبول والمردود واشهر ما ينكر عليه خصلتان كبيرتان . الاولى تكفير
أهل الارض بمجرد تلقيات لا دليل عليها . والثانية الاجترار على سفك الدم
المعصوم بلا حجة واقامة برهان . وتتبع هذه جزئيات وهي حقيرة تغتفر مع صلاح
الاصل وصحته والله أعلم . وقد بنى الشيخ محمد المذکور طريقته على اتباع بن
تيمية ، وابن القيم في زعمه وأخذ من اقوالهما اطرافاً بحسب ما وقع له من الاطلاع
والاشراف وقد أصاب في بعض ما نقله وأخطأ في البعض وساء فهمها وأخذ على
غير القصد في بعض وقد أحييت دعوته بعضاً من الشريعة وأماتت كثيراً من
الباطل في نجد والحجاز رحمه الله وتجاوز عنه فيما أخطأ فيه وجزاه أحسن ما عمل
به انتهى ملخصاً

وكتب العلامة الشوكاني اليماني في البدر الطالع في ترجمة سـعود بن العزيز
مانصه « فوصل اليه الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب الداعي الى التوحيد المنكر

على المعتقدين في الاموات . وقال أيضا في ترجمة غالب بن ساعد شريف مكة في بيان اتباع صاحب نجد . وتبلغنا عنهم أخبار الله أعلم بصحتها . من ذلك انه يستحل دم من استغاث بغير الله من نبي أو ولي أو غير ذلك ولا ريب ان كان ذلك عن اعتقاد تأثير المستغاث به كتأثير الله يصير به صاحبه مرتدًا كما يقع من كثير من هؤلاء المعتقدين للاموات الذين يسألونهم قضاء حوائجهم ويقولون عليهم زيادة على تعويلهم على الله سبحانه وتعالى ولا ينادون الله جل وعلا الا مقترنًا بأسمائهم ويخصونهم بالنداء منفردين عن الرب فهذا كفر لاشك فيه ولا شبهة وصاحبه اذا لم يتب كان حلال الدم والمال كسائل المرتدين . وقال وبعض الناس يزعم انه يعنى صاحب نجد يعتقد اعتقاد الخوارج وما أظن ذلك صحيحًا فان صاحب نجد وجميع اتباعه يعملون بما يعلمونه من محمد بن عبد الوهاب وكان حنبليًا ثم طلب الحديث بالمدينة المشرفة فعاد الى نجد وصار يعمل باجتهادات جماعة من متأخري الحنابلة كابن تيمية وابن القيم وأضرا بهما وهم من أشد الناس على معتقدي الاموات « وقد رأيت كتابًا من صاحب نجد الذى هو الآن صاحب تلك الجهات أجاب على بعض أهل العلم وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقده فرأيت جوابه مشتملا على اعتقاد حسن موافق للكتاب والسنة والله أعلم بحقيقة الحال وبلغنا انه وصل الى مكة بعض علماء نجد لقصد المناظرة فناظر علماء مكة بحضرة الشريف في مسائل تدل على ثبات قدمه وقدم صاحبه في الدين وفي سنة ١٢١٥ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما الى حضرة مولانا الامام حفظه الله أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب كلها في الارشاد الى اخلاص التوحيد والتنفير من الشرك الذى يفعله المعتقدون في القبور وهى رسائل جيدة مشحونة بادلة الكتاب والسنة والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من الفقهاء المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذكروه في مسائل متعلقة باصول الدين وبجماعة من الصحابة فأجاب عليها جوابات محررة مقررة محققة تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة . وقد هدم عليهم جميع ما بنوه وأبطل جميع ما دونوه لانهم مقصرون

متعصبون فصار مافعلوه خزيا عليهم وعلى أهل صنعاء وصعدة وهكذا من تصدر ولم يعرف مقدار نفسه انتهى ملخصاً

وقال القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي في كتاب تفح العود في أيام الشريف حمود ومن كتب عبد العزيز بن سعود هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز ابن سعود الى من يراه من أهل المخلاف السليمانى خصوصاً أولاد الشريف حمود وناصر ويحيى وسائر اخوانهم وأولاد اخوانهم وكذلك أشرف بنى النعمى وكافة أشرف تهامة وفقنا الله واياهم الى سبيل الحق والهداية وجنبنا واياهم طريق الشرك والغواية . وأرشدنا واياهم الى اقتفاء آثار أهل العناية . أما بعد : فالموجب لهذه الرسالة ان الشريف أحمد بن حسين الفلاني قدم الينا فرأى مانحن فيه وتحقق صحة ذلك لديه فبعد ذلك التمس منا ان نكتب لكم مايزول به الاشتباه فتعرفوا دين الاسلام الذى لا يقبل من أحد سواه . فاعلموا رحمكم الله تعالى ان الله سبحانه أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل فهدى به الى الدين الكامل والشرع التام وأعظم ذلك وأكبره وزبدته اخلاص العباد لله لا شريك له والنهى عن الشرك وذلك هو الذى خلق الله تعالى الخلق لاجله ودل الكتاب على فضله كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . وقال تعالى : وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واخلاص الدين هو صرف جميع العباد لله تعالى وحده لا شريك له وذلك أن لا يدعى الا الله ، ولا يستغاث الا بالله ، ولا يذبح الا له ، ولا يخشى ولا يرجى سواه ، ولا يرهب ولا يرغب الا فيما لديه . ولا يتوكل فى جميع الامور الا عليه ، وان كل ما هنالك لله تعالى لا يصلح شىء منه لملك مقرب ، ولا نبى مرسل ولا شىء غيرهما . وهذا هو بعينه توحيد الالهية الذى أسس الاسلام عليه وانفرد به المسلم عن الكافر وهو معنى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله

فلما من الله تعالى علينا بمعرفة ذلك وعلمنا انه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس اليه والا فنحن قبل ذلك على ما عليه غالب الناس من الشرك بالله تعالى من عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم ، والاستعانة منهم والتقرب بالذبح لهم ، وطلب

الحاجات منهم مع ما ينضم الى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات ، وارتكاب
الامور المحرمات . وترك الصلاة وترك شعائر الاسلام حتى أظهر الله الحق بعد
خفائه ، وأحيا أثره بعد عفائه ، على يد شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب أحسن
الله تعالى اليه في آخرته والمآب . فأبرز ماهو الحق والصواب من كتاب الله المجيد
الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الخ
ورسالة عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب . التي كتبها حين فتج الحرمين
الشريفين شاهدة عدل على أنه برىء من تلك الافتراءات التي أفتروها على عقائده
وعقائد أبيه وبنوا عليها تلك الزلازل والقلقل وان مذهبه عين مذهب الأئمة
المحدثين والسلف الصالحين وتلك الرسالة منقولة في اتحاف النبلاء من شاء الاطلاع
عليها فليرجع اليها . قال المستشرق سيديلوا القرنساوي في كتابه خلاصة تاريخ
العرب ما نصه « أخذت العرب من ابتداء القرن الثامن عشر في الاستقلال بالحكم
لقوتها وضعف أعدائها ولم تنقص الا اتخاذ مركز تجمع حول جميع الازدهان وترجع
اليه في تدبير الامور فهمت الوهابية سنة ١٧٤٩ ميلادية فتأخذت منها عبد الوهاب
مركزاً وهو من قبيلة تميم اشتغل في صغره بالعلوم المعتادة عند العرب خصوصاً
الفقه وسافر الى بغداد والبصرة وبلاد الفرس ثم أخذ يتفكر فيما يثير الحمية في
أبناء وطنه فوجده أحياء الشريعة نقية من جميع البدع كالتها الاولية فالزمهم
المواظبة على العمل بالقرآن ونهاهم عن العلو في تعظيم النبي (صلى الله عليه وسلم)
وعن تقديس الاولياء الذين هدم قبورهم وعن تعاطي المسكر وأنكر على الأتراك
بعض الاحوال وقال ان الشريعة تقضي أن يخرج كل انسان خمس أمواله (كذا)
زكاة وتحرم الزينة وتلزم القضاة بتحري الصدق وأخذ يعظهم بخطب عظم تأثيرها
لديهم بموافقتها القرآن ومقصوده من ذلك استمالهم الى الامور الحريسة ليحيوا
ما كان لا بآئهم من العظمة . وقد كان فان أقوى جميع قبائل نجد وفدت عليه
وانتظمت تحت لوائه فجعل محمد بن سعود من قبيلة مصالح قائد هؤلاء الوفود
وزج سعود ابنته وقلده الحكم السياسي على الوهابية لمعرفته بالقوانين العسكرية
وقال أحمد سعيد البغدادي في كتابه نديم الادب « أما حقيقة هذه الطائفة
فانها حنبلية المذهب وجميع ما ذكر المؤرخون عنها من جهة الاعتقاد محرف وفيه

تناقض كلي لمن اطلع عليه بتأمل لان غالب مؤرخي الشرقيين ينقلون عن الكتب
الافرنجية فان كان المؤرخ المنقول عنه صاحب دراية وصادق الرواية تجدان من
يترجم كتابه يجعل الترجمة على قدر اللفظ فيضيع مزية الاصل . وان كان المؤرخ
غير صادق الرواية فمن باب أولى « الى أن قال « ومن أراد أن يعرف جلياً اعتقاد
هذه الطائفة فليطالع كتب مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فانه مذهبهم
أما بلاد نجد فقد وصفها محمد بن سليم الشهابي المدني في رسالته الرحلة الحجازية
« أنها أرض مسطحة سهلة يقل وجود الجبال فيها والمشهور فيها جبلان أجاء وسلمى
وانها حسنة الهواء كثيرة الامطار والسيول وفي سفح جبل أجاء مدينة تسمى
بندر حائل وهي مسورة ولها ثلاثة أبواب ويوتها طبقة واحدة والقليل منها
طبقتان مرتفعة البناء وفيها محال للقهوة مزينة داخل البيوت على عادة العرب وفيها
قصر أميرها والامير ينفذ أحكام القاضي على موجب القرآن الشريف والاحاديث
النبوية والاقوال الصحيحة فيقتص من القاتل ويقطع يد السارق ويقيم حد الرجم
ولا يوجد في بلاد نجد شاهد زور البتة حتى لو سمع الامير بشاهد زور يجلبه من
أقصى نجد ويعزره وينفيه . وفي أوقات الصلاة يطوف مأمور من قبل الامير في
الاسواق والشوارع فاذا وجد واحداً لم يحضر صلاة الجماعة يسلبه عمامته ويجره
الى المسجد وعند خروج الامير من الصلاة يعرضه عليه فيؤدبه الامير لترك الصلاة
مع الجماعة وترى جميع أهل البلد والنازلين فيه متبارين في صلواتهم مع الامام في
الجامع وهم في غاية الذكاء والكمال والفصاحة العربية وحديثهم بينهم بالاحسان
والتؤدة لا تسمع بينهم لغوا أبداً ولئن كان بقايا من عوائد العرب القديمة وسفنها
فهي عندهم ولقد نزلت بين ظهرانهم على عهد المرحوم الامير متعب ثلاثة أشهر
ثم زرتهم مرتين فأكثرت لما رأيته من انسانيته فامعنت النظر في أحوالهم فلم أسمع
في حائل حاضرة الامير صوت طبل ولا غناء مزمار ما خلا طبل الحرب في وقته .
واذا مات أحدهم لا تسمع عويل أهله وعياله سوى حزن وبكاء ويدفنون موتاهم
حال وفاتهم ولو مات الميت في الليل وفيها بعض أشجار مثمرة وبنواحيها في سفح
جبل أجاء قرية تدعى قفاد ذات عين ثرة تسقى النخيل والزروع وحاضرة أمير حائل
تحيط بها من جهاتها الثلاث أرض سهلة ماعدا الجهة الرابعة حيث جبل أجاء الذي

يكثر فيه الربيع مسافة يومين وليلة وهي حمى جعله الامير لخاصته ويربى فيها خيله
وهجنه وابله ومواشيه . وفي محيط الحمى قرى رجال الامير وعلى بعد خمسة ايام من
الحمى بلدة كبيرة تسمى عنيزة مسورة بسورين سور على نخيل يحيط بها وسور
على البلدة وعلى مقربة منها مسيل ماء يجري في الغالب وعلى اطرافه نخيل كثير
وأكثر سكان البلدة تجار نجد وأعيانها . ويقابلها أيضاً بلدة كبيرة مسورة تسمى
بريدة ولها قرى تابعة لها ونخيل كثير تدعى القصيم متصلة بالدرعية ومنها الى
مدينة عظيمة تدعى العارض حيث مساكن حكام نجد وأمرائها آل سعود والامير
في كل عام يأخذ من رعاياه الزكاة وفقاً للشرع من خيولهم وابلهم وأغنمهم
ومواشيهم ونخيلهم وزروعهم ولا يستثنى من ذلك الا الخيل المعدة للحرب والذي
يجب عليه من الزكاة على وفق الشرع يجمعه عنده فيفريق بعضه على المحاييج والفقراء
ويصرف البقية في المآدب وعطايا قاصديه حتى لا يبقى على رأس السنة منها شيء
هذا طرف مما عثرت عليه من تضايف كتب مطبوعة ومخطوطة لمؤلفين
متباينين في المشارب متفرقين في المشارق والمغارب أثبتته على حاله ولم أمسح من
لفظه ولا ماله . ورأيت وسمعت كثيراً من مؤرخي الفرنجة وسياحهم تكلموا
على هذا المذهب ومنهم المنصف والمجحف على ان المجحف منهم يفضل بصدقه
أمثال أحمد جودت وعبد الرحمن شرف وأيوب صبرى وغيرهم من المؤرخين
الأتراك الذين أطلقوا مباشرة الفاظ والتكفير والتضليل على أبناء هذا المذهب
ورموا الكلام على عواهنه واتهموهم في أمانتهم . ولذا اقتصر على إيراد ما
تقدم وتجاوأت عن ترجمة أقوالهم لأنها أملت بلسان التمويه لا بلسان التاريخ .
وعلى ما قيل في عباراتهم يتصرف ما كتبه أحمد زيني دحلان المكي بعبارات
محزنة مخجلة وقد رد عليه علماء الوهابية زاعمين ان الاحاديث التي ساقها في
كتابيه موضوعة بعد ظهورهم مطالبين القائل بها ببيان الكتب المأخوذة منها من
أسفار المحدثين المتقدمين والمتأخرين مطيدين اللسان على علماء ذلك العصر ناسبين
لهم الافتراء على حضرة صاحب الرسالة عمداً وياليت هذا المكي بين ما أخذه
ليخلص من الطعن فان المقام مقام جدال .

واختلفت الاقوال في عدد المنتحلين لهذا المذهب في نجد ويقول شمس

الدين سامى صاحب قاموس الاعلام ان عددهم قد يرقى الى ثلاثة ملايين نسمة في نجد أما مسافة هذه الكورة فيقطعها الراكب على متون المطايا في عشرين يوماً عرضاً وثلاثين يوماً طولاً وأخبرني أحد الثقات الاثبات ان دعوة الوهابية تنتشر في الهند خصوصاً في الاعوام الاخيرة

ويؤخذ مما ذكره حسين بن غنام الاحسائي^(١) في كتابه روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام ، أن الناس في نجد قبل قيام محمد بن عبد الوهاب كانوا الى الشرك الخفى والظاهر . وقد وصف المقامات التى نذروا لها والشيوخ الذين اعتقدوا فيهم وانتقل الى « بلدان مصر وصيدا وما فيها من الامور التى ينزه اللسان عن ذكرها وتعيدها خصوصاً عند قبور الصلحاء والعباد من ساداتها وعبيدها بها . »

وذكر ما يفعل من هذا القبيل في بلدان اليمن وقال ان حلب ودمشق وأقصى الشام والموصل وبلاد الاكراد والعراق وبغداد والبصرة وقرى السلط والقطيف والبحرين وغيرها من بلاد العرب كلها واقعة في هذا . واستشهد بقصيدة للامير محمد بن اسماعيل الصنعاني وكان مشهوراً بالعلم والفهم قال واصفاً ما سرى من البدع :

طفى الماء من بحر ابتداء على الورى	فلم ينج منهم مركب وركاب
وطوفان نوح كان في الفلك أهله	فنجاهم والغارقون ثباب
فأنى لنا فلك ينجى وليته	يطير بنا عما نراه غراب
وأين الى أين المطار وكلما	على ظهرها يأتيك منه عجاب
ترى الدين مثل الشاة قد وثبت له	ذآب وما عنه لهن ذهاب
لقد مزقته بعد كل ممزق	فلم يبق منه جثة وإهاب
وليس اغتراب الدين الا كما ترى	فهل بعد هذا الاغتراب اياب
فيا غربة هل يرتجى منه أوبة	فيجر من هذا البعاد مصاب
فلم يبق للراجي سلامة دينه	سوى عزلة فيها المجلس كتاب

(١) من مقالة لنا نشرت في المجلد الثلاثين في مجلة القتطف ١٩٠٥ — ١٣٢٢

واستشهد له بقصيدة أخرى قال فيها :

ويعمر أركان الشريعة هادماً مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله بغوث وود بنس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة أهلت لغير الله جهرًا على عمد

علام جعلتم أيها الناس ديننا لأربعة لاشك في فضلهم عندي
هموا علماء الدين شرقاً ومغرباً ونور عيون الفضل والحق والزهد
ولكنهم كالناس ليس كلامهم دليلاً ولا تقليد لهم في غد يجدي
ولا زعموا حاشاهموا ان قولهم دليل فيستهدى به كل مستهدى
بل صرحوا انا نقابل قولهم اذا خالف المنصوص بالقدح والرد

وترجم المؤلف شيخ الاسلام ابن عبد الوهاب بما لم يخرج عما تقدم من ترجمته آنفاً ومما قاله انه كان أكثر لبثه لأخذ العلم بالبصرة وأخذ في بث الدعوة ثم سكن حريلاً مع والده مثابراً على دعوته تاركاً ما سلكه علماء السوء فانتظم في سلكه عصاة اتخذوه جليساً واتبعوا طريقته فقرأوا عليه كتب الحديث والفقه واشتهر في بلدان العارض من حريلاً والعينية والدرعية والرياض ومنفوحه وانحاز لدعوته جم غفير وأقام في حريلاً سنين واهتدى به أحد الامراء عثمان بن معمر في العينية فاقام بها وساعده الامير على الارشاد فبدأ يعظم أمره ففشا الدين في بلدان العارض فامر الشيخ الامير بهدم القباب والمساجد المبنية على قبور الصحابة وقطع الاشجار التي كان ينتابها الناس للتبرك وعدلت على السنن المشروعة فانكر عليه ذلك وحكموا بكفره واستحلال دمه وماله وتقول بعضهم عليه ووشوا به الى علماء الاحساء والبصرة والحرمين وافتوا الحكام بانه أقبح الضلال والفساق وأشر الخوارج وحسبوا أنهم اذا حرشوا عليه الحكام يجدون في قتله فصنفوا المصنفات في تبديعه وتضليله وقالوا انه مغير السنة والاحكام يقصد تنفير الخواص والعوام ليشاقوا الولاة في عصوهم . ولما تظاهر الشيخ بالدعوة والناس قد أشربت

محبة المعاصي قلوبهم لم يكفر أولئك العربان وتوقف تورعا حتى تألبوا عليه وكفروه وجماعته ولم يأمر بسفك دم أكثر أهل الاهواء حتى حكموا عليه وأصحابه بالقتل والتكفير . ومع ما كان ينقل اليه من الاذى لم يكثرث بهم وكان يتضرع الى مولاه أن يشرح للحق صدورهم ولم يعامل أحداً بالاساءة بعد القدرة عليه ولما وفدوا عليه ومثلوا بين يديه لم يوبخ أحداً منهم وأسدى اليهم معروفه وتجاوز عما فعلوه . فعل به أعداؤه ذلك وأكثرهم معترف أن مأتى به هو الحق والصواب ولكن خشوا ان تسلب رئاستهم ودينياهم . توفى صاحب الدعوة وله من العمر قريب من اثنين وتسعين سنة كان في خلالها مستمراً في تحصيل نافع الزاد وصنف مصنفات كثيرة منها (كتاب التوحيد) ورسالة عامة للمسلمين تسمى (كشف الشبهات) جواباً لشبههم التي أدلوا بها فيها خلاصة دعوته ، ولباب علمه وكتب رسائل كثيرة في حث مجاوريه على الاخذ بما ارتآه والرد على خصومه قال من جملة جواب له ان تعليق التأمم من الشرك وكتب الطلاسم في الحجب هي من السحر والسحر يكفر صاحبه وان من دعا نبياً أو صحابياً أو ولياً مثل أن يقول ياسيدى فلان انصرنى وأغثنى كافر بالاجماع . وأنكر التذكير وقال انه من البدع وذكر السيوطى فى الاوائل ان أول ما حدث التذكير يوم الجمعة ليتهاى الناس بصلاتها بعد السبعمائة فى زمن الناصر بن قلاوون .

قال المؤرخ والسبب الذى دعا ابن عبد الوهاب الى الخروج من بلده العينية بعد ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ان امرأة من أهل تلك البلدة عرفت بسوء فاقرت على نفسها وتكرر ذلك منها فأعرض الشيخ عنها ثم أقرت وعادت الى الاقرار مراراً فسأل عن عقلها فأخبر بتمامه وصحته فأمرها أياماً رجاء ان ترجع عن الاقرار الى الانكار . فأقرت أربع مرات فأمر برجمها فشدد عليها ثيابها لترجم بالحجارة على الوجه المشروع فخرج الامير عثمان وجماعة فرجوها حتى ماتت فلما طار هذا الخبر كثر لفظ أهل البدع وطارت قلوبهم شعاعاً فلما أعياهم رد ما قاله من تلك المسائل عدلوا الى ردها بالمكر والحيلة فشكوه الى شيخهم فاغروه به فطلب الى الامير عثمان يأمره بقتله أو اجلائه عن وطنه فأمر هذا الامير الشيخ بالخروج فجاء الدرعية فلما سمع الامير محمد بن سعود بقدمه أسرع اليه مسلماً عليه فلطف

منه محله وأخبره بأن يمنعه بما يمنعه به نساءه وأولاده من جميع من عاداه وطلب الى الشيخ أن لا يرحل عن بلده وكان هذا الامير معروفاً في جاهليته بحسن السيرة فعاهده الشيخ على عدم الخروج وقام يدعو الناس الى التوحيد وآزره وزراء الامير وأعوانه واخوانه من أهل الدرعية وذلك في حدود سنة ١١٥٧ هـ وبقي الشيخ سنتين ينصح الناس وهاجر الى الدرعية خاق كثير بينهم زمرة من أهل البيوتات وسنة ١٢٠٦ هـ توفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحاله من العبادة في الصلاة والصيام مشهورة يتلو القرآن أبداً ويحيي غالب الليل بالقيام والتأني في تنفيذ الاحكام من كتب الأئمة الاربعة المقلدة وكان يحب اليه المال من جميع بلدان المسلمين فيمتفرقه عليهم في طريقة من الزهد مرضية وكان متكففاً من ذلك المال لا يأكل منه الا بالمعروف وكان سمحاً كريماً لا يرد سائلاً ومات ولم يخلف ديناراً ولا درهماً وكان عليه دين كثير وفي عنه .

وذكر ابن غنام في تاريخه أيضاً غزوات أتباع ابن عبد الوهاب مع من جاورهم من القبائل والبلدان وكلها دائرة على بث دعوة واحتياز مغنم ومقابلة شر بمثله أخبار متشابهة كان يجري مثلها في تلك الاصقاع . ويظهر للمتأمل ان معظم تلك الحروب التي جرت على عهد ابن عبد الوهاب كانت للدين فلما مات عادت المطامع الى مجراها السابق . والغالب ان الامير النجدي وابنه الذين عملا بمشورة الشيخ طول حياته قاما ببث دعوته بين الامراء المجاورين بعد ان أشادت شكيمتهما . ومن طالع هذا التاريخ وعرف حال الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يلبث أن يقع في ذهنه ان كل تاريخ هذه الطائفة قتل وقتال وقيل وقال . نعم ان الامر على ما يقول فقد ذكر لي أحد عقلاء النجديين يوماً مامعناه : يعاب على قومنا شيئان مهمان أحدهما الفتن التي مافئت يثور نائرها بين أظهرنا والدماء التي تهارق من ربيعنا ووضعنا وان تكن غارات اليوم بين ابن سعود وابن الرشيد مثلاً ليست كغارات أمس (تفرد السلطان عبد العزيز بن سعود منذ بضع سنين بحكم نجد كلها) المذكورة في تاريخ ابن غنام فان تلك كانت لنشر كلمة التوحيد بين أولئك الاعراب الجفاة وهذه تدعو اليها المطامع — وثانيهما انقسام الناس في نجد الى قبيلتين قبيل يقال له الخضيرية وآخر يقال له قبيلية أوشيوخ فالاول في

حل من تعاطى الصناعات كلها والثاني لا يجوز له تعاطيها لان ذلك يعد شيناً عليهم وعرة في وجوه انسابهم فيقتصرون على التجارة والفلاحة . واذا تعاطى أحد الشيوخ وبعبارة ثانية الاشراف صناعة ما ، وكان في الاصل شريفاً يسقط عندهم شرفه ويمسى معدوداً من الطبقة النازلة طبقة الصنيع والاجراء في بلاده طبقة الخضيرية . واذا تزوج أحد الشيوخ من بنى خضير أى صاحب الشرف من فاقده وكان للشريف عصبية يستحلون قتله مدعين انه أسقط شرفهم . قلت له وأنا أعيب عليكم أمراً ثالثاً ولطالما ذا كرتكم به وهو جمودكم على حالة واحدة في العلم وتحريركم مطالعة كتب لا تخلو مطالعتها من أنارة عقولكم ووقوفكم عند حد البحث في الدين دون الالتفات الى ما لا بد منه من علوم الدنيا . وما ينجي الى الا أن رجالكم الذين يأتون الامصار عارفون ماتمس اليه حاجة بنى نحلتهم من العلوم والصنائع وما ينقصهم من الممتنات التي لا أثر لها في باديتكم . اما انقسام الناس في نجد الى فئتين فليس بالامر الجديد فان الرومان كانوا كذلك بل كان اشراف أسلافكم العرب الخالص يرون الصنائع مضیعة لشرفهم ويعتدون في الغزو والغارة شرفهم الوحيد .

هذا ما لقفناه من تاريخ الاحسائي في اتباع محمد بن عبد الوهاب وهم الحنابلة بعينهم وما ابن عبد الوهاب الادعية هداهم من الضلال . وساقهم الى الدين السمع واذا بدت شدة من بعضهم فهي ناشئة من نشأة البادية ، وقلنا رأينا شعباً من أهل الاسلام يغلب عليه التدين والصدق والاخلاص مثل هؤلاء القوم وقد اختبرنا عامتهم وخاصتهم سنين طويلة فلم نرهم حادوا عن الاسلام قيد غلوة أما الغزوات التي يغزونها فهي سياسية محضة ومذهبهم برىء منها وما يتهمهم به أعداؤهم زور لا أصل له والله أعلم .

دولة الادب في حلب^(١)

على عهد سيف الدولة بن حمدان

لكل قرن من قرون العز في العرب نابغة أونوابغ من الملوك والامراء ، ومثلهم من العلماء والادباء ، وقد امتاز القرن الرابع في الشام — واذا قلنا الشام عنينا هذا القطر المحبوب الممتد من العريش الى الفرات ومن جبال طورس الى البادية على نحو ما كان يعرفه العرب — بقيام بنى حمدان فيه ، ورئيسهم سيف الدولة ابن حمدان استولى على القسم الشمالى منه ، والدولة العباسية قد أخذت تتناوشها ملوك الاطراف ، وأمرؤها في العراق ومصر والشام والجزيرة ، وأخذت دولة الخلافة بالضعف بصنع بعض الخوارج ، ومنهم من كان ينازعها السلطة علناً ، ومنهم من كان يشاركها فيها ويخضع لها في الصورة الظاهرة ، وبنو حمدان كانوا من هذا النوع الاخير .

أصل بنى حمدان بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية ، وهم بنو حمدان ابن حمدان كانوا ملوك الموصل والجزيرة وحلب في أيام المقتدى بالله العباسى ، وأول من ملك منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ، ثم أخوه ابراهيم بن حمدان ، ثم أخوه سعيد ونصر ابناء حمدان ، ثم استولى على الشام وحلب معين الدولة على ابن أبى الهيجاء بن حمدان ، ثم لؤلؤ مولى سعد الدولة بن حمدان ، ثم غلبه على ذلك صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وانتزعه منه في سنة ٤٠٢ هـ

كان للقبائل سلطان في هذه الديار ، وأى سلطان ، لان البادية خلقوا رجال حرب وغزو أكثر من الحضرة ، لذلك كان العرب قبل الاسلام بخمسة أو ستة قرون يحكمون هذه الديار أو يغيرون على المعمور منها ، أو ينزلون في صقع معين منها فيبنون المصانع ويغتنون كما يغتنى أهل الحضرة ويعيشون عيشهم ، ومن هؤلاء العرب من كان لهم قبل الهجرة وبعدها مدنية رائعة مثل النبطيين في الجنوب وهم

(١) محاضرة القاها في نادي الشهباء بحلب يوم ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٢٣

عرب تعزى اليهم آثار البتراء أو وادى موسى وآثار جرش في عجلون ومثل الغسانيين في حوران والصفاء واللجاة ودمشق وحمص وغيرها ، ومثل التنوخيين في ارجاء حلب ومثل بنى خلم وجذام ، وكلب ، وكلاب ، وتيم ، وطى ، وسليم ، وعاملة ، والضجاعم وغيرها من قبائل العرب التى نزلت الشام فكانت عرضة كل حين لاستيلاء البادية عليها لان أهلها أشد مراساً وأجرأ على القتال يوم النزال ، ولان سلاح المدن والبادى كان واحداً اذ ذاك ، وهذا ما حدا بدولة الرومان لما أضافت هذه الديار الى مملكتها ان تنشئ على سيف البادية مخافر كثيرة ليأمن المعمور عيث البادية ، ومن جملة الدواعى الى استيلاء الحمدانيين على حلب طمع العرب فيها وغزوهم لها المرة بعد المرة ، ففى سنة ٢٩٢ هـ ولى المكتفى أبا الحسن ذكاً بن عبد الله الاعور حلب ودام بها الى سنة ٣٠٢ فعاثت بنو تيم فى أيامه فى حلب وأفست فساداً عظيماً وحاصروا ذكاً بحلب فكتب المقتدر الى الحسين بن حمدان فى انجاد ذكاً بحلب فأسرى من الرحبة حتى أناخ عليهم بخناصرة وأسروهم جماعة ، وقامت على الحسين بن حمدان العرب من كلب واليمن والنمر وأسد وغيرهم فاجتمعوا بنواحى حلب نفرج للقائهم سنة ٢٩٤ فهزموه حتى بلغوا به باب حلب

تبعث الشام مصر فى حكومتها سنة ٣٢٥ فأقام محمد لاخشيد والياً على حلب احمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب فكثرت الكلابيون اذا ذاك واقطع الخليفة العباسى الشام لمحمد بن رائق على ان يستخلصه من الاخشيديين الذين خلعوا طاعته فطرد ابن رائق وقاتل الاخشيديين فاستولى على دمشق .

وفى سنة ٣٢٩ بعث محمد الاخشيدي قائده كافوراً الى الشام فى جيش عظيم فهزم عامل ابن رائق واستولى على حلب ، وفى السنة التالية عقد الصلح بين محمد الاخشيدي واستأثر هذا بولاية حلب ، والاخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية والاعمال الحجازية كانت له سياسة حسنة مع جميع رعاياه أى أنه كان بارعاً بما نسميه اليوم (سياسة العناصر) فقد كتب الى ارماتوس ملك الروم من كتاب : « وسياستنا لهذه الممالك قريها وبعيدها على عظمتها وسعتها بفضل الله علينا واحسانه الينا ومعونته لنا وتوفيقه ايانا كما كتبت الينا وصح عندك من حسن السيرة وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الاولياء والرعية ويجمعهم

على الطاعة واجتماع السكامة ويوسعها الامن والدعة في المعيشة ويكسبها المودة والمحبة «
وفي سنة ٣٢٩ وصل الروم الى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو
خمسة عشر ألف انسان ، وفي هذه السنة أيضاً قتل ابن رائق قتله ناصر الدولة بن
حمدان وكتب بالامر الى الخليفة المتقي لله فخل ذلك من نفسه محلاً عظيماً ولقبه ناصر
الدولة وجعله أمير الامراء وتقلد حلب وأعمالها ودانت له العرب ولقب شقيقه علياً
سيف الدولة وخلع عليه وهذا هو موضوع كلامنا في هذه المحاضرة



سار سيف الدولة الى حلب سنة ٣٣٣ فحكمها واستولى عليها وكان مع المتقي
لله بالركة ، فلما عاد المتقي الى بغداد وانصرف الاخشيدي الى الشام لقي يأنس المؤنسي
بجلب فقصدته سيف الدولة فلما نازها فارقه يأنس فحكمها سيف الدولة وهزم الروم
لما قاربوها ودخل الاخشيدي سنة ٣٣٤ حلب وافسد أصحابه في جميع النواحي فقطعت
الاشجار التي كانت في ظاهر حلب وكانت عظيمة جداً (وقيل ان حلب كانت من
أعظم المدن شجراً وأشعار الصنوبري تدل على ذلك) ونزل عساكر الاخشيدي على
الناس بجلب وبالغوا في أذى السكان لميلهم الى سيف الدولة

مال الناس هنا الى سيف الدولة لما اشتهر عنه من الشجاعة والكرم ومال
أهل دمشق عنه فطردوه عن بلدهم لانهم رأوا منه ما أخافهم على أملاكهم ، وذلك
أنه لما ملك دمشق اتفق - وهو مقيم بها - انه كان يسير هو والشريف العقيلي
بنواحي دمشق فقال سيف الدولة : « ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد »
فقال له العقيلي ، هي لاقوام كثيرة ، فقال سيف الدولة : « لن أخذتها القوانين
السلطانية ليتبرؤا منها » فأعلم العقيلي أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافوراً يستدعونه
من الاخشيدي فجاءهم وأخرجوا سيف الدولة عنهم وظل ملك الحمدانيين مقصوراً
في الشام على شماله ودخلت فيه حماة ، وحمص ، وسلمية ، وجوسية ، وشيزر ،
وكفر طاب وأفامية ، ومعرة النعمان ، وجبل السماق ومعرة مصرين ، والاثارب



رسخت بسيف الدولة اقدام بني حمدان في هذه الديار واتخذ حلب عاصمته
وكانت مملكته عبارة عن جند حمص وجند قنسرين والثغور الشامية والجزرية

وديار مصر وديار بكر ، ولما تم له الامر مثل في بلاده الصورة التي كان يريد ان يمثلها في دمشق وأبى أهلها عليه تمثيلها فاخذ يستصفي الاملاك ويصادر الاموال ويبني الدور والقصور ويظهر من الابهه ما كان يعجز عنه الخوالف من العباسيين في بغداد ، والامويين في الاندلس والفاطميين في مصر

لم تكن الجباية في تلك القرون على حالة مستقرة ، فهاورد عن الشارع وأصحابه من قوا نيتها العادله السهلة التطبيق كأن يجري العمل به في البلاد كلها ، وكانت صورة التنفيذ تختلف باختلاف نزاهة السلطان وعفته عن أموال الناس ، وسيف الدولة كان على الارجح من القائلين بان الغاية تبرر الوسيلة

كان رحمه الله على ما أجمع عليه الثقات مثل ابن حوقل معاصره والازدي ، وسبط ابن الجوزي ، يجوز اخذ ما في أيدي الناس ليستعين به على غزو الروم ، ويسرف بجانب كبير يفضل به على الشعراء والادباء فيخرجه من أكياس الرعية وجيوبهم لينفقه في وجوه المبرات والعطايا ، ولذلك أسس في هذه المدينة الجميلة دولة في الادب لم يقم مثلها في الشام منذ نحو عشرين قرناً الى يوم الناس هذا لبس العالم شر محض ، ولا خير محض ، ولكل عاقل في الارض مزية كما ان له ما يعد عليه من الهنات ، وسيف الدولة من هذا القبيل لم تكن أعماله الى الخير لمحض بمصادراته وإسرافه ، وكانت له مزيتان قل أن يكتبتا لغيره وهما : نهضة الآداب في هذه البلاد ، ودفع عادية الروم عنها ولولاه لعاد اليها سلطانهم بعد أن تقلص بالاسلام نيفاً وثلاثة قرون . وهذا الاجمال كما ترون يحتاج الى تفصيل

كان هم سيف الدولة في سياسته الخارجية أن يضعف الروم في آسيا الصغرى فكان كثيراً ما يغزوهم ويفتج حصونهم ويسبي من أبنائهم ويخرب في زرعهم وقراهم ويستصفي أموالهم وعروضهم ، وقيل أنه غزاهم أربعين مرة كانت فيها بعض الغزوات له وبعضها عليه وكان همه في سياسته الداخلية تجديد القصور وجمع الاموال والتجوز في أخذ الحلال والحرام منها ، واظهار أبهة الملك ، والافضال على الشعراء وكانت عصبيته من عرب الجزيرة مسقط رأسه ومنبعث دولته .

ومن عرب الشام مثل بنى كلاب الذين أدناهم وآمن سربهم فقهروا العرب وعلت كلمتهم . قال في مسالك الابصار : وبنو كلاب هم عرب أطراف حلب والروم ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد . ولا تزال (أى فى القرن الثامن) تباع بنات الروم وأبناءؤهم من سباياهم . ويتكلمون بالتركية ويركبون الاكاديش وهم عرب غزو . ورجال حروب وأبطال جيوش . وهم من أشد العرب بأساً وأكثرهم ناساً .

قل فى أيام سيف الدولة غزو الروم لمدينة حلب . وكانوا يغزونها السنة بعد الاخرى ويعيثون فى ارباضها وقراها ويحرقون ويخربون ويسبون دع غزوتهم لها سنة ٣٥١ أيام استولوا عليها دون قلعها ولم يعلم سيف الدولة بالخبر فخرج اليهم فيمن معه فقاتلهم فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد فانهمز سيف الدولة فى نهر يسير وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب وتسمى الدارين فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة (والبدره كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار من الدراهم) ويبلغ مجموعه نحو مليونى دينار باصطلاحنا اليوم) وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح ما لا يحصى وأخذ الجميع وخرب الدار وملك الحاضر وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلثة فقاتلهم أهل حلب عليها . فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها فلما جنهم الليل عمروها . فلما رأى الروم ذلك تأخروا الى جبل الجوشن . ثم ان رجال الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها فلحق الناس أمواهم لينعموها فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فدخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا ولم يرفعوا القتلك حتى تعبوا وضجروا وكان فى حلب الف واربعمائة من الاسارى فتخلصوا وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة . فلما لم يبق من الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق باحراق الباقي واحراق المساجد . قال ابن الاثير ، وكان عدد عسكره مائتى الف رجل منهم ثلاثون ألفاً بالجواشن (الدروع) وثلاثون ألفاً للهدم واصلاح الطرق من الثلج وأربعة آلاف بغل

يحمل الحديد . وكانت هذه الموقعة بسفح (بالقوسا) فاحرقوا جامعتها
بيد ان هذه الواقعة وأمثالها لم تكن من مهمة سيف الدولة فظل على غزو الروم ليكيف
عاديته عن هذه الديار ، وكانت له طرق غريبة في الرحمة من ذلك انه سار مرة
بالبطارقة الذين في أسره الى الفداء وكان في أسر الروم ابن عمه أبو فراس وجماعة
من أكابر الحلبيين والمحصبين فاخذ بالفداء ولما لم يبق معه من أسرى الروم أحد
اشترى الباقين كل نفس باثنين وسبعين ديناراً حتى نقد ما معه من المال فاشترى
الباقين ورهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة المثل ، ثم لما لم يبق أحد
من أسرى المسلمين كاتب فقفور ملك الروم على الصلح ، قال ابن الوردي : وهذه
من محاسن سيف الدولة

ولقد امتازت دولة سيف الدولة بمزيتين الاولى سياسية اسلامية ، والثانية
علمية أدبية ، فزيتها السياسية انه كثيراً ما أغار على الروم وجعل ديدنه التخریب
في بلادهم ليردهم عن قصد بلادهم كانوا يطعمون فيها منذ القديم ويذكرون
من تاريخها انهم حكموها طويلاً ، فكان بعمله سداً حاجزاً دون انبعاثهم الى هذه
البلاد فخدم بذلك الاسلام والعرب ، والمزية الثانية لدولته جعلها كحضرة بنى
العباس على ضيق رقعتها وذلك في الافضال على العلم والادب فكان يقصده أهل
هذا الشأن فينزله في بلادهم على الرحب والسعة ويبرهم بصلاته ، قال في دائرة
المعارف الاسلامية : « ان الفضل الذي احرزه سيف الدولة ابن حمدان بنشر
العلوم والآداب العربية هو عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية »

ومما يؤخذ عليه تعاليه في الافضال على الشعراء والادباء ، على ان منهم كأبي
الطيب المتنبى مثلاً من فارقه بعد ان منعه الاقطاعات والانعامات الكثيرة
ليستجدي اكف كافور في مصر ، فقد اعطى سيف الدولة شاعره المتنبى ضيعة
بالمعرة اسمها (صف) اقطاعاً له ، واقطع قرية (عين جارة) وهي من الضياع
الكبرى على ابن احمد بن البازيار نديمه عدا ما كان يناله من صلاته ، وذكروا ان
الناشيء الاحصى دخل على سيف الدولة فانشده قصيدة له فيه فاعتذر سيف الدولة
بضييق اليد يومئذ وقال له اعذر فما يتأخر حمل المال فاذا بلغك ذلك فاننا نضاعف
جائزتك ونحسن اليك فخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تذبج

لها السخال وتطعم لحومها فعاد الى سيف الدولة فانشده هذه الايات :

رأيت بيباب داركم كلابا تغذيها وتطعمها السخالا

فما في الارض ادبر من أديب يكون الكلب أحسن منه حالا

ثم اتفق ان حملت الى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال فضاع منها بغل بما عليه وهو عشرة آلاف دينار وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشئ الشاعر بالأخص فاخذ ما عليه من المال واطلقه ثم جاء حلب ودخل على سيف الدولة وانشده قصيدة يقول له فيها :

ومن ظن ان الرزق يأتي بحيلة فقد كذبتة نفسه وهو آثم

يفوت الغنى من لا ينাম عن السرى وآخر يأتي رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة بحياتي وصل اليك المال الذي كان على البغل فقال نعم

فقال خذه بجائزتك مباركاك فيه

ان ما صدر عن سيف الدولة غاية في الكرم ولكنه لا يجوز في شرع العقل أن تجبى هذه الاموال من الفقراء والاغنياء لتصرف في مصالح الامة ثم يأخذها شاعر واحد ومعلوم ان العشرة آلاف دينار في القرن الرابع لا تقل قيمتها عن مئة ألف دينار في هذا القرن ولذلك قال ابن نباتة في مدح سيف الدولة وقد تبرم بكثرة ما ناله من عطائه :

قد جدت لي بالله حتى ضجرت بها وكدت من ضجر أثني على البخل

ان كنت ترغب في بذل النوال لنا فاخلق لنا رغبة أو لا فلا تنل

لم يبق جودك لي شيئاً أو مله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

مثال آخر من اسراف الدولة : ذكر انه ضرب دنانير خاصة للصلات في كل

دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، قال بعض المؤرخين في حوادث

سنة ٣٥٤ فيها صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة فزوج ابنته أبا المكارم

وأزوج أبا المعالي بابنة ناصر الدولة وأزوج أبا تغلب بابنته ست الناس ، وضرب

دنانير في كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : محمد رسول

الله ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن ، الحسين ، جبريل ،

(وكان سيف الدولة يرى رأي الشيعة) وعلى الجانب الآخر : « أمير المؤمنين

المطيع لله الاميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة الاميران أبو تغلب وأبو المكارم ، وجاد بما لم يجد به أحد يقال أن المبلغ الذي جاد به سبعمائة ألف دينار . فما قولكم بمن يجود بهذا المبلغ في عرس وهو مبلغ جسيم لا تقل قيمته اذا قدرناه بسكة زماننا عن سبعة ملايين دينار ، ان هذا العمل ممقوت شرعاً وعقلاً لانه التبذير بعينه

ومما ذكره المؤرخون ان سيف الدولة كان مرة في بغداد فدخل على جماعة في مجلس أنسهم فرفعوا منزلته بدون أن يعرفوه وشاركهم في طربهم ، ولما تقوض المجلس طلب ورقة ودواة وكتب رقعة وتركها وانصرف ، فنظر أصحاب المجلس في رقعته فاذا هي سفتجة بالف دينار يؤديها وكيله في دار السلام فلما حملوا اليه خطه سألوه من عساه أن يكون الذي جاد بهذا المبلغ فقال لهم هو سيف الدولة بن حمدان . وكان كثيراً ما يفتقد رجال الدولة في بغداد ويتعهد بعض علماءها وشعراءها ولكن عطاياه للشعراء أجزل فقد كان يعطى المعلم الثاني أبا النصر الفارابي أربعة دراهم في اليوم أى القدر الذى يستطيع به فيلسوف الاسلام أن يعيش عتش الكفاف على حين كان يعطى ابن عمه أبا فراس ضيعة تغل الف دينار في السنة من قرى منبج جائزة عن بيت استجاده ، وأبو فراس هو الذى قال فيه الشاعر ابن عباد : « بدىء الشعر بملك — أى بامريء القيس — وختم بملك أى بابي فراس »

وبهذا رأيتم أن المال لا قيمة له في نظر سيف الدولة . فقد ذكروا — وهو مما يعاب عليه — ان الخليفة المتقي العباسى لما استولى البريدي على بغداد استنجد ببني حمدان أمراء الموصل فطلب سيف الدولة من الخليفة مالا لينفقه في الجيش حتى يقويه ويمنع الاتراك من بغداد فاعطاه الخليفة أربعمائة الف دينار ففرقها سيف الدولة في أصحابه ثم هرب سيف الدولة ودخل « تورو » بغداد وملكها ومنها ان أبا الحصين على بن عبد الملك الرقى ولى قضاء حلب وكان ظالماً فاذا مات انسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال « كل من هلك فليسيف الدولة ما ملك » ولما مات هذا القاضى رفسه سيف الدولة برجله فيما قيل . وقال له قبحك الله كم

كنت تزين لى الظلم وذكر بن حوقل فى كلامه على بالس « مسكنة » : ان سيف الدولة بعد انصرافه عن لقاءه صاحب مصر وقد هلك جميع جنده انفذ المعروف بابى الحصين القاضى فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ولم يطلق لهم النفوذ فاخرجهم عن احوال وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام فى دفعتين بينهما شهر قلائل وأيام يسيرة ألف ألف دينار . وقال ابن حوقل أيضاً « أن نصيبين لم تزل منذ من أول الاسلام تضمن بمائة ألف دينار الى سنة ٣٦٠ فاكب عليها بنو حمدان بصنوف من الجور وتجديد الكلف الى ان حمل ذلك بنى حبيب وهو بنو عم بنى حمدان على ان خرجوا بذرايرهم ومواسيهم وثقلهم فى اثنى عشر ألف فارس الى بلد الروم فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من انفسهم بعد أن أحسن لهم النظر فى انزالهم على كرائم الضياع ونقائس المتاع فعادوا الى بلد الاسلام على بصيرة بمضاره . وعلم باسباب فسادهم : وقلوبهم تضطرم حقداً فالحق بهم كثير من الخلفين عنهم فشنوا الغارات على بلد الاسلام وافتتحوا بعض الحصون وألحقوا أسوار بعضها فى الارض وخربوا الضياع وتزايدت ثقة الروم بهم الى ان جعلوا لهم الارزاق والاعطية وصاروا خاصة الملك وفتحوا له المضايق واطعموه فى أنطاكية والمصيصة وحلب وطرسوس ،

هذا ما ذكره الجغرافى الرحالة بن حوقل فى أعمال سيف الدولة على انه قد وسم كتابه باسمه وقد سكت بعض المؤرخين عن ذكرها بتاتاً وأشار اليها بعضهم بصورة مختصرة قال ابن مسكويه « كان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد برأيه كريماً شجاعاً محباً للفخر والبذخ . مفرطاً فى السخاء والكرم . شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بأرائه سعيداً مظفراً فى حروبه جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه .

ومن جملة بذخه أنه كان يقف على مائدته اذا أكل أربعة وعشرون طيباً . وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم . ولقد قيل انه اجتمع لسيف الدولة بن حمدان مالم يجتمع لغيره من الملوك كان خطيبه ابن نباتة الفارقى ومعلمه بن خالويه ومطربه الفارابى وطباخه كشاجم وخزان كتبه الخالديان (وهما يشبهان الاخوين الافرنسيين ليكونسكور)

والصنوبرى ومداحه المتنبي والسلامى والوأواء الدمشقى والبغاء والنامى وابن نباتة السعدى وغيرهم بل انه اجتمع بيابه ما لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء من شيوخ الشعر ونجوم الدهر وكان أدبياً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز بما يمدح به . ولقد أورد صاحب اليتيمة من شعراء سيف الدولة وممن كانوا يقصدونه من الآفاق لينفقوا من أدبهم فى سوقه ما هو بهجة النفوس مدى الايام ، وربما قل فى الملوك من مدح يمثل ما مدح به سيف الدولة حتى أن كلا من أبى محمد عبد الله بن محمد الفياض الكاتب وأبى الحسن على بن محمد السميساطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت

وكل هذه الاجادة فى الشعراء وتخرىج الرجال كانت منبعثة من وراء اعطاء سيف الدولة للمال بدون حساب ، أجاد شعراء الشام لانهم رزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم كما قال الثعالبي بقية العرب المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم . وما منهم الا أديب جواد ، يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل ، وبني ورقاء أبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله أبناء ورقاء الشيباني من رؤساء عرب الشام وقوادها والمختصين بسيف الدولة ، وكان جعفر من بيت أسرة وتقدم وآداب وكان المقتدر يحريه مجرى بني حمدان ، وتقلد عدة ولايات وكان شاعراً كاتباً جيد البديهة والروية ، وكان يأخذ القلم ويكتب ما أراد من نثر ونظم كأنه عن حفظه وكان بينه وبين سيف الدولة مكاتبات بالشعر والنثر مشهورة

وان بابا يقف فيه أمثال أبى الطيب المتنبي وأبى عبادة البحتري من الذين انتهت اليهم الرئاسة فى هذه الصناعة ومثل النامي والبغاء وكشاجم والصنوبرى وابن خالويه وابن جنى والبازيار والصفيرى والناشىء والبنص والرقى وابن نباتة والفارابى وابن كشكر اياوعيسى الرقى وغيرهم من العلماء والبلغاء والشعراء والندماء أن باباً يقف فيه أمثال هؤلاء هو باب ولاشك عظيم ، وفضل صاحبه على الآداب جسيم

تجلت فى عهد سيف الدولة فى ديار الشام روح غربية فى الادب العربى وظهر

بمظهر لم يسبق له عهد مثله . ولا جاء في القرون التالية شبه له ونظير الهم الا اذا كان على عهد الامويين . ولم تبلغنا أخبار شعرائه . وقد استفاد من هذه الحركة الأدبية القاصي والداني كان أبو بكر الخورزى في ريعان عمره قد دوح بلاد الشام وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في جمع الرواة والشعراء . ومطرح الغرباء والفضلاء فاقام ما أقام بها على أبي عبد الله بن خالويه وأبي الحسن السمساطي وغيرهما من أئمة الادباء . وأبي الطيب المتنبي وأبي العباسي النامي وغيرهما من فحول الشعراء بين علم يدرسه وأدب يقتبسه . ومحاسن ألفاظ يستفيدها وشوارد أشعار يصيدها . وهو أحد أفراد الدهر وأمرء النظم والنثر وكان يقول : ما فتق قلبي . وصقل ذهني وأرهف حد لساني وبلغ هذا المبلغ في الاتلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علفت بحفطي وامترجت باجزاء نفسى قام سبف الدولة بهذه النهضة الادبية وقد كاد القرن الثالث في الشام يخلو من الشعراء والادباء لانهم قصدوا بغداد عاصمة الملك وبقيت الشام بمعزل . ولم ينبغ في هذا العصر غير رجال في الحديث والمغازى والفقهاء . وضعف الادب حتى أخذ ابن حمدان بيده وأيدى المشتغلين به فكان القرنين السالفين كانا كالمقدمة للكتاب الكبير الذى صدر في القرن الرابع وشرحه نوابغ الادب العربى أحسن شرح وفيه قام أساطين الشعر أبو تمام وأبو الطيب وأبو عبادة . واليهم انتهت الزعامة في الاجادة

بلادنا بلاد الشعر . والشعر كان مبدأ دخول العرب في الحضارة . لم يحرصوا على شىء حرصهم على روايته ودرايته . وأشد ما يكثر الشعراء في أرض صح أقليمها . واعتدل نسيمها وطابت تربتها وأديمها . وصفت أمواها وسنح نيرها ، وكثرت ظلالها بأشجارها وغردت أطيافها في أسحارها وهذه الحالة على حصاة موفورة في القطر الذى يتاخم جزيرة العرب من شمالها فكان شعراء الشام وما يقاربها أشعر من شعراء العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام والسبب في تبريزهم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريهم — كما قالوا — من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز . وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة سنتهم من الفساد العارض الا لسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم

واذا أضيفت الى هذه الاسباب الطبيعية أسباب أخرى من تنشيط ملك
واعجاب أمة بعمل العالم أو الشاعر والكاتب تفشحت القرائح وتجلى نبوغ
الافراد في أجمل مظاهره ، كما جرى في أيام سيف الدولة الذى يشبه من كثير من
الوجوه لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، هذا مع اعتبار الفرق بين العصرين ، فان
ابن القرن التاسع لا يتأتى ان يكون مثل ابن القرن التاسع عشر وابن غربى آسيا
لا يصح بحال من الاحوال أن يشبه ابن غربى أوروبا ، ولكن الرجال قد يتشابهون
على كل حال ووجه الشبه ظاهر بين المملوكين ، ولا سيما فيما يتعلق بالمعارف والآداب
ولكن عمل لويس الرابع عشر اتصل بعده وما زال فى نمو وعلو ، وعمل سيف
الدولة زال — وبالأأسف — بزواله ، وهذا أهم فرق بين هذا الشرق وذاك
الغرب ، هناك يتسلسل الفكر قرونًا ، وهنا ينقطع ويتحول ، هناك تتناول
الجماعات بعد الافراد فتحسنه وتزيد فيه ، وهنا يدفن مع صاحبه ولا يبقى غير
تذكاره ، فعاش الشرق بالفرد وعاش الغرب بالجماعة

لو أنهم سيف الدولة ان يقتصد قليلا من جوائز الشعراء فقط ، خل عنك
سائر امراقاته ، ويعمل فيها عملا يكل أمره الى أبقاء الاجيال التى جاءت بعده ،
لاثر وحده فى مدينة الشام أكثر من تأثير الرومان واليونان ، ولما نسى اسمه
« الا من دواوين الادب واسفار المحاضرات ومن قام أمره بالاستبداد ولم يحفل
بآراء أصحاب الرأى تضحل سلطته عند أول عارض داخلى أو خارجى
يعرض لها :

ان سيف الدولة مثل الاستبداد الممزوج بالعقل وحب الادب والشعر لانه
كان شاعراً مجيداً ، جيد الطبع ، كريم النفس ، وكانت فائدته الشخصية أقل من
فائدة الآداب عامة على يده ، وجعل الشهباء مركز دائرته فأصبحت فى سنين قليلة
عاصمة الآداب فأورثنا شعراء سيف الدولة وأورثوه مجداً لا يبلى على وجه
الدهر جديده اه

بين دمشق والقاهرة^(١)

سادتي الاخوان

يعجز البيان عن توفية صداقتكم حقها ، ومقابلة عواطفكم الجميلة بمثلها ، فقد كسوتكم وطنيكم هذا حلة تقصر عنها قامته ، وظهر احساسكم الشريف في مظهر انساء ما لقيه من المشاق في سبيل الوصول الى حماكم ، قدمتم ودامت عوارفكم كهفاً يلجأ اليه في الملمات ، وعلم نور يستضاء به في الظلمات ، ولقد كنت بيت العزم منذ شهرين أن أزور مصركم في الشتاء المقبل لالقي من خلفتهم فيها من خلص الاصدقاء مصريين وعثمانيين ، ولكن قضت الاقدار أن أهبط مصر في صيفها وأهلها يرحلون عنها على ان مصر حلوة في فصولها الاربعة لان السر في السكان لا في المكان كما كنت أود أن أشخص اليها من طريق البحر المطروق في ست وثلاثين ساعة موفورة لي أسباب الراحة لا أن أوافيها من طريق البر المهجور على مطية اقصى في السير والسرى من دمشق الى القاهرة أربعة عشر يوماً ، وألقي فيها من فقد الراحة ما يلقيه في العادة السفار في القفار

ان ما حملني على انتيابكم في هذه الحال تعرفونه باجمعكم وليس ببدع ان ينال مثله كل من يتصدى لطلب الاصلاح وينشد الحق والعدل في بلاد حكمت قرونا بالاستبداد ولم تكتب لها السلامة منه ، ومن ابتلى بذلك يستطيب الاذى اذا انتج عمله نفعا للخير العام

قضيت في الشهر الفائت ثلاثة وعشرين يوماً في زيارة مدينة الرسول وآثار وادي موسى أو البتراء المعروفة بالعربية الصخرية وبلاد ما ب أي الكرك وأرض الشراة التي كان يسكنها بنو العباس في أيام بني مروان ومنها خرجوا بالدعوة لدولتهم وأرض البلقاء التي كانت مصايف لبني أمية أيام حكومتهم في دمشق وغير ذلك من الاقاليم في أقصى حدود بلاد الشام الجنوبية ومن هذه الاقاليم ما وصل اليه الخط الحجازي ومنها ما يقصد اليه على الدواب ، فلما عدت الى دمشق استريح

(١) وهي محاضرة القاها في نزل ادن بالاس (قصر عدن بالقاهرة) على جمهور من السوريين والمصريين

من وعساء السفر فاجأثنى الحكومة المحلية بما عودتنيه أيام الحكم المطلق والحكم المقيد ، من خرق قانون الحرية الشخصية والفكرية ، ومحاولة النيل منى بلاموجب سميت وطائفة من أصدقائى فى سورية بعد انتشار القانون الاساسى ان يكون فى بلادنا دستور حقيقى يستمتع به العثمانيون على اختلاف عناصرهم ونحلهم ، ولكن الفئة المتغلبة على الحكومة فى الاستانة والمرسلة بصنائعها الى الولايات أبت وخصوصاً بعد سقوط وزارة رجل السياسة العثمانية كامل باشا الا ان يكون الدستور استبداداً فى صورة حرية فكنا كلنا طالبنا بمطلب من مطالب الاصلاح الطفيف أتهمونا أنواع التهم بل كنا معهم كما قال ابن أبى طالب « كراكب الصعبة ان أشنق لها خرم وان اسلس لها تقحج » فالحكومة بل الحاكم الذى كان يرهقنا زمن الاستبداد ويشردنا على اننا ناقون على حكومة الخلوع حتى اضطررنا ان انقضى أربع سنين فى هذا القطر فراراً من الحيف عاد فى الدور الذى يدعونه بالحرية يرمينا بالارتجاع ثم بالدعوة لانكسار ثم بالدعوة لحكومة عربية الى غير ذلك مما يخطر على من ضروب الافتراء الذى لا يستنكف كل ضعيف فى حكومة هذا الشرق التعس من أن يلصقه بمن لا يقدر على حجاجه بالبرهان اذا دله على عيوبه ليتقيها ونصح له بالاعتدال لتطول ايامه ولا تساوره اسقامه

فى مثل هذه الحالة يسارع مثلى الى الهرب من وجه الظلم اذا لا قانون هناك يأخذ للضعيف من القوى وما القانون عندهم الا هوى النفوس ، ولا رواج الا للزور والنفاق ولا عجب فقد قال ابن خلدون ان الدول اذا تنزهت عن التعسف والميل والافن والسفسفة وسلكت النهج الامم ، ولم تجر عن قصد السبيل ، نفق فى سوقها الابريز الخالص ، واللجين المصفى ، وان ذهبت مع الاغراض والحقود ، وماجت بسامسة البغى والباطل ، نفق البهرج والرائف

ولذا أرسلنا ساقينا للريح ساعة بلغنا ان الحكومة المحلية فى سورية تريد القبض علينا على نحو ما قبضت على شقيقنا احمد المدير المسئول لجريدة المقتبس فسرنا (يوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩١٢) بدون ريث بين حدائق صالحية دمشق حتى بلغنا الزاوية الغربية الشمالية منها فى المكان المعروف بقبة السيار ، ومنها قصدنا الى دمر من طريق الجبل مشياً على القدم ثم انصرفنا من دمر الى المزة بالتصعيد

في الجبل أيضاً وهناك اختبأنا في إحدى قرى وادى العجم أياماً حتى تهيأت لنا أسباب الهزيمة على حصان في صحابة صديق لنا قديم رافقنا من أقصى حدود وادى العجم فررنا من طريق معوج اخترنا فيه أرض المزة وبلاس والاشرفيه وصحنايا والدرخيمة والطيبة وشقحب ثم دير العدس والحارة من قرى إقليم الجيدور المعروف عند الافرنج بايتورة حتى بلغنا النقرة من بلاد الجولان التي يسميها الفرنجة غولانيتيد فرقدنا بالقرب من نهر الرقاد وكنا هومنا في الليلة الفائتة على مقربة من نهر الاعوج المعروف في الكتب المقدسة باسم فرفر من عمل وادى العجم

وفي الجولان اتصلنا بجماعة من تجار الابل ذاهبين الى مصر فسايرناهم وقطعنا سهول الجولان ومراعيه وبقنا في الليلة الثالثة دون عقبة فيق ومن الغد هبطنا العقبة وهي لا تقل عن ساعتين وتعد من أعظم عقاب بلاد الشام ومنها يشرف المرء على أراضي الغور غور بيسان وبحيرة طبرية ونهر الشريعة أى الاردن وليس على هذا النهر العظيم سوى جسر قديم متداع وجسر بنات يعقوب فقطعنا الاول سباحة على الدواب ثم توقفنا الجبل الى موقع الدلايكة وهو واد بين جبليين منفرجين متآزبين من عمل طبرية عاصمة الاردن القديمة بل عاصمة الجليل أصبح أكثره ملكاً للصهيونيين من مهاجرة الاسرائيليين الاوربيين يستنبتونه ويستثمرونه على طريقتهم المتعارفة في ديار الغرب حتى لقد تحس للحال بالفرق بين زراعة الوطنيين وزراعة المهاجرين فقريه بما ملكهم أرقى بزراعتها مرات من قرية كفر سبت وسكان هذه من مهاجرة الجزائر فبتنا تلك الليلة في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة وفي سفوح جبل الطور المشهور في التاريخ المسيحي

وفي اليوم الرابع اجترنا غابة غيباء من شجر البطم فرأيناها آيلة للخراب كما تؤول الآن غابات الشام كلها اللهم الا ما كان من غابات لبنان التي تزيد ولا تنقص وقطعنا هذه الحراج في ساعة ونصف حتى بلغنا قرية دبورية وفي منقطع أرض هذه الدسكرة بيتدىء مرج بن عامر أو سهل يزرييل المذكور غير ما مرة في التوراة. قطعناه بالعرض في أربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ومنها دخلنا في وادى عارة من عمل نابلس وطوله ثلاث ساعات وهو ضيق النطاق متوازي الاضلاع

حصب الرباع وفي آخره كان آخر عهدنا بجهال الشام اذ لم نعد نرى بعده جبلا يذكر حتى بلغنا أرض مصر في جهات العريش وقطية فلمجنا عن بعد جبلا في الرمال يسمونه جبل الحلال وبتنا الليلة الخامسة في عيون الاساور على ساعتين من قيسارية ^(١) وهي قرية يسكنها مهاجرون من البوشناق وكانت من المدن الكبرى العامرة في القديم . وفي اليوم السادس اجتزنا قرى بلاد نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرة ومسكة حتى بلغنا نهر العوجاء على ساعة ونصف من يافا وعنده حططنا رحالنا وطريق هذا اليوم والذي قبله عامر بالحبوب ويكثر الزيتون في بلاد نابلس احدى أمهات مدن السامرة من كور فلسطين ^(٢) وتقل المياه حتى يضطر الاهلون أن يستقوا من أما كن بعيدة . وفي اليوم السابع اجتزنا بقرى الساحل أمثال جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بئر هديهد ، غزة وقضينا الليل في دير البليح وفي اليوم الثامن بدأ سيرنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة وبعد أن سرنا ست ساعات دخلنا في رفح أول حدود مصر والشام وقد كانت تلتنا بنى الهواجس تلك الليلة أحاذر أن أقع في يد عدو للحرية أو أن أجالس من يستدل بذكائه على انى لست من تجارة الابل في العير ولا في النفير أو لا ناقة لى في ذاك القطيع ولا جمل فما فتحت عيني قبيل الغسق الا وأنا أنشد بيت المتنبي

تدبير ذى حنك يفكر في غد وهجوم غر لا يخاف عواقبا

فتفاءلت خيراً بالنجاة وان كنت لأحب التفاؤل ولا التشاؤم ولا أبني اعمالى على الاحلام والمرائى ، حتى اذا قيل لى ها أنت في رفح تدوس تربة مصر قلت ما أحرأها أن تدعى فرحاً لا رخاً ليكون لكل شىء من اسمه نصيب ، ولا غرو فليس أحلى من النجاة على من كان يتوقع الخطر ، أو من الوصل على من طال به السهاد والسهر

(١) قيسارية بفتح أوله واسكان ثانيه بعد سين مهملة وألف وراء مهملة مكسورة ثمياء اخت الواو مخففة غير مشدودة وهاء التأنيث من ثغور الشام حاصرها معاوية سبع سنين الا شهرا وفتحها وبعث بفتحها الى عمر فقام عمر رضي الله عنه فنأدى الا ان قيسارية قد فتحت قسرا — قاله البكري في معجم ما استعجم (طبع المانيا) (٢) في نزهة المشتاق للشرىف الادريسي . اما حدود فلسطين وهي اول احوال الشام وحدودها بما لى المغرب مقدار اربعة ايام وذلك من رفح الى اللجون وعرضه من يافا الى ريحا مسيرة يومين وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزغر الى بيسان والبرية تسمى الغور لانها بقعة بين جبليين .

ومن عجيب ما لاحظته في أراضي فلسطين انني شهدت لحكومتها بعض أثر من عمل مثل انشائها بعض الجسور على الاودية في حين لم أر عملاً عمرانياً في ولايتي سورية وبيروت كأن مجاورة لواء القدس للاراضي المصرية عدت فلسطين أو القسم الاعظم منها من ارتقاء بلاد القراعنة فصحت عزيمة حكومة القدس على ان تمد جسوراً على الاقل وتعيد الطرق بعض الشيء لا جرم ان العلى تعدى كما قال أبو تمام ، ولقد كنا كلما اقتربنا من غزة نحس بتغير المشاهد في بلاد أشبه بهوائها وزراعتها بالبلاد المصرية والناس يكادون يشبهون سكان الصعيد بالبستهم ولهجاتهم وهذا من عدوى الجوار وكثرة اختلاط المتجاورين من سكان القطرين فانك كما ترى جمهوراً كبيراً من جالية المصريين في يافا وغزة هكذا تجد الجميز والموز من أشجار البلاد الحارة شائعين في صقع غزة

دخلنا اليوم التاسع في رمال ولم يكن يتغير شكلها خمسة أيام متوالية الى أن قالت الامماعيلية ها أنا ذه . وهذه الرمال كانت تعرف قديماً بالجفار جمع جفر وهي البئر القريبة القعر الواسعة لم تطو قال ياقوت وهي أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشبى متصلة برمال تيه بنى اسرائيل والخشبى بينه وبين القسطاط ثلاث مراحل كما في معجم البلدان فيه خان وهو أول الجفار من ناحية مصر وآخرها من ناحية الشام قال أبو العز مطهر بن ابراهيم بن جماعة بن على الضرير العيلاني معتذراً عن تأخره لتلقى الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر وكان قد تلقى الى هذا الموضع

قالوا الى الخشبى سرنا على لهف تلقى الوزير جموعاً من ذوى الرتب
ولم تسر قلت والمولى ونعمته ما خفت من تعب ألقى ولا نصب
وانما النار في قلبي لغيبته خفت أجمع بين النار والخشب
وكل الجفار رمال سائلة بيض في غريبها منعطف نحو الشمال بحر الشام وفي
شرقيها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم وسميت الجفار لكثرة الجفار بارضها ولا
شرب لسكانها الا منها وكان فيها لعهد ياقوب نخل كثير ورطب جيد وهو ملك القوم
متفرقين في قرى مصر يأتونه أيام لقاحه فيلقحونه وأيام ادرا كه فيجنونونه وينزلون
بينه باهاليهم في بيوت من سعف النخل والحلفاء ، وفي الجادة السابلة الى مصر

عدة مواضع عامرة يسكنها قوم من السوقة للمعيشة على القوافل ، وهى رفح والقس والزعقا والعريش والورادة وقطية وفى كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين ^(١) قال المهلبى واعيان مدن الجفار العريش ورفح والورادة والنخل فى جميع الجفار كثير وكذلك الكروم وشجر الرمان (اما نحن فلم نذكر كرمًا ولا رمانًا ولا دكانًا ولا خانًا) وأهلها بادية متحضرون ولجميعهم فى ظواهر مدنهم أجنة واملاك واخصاص فيها منهم كثير ويزرعون فى الرمل زرعًا ضعيفًا يؤدون فيه العشر وكذلك يؤخذ من ثمارهم ، ويقطع فى وقت من السنة الى بلدهم من بحر الروم طير من السلوى يسمونه المرغ (والمرغ هو الطير بالفارسية) يصيدون فيه ما شاء الله يأكلونه طريًا ويقتنونه مملوحًا ويقطع أيضًا اليهم من بلد الروم على البحر فى وقت من السنة جارح كثير فيصيدون منه الشواهين والصقور والبواشق وقل ما يقدرّون على البازى وليس لصقورهم وشواهينهم من الفراحة ما لبواشقتهم وليس يحتاجون لكثرة أجنتهم الى الحراس لانه لا يقدر أحد منهم يعدو على أحد لان الرجل منهم اذا أنكر شيئًا من حال جنانه نظر الى الوطء فى الرمل ثم قفا ذلك الى مسيرة يوم ويومين حتى يلحق من سرقه ، وذكر بعضهم انهم يعرفون أسر وطء الشاب من الشيخ والابيض من الاسود ، والمرأة من الرجل والعاتق من الثيب فان كان هذا حقًا فهو من أعجب العجائب

قلت وبعض ما قاله هذا المؤرخ من الاستدلال بالاقدام على الاشخاص صحيح والوطء يبقى أثره فى الرمل ايما وليس من الصعب أن يتأثر المرء هنا من استباح جنته فانه اذا علا نشزا من هذه الرمال وهى عبارة عن تلعات ومنعرجات ومنعرجات وأحاديير لا يلبث أن يشاهد السائر من مسيرة ساعات . وفى اليوم العاشر اجتزنا بالعريش وهو من البحر الابيض على نصف ساعة فالمسعوديات على الساحل وفى الحادى عشر نمنا بالمزار وفى الثانى عشر بالجنادل وفى الثالث عشر بابى العفين وفى الرابع عشر مررنا بالقطية وبتنا بعراض وفى الخامس عشر بلغنا الاسماعيلية بالقاهرة .

(١) قال المقدسى فاما الجفار فقصبتهما الفرما ومدنها البقارة والورادة العريش وأما الحوف فقصبتهما بلبيس ومن مدنها مشطول جرجير فاقوس غيفا دبقوقنة بريم القازم

هذا هو الطريق الذى كان يطرقه المصريون والشاميون منذ عرف التاريخ وكثيراً ما كان بعضهم يؤثرونه على ركوب المراكب والسفن الشراعية لما كان فيها من الاخطار أيام لم يكن البخار ، يسير مراكب البحار . قطعناه فى أربعة عشر يوماً وكان أجدادنا يقطعونه فى أربعة أيام على خيل البريد ، ومن هذا الطريق سار عمرو بن العاص سنة ١٩ للهجرة لفتح مصر فنزل العريش ثم أتى الفرما وبها على رواية البلاذرى قوم مستعدون للقتال فجارهم فهزمهم وحوى عسكرهم ومضى الى القسطنطينية ، والفرمى أو الفرما كان حصناً على ضفة البحر يحمل اليه ماء النيل فى المراكب من تنيس ويخزن أهله ماء المطر فى الجباب ، وكان بعض أهلها قبطاً وبعضهم من العرب وقد ورد ذكرها كثيراً فى شعر أهل القرون الاولى وفى الفرما أرق الخليفة المأمون رضى الله عنه لما سار الى مصر فبات فيها وقد ذكر بغداد ونعيمها وقصورها فقال

لليلىك كان بالميدان اقصر منه بالفرما

غريب فى قري مصر يعانى الهم والسدما

والميدان من أحياء دار السلام والسدم الهم مع الندم والحزن ذكر المقريزى ان الدرب الذى يسلك فيه الى مصر فى القرن التاسع للهجرة لم يحدث الا بعد الحسمائة من سنى الهجرة عند ما انقرضت الدولة الفاطمية . وفى المسالك والممالك أن الطريق من دمشق الى الكسوة اثنا عشر ميلاً (كذا والميل بحسب اصطلاحهم ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمى والذراع أربعة وعشرون أصبغاً والأصبغ أربع شعيرات ظهر واحدة الى ظهر الاخرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل) ثم الى جاسم بلد أبى تمام الطائى أربعة وعشرون ميلاً ثم الى فيق أربعة وعشرون ميلاً ثم الى طبرية مدينة الاردن ستة أميال ومن طبرية الى اللجون عشرون ميلاً ثم الى القلنسوة عشرون ميلاً ثم الى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً والطريق من الرملة الى أزدود (؟) اثنا عشر ميلاً ثم الى غزة عشرون ميلاً ثم الى العريش أربعة وعشرون ميلاً فى رمل ثم الى الواردة ثمانية عشر ميلاً ثم الى أم العرب عشرون ميلاً ثم الى الفرما أربعة وعشرون ميلاً ثم الى جرير ثلاثون ميلاً ثم الى القاصرة أربعة وعشرون ميلاً ثم الى مسجد قضاة ثمانية عشر ميلاً ثم الى بلبيس

أحد وعشرون ميلاً ثم إلى القسطنطينية مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً فهذه ثلثمائة وخمسة وستون ميلاً تبلغ نحو سبعمائة كيلو متر

وكان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق من بلبس إلى الفرما في البلاد التي كانت تعرف ببلاد السباح من الجوف ويسلك من الفرما إلى أم العرب وهي بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والواردة فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية في سنة تسعين وأربعمائة أغار بغدوين صاحب الشوبك على العريش وهو يومئذ عامر بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام وصار يسلك على طريق البر مع العرب مخافة الفرنج إلى أن استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدي الفرنج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فصار يسلك هذا الدرب على الرمل إلى أن ولي ملك مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فأنشأ مدينة الصالحية في سنة أربع وأربعين وستمائة فلما ملك الظاهر بيبرس البندقداري رتب البريد في الطرقات حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق في أربعة أيام ويعود في مثلها فصارت أخبار الممالك ترد إليه في كل جمعة مرتين ويتحكم في ممالكه بالعدل والولاية وهو مقيم بالقلعة وانفق في ذلك مالا عظيماً حتى تم ترتيبه وكان ذلك في سنة تسع وخمسين وستمائة

وما زال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيل المعدة للركوب وتعرف بخيل البريد وعندها عدة سواس وللخيل رجال يعرفون بالسواقين واحدهم سواق يركب مع من رسم ركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني وتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهامه وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطاني قال صاحب الخطوط وكانت طريق الشام عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لاتحمل زاداً ولا ماء فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبي أهلها وحرقتها في سنة ثلاث وثمانمائة خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما

نزل بالبلاد من المحن عن اقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خلا فاحشا قالوا والبريد خيل تشتري بمال السلطان ويقال لها السواس والعلوفات وهي مقررة علي عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر في هلال كل شهر الى كل مركز أصحاب النوبة بالخيول فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم وهم لهذا يسمون خيل الشهارة وعلى الشهارة وال من قبل السلطان يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدونها بالداغ السلطاني ، وقد أنشأ أمراء مصر وملوكها مثل كريم الدين وكيل الخاص الناصري والملك الاشرف خليل ونغر الدين كاتب الممالك وناصر الدين الدوادار التنكزي وطاجار الدوادار وكافل الشام الطنبغا والظاهر بيبرس البندقداري وغيرهم خانات ورباطات وفنادق ومساجد وآباراً ودساكر لأبناء السبيل وكان الطريق في بعض الادوار يتحول قليلا من أول الكورة الى آخرها ولكنه لم يخرج قط في كونه من مصر من الغرب الى الشرق ثم يعرج في بلاد الشام نحو الشمال قليلا حتى دمشق

وكان حمام الزاجل الذي هو بمثابة تلغراف أجدادنا يسير من القاهرة الى بلبيس ومنها الى الصالحية ومن الصالحية الى قطية ومن قطية الى الواردة ومن لواردة الى غزة ومن غزة الى القدس ومن غزة الى نابلس ومن غزة الى لد ومن لد الى قاقون ومن قاقون الى جينين ومن جينين الى صفد ومن جينين الى بيسان ومن بيسان الى اربد ومن اربد الى طفس ومن طفس الى الصنمين ومن الصنمين الى دمشق

وكان الثلج ينقل على الهجين من بلاد الشام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة وقد جاء زمن وهو لا يحمل الا في البحر خاصة — كما جاء في التعريف بالمصلح الشريف — ومن الثغور الشامية بيروت وصيدا ويفرض على البقاع وبعلبك ارفادها في ذلك وكان يسيرا فكثروا وقرر منه على طرابلس مما استقر على جبة بشرى والمنيطرة من عمل لبنان اليوم . والمركب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج الى الشرايحانات الشريفة ويخزن في صهريج أعد له وأصبح في القرن الثامن يحمل في البر والبحر ومدة ترتيب حملة من حيران (يونيو) الى آخر تشرين الثاني (نوفمبر) وعدة نقلاته في البر ٧١ نقلة متقاربة مدتها بينها . وقد

صار يزيد على ذلك ويجهز بكل نقلة بريدى يتداركه ويجهز معه ثلاث خيبر بحمله ومداراته يحمل على فرس برید ثان ، والمرصد فى كل نقلة خمسة احمال والمستقر فى كل مركز له ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان قال العمرى : ولا يصل الثلج متوفراً الا اذا اخذ الثلج المجلد وأجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فانه أسرع اذابة له من الماء وكذلك كانت المناور مواضع رفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات العدو وقد أُرصد فى كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم رايراء ما امامهم وهى من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم بها عشاء . وهذه المناور بدخانها ونيرانها أشبه بالهليوستاوالابجكتيف لعهدنا

هكذا كان طريق مصر الى القرن التاسع للهجرة وهذا أقصى ما بلغته مدنية القوم فى أسباب النقل والراحة وينزل اليوم فى هذه النفود أى الرمال المترامية كما يسميها العرب أناس من عرب مصر يرجعون فى أصولهم الى بطون وأنخاذ معروفة عندهم تعرفهم بسيماهم ضئال الاجسام صفرة الوجوه على نحو ما وصفهم واصفوههم فى القرون الوسطى وهم شاوية يقومون على تربية الشاء ولهم جمال قليلة وزروعهم فى الأكثر الشعير فى الشتاء والبطيخ فى الصيف ولهم نخيل قليل فى بعض واحاتهم وبالقرب من سبخاتهم ولا حجر فى ديارهم يبنون به بيوتهم ، ومساكنهم حقيرة يصنعونها من الخوص فلاهم بادية يأوون الى الخيام ولاهم حضر كالعرب النازلين منذ القديم فى ريف مصر كالفيوم والشرقية وغيرها من مديريات القطر مثلاً ولهجاتهم أقرب الى لهجة سكان جنوبى الشام منها الى اللهجة المصرية ومن فلسطين يكتبون ، وفي فلسطين يقضون شطراً من السنة فى رعى أغنامهم وماعزهم ولم تعمل الحكومة المصرية شيئاً لارتقائهم سوى انها نشرت أعلام الأمن على ربوعهم ، ولذلك ترى تجار الابل يأتون بها من بلاد نجد والجزيرة والشام ولا يزالون يحاذرون اعتداء السراق عليها حتى يبلغوا رفح وعندها يوقنون بانه لا يضيع لهم فى تلك البادية عقال بعير وكان عرب هذه النفود من قبل مثلاً سائراً فى الاعتداء على السابلة وهم اليوم معفون من الضرائب والخدمة العسكرية وغريب كيف لا ينالهم قسط من مدنية مصر خرموها كحرموا

الاستمتاع بماء النيل العذب وتربة واديه الممرعة

هذه النفود هي الحد الطبيعي بين مصر والشام بل الحد الصناعي الذي اصطلحت عليه مؤخراً الحكومتان المصرية والعثمانية في رفح والعقبة بل الحد الفاصل بين قارتي آسيا وأفريقية لم يحل في كل الأزمان دون اختلاط أهل هذين القطرين الشقيقين ومن قرأ تواريخ الجبرتي وابن اياس والسخاوي وابن حجر والغزوي وغيرهم يدرك ان هجرة السورى الى مصر ترد الى مئات من السنين ومن بحث في أنساب من تولوا أعمال الحكومة المصرية وشاركوا مصر في سعادتها ونحوسها من العلماء والتجار والصناع يجد فيهم كثيراً من الشاميين وكذلك الحال في المصريين ببلاد الشام فلا عجب اذا كان حظ مصر والشام واحداً في السراء والضراء ، وعلائقهما الاقتصادية موفورة مستحكمة ، وليس اعلق بالقلوب من الصلات المالية . وانا لنرى الشام أمس واليوم وغداً تتأثر لاقل أزمة مالية في مصر كما ان هذه تتأذى من العوارض السماوية أو الارضية كلما اجتاحت الشام ، فمصر والشام هما قطران بالاسم ولكنهما بالفعل قطر واحد جرى الاصطلاح على تسمية كل منهما باسم وكل منهما متمم لصاحبه حتى لقد سئل أحد عمال الدولة العثمانية في القرن الماضي عن رأيه في القطرين فقال مصر مزرعة حسنة والشام مصيف جميل

واذ قد عرفنا ان أجدادنا أحسنوا الانتفاع من مجاورة القطرين العزيزين ساغ لنا ان نطالب في هذا العهد بزيادة أواخي الاخاء بينهما من طريق البر على نحو ما هي عليه من طريق البحر فيسعى العقلاء من المالمين الى نيل امتياز يربط عاصمة الشام بعاصمة مصر بخط حديدي عريض حتى يأتي الراكب في أربع عشرة ساعة بدلاً من أربعة عشر يوماً واذا أحب القائمون بالامر الا اكتفاء بوصل السكة الجديدة مع أقرب الطرق الى مصر فما عليهم الا ان يكتفوا الآن بإيصاله الى القدس وهذه ستتصل هذا العام بخط حيفا مبداً السكة الحجازية من محطة العفولة والمسافة بينهما لا تقل عن مئة كيلومتر تمد على نفقة ادارة الخط الحجازي ، ومعلوم ان حيفا مرتبطة بدمشق ودمشق يسهل على ابن مصر الاصطيفاء في جبال

الشام وتبعث هذه بحبوبها وثمارها وترسل مصر الى الشام بشيء من مدينتها وعلومها وانتظامها ويخلص كل من يريد أن يخلص الى مصر من هذه الرمال الموحشة المرعشة والمفازة المدهشة المعطشة التي تعوذ منها كل من اجتازها وقاسى الامرين من مائها البشع المر المهوع المتروح ولولا انى تسليت عن المأكل والمشرب فى الايام الخمسة التى قضيتها فى اجتياز هذه المفاز بما سمعته من أحاديث رفاقي العرب فى الابل حتى صرت كأنى بعض رعاتها لطلال على أمرها ولكنى حملت النفس على انه تتعلم الصبر من تلك الجمال وطبقت فيها بالعمل ما قرأته بالنظر أيام الطلب من مصطلحات العرب فى ابلهم وحدائهم فصار مذهبي ولا نخر جماليا بعد ان كان جماليا ، وعلمى بالاباعر عمليا وكان من قبل نظريا

وكان رحلتى فى الشهر الماضى الى الحجاز وجنوبى الشام وزولى على أهل البادية من أهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مواكبة الاعراب فى صحفة واحدة والتخلى عن المعلقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس، والاكل من أطعمتهم وهى الثمن أرز العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة أو على الصاج يسجر بيعر الاباعر، والادام فى هذه الايام يخالطهم مل وهذا يدخل فى كل مأكول ومشروب تسفوه الرياح طوعا أو كرها ولقد صدق الواصفون منذ القديم لهذه الجفار بان « الخبز اذا أكل يوجد الرمل فى مضغه فلا يكاد يبالغ فيه »

وانى أحمد الله اليكم على انى قضيت أيام هذه الرحلة ولياليها برمتها لم أطلع فيها جريدة ولا مجلة ولا كتاباً ولا وقعت عيني على ورقة ، ولا مسكت قلماً ولا كتبت محاضرة ولا مقالة ولا نكتة ولا قيدت شاردة ولم أسمع غير حذاء الابل وغناء الاعراب ولم يصل فكرى الى أبعد من عمل القهوة البدوية وأكل التمر ولم يبلغ أذنى غير أحاديث الابل فاصبحت والله المنة استعذب تردادها استعذاني لترديد أخبار المدينه . ومن نعم المولى على انى رأيت صورة مصغرة من عيش أهل جزيرة العرب تمشى بين بلاد الشام ومصر ، ودرست نموذجاً صالحاً من أخلاق العرب بالاختلاط بتجار الجمال ورعاتها ممن كانوا يختلفون الينا ونختلف اليهم كل مساء وصباح فلم أسمع كلمة هجر وبذاء وتجديف قط ، وما تبينت فى أخلاقهم الا

الجدة الذي ليس وراءه جد ، والعزيمة التي تخور أمامها العزائم ، والبحث على الدوام فيما هم بسبيله من التجارة والعناية برعية ابلهم والقيام على صحتها فكان وجود السبط والارطة والقطف والحمط من العريش الى قطية فالاسماعيلية وغير ذلك من الاشواك والاعشاب كالشيخ والتم التي تستطيعها انعامهم أهم لديهم من كل حديث ، واشهى لقلوبهم من كل نعمة ، وافعل في نفوسهم من كل نعمة من نعم الجمال والكمال

قضيت ويا لسعادتي أسبوعين كاملين في عالم الاباعر والبعران ، والابل والحوار والبطين والبطنان والكثيب والكثبان وشين وزين وترد وتصدر وندلج ونسرى ونشد ونمرخ ونضحي ونعشى وغير ذلك من فصيح العربية الباقية على أسلات ألسن أولئك العرب الاميين ولو أردت أن استوفى ما سمعته من هذا القبيل لاستغرق مجلداً برأسه وما أحلى ما سمعته من أحدهم وهو يقول لصاحبه يافلان خذ من فلان كذا جنياً وأنت الفالج أى الراجح من الفلج وهو الظفر وكيف لا أؤخذ بما وعيت ورأيت وأنا طول هذه الفترة لم أسمع نعمة ولا غيبة ولا شهدت كذباً ولا منكرأً وكان أولئك الاعراب باجمعهم مواظبين على صلواتهم بدون تكلف يتيممون يوم يقل مأوهم ، ولا يسرفون فيه اذا وجد . أخلاق طاهرة متينة ما كنت أظنها باقية في البادية وأرجو أن لا تفقد بتاتاً من أهل الحضرة ولو تمياً لسكان اليمن ونجد خاصة شيء من المدنية الصحيحة لفاقوا ولا جرم الانكسار السكسونيين باخلاقهم وأناتهم ورويتهم ، واني لما خبرت القوم أيقنت بفساد القضية التي وضعها أحد الباحثين في أصول الشعوب من أن الطيش والرعونة والفسق تغلب على سكان البلاد الحارة ومع ان بلاد هؤلاء الاعراب من الاقاليم الحارة جعلت منهم التربية الدينية المعتدلة أهل اعتدال وكمال ورجال مال وأعمال هذا وقد أطلت حواركم حتى خفت عليكم التبرم بحديثي واني حامد شاكر لكل ما تم على لا يقاني يان الحوادث أكبر معلم ولولا الحادثة الاخيرة في دمشق لما تيسر أن أبلغ مصر من شرقها وان أستمتع ببقياكم الآن وأرجو أن يدوم لي هذا الاستمتاع ولكن على شرط أن يقيض الله للبلاد العثمانية من يغار على مصلحتها وينقذها من سقطتها . واسأل قاهر الجبابرة والسلاطين أن يمن علينا بنعمة الراحة أجمعين

مدن العرب^(١)

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدينة الاسلامية أن العرب إبان عزمهم لم يأتوا شيئاً يذكر في أعمال العمران ، وإن قصاراهم أن تلقفوا بعض المدينة الفارسية واليونانية وتمتعوا بها بضعة قرون ثم نقلوها الى من بعدهم من أمم المدينة الحديثة في الغرب . ويقول بعضهم أنهم كانوا في فن البناء دون الرومان ، وإن قصورهم الباقية لا تشهد بتفنن عجيب في الهندسة على ان الباقي من آثارهم الى اليوم في الاندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهد ابد الدهر بابطال دعوى المدعين وما يحبك في صدورهم من الاهواء

ولقد رأينا بعضهم يتوكأون في الخط من اقدار العرب في العمران على الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته في « ان العرب اذا تغلبوا على الاوطان أسرع اليها الخراب » الذي قال في آخره : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليفة كيف تقوض عمرانها واققر ساكنه وبدلت الارض فيه غير الارض فاليمين قرارهم خراب الا قليلا من الامصار ، وعمران العرب كذلك قد خرب عمرانها الذي كان للفرس أجمع ، والشام لهذا العهد كذلك ، وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدامر »

هذا ما يحتجون به ولو علموا ان مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو أو البادية أو العربان الرحل كما نسميهم لعهدنا لارتفع كل اشكال والا فان المدن التي مدنها العرب أيام عزمهم ، والامصار التي مصروها ، والقرى التي عمروها ، لا تدخل تحت حصر في كل قطر دخلوه ولو أياماً مما لم يتيسر لغيرهم من الامم كالترك مثلاً الذين حكموا الاقطار الواسعة العامرة بطبيعتها ستمائة سنة ولا تكاد تعرف لهم

(١) نشرت في المجلد السابع من مجلة المقتبس

مدينة أسسوها ، ولا مواتاً أخصبوه ، ولا ماء أسالوه ، وشغلهم الشاغل حروب وغزوات . هكذا مضوا أيام القوة وهكذا الحال زمن الضعف

ومن قرأ كتب وصف البلاد تجلّى له مقدار عناية العرب ببناء مدنهم ، خذ لك على سبيل المثال ما رواه الاقدمون في كيفية بناء سامرا أو سر من رأى احدى المدن العباسية التي أنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد فقد قالوا ان السفاح أراد أن يبنى سامرا فبنى مدينة الانبار بجذائها وأراد المنصور بعد ما أسس بغداد بنائها فابتدأ بالبناء في البردان ثم بدا له وبنى بغداد وأراد الرشيد أيضاً بنائها فبنى بجذائها قصرأ وهو بازاء أثر عظيم قديم كان للأكاسرة ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة ٢٢١ وكان الرشيد حفر نهراً عندها سماه القاطول وأتى الجند وبنى عنده قصرأ ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصرأ ووهبه لمولاه اشناس فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى ، بنى دارأ وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله وبنى بها مسجداً جامعاً في طرف الاسواق وانزل اشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا . وهو كرخ فيروز وأقام ابنه الواثق بسامرا حتى مات بها ثم ولى المتوكل فاقام بالهارونى وبنى به أبنية كثيرة واقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحيز الذي كان احتجروه المعتصم ، واتسع الناس بذلك وبنى مسجداً جامعاً فاعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر اليها من فراسخ فجمعوا الناس فيه وتركوا المسجد الاول واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا واشتق نهراً آخر وقدره للدخول الى الحيز فمات قبل أن يتمم وحاول المنتصر تميمه فلقصر أيامه لم يتمم ثم اختلف الامر بعده فبطل وكان المتوكل انفق عليه سبعمائة الف دينار

ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجميلة مثل ما بناه المتوكل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم والقصر المختار خمسة آلاف ألف درهم والوحيد ألفى ألف درهم والجعفرى المحدث عشرة آلاف ألف درهم والغريب عشرة آلاف ألف درهم والشيدان عشرة آلاف ألف

درهم والبرج عشرة آلاف ألف درهم والصبح خمسة آلاف ألف درهم والمليح
خمس آلاف ألف درهم وقصر بستان الألتاخية عشرة آلاف ألف درهم والتل
علوه وسفله خمسة آلاف ألف درهم والجوسق في ميدان الصخر خمسمائة ألف
درهم والمسجد الجامع خمس عشر ألف ألف درهم وبركان المعتر عشرين ألف
ألف درهم والقلائد خمسين ألف دينار وجعل فيها أبنية بمائة ألف دينار والفرد
في دجلة ألف ألف درهم والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة خمسين
ألف ألف درهم والبهو خمسة وعشرين ألف ألف درهم والؤلؤة خمسة آلاف
ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم
وكان المعتصم والوائق والمتوكل اذا بنى أحدهم قصراً أو غيره أمر الشعراء
أن يعملوا فيه شعراً فمن ذلك قول علي بن الجهم في الجعفرى الذى للمتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو	ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا	ل تقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الاما	م رأينا الخلافه في دارها
بدائم لم ترها فارس	ولا الروم في طول اعمارها
وللروم ما شيد الاولون	وللفرس آثار أحرارها
وكنا نجس لها نخوة	فطامنن نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسامين	على ملحيديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون	اذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو	م تضىء اليها بأسرارها
نظمنا الفسافس نظم الحلى	لعون النساء وأبكارها
لوان سليمان أدت له	شياطينه بعض أخبارها
لا يقن أن بنى هاشم	تقدمها فضل أخطارها

وقال الحسين بن الضحاك :

سر من را أسر من بغداد	فاله عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرح لها ليس يخلو	أبدأ من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزه	ر عليها محبر الأبراد

واذكر المشرف المظل من الت
ل على الصادرين والوراد
واذا روح الرءاء فلا تذ
س رواعى فراقدا الأ ولاد

وله فيها وبفضلها على بغداد:

على سر من راء المصيف تحية
مجللة من مغرم به - واهما
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة
تقرب من ظليهما وذراهما
محلان لقي الله خير عباده
عزعة رشد فيهما فاصطفاهما
وقولا لبغداد اذ ما تنسمت
على أهل بغداد جعلت فداها
أفى كل يوم شف عيني بالقذا
حرورك حتى رابنى ناظرهما

قال ياقوت ولم تزل كل يوم سر من رأى فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام
المعتصم والوائق الى آخر أيام المنتصر بن المتوكل فلما ولى المستعين وقويت شوكة
الأتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بنى العباس لم تزل سر
من رأى فى تناقص للاختلاف الواقع فى الدولة بسبب العصبية التى كانت بيد
أمراء الأتراك الى أن كان آخر من انتقل الى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر
من رأى بالسكية المعتضد بالله أمير المؤمنين كما ذكرناه فى التاج وخربت حتى لم
يبق منها إلا موضع المشهد الذى تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ومحلة
أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر
اليها بعد ان لم يكن فى الارض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس
ولا أوسع ملكا منها فسبحان من لا يزول ولا يحول

وذكر الحسن بن احمد المهلبى فى كتابه المسمى بالعزى قال وأنا اجتزت بسر
من رأى منذ صلاة الصبح فى شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد
رفعت عنها للوقت لم تعدم الا الابواب والسقوف فاما حيطانها فسكالجدد فما
زلنا نسير الى بعد الظهر حتى انتهينا الى العمارة فيها وهى مقدار قرية يسيرة فى
وسطها ثم سرنا الى الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء الى نحو
الظهر ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ

وكان ابن المعتز مجتازاً بسامرا متأسفاً عليها وله كلام منشور ومنظوم فى
وصفها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أتقاضها الى بغداد ويعمر بها

فقال ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رأى وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

وكتب على وجه حائط من حيطان سامرا الخراب :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف آبائي على الأمم
فكل ما فيه مبذول لطارقه ولا ذمام به الا على الحرم

وكتب عبد الله بن المعتز الى بعض اخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها
ويذم بغداد وأهلها ويفضل سامرا : كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها
وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكان عمرانها
يطوى وكأن خرابها ينشر وقد وكلت الى الهجر نواحيها واستحث باقيها الى
فانيها وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الاثر
والمقيم بها على طرف سقر نهاره ارجاف وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل
ولا مرعى فيرتع خالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت
بالمرأى القريب جنة الارض وقرارة الملك تفيض بالجنود أقطارها عليهم أروية
السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول من
خيل تأكل الارض بجوافرها . وتمد بالنقع سائرها . قد نشرت في وجوهها
غراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأ سورة اللجين ونوطت عذراً
كالشنوف في جيش يتلقف الاعداء أوائله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار
الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالات لا
تخلف تخيلته ولا تنقض مريته ولا يخطيء بسهم الرأى غرض الصواب ولا يقطع
بمظايا اللهو سفر الشباب قابضاً بيد السياسة على قطار ملك لا يفتشر حبله ولا
يتشظى عصاه ولا تطفأ جمرته في سن شباب لم يحن مأتماً وشيب لم يراهق هرمًا
قد فرش مهاده عدله وحفض جناح رحمته راجماً بالعواقب الظنون لا يطيش عن
قلب فاضل الحزم بعد العزم ساعياً على الحق يعمل به عارفا بالله يقصد اليه مقرأ
للحلم ويبدله قادراً على العقاب ويعدل فيه اذ الناس في دهر غافل قد اطمانت بهم

سيرة لينة الحواشي خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الجبور
فالاطراف على مسرة والنظر الى مبرة قبل أن تحث مطايا الغير وتسفر وجوه الحذر
وما زال الدهر ملياً بالنوائب طارفاً بالعجائب يؤمن بومه ويغدر غده على انها
وان جفت معشوقة السكني وحبيبة المثنوى كوكبها يقظان وجوها عريان وحصاها
جوهر ونسيمها معطر وتراها مسك أذفر ويومها غداة وليها سحر وطعامها هنيء
وشراها مرىء وتاجرها مالك وفقيرها فاتك لا كبغدادكم الوسخة الومدة الهواء
جوها نار وأرضها خبار وماؤها حميم وتراها سرجين وحيطانها نزوز وتشرينها
تموز فكم من شمسها من محترق وفي ظلها من غرق ضيقة الدارقاسية الجوار ساطعة
الدخان قليلة الضيفان أهلها ذئاب وكلامهم سباب وسائلهم محروم ومالهم مكتوم
لا يجوز انفاقه ولا يحل خنافة حشوشهم مسابل وطرقهم مزابل وحيطانهم أخصاص
ويبوتهم أفقاص ولكل مكروه أجل وللبقاع دول والدهر يسير بالمقيم ويمزج
البؤس بالنعيم وبعد اللجاجة انتهاء والهم الى فرجة ولكل سائلة قرار وبالله أستعين
وهو محمود على كل حال

غدت سر من را في العناء فيا لها قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلها شبيهاً بجاها لما نسجتها من جنوب وشمال
إذا ما امروء منهم شكا سوء حاله يقولون لا تهلك أسى وتجمل
ويطول بنا المقال إذا أردنا استقصاء أسماء المدن العربية كلها من شواطئ بحر
الظلمات في الغرب الى شواطئ المحيط الهندي في الشرق قال البلخي : ومن يحصى
بناة المدن وواضعي القرى ومن يعلم مبادئ انشائها الا الله عز وجل وهبنا
أخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجد في كتبهم والمدن التي أحدثت في الاسلام
لقرب العهد وجدة التاريخ فنلنا بمدن الهند والصين والروم والترك وليس كل
مدينة أو قرية مبنية منسوبة الى بانيتها لانه قد تسمى المدينة باسم الباني أو باسم
لها قبل حدوثها أو باسم ماء أو شجر أو شيء ما وقد يجوز أن يجتمع قوم بموضع
من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانياً لها
قاصداً اليها الى أن قال والكوفة مصرها سعد بن أبي وقاص وكان بها رمل
فسميت به ويقال لها الكوفان والبصرة مصرها عتبة بن غزوان سماها بحجارة

بيض كانت في موضعها وواسط بناها الحجاج ويقال لذلك واسط القصب ويقال بل توسطت البصرة والكوفة وبغداد سميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزرواء ويقال بغ اسم صنم وسمتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها جعفر المنصور بناها قصر الخلد بناها في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحشمه ومواليه واتباعه كقطيعة الربيع والحريية وغيرها ثم عمرت وتزايدت فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمى عسكر المهدي وتزايدت بالناس والبناء .

قال البلخي : فاعلم ان المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلأ والخطب فاذا فقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبق . قال بعض الجغرافيين : مصرت البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة اربعة عشرة وعظم أمرها حتى سميت قبة الاسلام ولها نخيل متصلة من عبداس الى عبدان نيف وخمسون فرسخاً ثم بنى بعد ذلك واسط بناها الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهي جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعاً وفي الجانبين جامعان ثم لما استخلف الله من بنى العباس السفاح بنى مدينة قريبة من الكوفة وسمها الهاشمية ثم رحل عنها الى الانبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها الى ان مات فلما ملك أخوه المنصور بنى على دجلة بغداد ويقال ان اسمها بك دار معناه دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل وسميت مدينة السلام لأنها يسلم فيها على الخلفاء ولائها على دجلة نهر السلام وفي تسميتها بغداد وبغداد وكان ابتداء بنائها في سنة خمس وأربعين ومائة وتم بناؤها في سنة تسع وأربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدي ولد المنصور مدينة تجاهها سماها الرصافة سنة احدى وخمسين ولبغداد

من المدن والبلاد صرصر وقصر ابن هبيرة مدينة بناها يزيد بن عمر بن هبيرة واليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وأمصارهم فمنها شيراز وهي مدينة اسلامية بناها محمد بن أبي القاسم الثقفي على أثر بناء قديم ومدينة قم كورها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالاً وكان اسم احدى القرى كيدان فاسقطوا بعض الحروف للأيجاز والاختصار وابدلوا الكاف قافاً

والمنصورية في الهند مدينة بنيت في صدر الاسلام وتسمى بالهندية تاميران
كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران . والحلة في العراق بناها سيد
الدولة صدقة بن ديبس سنة خمس واربعين واربع مائة وتسمى الكوفة الصغرى
لكثرة ما فيها من التشيع وأردويل وتسمى أردبيل في بلاد اذربيجان مصرت
أيام الرشيد وانما سميت باسم اردبيل بن ارميني ومراغة بناها محمد بن مزوان بن
الحكم وكانت قبل مراغة لدوابه فسميت بذلك ومرند بناها الافشين على أثر بناء
قديم ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد أرمينية مدينة شمکور وكانت
مدينة قديمة أخبرتها الصناوردية ثم جدها بغا سنة أربعين ومائتين وسماها
المتوكلية . ومن مدن الجزيرة مدينة أذرمة بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي
وبنى المنصور الى جانب مدينة الرقة قصبة ديار مضر مدينة وسماها الرافقة سنة
خمس وسبعين فخرت الاولى وبقي الاسمان واقعين على مدينة واحدة ومن مدن
حضر موت في اليمن مدينة الشحرو لم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منه في اخصاص
فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين وتسعمائة .
وكذلك بلاد مهرة ومصرها ظفار بناها احمد بن محمد وسماها الاحمدية في سنة
عشرين وتسعمائة .

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند وأحاط بها سوراً دوره سبعون الف ذراع وذلك
سبعة عشر ميلاً ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ ومدن بخارى كرمينية
وبيكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم أيضاً . ومن مدن خراسان الجبلية ذوات
الكور العريضة والاعمال الفسيحة سرخس وبوزجان وسامان ويورد مدينة
وزوزن وكومن بناها عبد الله بن طاهر . كما بنى مدينة شهرستان من أعمال
خراسان وبني في اقليم مازندران دهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن
المهلب سنة ثمان وتسعين مدينة بكر اباد في ذاك الصقع نقشه

وبنى عمرو بن العاص القسطنط (مصر) وبني احمد بن طولون القطايع ولما
ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسماها القاهرة .
وفي افريقية مدينة المهدي بناها المهدي العبيدي سنة ست وثلاثمائة ومدينة
بونة بنيت بعد الحسين واربعائة ومدينة بجادته وهي مدينة حسنة البناء طيبة

القضاء بناها الناصر بن علناس احد بنى حماد سنة سبع وخمسين وأربع مائة .
ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين . ورباط الفتح في سلا من أعمال طنجة
بناها عبد المؤمن وقصر الفرج بناه المنصور من بنى عبد المؤمن . والسوس
الاقصى يقال ان أول من عمره وأجرى فيه الانهار عبد الرحمن بن مروان بن
الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تاملت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناء
عبد الله بن ادريس . ومن بلاد السوس مدينة ايفلي بانيتها عبد الله بن ادريس أيضاً
ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجى سنة ٤٩٠ ويلى مراكش فاس وهى
مدينتان إحداهما عدوة الاندلس بنيت سنة ٢٩٢ والاخرى عدوة القرويين بنيت
سنة ثلاث وتسعين ومائة . وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوى وأشير
بناها زيرى والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدي المنعوت بالقائم وسميها الحمدية
وقلعة بنى حماد بناها حماد بن زيرى والقيروان اختطها عقبة بن نافع ومدينة
بطلوس بالاندلس بناها عبد الرحمن بن مروان ومدينة تطيلة بنيت أيام الحكم بن
هشام والهارونية من أعمال الفاكية بناها هارون الرشيد

وسامية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلى بن عبد الله بن
عباس وطرابلس المستجدة بعد طرابلس الشام بجيش المسلمين فى مملكة الملك
المنصور وسيف الدين قلاوون الضالحي بنيت فى سفح ذيل من أذيال جبل لبنان
بكورة من أكوار طرابلس بعدها عن طرابلس القديمة الخربة نحو من خمسة
أميال على شاطئ نهر يجرى الى البحر وهى المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن
الميناء المعروفة بميناء طرابلس الشام والممصر لمدينة انطرسوس معاوية بن أبى
سفيان فى أيام عثمان بن عفان حين غزا قبرص ومدينة عكا بناها عبد الملك بن
مروان ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان بن الحكم ثم المنصور
بعده وسميت الثغور لان المطوعين من أهل الحوزة كانوا يرابطون فيها ويفزون
مدن الروم . واذنة (اطنة) بناها الرشيد على نهر سيحان .

وطرسوس بنيت فى أيام هارون الرشيد والمصيصة بناها المنصور وعسكر
مكرم نزلها مكرم بن مطرف اللخمي فصارت مدينة ونسبت اليه .

ومدينة الاقلام بافريقية مدينة احدثها آل ادريس وسيله مدينة احدثها على ابن.

الاندلسي أحد خدم القائم بحانه وهي المرية من الاندلس محدثة ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها الاسواق كما قال ابن حوقل وابتقى الحمامات والخانات والقصور والمنتزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر مناديه بالنداء الا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمئة درهم فتسارع الناس الى العماره فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الابنية بين قرطبة والزهراء .

هذاما التقطناه في هذه المجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الامصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والانهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدنية العربية ويدعو الاخلاف الى التطريس على آثار الاسلاف

سماع الالحن^(١)

فن الغناء نشأ مع البشر منذ طفوليتهم وتدرج في درجات العلو ودركات الهبوط بحسب ارتقاء الامم . ولقد كان له شأن وأي شأن عند الامم الراقية في القديم على ما دلت عليه روايات التوراة والصور التي وجدت في النواويس المصرية والنقوش البارزة في قصور نمروذ وخراساباد حيث مثلوا الموسيقيين^(٢) والمغنين وأدوات الطرب كالشبابة والبوق والصنج والجنك والعود وغيرها . ومزامير داود مشهورة مذكورة .

(١) نشرت بالمجلد الثامن من مجلة المقتبس

(٢) في لفظ الموسيقى كما في سفينة الملك لحمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين لقتان احداهما موسيقى بمشتين تحتيتين بينهما قاف مكسورة والآخرى موسقى بجذف الياء الاولى وعلى كل من اللتين هو بضم الميم وسكون الواو وكسر السين المهمة كلمة يونانية معناها علم النغمات والالحن وكان هذا هو الاصل فيه ثم صار علماً على هذا العلم في سائر اللغات الا انه قد اعتراه تحريف في لغة الافرنج حيث قالوا موزيكا بابدال السين زايماً والقاف كافاً وفتحوا الكاف نظراً الى ما سمعوه من عوام الناس اذ هم يعبرون عنه بموسيقا بفتح القاف فان قلت ان خواص علماء هذا الفن يعبرون عن هذا اللفظ بعبارات مختلفة أيضاً قلت نعم غير انها اختلفت لاختلاف معانيها فأنهم يعبرون تارة بموسيقى

اجمعت الامم من جميع الطبقات (الموسيقى الشرقي) على حب الالحان حسب عاداتهم واصطلاح بلادهم ولكل أمة ألحان ونغمات يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يفرح بها سواهم الا بتعود سماعها أو بمعرفة مواقع الطرب في أى لحن كان. ومن الدليل البين على ان لها تأثيراً في النفوس كون الناس يستعملونها تارة عند الفرح واللذة والاعراس والولائم وأخرى عند الحزن والنغم والمصائب والمآتم وطوراً في بيوت العبادات والاعیاد وآونة في الاسواق والمنازل وفي الاسفار والحضر وعند الراحة والتعب وفي مجالس الملوك ومنازل السوق ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهلاء والصناع والتجار وجميع طبقات الناس

قال ابن ساعد : ومنفعة الموسيقى بسط الارواح وتعديلها وتقويتها وقبضها أيضاً لانه يحركها اما عن مبدئها فيحدث السرور واللذة ويظهر الكرم والشجاعة ونحوها واما الى مبدئها فيحدث الفكر في العواقب والاهتمام ونحوها ولذلك يستعمل في الافراح والحروب وعلاج المرضى تارة ويستعمل في المآتم وبيوت العبادات أخرى قال افلاطون : من حزن فليستمع الاصوات الطيبة فان النفس اذا حزنت خمد منها نورها فاذا سمعت ما يطربها اشتعل منها ما خمد . وقال ان هذا العلم لم تضعه الحكماء للتسلية واللهو بل للمنافع الذاتية ولذة الروح الروحانية وبسط النفس وترويق الدم أما من ليس له دراية في ذلك فيعتقد انه ما وضع الا للهو واللعب والترغيب في لذة شهوات الدنيا والغرور بامانيها .

قال الغزالي في الاحياء : لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للارواح حتى انها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الاصوات ما يفرح ومنها ما يحزن ومنها ما ينوم ومنها ما يضحك ويطرب ومنها ما يستخرج من الاعضاء حركات على وزنها باليد

أو موسقى على ما تقدم ويعنون علم النغم نفسه وتارة بموسيقار ويعنون الشخص المتصف به وتارة بموسقيري ويعنون الآلة التي يصورها كالعود ونحوه من سائر الآلات حسبما يظهر من تتبع كلامهم حيث قالوا كل صناعة متعلقة باليد فوضوعها الجسم الطبيعي الا الموسقيري فوضوعها الصوت المشتغل على الالحان المخصوصة ولا يخفى عليك ان تعلق الصناعة باليد انما يجري في الآلة فقط اه

والرجل والرأس ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جار في
الاولتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج،
ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده
فانه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه الى الاصغاء
اليه . والجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الاحمال الثقيلة
ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة وينبعث فيه من النشاط ما
يسكره ويوله فترى الجمال اذا طالت عليها البوادي واعتراها الاعياء والكلال
تحت المحامل والاحمال اذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى الى الحادى
ناصبة آذانها وتسرع في سيرها حتى تنزعزع عليها أحمالها ومحاملها وربما تتلف أنفسها
من شدة السير وثقل الحمل وهى لا تشعر به لنشاطها

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالرقى رضى الله عنه
قال كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فاضافنى رجل منهم وأدخلنى
خباه فرأيت فى الخباء عبداً اسود مقيداً بقيد ورأيت جمالا قد ماتت بين يدي
البيت وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه فقال لى الغلام : أنت
ضيف ولك حق فتشفع فى الى مولاي فانه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك فى
هذا القدر فعساه يحل القيد عنى . قال : فلما احضروا الطعام امتنعت وقلت : لا
أكل ما لم اشفع فى هذا العبد . فقال : ان هذا العبد قد افقرنى وأهلك جميع
مالى . فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : ان له صوتاً طيباً وانى كنت أعيش من ظهور هذه
الجمال فحملها أحمالا ثقالا وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة
من طيب نغمته فلما حطت أحمالها ماتت كلها الا هذا الجمل الواحد ولكن أنت
ضيفى فلكرامتك قد وهبته لك قال : فاحببت أن أسمع صوته فلما أصبحنا أمره
أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع
حباله ووقعت أنا على وجهى فما أظن انى سمعت قط صوتاً أطيب منه .

قال الغزالى بعد ايراد ما تقدم : فاذا تأثير السماع فى القلب محسوس ومن لم
يحركه السماع فهو ناقص ، مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ
الطبع وكشافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم فان جميعها تتأثر بالنغمات

الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته ،
ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بأباحة
ولا تحريم بل يختلف ذلك بالاحوال والاشخاص واختلاف طرق النفثات فحكمه
حكم ما في القلب

قال حجة الاسلام : ان الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها
ثم عن مجموعها فان فيه سماع صوت طيب موزون ، مفهوم المعنى ، محرك للقلب ،
فالوصف الاعم انه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره ، والموزون
ينقسم الى المفهوم ، كالاشعار والى غير المفهوم ، كاصوات الجمادات ، وسائر
الحيوانات ، أما سماع الصوت الطيب من حيث انه طيب فلا ينبغي أن يحرم
بل هو حلال بالنص والقياس . أما القياس فهو انه يرجع الى تلذذ حاسة السمع
بادراك ما هو مخصوص به وللانسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة ادراك
وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء
الجارى والوجه الحسن وبالجملة سائر الالوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يكره من
الالوان الكدرية القبيحة وللشم الروائح الطيبة وهى فى مقابلة الانتان المستكرهة
وللذوق الطعوم اللذيذة كالسومة والحلاوة والخوضه وهى فى مقابلة المرارة
المستبشعة والمس لذة اللين والنعومة والملاسة وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة
وللعقل لذة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل والبلادة فكذلك الاصوات
المدركة بالسمع تنقسم الى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ومستكرهة كنهيق
الحمير وغيرها فما اظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها .

ونقل الغزالى أيضاً عن أبى طالب المسكى اباحة السماع عن جماعة فقال : سمع
من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية
وغيرهم . وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابى وتابعى باحسان وقال
لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة وهى الايام
المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره كايام التشريق ولم يزل أهل المدينة
مواظبين كاهل مكة على السماع الى زماننا هذا فادركنا أبا مروان القاضى وله
جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية . قال : وكان لعطاء جارىتان

يلحنان فكان اخوانه يستمعون اليهما قال : وقيل لابي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يستمعون فقال : وكيف انكر السماع وقد اجازه وسمعه من هو خير مني فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع وأنا أنكر اللهو واللعب في السماع

هذا ما قاله الغزالي ونقله في السماع وفوائده والمحرم منه في الاسلام ما كان مانعاً عن العمل والعبادة محركا للشهوات البهيمية كما ان آلات الطرب يكون حكمها حكم السماع والتلحين وفي هذه المسألة مرادات واختلافات بين العلماء في القديم والحديث ولكن العقلاء منهم اختاروا التوسط والتوسط محمود في كل حال فانهم لم يقبلوا أن يخرجوا بالناس عن الطبع والطبيعة لانهم اذا منعوا ما هو ضروري من ضرورات الحياة لا يعود الناس يبالون ويسرون بلا وازع وعلى كل فان الاعتدال هو غاية الغايات حتى في العبادة

نحن في عصر أصبح فيه الغناء من الفنون ذات القواعد والروابط والاصول ولذلك ترى المنشدين والمغنين والموسيقيين يختارون من الالحن ما يناسب الظرف الذي هم فيه وتراعى به حالة المستمعين وقد ادعى بعضهم أن من النغمات ما يطيب في يوم ولا يطيب في آخر وبعض الالحن قد يكون لها من التأثير ما لا يكون لغيرها ولا شك ان للحالة النفسية التي يكون عليها المغنى والمغنى له دخلا كبيراً في الطرب فقد وقع لنا أن طربنا مراراً بشباب الراعى في الجبال أكثر من سماع الناي والقيثارة وأن راقنا الغناء الطبيعي أكثر من المصنع الموضع على الالحن وكثيراً ما يسمع المرء أمهر الموسيقيين المنشدين فلا يرتاح كما يرتاح لسماع بدوي في البادية يحدو ويتغنى كأن النفس لا تميل الا الى الطبيعي من الاشياء الخالي من الطلاء الصناعي .

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي : الغناء على ثلاثة أوجه النصب والسند والهزج فاما النصب فغناء الركبان والقيينات وأما السند فالتقيل الترجيع الكثير النغمات وأما الهزج فالحفيف كله وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم وانما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة وهذه القرى مجامع

أسواق العرب وكانت العرب تسمى القينة الكرنية والعود الكران والمزهر أيضاً هو العود وهو البربط وكان أول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق طويس وهو علم ابن سريج والدلال وثومة الضح . وقالوا غناء كل مغن مخلوق من قلب رجل واحد وغناء ابن سريج مخلوق من قلوب الناس جميعاً وكانوا يقولون الغناء على ثلاثة أضرب فضرب منه مطرب محرك ويستخف وضرب ثان له شجى ورقة وضرب ثالث حكمة واتقان صنعة

الغناء مؤثر في البهائم فكيف لا يؤثر في الانسان ، هو يؤثر في الطيور والهوام ، ولطالما شوهد العصفور والشحرور يرفرفان أمام مغن مطرب وآلة موسيقية شجية ، وقد أخذهما الطرب فاقتربا يستمعان للاغاني ورنات المثلث والمثنائي كما يقترب الطروب من الاناسي ، وشوهد أن الافاعي خرجت من أوكارها تستمتع لنغمة شاد أو ضربة موسيقار ، بل شوهد ان من الغناء ماتهز له جوانب القصور وترتج رفوفها وحيطانها ولعل ماقيل من ان صوت فلان يطرب الجماد له من الواقع أو الواقائع ما يؤيده

الالحان تصفى الارواح ، وتبعث النشاط في النفوس ، فيها قد يجسر الجبان في ساحة الوغى ، ويكرم الشحيح ، ويرق الكفيف ، ويلين القاسى ، ويقوى الضعيف ، ويعدل الظالم ، وبعطف اللئيم . وخير الاغاني والانايد ما كانت ملحنة بالحن تناسبها معربة الالفاظ جيدة المعاني وما قيل من انه ليس على المطرب أن يعرب ليس صحيحاً من أكثر وجوهه فان لجودة اللفظ والمعنى تأثيراً لا ينكره الا مريض الذوق بعيد عن مناحى الآداب سقيم الفهم .

كان الناس في القديم لا يعرفون غير العود ^(١) والقانون والمزامير والشبابات والصلاسل والطارات والتغيير والكوبة من آلات الطرب واليوم أتى الافرنج بالارغن والبيانو وغيرهما من أدوات الطرب ولكن جل الاعتماد على البيانو لا يكاد يخلو منه بيت ذى نعمة في الغرب يضرب به أولاده وزوجه وضيوفه ويوقعون

(١) في الاغاني ان بن سريج وهو أحد المغنين الاربعة المشاهير والثلاثة هم ابن محرز والغريز ومعبد هو أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة وكان عوده على صنعة عبدان الفرس رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة فاعجب أهل مكة غناؤهم فقال ابن سريج انا اضرب به على غنائى فضرب به فكان أحسن الناس

عليه أنواع الاغاني والاناشيد وتعلمه فيما نحسب أسهل من تعلم العود المؤلف في هذا الشرق الاقرب . والتغيير هو الغناء بالطقطقة بالقضيب وانما يسمى تغييراً لان محدثيه يسمون المغيرة . والكوبة طبل طويل ضيق الوسط ذو رأسين وهو المعروف بالدربكة في بلاد الشام .

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده البربط ليت شعري ما هو فقال له عميد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أنا اخبرك ما هو هو محدودب الظهر أرسح البطن له أربعة أوتار اذا حركت لم يسمعها أحد الا حرك أعطافه وهز رأسه

وقد ورد في الكتاب والسنة وسيرة أعظم سلف الامة اشارة الى الغناء والى تجوزهم في سماعه وهم ولاشك أحسن قدوة في هذا الباب . قال القرطبي ومن الاستدلال بالكتاب من ذلك أى على الغناء قوله تعالى « ومن الناس من يشترى لهُو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة هو الغناء وقوله تعالى « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » قال مجاهد انه الغناء والمزامير « وأنتم سامدون » قال ابن عباس : هو الغناء . ومن السنة ما خرجه الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم رجع من بعض مغازيه خجاءته جارية سوداء فقالت : يا رسول الله انى كنت نذرت ان ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأغني فقال لها : أن كنت نذرت فاضربي فدخل أبو بكر وهي تضرب ثم دخل على وهي تضرب ثم دخل عمر فألقت الدف تحتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان ليخاف منك يا عمر . وفي حديث عائشة أن امرأة زفت الى رجل من الانصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عائشة أما كان معهم لهُو فان الانصار يعجبهم اللهُو . واللهُو هو الغناء .

وحكى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فصعد النساء على السطوح يضربن بالدفوف ويقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا مادعا لله داع

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد قال بعض أهل التفسير في قول الله

« يزيد في الخلق ما يشاء » هو الصوت الحسن . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الاشعري لما أعجبه صوته : لقد أوتيت زمزماً من زمير آل داود كان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة . وقال أحمد بن أبي دؤاد ان كنت لأسمع الغناء من مخارق عند المعتصم فيقع على البكاء حتى ان البهائم لتحن الى الصوت الحسن وتعرف فضله .

وكان صاحب الفلاحات يقول بان النحل أطرب الحيوان كله الى الغناء وأن أفراسها تستنزل بمثل الزجل والصوت الحسن . قال في العقد وأردف النبي صلى الله عليه وسلم الشريد فاستنشد من شعر أمية فأنشده مائة قافية وهو يقول : هيه استحسناناً لها فلما أعياهم القدح في الشعر والقول فيه قالوا الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحن حسن وأجازوا ذلك في القرآن وفي الاذان فان كانت الاغانى مكروهة فالقرآن والاذان أحق بالتنزيه عنها وان كانت غير مكروهة فالشعر أحوج اليها لاقامة الوزن واخراجه عن حد الخبر وما الفرق بين أن ينشد الرجل « أتعرف رسماً كأطراد المذهب » مرسلأ أو ليرفع بها صوته مرتجلاً وانما جعلت العرب الشعر موزوناً لمذ الصوت فيه والدندنة ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور

واحتجوا في اباحة الغناء واستحسنانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة أهديتي الفتاة الى بعلها قالت نعم قال فبعثتم معها من يغني قالت : لا قال : أو ما علمت أن الانصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم خيونا نخيبكم
ولولا الحبة السمرا لم نحلل بواديكم

واحتجوا بحديث عبد الله بن أويس ابن عم مالك وكان من أفضل رجال الزهري قال مر النبي صلى الله عليه وسلم بجارية بطل قارع وهي تغني :

هل على ويحكم ان لهوت من حرج

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا حرج ان شاء الله

حدث عباس بن المفضل قاضي المدينة قال حدثني الزبير بن بكار قاضي مكة عن

مصعب بن عبد الله قال : دخل الشعبي على بشر بن مروان وهو الى العراق
لاخيه عبد الملك بن مروان وعنده جارية في حجرها عود فلما دخل الشعبي أمرها
فوضعت العود فقال له الشعبي : لا ينبغي للامير أن يستحي من عبده قال : صدقتم
ثم قال للجارية هات ما عندك فاخذت العود وغنت :

ومما شجاني انها يوم ودعت تولت وماء العين في الجفن حائر

فلما أعادت من بعيد بنظرة الى التفاتاً أسلمته المحاجر

فقال الشعبي : الصغير اكيسهما يريد الزير ثم قال . يا هذه أرخي من بك
وشدى من زيرك فقال له بشر : وما علمك قال : أظن العمل فيهما قال : صدقت
ومن لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه .

أرق معاوية ذات ليلة فقال لخادمه خديج : اذهب فانظر من عند عبد الله
(بن جعفر وكان ضيفه أنزله في دار عياله بالشام) وأخبره بخروجه اليه فذهب
فاخبره فاقام كل من كان عنده ثم جاء معاوية فلم ير في المجلس غير عبد الله فقال
مجلس من هذا قال مجلس فلان قال معاوية : مره يرجع الى مجلسه ثم قال مجلس من هذا
قال : مجلس فلان قال مره يرجع الى مجلسه . حتى لم يبق الا مجلس رجل فقال
مجلس من هذا قال مجلس رجل يداوى الآذان يا أمير المؤمنين قال له معاوية
فان أذني عليلة فره فليرجع الى موضعه وكان موضع بديع المغنى فامر به ابن جعفر
فرجع الى موضعه فقال له معاوية داو أذني من علتها فتناول العود ثم غنى :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمثلثم

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه فقال معاوية : لم حركت رأسك يا ابن جعفر
قال : اريحية أجدها يا أمير المؤمنين لو لاقيت عندها لابلت ولئن سئلت عندها
لأعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديع هات غير هذا وكانت
عند معاوية جارية أعز جواريه عنده كانت متولية خضابه فغناه بديع :

وليس عندك شكر للتي جعلت ما ابيض من قادمات الشعر كاللحم

وجددت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً وجعل يحرك رجله فقال ابن جعفر يا أمير المؤمنين
سألتني عن تحريك رأسي فأخبرتكم وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال معاوية

كل كريم طروب ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتيه اذني فبعث الى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاص ثيابه والى كل رجل منهم بالف دينار وعشرة أثواب

روى المبرد فى الكامل قال حدثت ان معاوية استمع على يزيد ذات ليلة فسمع من عنده غناء أعجبه فلما أصبح قال ليزيد : من كان ملهيك البارحة فقال له يزيد : ذاك سائب خاثر قال : اذا فاخر له من العطاء . وحدثت ان معاوية قال لعمرؤ : امض بنا الى هذا الذى قد تشاغل باللهو وسعى فى هدم مروءته حتى ننمى عليه أى نعيب عليه فعله يريد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فدخل الى عنده سائب خاثر وهو يلقي على جوار لعبد الله فأمر عبد الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنمى عبد الله عن سريره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فاجلسه الى جانبه ثم قال لعبد الله . أعمد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت وأخرج الجوارى فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديار التى كادت ونحن على منى تحل بنا لولا نجاء الزكائب
ومثلك قد أصببت بكنة ولا جارة ولا حليمة صاحب

وردد الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك فى مجلسه ثم مد رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو : اتشد يا أمير المؤمنين فان الذى جئت لتلجأه أحسن منك حالا وأقل حركة فقال معاوية : اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب .

وذكر ابن عميرة الضبي^(١) فى ترجمة محمد بن اسحاق بن السليم قاضى الجماعة بقرطبة انه كان من العدول المرضيين والفقهاء المشهورين وله عند أهل بلاده حالة مذكورة ومنزلة فى العلم والفضل معروفة وكان مع هيئته ورياسته حسن العشرة والانس كريم النفس مات سنة ٣٦٧ حدث القاضى أبو الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث عرف بابن الصفار ان رجلا من أهل المشرق يعرف بالشيباني دخل الأندلس فسكن بقرطبة على شاطىء الوادى بالعيون فخرج قاضى الجماعة

(١) بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لآحمد بن يحيى بن عميرة الضبي طبع فى مدينة مجريط سنة ١٨٨٤ م

ابن السليم يوما لحاجة فأصابه مطر اضطره الى ان دخل بدابته في دهليز الشيباني فوافقه فيه فرحب بالقاضى وسأله النزول فنزل وأدخله الى منزله وتفاوضا في الحديث فقال له : اصلح الله القاضى عندي جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها فان أذنت أسمعك عشراً من كتاب الله عز وجل وأبياتاً فقال له : افعل فأمر الجارية فقرأت ثم أنشدت فاستحسن ذلك القاضى وعجب منه وكان على كمدنا نير فأخرجها وجعلها تحت الفرش الذى جلس عليه ولم يعلم بذلك صاحب المنزل فلما ارتفع المطر ركب القاضى وودعه الشيباني فدعا القاضى له ولجاريته

ولا بأس هنا ان نختم هذا الفصل بأبيات في صنعة الغناء نقلها الشريف المرتضى في أماليه قال : أخبرنا المرزباني قال : حدثنا على بن هارون قال : حدثني أبي قال : من بارع شعر بشار قوله يصف جارية مغنية قال على : وما في الدنيا شيء لقديم ولا محدث من منشور ولا منظوم في صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات :

ورائحة للعين فيها مخيلة	إذا أبرقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم على الفتى	خفا برقها في عصفر وعقود
حسدت عليها كل شيء يمسه	وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته	على صوت صفراء الترائب رود
كان أميراً جالساً في ثيابها	تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة	سواما ولم ترفع حداج قعود
تميت به ألبابنا وقلوبنا	مراراً وتحمين بعد همود
إذا نطقت صحناً وصاح لنا الصدى	صياح جنود وجهت لجنود
ظلمنا بذلك الديدن اليوم كله	كأننا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس الا أننا عند أهلنا	شهود وما ألبابنا بشهود

شرف الموسيقى

كل شيء يشرف ويتضع بشرف القائمين به ووضاعتهم ، وكل علم يشرف ويتضع على نسبة اعتبارية من فائدة تتوقع منه ، وغاية تكون وراءه . وصناعة الموسيقى هي من امارات الظرف تعد عند الأمم الحديثة المتحضرة من الفنون الجميلة كما كان يعدها العرب إبان حضارتهم من الكماليات

قال ابن خلدون : والغناء يحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فتحدث هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجياته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً في مذاهب الملدوذات ، وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى لقد كان ملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها

قال : وأما العرب فكان لهم أولاً فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية لم يزل هذا شأنهم في بداوتهم وجاهليتهم . فلما جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التي عرفت لهم مع غضارة الدين وشدة في ترك أحوال الفراغ وما ليس بنافع في دين ولا معاش فهجروا ذلك كثيراً ولم يكن الملدوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو دينهم ومذهبهم ، فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطناير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فليحنوا عليها أشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره وما زالت صناعة

الغناء تتدرج الى ان كملت أيام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدي وابراهيم وابنه اسحق وابنه حماد .

قال : وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان الموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فليحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكريمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والاقطاعات والجرابات وأحله من دولته وندمائته بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف . وطما منها باشبيلية بحر زاهر وتناقل منها بعد ذهاب غضايتها الى بلاد العدو بفريقية والمغرب . وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صباية على تراجع عمرائها وتناقص دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لانها كمالية في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ والفرح وهو أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعها .

قال ابن خلدون أيضاً : ولقد عدلت يوماً بعض الامراء من أبناء الملوك في كلفه بتعلم الغناء وولوعه بالآلات وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي : أفلا ترى الى ابراهيم بن المهدي كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلت له : يا سبحان الله وهلا تأسيت بابيه وأخيه وما رأيت كيف قعد ذلك بابراهيم عن مناصبهم ؟ فصمم عن عدلي وأعرض

هذه زبدة تاريخ الغناء أو الموسيقى في العرب وطرف مما كان من عناية ملوك الاسلام بها أيام الحضارة . ولقد انتشرت بعد حتى صار يتعلمها بعض أهل العلم من غير تكبر وشرفت باقبال الكبراء عليها بحيث لم تكن في شرفها دون غيرها من العلوم فقد ذكر ابن أبي أصيبعة ان الفارابي المعلم الثاني وصل في علم صناعة الموسيقى وعملها الى غايتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ويذكر انه صنع آلة غريبة يسمع عنها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات وله كتاب الموسيقى الكبير الفه للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي وكتاب في احصاء الايقاع وكلام له في النقلة مضافا الى الايقاع كلام في الموسيقى . ويحكى ان القانون الذي يضرب

عليه للطرب هو من وضعه وانه كان أول من ركب هذه الآلة تركيبها المعهود اليوم .

وَأَلَّفَ يعقوب بن اسحق الكندى فيلسوف العرب فى الموسيقى فكتب رسالة فى ترتيب النغم الدالة على طبائع الاشخاص العالية وتشابه التأليف ورسالة فى المدخل الى صناعة الموسيقى ورسالة فى الايقاع ورسالة فى الاخبار عن صناعة الموسيقى ومختصر الموسيقى فى تأليف النغم وصناعة العود ألفه لآحمد بن المعتصم ورسالة فى أجزاء جبرية الموسيقى .

وَأَلَّفَ آحمد بن الطيب السرخسى العالم الحكيم كتاب الموسيقى الكبير ولم يعمل مثله كما ألف كتاب نزهة النفوس ولم يخرج باسمه وكتاب اللؤلؤ والملاهى ونزهة المفكر الساهى فى الغناء والمغنين والمنادمة والمجاسة وأنواع الاخبار والملح صنفه للخليفة

وَأَلَّفَ ثابت بن قره كتاباً فى الموسيقى ورسالة الى على بن يحيى المنجم فيما أمر بأثباته من أبواب علم الموسيقى ورسالة الى بعض اخوانه فى جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى . وكان أبو بكر محمد بن طفيل من فلاسفة المسلمين فى الاندلس يأخذ رواتب كثيرة مع الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد وغيرهم ويقول لو تفق عليهم علم الموسيقى لانفقته عندهم .

وكان ابن باجة الفيلسوف الاندلسى على جلالة قدره متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود قال ابن سعيد : ان ابن باجة فى الموسيقى بالمغرب بمنزلة أبى نصر الفارابى بالمشرق واليه تنسب الالحان المطربة بالاندلس التى عليها الاعتماد . وكان ابن يونس المنجم المشهور يضرب بالعود على جهة التأدب . وكان أبو المجد بن أبى الحكم من الحكماء المشهورين يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويحيد الغناء والايقاع والزممر وسائر الآلات وعمل ارغناً وبالغ فى اتقانه . وكان أبو زكريا يحيى البياسى من أفاضل العلماء جيد اللعب بالعود وعمل الارغن أيضاً وحاول اللعب به وكان يقرأ عليه علم الموسيقى . وكان أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى العالم الرياضى الطبيب متقناً لعلم الموسيقى وعمله جيد اللعب بالعود . وكان الحرث بن كلدة الثقفى أحد أطباء العرب يضرب بالعود تعلم ذلك

بفارس واليمن . وكان قسطا بن لوقا البعلبكي العالم الفيلسوف بارعاً في علم الموسيقى وكان أمين الدولة بن التلاميذ يحب صناعة الموسيقى وله ميل الى أهلها . وكان صفى الدين عبد المؤمن بن فاخر العالم المقتن عالماً بالموسيقى . وكان نجم الدين بن المنفاح المعروف بابن العالمة لان أمه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهن اللوز فاضلا في الادب والطب وله معرفة بالضرب بالعود استوزره الملك مسعود صاحب آمد وحظى عنده . وكان نضر الدين بن الساعاتي الفلكي الفيلسوف الطبيب خدم بنى أيوب وتوزر للملك العادل والملك المعظم وكان ينادم هذا ويلعب بالعود . وكان رشيد الدين بن خليفة الطبيب العالم أعرف أهل زمانه بالموسيقى واللعب بالعود وأطيبهم صوتاً ونغمة حتى انه شوهد من تأثير الانفس عند سماعه مثل ما يحكى عن أبى نصر الفارابي فكثير اعجاب الملك المعظم به جداً وبعد ذلك أخذه اليه واستمر في خدمته . وذكر ابن خلكان ان أبا بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور كان في شببيته يضرب بالعود ويغنى فلما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف فنزع عن ذلك واقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة .

وكان أبو الحسين على بن الحمارة آخر فلاسفة الاندلس آخر من برع في الالحان وعلمها وهو من أهل غرناطة قال في نفح الطيب واشتهر عنه انه كان يعمد الى الشعراء فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عوداً للغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغنى به فيطرب سامعيه . وكان الفاضل أبو الحسين بن الوزير أبى جعفر الوقشي آية في الظرف والموسيقى والتهديب وشيخه في هذا الفن أبو الحسين بن الحسن بن الحاسب كان ذا ذوق فيها مع صوت بديع أشهى من الكاس للخليع قال أبو عمران بن سعيد ما سمعته الا تذكرت قول الرصافي :

ومطارح مما تجس بنائه * لحناً أفاض عليه ماء وقاره

يثنى الحام فلا يروح لو كره * طرباً ورزق بنيه في منقاره

وكان محمد بن احمد بن أبى بكر القرموطى المرسى من أعرف أهل الاندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعود والموسيقى والطب فيلسوفاً طبيباً ماهراً يقرئ الامم بالسنتهم فنونهم التى يرغبون فيها وفي تعلمها ولما تغلب الافرنج على

مرسية عرف له حقه فبنى مدرسة يقريء فيها المسلمين والنصارى واليهود قاله في النفع .

وعلى الجملة لم تكن صناعة الموسيقى بالمنزلة التي يصورها أهل جيلنا من الغضاضة والضعة بل عرف بها أناس من أهل الصيانة والعلم وما كان كل من تعاطى صناعة الغناء عارياً من سائر العلوم فقد كان اسحق بن ابراهيم الموصلى نديم الخلفاء وشيخ الغناء ومع هذا كان من العلماء باللغة والشعر وأخبار الناس وله يد طويلة في الحديث والفقه والكلام وكان المأمون يقول لولما سبق لاسحق على أسنة الناس واشتهر بالغناء لوليت القضاة فانه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه مع انه أصغرها عنده .

ومثل هذا ما وقع لقاضى اشيلية أبى بكر بن القاضى أبى الحسن الزهرى فانه كان كثير اللعب بالشطرنج لم يكن من يلعب به مثله فى بلده قال : فكانوا يقولون أبو بكر الزهرى الشطرنجى فكان اذا بلغنى ذلك أغتاض ويصعب على فقلت فى نفسى لابد أن اشتغل عن هذا بشئ غيره من العلم لانعت به ويزول عنى وصف الشطرنج وعلمت ان الفقه وسائر الادب ولو اشتغلت به عمرى كله لم يخصنى منه وصف أنعت به فعدلت الى أبى مروان عبد الملك بن زهر واشتغلت عليه بصناعة الطب وكنت اجلس عنده وأكتب لمن جاء مستوصفاً من المرضى الرقاق واشتهرت بعد ذلك بالطب وزال عنى ما كنت أكره الوصف به . وهذا هو السبب والله اعلم فى اخفاء كثير من أهل الوقار والعلم انهم على جانب من علم الموسيقى والضرب على العود وغيره من أنواع المذود ولولا التقية لانتهى اليها أسماء كثير ممن لم تبلغنا عنهم سوى أخبار العلوم المتعارفة على ان الشرف كله اعتبارى ولا مانع من الغناء والتلحين اذا لم يتبعه التلطح بحمأة السفاهة والرديلة .

أما الملوك والامراء الذين عنوا بالموسيقى قديماً فأكثروا من أن يحصوا منهم يزيد بن عبد الملك ومسامة بن عبد الملك وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادى وابراهيم بن عيسى بن جعفر المنصور ومحمد بن جعفر المقتدر

والمتموكل والمهدي والمؤيد وطلحة الموفق والطائع والمقتدر وابن المعتز وغيرهم
من الملوك المتأخرين والله أعلم .

(١) الاستشفاء بالموسيقى

قال افلاطون : لم يبعث الأرباب فن الموسيقى لادخال السرور على البشر
واللذة على حواسهم بل لتسكين اضطرابات نفوسهم وتهدئة تلك الحركات المشوشة
التي لامندوحة لجسد مليء بالنقص عن الشعور بها . وقد جعل الاطباء قديماً وحديثاً
هذه الكلمات نصب أعينهم . عرف ذلك من ثباتهم على المحاولة في شفاء مرضاهم
بالانغماس فاستعملوا الموسيقى لشفاء أو تخفيف الصرع والسويداء والاب (النزاع
الى الوطن) والخبيل وضيق الصدر والهوس والجنون والبلادة والسير والتكلم
في حال النوم والحدرد والنقطة والهستريا والسكتة والفالج والسرسام وداء الاعصاب
والحميات والنقرس وعرق النساء والرثية والطاعون والحميراء والكلب وغيرها كما
استعملوها لشفاء الجروح والقرصات السامة ولتقوية الهضم والتنفس وترشيع
الاخلاط فللموسيقى شأن في الطب وتستخدم للمريض وكانت تتم في القديم
معرفة فنون الشعر والموسيقى والطب لشخص واحد .

يقول الين (الكتائب اليوناني من أهل القرن الثالث) ان ترباندر وتاليت
وترتي كانوا أطباء موسيقيين وأوصى كسينوكرات وابقراط واسكليبيادس وكالبيين
وارتي وسليوس اورليانوس وتيوفراست باستخدام الموسيقى في عدة أمراض
عندما تنقطع الحياة من العلاج في بعض الادواء ، وكان الاحياء والاموات
يسمعون أدوات الطرب ، قال مونارك ان القدماء كانوا يسمعون المحتضرين بعض
الالخان وربما أسمعوها من قضاوا نحبهم لعلهم تعود الحياة اليهم . وقال سليوس
اورليانوس ان فيثاغورس كان أول من استعمل الموسيقى في شفاء الامراض
وانه جرب ذلك في بلاد اليونان وقال بورهان (١٦٦٨ — ١٧٣٨) لا بأس

(١) لخصناها عن المجلة الباريزية الافرنسية ونشرت في السنة الاولى من مجلة المقتبس

بنسبة جميع الخوارق التي رويت عن الرقيات والاشعار في شفاء الامراض الى الموسيقى التي كان قدماء اطباء يحميدونها .

استعملت الموسيقى في عصرنا لمعالجة عامة الامراض فأصدر بونايرت أمره الى أجواق موسيقى كتائب جيش الشرق أن تصدح كل يوم تحت نوافذ المستشفيات ولا تزال أجواق الموسيقى العسكرية الى اليوم في كثير من الجاميات في الولايات تذهب مرة أو مرتين في الاسبوع لتنغم بأبواقها أمام مرضى الجند ولقد عازمت إحدى جمعيات الاحسان في انكتراعلى تحقيق تأثير الموسيقى في تسكين الآلام الطبيعية والادوية في كثير من الاسقام فألفت من مرضى الموسيقيين عصابة تقوم في مكان خاص بها تتناوب العمل فيه ليل نهار لنقل الانعام الموسيقية بواسطة أسلاك الهاتف (التلفون) الى قاعات مخصوصة من كل مستشفى كبير في لندرا . فاسفر ما جرى من التجارب في هذا الشأن حتى الآن عن نتائج مهمة . داخل ما نجم من الفوائد ان أخذ المضطربون من المرضى ينامون ملء جفونهم واستراحوا من التشويش والتبليل وتألفت في سها لنبورغ جمعية من النساء المريضات لتصدح كل يوم بالقرب ممن أجريت لهم العمليات بالانعام الموسيقية صوتية كانت أو آلية فثبت ان درجة حرارتهم كانت تنزل وان آلامهم تخف . ومثل ذلك جرب في مستشفى بلتون بانكترا .

والكمنجة هي الآلة المستعملة في الاكثر وأحسن الآلات استعمالا في حال الأرق علبة موسيقية بسيطة تدور بحركة ساعة دقاقة أو بمحرك كهربائي . بيد أن تأثير الموسيقى في المرضى يحتاج الى درس طويل اذا أخذ بمجموعه لا على التعمين .

نشر أحد اطباء الالمان كراسة في فعل الموسيقى في النفوس فقال : انها اذا أضعفت الاصحاء فهي تسكن حواس المرضى وانها لتنفع في أوجاع الرأس والدوار والاعضاء واستشهد على ذلك بامرأة كان صوت الارغن يضع رصدها فيعروها جذب وكانت تلك الآلة بعينها تحدث نفس التأثير في فنى طليانى كان مصاباً بالدودة الوحيدة وذكر روسو الفيلسوف أن كاهناً كان اذا سمع صوت الارغن يتأثر حتى ليضطرب

الى مغادرة الهيكل وعلى العكس فى رجل من قومه كان يستولى عليه وهو فى حالة السماع ضحك عصبى يستلزم اخراجه من الكنيسة ولاحظ الطبيب المشار اليه أن الموسيقى تعدل سير الدم وتحسن حالة النفس فاذا كانت الانغام الموسيقية حادة بهجة تبرى العين وتزيد حمرة الوجه ويسرع ضرب النبض وتؤثر حرارة الجسد ويضرب القلب ويسهل الهضم واذا كانت الانغام الموسيقية كثيفة وبطيئة تحدث للعين غشاوة ويصفر الوجه وتقل رطوبة الجلد ويزداد تواتر الدم الى القلب ويضعف ضرب النبض ويقل التنفس ويطول

قال وتفعل الموسيقى فى المجموع العضلى فيها يتحمل الجنود الشدائد والمتاعب فتتضاعف قوتهم عند ما يباشرون القتال وتؤثر أيضاً فى التهييج العضلى فانك ترى أناساً يرقصون من الليل ويطيلون الرقص وما كانوا ليقوموا بهذه الرياضة لولا سماع الانغام . فالمرأة مهما بلغ من لطف مزاجها وتأثرها من أقل تعب ينالها يهون عليها الرقص ساعات على صوت آلات الطرب . ثم ان الملاح والمعدن والبحرى يتغنون عند ما يقومون بأعمالهم الصعبة

يجب صاحب المزاج الدموى من الموسيقى ما أفرح وجاز على السمع وكان طبيعياً فى الوضع . ويفضل السوداوى من الموسيقى الشديد القاسى العالى . ولا يجب البلغمى شيئاً من أنواع الموسيقى . أما أهل الدعة والسكون والعلماء فلا يجيدون الشعر ولا يحسنون صنعة الغناء . على ان فى هذا القول نظراً لان القول بأن المزاج الفلانى لا يقبل النغم الفلانى هو ناشئ لا من المزاج فقط بل من الوراثة والمحيط والتربية .

قال الذى أخذناه عنه هذه الافكار ونقلناها الى لغتنا :

ولقد عرفت علماء لا يرتاحون للموسيقى ورأيت من لا يفضلون شيئاً عليها وشهدت من يتوفرون عليها ويعتدلون فى سماعها

وضع الطبيب المنوه به ست قواعد لاستعمال الموسيقى فى شفاء الامراض :
أولها انه كلما كانت الموسيقى طبيعية وأعربت عن اللغة الطبيعية فى الفكر تؤثر فى النفوس كثيراً ولا سيما فى نفوس من لم يتعلموا التعليم الكافى . ثانيها لما كان لكل بلاد أنغامها الخاصة بها فان الموسيقى تؤثر فى الروح كلما قربت من هذه

الانغام . ثالثها ينبغي أن تكون الموسيقى متناسبة مع درجة تأثير الموضوع . رابعها ينبغي أن يحدث تأثير الموسيقى ببطء فيبدأ مع السوداويين باستعمال ألحان يتدرج فيها من الخفيف الى القوى ويستعمل من الألحان الشديد أمام أصحاب النفوس الغضبية . خامسها اختيار الآلات المستعملة للغاية التي تطلب . فصاحب المزاج السوداوى يرتاح لسماع الطبل والبوق ذى الانبوبتين Trombon وكذلك المزمار والعود يناسبان مزاجه . سادسها تطرب الموسيقى الطبقات العالية أكثر مما تؤثر في الطبقات النازلة

ومن رأى هذا الطبيب ان الموسيقى تشفى صاحب السويداء كما تزول بها الكآبة والحزن وتبعد الخوف . ولقد أجمع الفلاسفة على ان شيئين اذا عادلا ثالثاً يكونان متعادلين فاذا كانت الموسيقى نافعة في ازالة الكدر والسويداء فالكدر والسويداء هما في الحقيقة شيء واحد . فان ابقراط حدد السويداء بأنها الكدر والحزن . وهنا أورد صاحب المقالة حوادث من التاريخ في أوربا ولا سيما في فرنسا تدل على ما تقع من الانغام في مداواة بعض الاسقام ولا سيما الجنون والاختلال وداء النقطة

ثم قال ان الاسلام انتفع من تأثير الموسيقى لتحريض أشياع الحسين الشهيد على الجذب والتهيج وذلك بقرع الطبول المتواتر على إيقاع متساق سريع فيردد الشيعة على نغم الطنبور الحاناً مقفاة حتى ينتهي الحضور بان لا يعودوا يتأثرون للضرب ولا للجرح . وكذلك الحال في دراويش الهند فانهم يستعملون كلمة واحدة ويكثرون من ترديدها فتؤدى بهم الى الجذب مصحوباً بقلّة التأثير . وبعد أن أفاض في إيراد حوادث القدماء وأخبار عنايتهم بالموسيقى في شفاء بعض الامراض قال ان مراد الرابع (١٦٢٣) أثرت فيه الموسيقى فعقد النية على أن يبقى على اخوته الذين كان ينوى إهراق دمهم وأن فرنسيس الاول بعث الى سليمان الثاني بجوق من الموسيقى فلاحظ هذا أن شراسة خلقه لطفت بسماع ألحانهم فأسف من جراء ذلك كثيراً ولم يلبث أن طرد لالحال جميع الموسيقيين من حضرته . وجملة القول أن الموسيقى تؤثر في الدورة الدموية في الانسان والحيوان ويزيد بها حفظ الدم وينقص وتتبع هذه التقلبات تأثير تهيج الاعصاب السمعية

وان آلات الطرب والصفير ليظهر فعلها بتحسين في تشنج القلب خاصة .
وتغيير الدم الناتج من تأثير الموسيقى يناسب تحول التنفس وان كان يتجلى ذلك
مستقلاً عن تحول التنفس . يزيد المستركنين في تأثير التهيج السمعي في الدورة
الدموية والكلورال على العكس يضعفه والالكحول والافيون يضعفان أيضاً
تأثير التهيج السمعي في الدورة الدموية وتغيير الدورة الدموية تابع لارتفاع
الصوت وشدته بل لارتفاع الجرس ونزوله. ولتغيير الدورة الدموية دخل كبير
في ذاتية الحيوان والانسان ولا سيما في جنسية الانسان وتابعيته
وعلى من أراد الوقوف على تأثير الموسيقى في أحد أعضاء الجسم سليماً كان
أو سقيماً أن يفرق بين العناصر التي ينبعث منها ذاك التأثير . فالهزج والحن
والايقاع تؤثر تأثيرات مختلفة بحسب تركيبها وتلحينها
وفي الختام نقول ان الاستشفاء بالموسيقى قديم العهد وقد ظل محتفظاً
بمكانته العلمية والعملية على حالة واحدة رغم اختلاف العصور .

الموسيقى الغربية

مدعاة السرور ، مجلبة النشأة ، مسلاة الحزين ، مفرجة الكرب مهونة
الخطوب ، عنوان الحياة الداخلية ، مظهر الاخلاق القومية ، مصورة القوابع
النفسية أصدق عامل على التحمس والتحمس ، أقوى دافع الى النهوض ، معاملة
أنفع الدروس الشريفة ، مذكرة بالمطالب العالية مما لا يعلمه الضعف ، دافعة عن
مزالت الشباب وطيش الحُلوم ، فيها يتجلى العقل البشري الفعال بأشارات وأى
إشارات ، تعمل عملها في الافئدة والوجدانات

هذه هي الموسيقى وهذا ما يتوخاه الغربيون منها ، ولذلك تجد لها في كل
صقع من أصقاعهم نغمة ورنة ، وفي كل مملكة من ممالكهم وتراً خاصاً ، بل
أوتاراً تهز القلوب ، وتعمل عملها فتقوى الضعيف ، وتجبر الكسير ، وتهيب
بالمستمع الى ميدان المضاء ، ويمكن فيه أواخي الحزم والعزم ، وتطرد عنه الوسواس

والهواجس . وتجعله في الذروة تشرف على التصورات البشرية ، فيتدبرها في سره ، ويهيم ويتعلم ، ويضطرب ويسلو .

تدخل الموسيقى عندهم في معظم مظاهر الحياة الخاصة والعامة ، فلا مجتمع دينياً كان أو مدنياً ، ولا ملهى ولا مسرح ولا ملعب ولا مرقص ، ولا مطعم ولا فندق ، الا وللموسيقى في الغالب دخل كبير فيها يتعلمونها صغاراً ، ويرضعون حبها مع اللبن ، لان الحاجة اليها مغروسة في الفطرة البشرية ، والدافع اليها الطبع أولاً ثم التطبع ، فكيف بهما اذا اجتمعا ، ولذلك يحسنها أو يستحسنها رب الأسرة وصاحبة البيت ، والطفل والابنة ، والفتى والفتاة ، والسيد والمسود ، والموسر والمعسر ، والعامل والمأهن ، والغلمان والكاهن ، والكبير والصغير ، والقائد والجندى ، تساووا في حبها ، وأجمعت كلمتهم على عموم تقبها ، والاخذ بحظ منها .

قال لى من طاف أميركا الشمالية وتوغل في ريفها وقراها ان أصغر فلاح فيها يملك آلة البيانو يطرب عليها هو وأهله وأولاده وأصحابه . وقالت مدام دي ستايل انك لا تجد في سكان المدن ولا القرى ولا الجنود ولا الحرائن من لا يعرف الموسيقى في ألمانيا ففي أحقر كوخ تسمع صوت الموسيقى على نحو ما تسمع ذلك في ايطاليا الا قليلا ، والاولاد والطلبة يطوفون يوم الاحد في الشوارع يمجدون الله وينشدون الاناشيد الحماسية

آلات الموسيقى متحدة في الغرب ، ولكن الصور التي تخرجها مختلفة وان أسمعوك في بلد ما هو من صنع غيرهم ، فتسمع في كل أمة ألحان رجال الفن في أمة أخرى وأمم الغرب مهما تباعدت في المقاصد وتباينت في المصالح لا تجدها الا متفقة في تمجيد المغنين من الموسيقيين يضربون أوتارهم من غير نكير ولو بلغ الحقد أو التنافس أو التنازع مداه في صدورهم ، فليس لهم شيء أجمعوا على تقديسه مثل نغمة تصدر في يد صناع ، ولحن يلحنه نفس نفيس

الشرقى أمام الموسيقى الغربية كالقلد بالسمع . أو كمن يسمع بأذن غيره . يطول به العهد حتى يطرب لها طرب أهلها بها ، لان موسيقاه وأغانيه تخالف موسيقاهم وأغانيهم ، ولانه ألف نغمات أخرى . فهو وان لم يفهمها ولكنها قريبة

من مصطلح قومه ، مؤلفة مع مناخه ومحيطه ، ودرجة رقيه وتاريخه . فالعربي يطرب من الموسيقى التركية وبالعكس للمجاورة والالف . والفارسي يحب الموسيقى العربية لتمازج تاريخ أمته بالعرب . وكلما قويت الروابط بين الامم وسهلت الشقة وارتفعت تأثيرات التخوم ، والمبعدات بين القلوب ، زاد طرب الجار من نعمة جاره .

سمعت الموسيقى في أكثر بلاد الغرب في ايطاليا والنمسا والمجر وسويسرا والمانيا وانكلترا وفرنسا وهولندا والبلجيكا واسبانيا فكان طربي بالموسيقى الاسبانية أكثر من غيرها لانها تترشح من الانغام العربية لتمازج تاريخ العرب بتاريخ الاسبان ، وكذلك تطرب النفس بالموسيقى التركية ، لانها تترشح من موسيقاته . وقد أتت قرون والعرب والترك متلاحمون في البلاد ، مشددة روابطهم ، متحدة كلمتهم

ولقد طربت من موسيقى أهل الغرب الأقصى وأهل الجزائر وأهل فارس طربي من الموسيقى الشامية ودون طرب كل عربي بالموسيقى المصرية لانها أرقاها ، وقد بلغت بالنسبة الى سائر البلاد مرتقاها . تأثرت مرة لنعمة فارسي كان ينشدني قصيدة من نظمه في الحرية ، وتأثرت مرة من فتاة صربية في قطار كانت ترم بنغمتها الوطنية ، وأنا لم أفهم معاني الفارسي ولا الصربية . ولكن ماذهبت اليه النفس من التذكارات ، فعل فيها فعلة فأخرجها عن كثافتها ، وسمعت مؤخرأ مغنية اسبانية في مسرح الاولمبيا في باريز تتغنى بالاسبانيولية ، وتبيع بنفسجاً ترشقه على الحضور ، فكان منظرها وحركتها ونغمتها من أجل ما رآته العين في الغرب ، وطربت به حقيقة ، وما ذلك الا للأثر الناتج عن تأثيرات الموسيقى وما يتذكر الانسان من الوقائع والحوادث

كان لنا في بر الشام موسيقى راقية ، فكادت تندثر لزهة الناس في هذا الفن لانه دليل ارتقاء الامة ، والامة كانت مشتغلة بنفسها ترجع القهقري ، وكان المشتغلون بهذا الفن مردولين ممتننين ، فبينما نجد الموسيقى والمشهد في الامم الاخرى عشير الملوك والرؤساء والعلماء منعما مرفها اذا مات مشى في جنازته العظماء — كما فعل الفرنسيين بجنازتي سان ساينس وفوريه الموسيقيين وعدوها

من المفضلين على أمتهم ومجدوها وقد سوها ، ترى مثيلهما في أرضنا مهاناً لا يؤبه له ، ان أخذ بفسنه عاش فقيراً ، ومات خاملاً حقيراً ، وكم من نابغة في الموسيقى عندنا تخلى عن هباته خشية أن يلحق به العار ، وزهد نفسه طوعاً أو كرهاً بما يحبه وكان في مستطاعه أن يبرز فيه لعلمه بضيق العيش من هذا الباب ، ولأن صاحبه لا يعد في الطبقة التي هو حري ان يعد فيها

جاء دور كان الفقهاء يعدون ساقطاً من العدالة كل من يغنى عندنا ولا سيما اذا كان غنى بالاجرة^(١) ويتسامحون مع من يغنى مع جماعة من أصحابه ، وكانوا يعدونه فنا يفقر صاحبه ، ولكن الغرب على العكس من ذلك ، يفاخر بهذا الفن أعظم عظيم ، ولا يستنكف أن يأخذ نفسه بأدبه ، ويرزق عشرات الألوف منه فاذا مات مات عن ثروة طائلة ، وخلف لاهله مجداً وغنى

ولو لم نر من نهضة الموسيقى آخراً وتشريف قدرها في مصر اليوم لسجلنا بأن هذه الأمة العربية جمعاء منحطة وأى انحطاط عن أمم الحضارة الحاضرة ولقلنا انها أمة مات شعورها في كل معنى وهى والأمم المتوحشة سواء في أوضاعها وعاداتها وأسباب هنائها وراحتها

الاستقلال والاتكال^(٢)

يطالع المستفيد مئات من كتب الفلسفة والادب وعلوم العمران فلا يهتم ان يستقل منها ما يأخذ مأخذه من العقول ، ويحدث أثراً في النفوس ، ولا عجب فقد تنصرف وجهة الألوف الى خدمة العلم ، وبث الملكات الصحيحة فاذا فوضل بينهم ووضعت أعمالهم في ميزان النصفة ، وعلى محك الاستبصار يكثر الشائل ، ويقل الراجع . والمؤثرون في الافكار ، في كل الاعصار والامصار ، اندر من الغراب الاعصم والكبريت الأحمر ، على ان كل من بذر بذوراً طيبة لا ينفك مثلوجاً فؤاده مهما تأخر نباتها وإيتاؤها ، لعلمه بأنها ستؤتى أكلها عاجلاً أو آجلاً

(١) الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

(٢) نشرت في مجلة المنار (١٦ رجب سنة ١٣١٩ هـ - ١٩٠١ م)

إذا لاءمتها طبيعة المنبت ، وأحسن تعهدا أيدي القائمين عليها
وقد وقع شيء من هذا ان صح حدسي للكتاب الذي ألفه المسيو ادمون
ديمولان الفرنساوى وعربه أحمد فتحى بك زغلول المصرى المسمى « سر تقدم
الانكليز السكسونيين » فانه أثر فى الفرنسيس أثراً حسناً وسرى قول مؤلفه
فى بلاد الافرنج منذ نحو خمس سنين فترجم الى لغاتهم وتناولته ألسن الناقدين
والمساعدين ، وعاد بعض المنشئين يرون رأى صاحبه وينطقون بلسانه ، ويكتبون
بقلمه ، ودل كثير من أهل العلم على مواقع الفساد من تربيتهم ، ونقص الاستعداد
من عاداتهم ، وأشاروا الى تخلفهم فى حلبة تنازع البقاء عن جيرانهم الألمان
والانكليز والاميركان تخلفاً يخشى معه أن يبتلعهم الجنس السكسوني فيكون
مستقبل العالم له دون سواه

هكذا يقولون . وغير منكر ان الفرنسيس نفعوا الانسانية نفعا لا تنكره
وكفاهم مفاداتهم بأبنائهم مراراً تخفيفاً من سلطة الملوك ورفعاً لغشاوة جهالة
ظلت مسدولة على أوربا قروناً ، جعلتها وراء شعوب الارض ، فخلعت ربقة
الاستعباد ، وقررت حقوق الانسان ، وقواعد الحرية والاخاء والمساواة. ونشرت
المعارف فى الاطراف حتى ابتدلت ، واشترك فى الاخذ من بحرها المحيط عامة
الطبقات فأصبح الحراث الفرنساوى يقرأ ويكتب ويفهم أكثر من بعض من
ندعوهم بالمنورين فى بلادنا . وما يأخذه الآن بعض علماء الفرنسيس على أمتهم
ان هو الا من باب الاستزادة من الفضيلة ، والدعوة الى الكمال ، والسبق فى
ميدان التغلب والسيادة . نعم انه ليستنشق من غالب المكتوب رائحة الغرض ويعترض
على بعضهم مبالغتهم فى وصف أعراض الضعف حتى أوشكت الفائدة أن تضيع
وينسب كل ما يخطونه الى التشيع والتحزب ويؤيد ذلك ان ما يكتب صادر من
بلاد تأصل فيها الانشقاق الداخلى ، وراجت بضاعة الاحزاب ، وساد فيها تباين
الآراء فلا يكتب الملكى أو الكهنوتى الا ويرمى ببصره الى القديم بمجده ،
والتلبد بكيه وينشده ، ولا يجهر الجمهورى الا ويفخر بما تم على يديه من ارتقاء
ونماء ، ولا ينبرى القوضوى أو العدوى أو الاشتراكي الا ويستدعى الامثلة
ويستجيش البراهين اعلاناً بدعوته ، واستتماماً لرغبته ، ولكن فرنسا ما زالت

بفضل أساسها القديم أم المدنية ورياسة الحضارة وان تقهقرت في سياستها وأخلاقها فلمرتبتها الميزة على سائر الشعوب الأوروبية خلا السكسونيين ولكن صحة الوطنية التي عرف بها مساعير أبطالها ومشاهير رجالها جعلتهم اليوم يفرطون في النصح والقدرح

« استقلالهم »

وبعد فان الامم من حيث كيانها قسمان: استقلالية واتكالية فالامة الاستقلالية هي التي طبعت على حب الانفراد يعتمد كل فرد منها على نفسه لا على حكومة ولا جمعية ولا حزب ولا عشيرة ولا أسرة

وانما رجل الدنيا وواحدھا من لا يعول في الدنيا على رجل ومثالها الشعوب الانكليزية السكسونية . والامم الاتكالية هي التي يعتمد أفرادها على مجموعها من الامة أو الدولة فيتوكأ كل فرد على غيره وأعظم مثال لها الامم الشرقية حاشا سيدتها الامة اليابانية العظيمة فان التربية الاستقلالية عندها على ما يبلغنا قائمة على أعظم هياكلها وأبنائها أبعد المشاركة عن النشأة الاتكالية

وبديهي ان العلم وحده لا يكفي في سعادة الشعوب ما لم يقرن بالعمل ، وفرنسا وقعت مع من وقع في مثل ذلك من أمم الخليقة فزاد فيها التكالب على المصالح الهينة ، والوظائف اللينة ، فكثرت فيها الموظفون والمحامون والاطباء والمهندسون وأهل الصحافة والادب ، بحيث تعذر قبول من تخرجهم المدارس العالية باسمها فسدت في وجوه الناشئة أبواب الرزق لان معظمهم يرى السعادة أن يعيش في باريس ونحوها من المدن الخافلة ليستمتع برفاها وأنسها ولو عاش في قل . وزهدوا في الاشتغال بالصنائع الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة وذلك غير معهود عند من كان دمه سكسونياً اذ لا يرى حطة عليه أن يحترف أية حرفة كانت مهما كان علمه واستعداده ليضمن لنفسه وذويه مرتزقا فسيحاً وعيشاً استقلالياً لبأباً ، فان لم يجد ما يعمل في بلاده يغادرها ليستعمر مكاناً آخر من الكرة ، ويستوى عنده العيش بلندن أو برلين ، والعيش في زيلندة الجديدة

أو مستعمرة الرأس أو زنجبار ، وإن شئت فقل في أقاصي صحارى أفريقيا حيث الوحوش ضارية ، والسموم لافج ، والعيش مر المذاق وتأيداً لذلك انقل هنا ما صرح به أحد علماء الاخلاق من الفرنسيين بهذا الشأن قال : « يزعمون ان شهادة العالمية عندنا باب يدخل منه الى كل سبيل ، وتشلك بحملها في كل مسلك ، وهى على التحقيق لا تفتح الا ثقباً كبيراً هجم عليه أصحاب الرغبات من كل صوب ، فاستغرقت الحرف الشريفة ووظائف الحكومة جملة ، بحيث وجب على الامة أن لا تساعد على شر ما برح يتفقم أمره منذسبعة قرون، حتى صار جرحاً نغاراً ، وضربة مبرحة . وأعنى بذلك الشرءاء الاستخدام والتوظيف

» لا جرم ان الحركة التى بدأت طلائعها في فرنسا زمن فيليب الجميل ازعج أمرها على عهد لويس الرابع عشر ، فزاد الحال اشكالا على أثر عودة الملكية الى فرنسا ، واستيلاء أسرة بوربون على منصة الحكم وصار على عهد الجمهورية الثالثة الحالية أدهى وأمر . فاذا نشأ البناء على أسال آبائهم ولم يصلح حالهم يضيعون مجد أسلافهم ويخربون مملكة قويت على الحوادث على حين تعدهم عدتها في شدتها ، ويبددهم انقاذها واسقاطها

» فالجيل الفرنساوى الحاضر سىء حاله ومآله ، وهو الى الكسل والجبن أميل منه الى العمل والنصب ، حتى يصح أن يقال ان البلاد به أضاعت من قتلتها ، وأمست تسير الى فلاة فنائها ، ومن الاسف ان فرنسا التى كانت على مر العصور فى مقدمة من يحسن الاعمال وأول مثيرة لكل نجاح هى اليوم من حيث تهذيب أبنائها متقهقرة عدة قرون الى الوراء . وكأن تعاليمها الآن هى عينها فى القرون المتوسطة التى تركت ألمانيا وشأنها الى أن علا صوت جهورى من الشاعر كيتي^(١) يبين للامان مواقع الضعف ، ومزالق المقاتل ، ومداحض المخاطر ، ويقود الافكار الى الحلة على كسر القيود ، ونزع ربق الرق وتجديد جدة الشباب . ينادى يا قوم هؤلاء الان كلز امعنوا فى حالهم ، وانسجوا على منوالهم ، فانكم واياهم سواء فى القيم ، فما ضركم لو باريتموهم فى الهمم ؟ عملكم قليل ولا تحسنونه ، وقلما

تهضون بأعبائه ، وليس لكم نصيب مما أوتوا من مميزات الواجب الشخصي والكفاءة الشخصية ، وهما دعائم القوى التي تشتد بها سواعد الملل . ولما كان كيتي يصرح بهذه الأفكار كانت ألمانيا بعيدة عن معاناة التجارة مقطوعة في مؤخر الشعوب ولم تمض على ذلك مئة سنة حتى استولى انصار ذلك الشاعر الكبير والمتعظون بأقواله على مجور التجارة فهاج نشاطهم قلق الأمة التي حذوا حذوها . وان الانكليز لينظرون اليوم نظر المرتجف الى انبساط ظل النفوذ الألماني بهذه السرعة والقوة ويزعمون انه لا بد من أن تخلف طوابع البرد الجرمانية الطوابع الانكليزية قريباً .

« كل هذا نتيجة تغير التربية وانتشار المعارف بين الافراد وكثرة الكفاءات في كل فروع العمل . فمن العقل والحالة هذه ان يتدرع الفرنسيين بسلاح من العمل مفيد ، ويعتاضوا من الركوب على متن عمياء بالجرى في طريق جديد من اتقان المبادئ الصحيحة والاخلاق الفاضلة .

« من رقاعة الفرنسيين أن يعتقدوا علو كعبهم في كل منحنى ومنزعة . ولو ذهب أحدهم الى ألمانيا ودرس أحوالها عن أمم ، لرأى شعباً كان يشكو مما يشكو منه ، داء أصيب به زمناً فشفى نفسه من أوصابه . يرى السكسونية مجسمة بأبهي مظاهرها فيقدس « كارلايل » ^(١) ظهيرها ونصيرها ، وقيس حاله بالانكليز على أنهم سباق غايات وأصحاب آيات بينات . ثم اذا قضى من تينك المملكتين لبانته ، وعرف بالنسبة اليهما حالته ، يركب البحر المحيط الاثلاثينيكي ليتبصر فيما تورثه جدد الفضائل في هذا القرن الحديث وينجلي له الفرق بين رغائبه ورغائب الاميركان .

« لفرنسا نظارة المعارف العمومية ، ولا ميركا مدرسة للتربية ، فالاولى تعلم والثانية تربي . الاولى تلقن أبناءها كلمات يحفظونها ، والثانية تعلم مبادئ عيسيرين عليها . تعد فرنسا أدمغة لحفظ قانون وتبني أميركا أذرعاً للعمل ، الاميركان رجال عمل ، والفرنسيين ليسوا كذلك . يغرس الاميركان في نفوس ناشئتهم شهامة الارادة التي لا تجدى أجمل الهبات الخلقية بدونها ، ولا يكون العلم نفسه الا

(١) كارلايل Carlyle كاتب اسكتلندي شهير مات سنة ١٨٨١

عظلا من النفع مع فقدها ، وهذا هو القانون الذى سنه لهم فيلسوفهم اميرسون (١) تلميذ هيكل الالماني (٢) القائل فى فلسفته : ان الحياة ليست شغلا عقلياً ، ولا مناقشة ومهاوشة ، بل الحياة انما هى العمل . واقد علق فى أعلى باب كل مدرسة بأميركا شعار معناه : ان تهذيب الخلق أسمى غاية للمدرسة ، وعلى الشبان أن يحسنوا معرفة الحياة بارادة ثابتة . »

ثم توسع الكاتب فى بيان نقص تربية أبناء وطنه وعاد يقول :
« يلزمنا رجال مهذبون لا رجال متعلمون ، وفى فرنسا طبقتان من المدارس أولاهما للصغار وثانيتهما للكبار ، وبعبارة أجلى مدارس الصناع ومدارس المفكرين ، أما حسن التربية الانكليزية السكسونية ورجحانها على التربية الفرنسية ، فهى قائمة فيما أوتيه بعضهم من الصفات الشخصية مثل المروءة وحسن الخلق والخصافة والبداهة والجرأة والاقدام على المشروعات والاكتشاف والافتتاح والمخاطر . فبدلاً من أن تنمى فرنسا فى نفوس أبنائها هذه الصفات تغرس فيهم ملكات حب التآلف والاجتماع . تبث فيهم التأثير بدل المروءة . وتبث فيهم الخشية من أقوال الناس فيشاكل المرء الجمهور بأقواله وأفعاله بدل تنشئتهم على خلق يبقى فيه الانسان مستقلاً بنفسه . وبدل الخصافة التى يتأتى بها المرء ايجاد الاشياء بذاته تقوى فيه ملكة الذاكرة التى تعيد عليه ذكر الاشياء التى يحفظها مما عثر عليها غيره بالتجارب ، وعوضاً عن البداهة التى يتمكن بها المرء من تطبيق ما وجدته بنفسه تبث فيه الثقة فيصبح عرضة لاغراض حكامه . وبدل الجرأة تبث فيه الحذر وبدل الاقدام على المشروعات والفتوح والاستنفاض (فتح البلاد) تبث فيه ملكة الاقتصاد والسلم وحب السكن . وبدلاً من اقتحام المخاطر تحسن له الرضى بالاستخدام . »

ثم أجمل الكلام هنا على الفلاحين والصناع والتجار والعملة من مجموع الامة الفرنسية و انتقل الى الخيار من قومه وعنى بهم العلماء والفلاسفة وأهل البصر فقال مستنداً الى أقوال العلماء :

(١) اميرسون Emerson فيلسوف أميركى مات سنة ١٨٨٢

(٢) هيكل Hegel فيلسوف ألماني مات سنة ١٨٣٥

« ان دماغ الجنس السكسونى متمدن ومحدود، وذكاه تحليلى وجنسه جنس العمل والكبد وعلى عكسه دماغ الجنس الفرنساوى فانه موسع وذكاؤه تأليفى وهو خيالى يعشق التصورات وبالجمله يعنى الجنس الاول أبداً بالحقائق على حين يفضل الثانى الافكار والخواطر، يجيد السكسونى فى الغالب القيام على الاعمال المادية وبعض الفرنسيين يحرزون قصب السبق فى ميادين الذكاء المتسعة الاطراف

« ألا وان قيمة الجنس السكسونى بمجموعه وقيمة الجنس الفرنساوى بخياره فالفرنسى المتوسط لا يساوى الانكليزى المتوسط والفرنسى العالى يساوى أكثر من انكليزى عال ولكن الخيار من الفرنسيين لا يشغلون المكانة التى يستحقونها لانهم مغلوبون للاخلاق الحالية لم يستوفوا شروط النفع ولا أتموا أدوات التهذيب

وأصح طريقة يجب على فرنسا سلوكها تحسين تربية خيارها وتربية أفرادها ومزج الخاصتين السكسونية والفرنسية وتطبيق تربية جمهور الانكليز على تربية خيار الفرنسيين ليأتى الغد وفرنسا من وراء هذه التربية شعب صغير كالشعب الأثينى يهب لها فاتحين ذوى أفهام، ورجالا صحاح الاحلام، يساوون الجيوش، ويوازنون كل عدد وعدة، ويخدمون أمتهم خدمة ارخميدس^(١) وينقذون وطنهم انقاذ تيمستوكلس^(٢) . »

« اتكألنا »

يمثل هذا اللسان يخاطب الكتائب الفرنساوى أمته ويقرعها تقريراً أمر من الصاب والعلقم، لتستفيق من غشية تخشى مغبتها وتفلت من الوقوع فى مخالب أسود السكسون لئلا يكون حظها فى الوحود حظ الامم البائدة كالرومان واليونان والفرس والعرب . وما القصد من اراد كلامه بنصه الا ليحصل التمثيل بيننا وبين أمة نشابها فى الاعراض وان كانت أعلى منا جوهرأ .

(١) ارخميدس Archimède أحد مشاهير المهندسين القدماء ولد فى سيراكوس احدى مدائن صقلية حوالى سنة ٢٨٧ ق م ومات سنة ٢١٢ وحاشر الرومان وطنه فدافع عنه ثلاث سنين بقوة بنايات حلية أو ميكانيكية

(٢) تيمستوكلس Themistocle قائد أثينى شهر ٥٣٥ - ٤١٠ ق م

ولعله يخيل لبعض سكان هذه الديار ان الفرنسيين مثلهم في الانحطاط ، وأن لهم بهم قدوة حسنة وأعظم سلوى ، ولكن شتان بين حالنا وحالهم ، ورجالنا ورجالهم ، وحضارتنا وحضارتهم . أمة تشخص الداء وتفكر في وصف الدواء أو تشعر بنقصها وتسعى الى كمالها . وأمة موقنة بأن داءها عين الصحة لا بأس عليها ولا خشية من ناحية حياتها ، يرضيها نقصها فلا تريد استبدال غيره به وكل من محضها النصح رمته بالخلال عقدة الوطنية ، والمروق من عهد الحمية وصدق التابعة

لا جرم ان الرجل الفرنسي أو الراغب في الاستخدام ، لا يشبه الرجل المصري أو السوري أو العراقي مثلاً فان الاول يستعد ليحسن الاضطلاع بما يوسد اليه من أمر أمته ومعظم هؤلاء على نقص في المدارك وانحطاط في الفضيلة يطمحون الى السعادة والسيادة بلا سابق معرفة سوى أوامر القربى أو التقرب ، أو أواخي المؤاخاة والتزلف أو وشائج الدرهم والدينار

ولقد أصبح من الرأي المقرر بين الناس أن كل من ليس له علاقة بالحكام كعضو أصيب بالآكلة لاحيلة فيه الا بالبر أو الموت ، بيد انه لا تثريب على الفقير اذا رشح ابنه لأي خدمة كانت ليرتفع بها من الدنيا ، مادامت البلاد صفرًا من أصناف المعاش الذي يزعج صاحبه عن العيش الاتكالي ويورده موارد الاستقلال ، بل اللوم كل اللوم على رجل يعد من نواصي أهل وطنه وعليتهم وله من العقار والقرى ما يسد عوزة وعوز مئات معه وهو على ماله من الاعتبارين جيله وقبيله يسف الى الاستخدام في وظيفة ليتباهى بها أمام العدو والصديق أعرف رجالاً في إحدى مدن الشام الحافلة له عراقية في محتده ، وأصالة بين قومه وسعة من دنياه ، وتراه مع هذا يصرف نهاره وليله في نيل الزلفى من الامراء كتباً لخصومه ، فيبذل كل عام في هذا السبيل من الصفراء والبيضاء ، ما يكفي لالة ألف نسمة من أصحاب البأساء ، وكلما طعن في السن يزداد غلواً في مبادئه وأصراراً على نكاية أعاديته ، وهو دائماً أجول من قطرب واشغل من ذات النحيين ، ومساعيه أبداً مخففة ، وآماله مخيطة . وهكذا حال خصمه اللدود له مال وبنون ومقام بين أهل حيه كريم ولكن لا يهدأ له بال الا بالجلوس على

أرائك الحكم ، ومقاعد التصدر ، يتلمس لبنيه اذناً بملازمة الدواوين . مزاحمة
لأولاد الفقراء ليستأثروا بعد بالزواتب دونهم ، وينالوا المعالي بنفوذ والدهم
عفواً صفواً

ولو عقلالاستعاضاعن التلهى بهذه السفاسف بأدارة شؤون مزارعها الواسعة
وتحسين طرقها وتنمية غلاتها وثمراتها ولكن هو حب الرئاسة يستلب الالباب
وفي الامثال « يا حبذا الامارة ولو على الحجارة »

ولطالما سمعنا أن فلاناً غادر سكنه ومسكنه ، تاركاً دخلاً يكفيه وعياله لأن
يعيش عيش الاستقلال فيוכל به من يسرق نصفه لينتظم في سلك الموظفين
ويأخذ من استخدماته ما يوازي النصف الذي فقده بغيابه ويفتدى من دماء
الامه سحتاً بجثاً وحرماً محضاً ليقال عنه انه من الموظفين ويخطب بالفضيلة
والسعادة ثم اذا كثر سواد أقرانه يقضى حياته قلق الضمير ، وربما أفتق كل ما
يملكه من ثرات آبائه ليرتقى الى وظيفة أعلى من وظيفته ، ويسبق من سبقوه
أو هم لاحقوه . وما الموظفون في الحكومات الاستبدادية براغبين أن يعدوا
من ممثليها ليحموا ما يملكونه من اعتداء المعتدى وتعسف الظالم كما هي دعواهم
بل ليكونوا جلادين في تلك الدولة ويسوغ لهم أتيان كل منكر ارادوه بلا وازع
ولا رادع .

ألا وان الامثال لكثيرة على من آثروا العيش الاتكالي ورضوا بالاسفاف
الى الدنيا كاصحاب الاوقاف ممن يرضون بالكفاف من العيش ويقنعون بدريهمات
تأتيهم من وراء أجدادهم ، أضف الى زمرةهم من حبسوا أنفسهم في الصوامع
والجوامع مثل المدرس والمؤذن والخطيب ممن يكتفون بالنزر من المشاهرات
يقبضونها ببذل ماء الحيا ، ويصرفون لاجلها من الاوقات ماله صرفوه في بيع
الثرى لا ثروا به ، ثم يقبون ما يأتيهم من أجور الطلاق والمنكحات ويتلهظون
بطعام الولائم والوضائم ويقنعون بتقبيل الايدي ومصافحة المريدين . وكذلك
حال الرهبان والقسيسين وسائر من يتصرف باسم الدين ، وهم فائضون عن الحاجة
فكلهم يتقربون بالفاقة الى مولاهم ويستوكفون أكف الصدقات ، وينتظرون
قيم الصلوات والدعوات ، وهذا الخلق مستحکم من المسلمين بحكم التربية أكثر
منه بغيرهم من الطوائف

اليك شرح الاتكال المجسم الذي شكاه منه كبار الفرنسيين ، وهو عندنا في أرق درجاته ولا نشكو ولا نتبرم ، وأما شكواهم من كثرة المرشحين للحرف الأدبية فيقاله شكوانا من قلمهم اذ لم نقل من فقدهم — يعموزنا الصحفي العلامة ، والطابع الماهر ، والطبيب النطاسي ، والمحامي الحاذق ، والاقتصادي المدرب ، والرياضي المنجذ ، والطبيعي المتعقل ، والمهندس الفطن ، والسائح الثابت ، والممثل الفاضل ، ممن تبرم بكثرتهم في فرنسا صاحب سرتقدم الانكليز السكسونيين ، ولكننا نحن في غنية عن هذا العدد الدثر من الحاجب والكتاب والمصاحب ، والجاسوس والمسجل ، والرئيس والمرعوس ، بل وألوف مؤلفة من اصحاب الرواتب بلا عمل الذين يأكلون مال الأمة بالباطل ، ويعيشون على مانتقها حملا ثقيلا ، فلاهم بوجودهم ينفعونها ، ولاهم عن مفرها غافلون أين حال الأغنياء والأعيان المتهافتين على المناصب في بلادنا من أهل تلك الطبقة في انكثرا مثلا حيث الحكومة تخطبهم ، والشعب يطلبهم ، وشتان بين خاطب ومخطوب

كتب أحد سراء بريطانيا الى صديق له يقول : دع الناس يطلبون الارزاق من الدولة فانا لا أنجو منجاهم لاني أقدر أن أكون غنياً بقسامى عن الدنيا ، ولا أرتضى أن أشين خدمتى لوطنى بفوائد ذاتية فاني أعمل في بستاني بيدي وأجترىء بالقليل من النفقة عن الكثير

وهو كما رأيت كلام من يوقن ان الامارة ليست بمذهب طبيعي للمعاش بل كلام من ارتقى وتهذب وعلم علم اليقين أن الحكومات ليست الا خادمة للأمم وار الشعب في غنية عنها ولا غنى لها عنه ، فتى يكون مثل هذا القول لسان حال أعيان بلادنا حتى لا يكونوا على أمتهم أضر من العث في الصوف والدودة في الكرم ، ولكن المشاركة انغمسوا في مضال الجهالة منذ قرون حتى أصبحوا يقدسون حكامهم ومن انتسب اليهم وغالوا في تعظيمهم الى أن بلغوا بهم منازل الالهية ، وأنشأوا يستحلون لهم المحارم ، ويطلقون عليهم ألقاب الربوبية وما برح الناس يبحثون عن داء المجتمع الانساني ، ويصفون له الأدوية وهو لا يزداد الا تفشيا ، وقد أعضل ما يسميه الغربيون بالمسألة الاجتماعية حتى حار

في طمها رجال العلم والسياسة وأصبحت شغلا شاعرا لاهل المدارك السامية .
ولذا قال صاحب سر تقدم الانكليز السكسون : ليست المسألة الاجتماعية عبارة
عن مساعدة الافراد كما أن مسألة الحياة لا تقوم بكثرة تناول الأدوية والعقاقير
اذ ليست المساعدة أو العقاقير من وسائل الحياة الطبيعية وليست الحكمة الا
ما أدت الى الاستغناء عن تلك الوسائل الصناعية . وليس من حل للمسألة الاجتماعية
الا جعل الافراد بحيث يستطيع كل فرد منهم أن يقوم بأمر نفسه ، وأن يرتقى
بجده وعمله لان سلامة الاجتماع كالسلامة الأخروية تقوم بكل واحد على حدته
وعلى كل واحد أن يسعى اليها ، وقولى هذا لا يروق في أعين الذين اتخذوا
السياسة حرفة وغيرهم ممن طلبوا رزقهم من انحطاط الأمة ، وضعف مدارك
الطبقات النازلة ، وكانت منفعتهم في بقاء الناس دائما على حالة يشبهون فيها
القاصرين حتى يتيسر لهم أن يكونوا عليهم أوصياء .

ونحن لو استشهدنا التاريخ لرأينا اجدادنا كانوا في منازع حياتهم أشبه
بالجنس السكسوني لا يعرفون مع بسطة الجاه واتساع الثروة والملك الا النشأة
الاستقلالية بعيدين في كل أطوارهم عن السرف والترف فقد اشتهر من سيرة
الصديق الاكبر رضى الله عنه انه كان يغدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع
وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما رعت له وكان
يحب للحي أغنامهم . فلما بويح بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحب لنا منائح ^(١)
دارنا فسمعها فقال : بلى لعمري لا حبلنبا لكم وانى لارجو أن لا يغير بى
ما دخلت فيه . فكان يحب لهم . ثم قال ما تصلح أمور الناس مع التجارة وما
يصلح الا التفرغ لهم والنظر في شأنهم فترك التجارة وقيل أراد الصحابة على
تركها وانفق من مال المسلمين ما يصلحه وعياله يوماً بيوم فكان الذى فرضوا له
في كل سنة ستة آلاف درهم وقيل فرضوا له ما يكفيه فلما حضرته الوفاة أوصى
أن تباع أرض له ويصرف ثمنها بدلا مما أخذ من مال المسلمين .

ولما فرض عمر بن الخطاب رضى الله عنه العطاء قال للمسلمين انى كنت امراً

(١) منحه الناقة جعل له وبرها ولبنها وولدها وهي المنحة والمنيحة

تاجر أغنى الله عيالي بتجارتي وقد شغلتموني بأمركم هذا فما ترون أنه يحل لي في هذا المال ، وعلى ساكت فأكثر القوم فقال : ماتقول يا على ؟ فقال ما أصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فأخذ عمر قوته . وإن لنا في غير هذين الامامين من رجال سلفنا الصالح الاسوة الحسنة في فضيلة الاستقلال وترك الاتكال ولنا الاسوة في الامم الحية لعهدنا التي نرى آثارها باهتين شاخصين ، فالعبر بين أيدينا ومن ورائنا وعن أيماننا وشمائلنا ولكننا لا نعتبر

الهجرة

أربعة أحوال تعمل في تكثير سواد الامم : الهجرة والاستيطان والولادات والوفيات وبنقيضها تقفر البلاد وتقل الامم . ومحور الهجرة يدور في الاكثر على تحصيل القوت والفرار من ظلم خصوصاً أيام كانت المجاعات في القرون الاولى والوسطى من أكبر العوامل المهددة للشعوب وكانت تغذية الجماعات الكبرى منطقة بمحصول السنة حتى كان تأخر وصول الحبوب المشحونة في البر والبحر يحدث مخاوف هائلة ويثير مناوشات وثورات . وكانت الفوضى والحروب تجعل المواصلات صعبة أو متعذرة ويهلك سكان المدن جوعاً . وتحتكر المدن الحبوب في أماكن خاصة وتدخرها لحين الحاجة أما سكان القرى والارياف فكانوا يقاسون الامرين ولا يجدون غير الهجرة باباً لنجاتهم بارواحهم وأرواح ذرايعهم وهذا مادعا الي اقفار كثير من الاصقاع في الشرق والغرب لان من ولد من الاسر المهاجرة لم يواز عدد من فقدتهم البلاد بهجرتهم لها ^(١)

جاءت ازمان على البشر كان الشرق أو أفريقية وآسيا أعمر من الغرب وكانت آسيا تقدم كثيراً من أبنائها ليكونوا جنداً في الجيش الروماني ورومية كانت حاكمة على معظم أصقاع أوربا وجزء كبير جداً من آسيا وأفريقية وسلطانها فوق

(١) كتاب الشعوب والاخلاق تأليف هنري سكريتان

كل سلطان ومملوك تلك الايام الا اقيال يخضعون لصولجان رومية . وقد كنت ترى أناساً من بلاد الشام في كل مكان كما تراهم الآن وكان منهم في جيش جرمانيكوس القائد الروماني عدة كتائب عند ما حمل حملته على الرين .

قال سكريتان : ان القرون الوسطى باقطاعها وما كان فيها من الخصوصية والأخلاق الوحشية وقلة المواصلات والحياة الزراعية والصناعية الاهلية وتنوع اللهجات وحكومة الجماعات Polyarchie والاشمئزاز من الحياة والتشتت السياسى الذى هو من خصائص تلك القرون كل ذلك مما يتمثل لعينى بقلة الرجال وطول اقفار البلاد فاقفر العالم الرومانى وظل الشعب زمناً على نسق واحد ثم زاد بالنشاء المدن وتوطيد دعائم المركزية السياسية التى تسهت أسبابها بنمو الموارد الاقتصادية والايدي العاملة التى أنشأتها . ومن المدن تنبعث أبداً حركة تنظيم القوة العامة . فصاحب الاملاك يعيش بما تدر عليه املاكه على حين تضطر المدن أن تطلب ذلك من التجارة وأن تضمن حقوقها في البلاد القاصية بتأمين السبل والتجارة .

قال وما المصانع العظمى التى قامت في القرن الثالث عشر للميلاد وما تلك البيع والمعابد الا أثر من آثار زيادة السكان في أوروبا وان الناس أصبحوا يهتمون لامور أخرى غير حفظ حياتهم مباشرة . والسكان من العوامل الضرورية في التبدلات السياسية . وعندنا ان الشعب هو أرض التاريخ الذى تنبت فيه الاوضاع والافكار . ولما نمت النفوس منذ القرن الحادى عشر في حمى أسوار المدن والمقاطعات المنظمة ظهرت قوة جديدة أمام الاقطاعات وانتهى التماسك السياسى بقيام المدنية الحديثة وأدى نمو السكان نمواً عاماً بقاعدة الانتخاب الطبيعى أي الافضل والاحسن الى شكل جديد في الحياة وتحسين الاخلاق وتدميشها وكثرة السكان شرط في قيام المدينيات العليا وفي تأسيس الاملاك العظمى وهى التى تزيد حياة البشر حركة وغنى وبهجة .

نعم كثرة السكان شرط في الحضارة ولكنها اذا بلغت درجة تؤدى الى قلة سريعة في المواليد ربما كان فيها الخطر على المدنية . والمدينيات لا تقوم الا في بعض أدوار التاريخ على ان الرفاهية العامة والامن اللذين هما من أهم العوامل في المدينيات

الكبرى قد يكون منها قلة عدد المواليد وهذه القاعدة تجرى في كل مكان اليوم في المانيا وايطاليا وانكترا وقد كانت فرنسا أول من وصلت الى هذا المعدل فتعدلت وفياتهام مع ولاداتها مع أن فرنسا كان عدد سكانها في أواسط القرن الثامن عشر عشرين مليوناً وانكترا ثمانية ملايين واسبانيا ثمانية وايطاليا عشرة و المانيا كلها مع النمسا وتوابها اثنتين وعشرين مليوناً وروسيا في أوروبا اثني عشر مليوناً وقد زادت كلها على كثرة من هاجر منها الى أميركا في القرون الثلاثة الأخيرة ومع هذا زادت كل مملكة ولكن زيادة بلاد الانكليز والجرمانيين كانت أهم وأعظم فبلغت بريطانيا العظمى اليوم نحو خمسة وأربعين مليوناً وفرنسا نحو أربعين مليوناً و المانيا خمسة وستين مليوناً والنمسا والمجر خمسة وخمسين مليوناً وايطاليا خمسة وثلاثين مليوناً واسبانيا ثمانية عشر مليوناً فمنها ما تضاعف ثلاث مرات ومنها مرة ومنها مرتين .

وقد نفى سكريتان أن تكون قلة السكان ناشئة من فساد الآداب وقال : ان الروس باقرارهم أنفسهم من أعظم الموغلين في المفساد والموبقات ومع هذا يزيد سكان الارياض عندهم . والسبب في قلة المواليد هو في الحقيقة ارادة الرفاهية . الولادة لا تشكو من الفقر ولا من حرية الفكر ولا من حرية الاخلاق وما خرابها آت الا من كثرة الحذر الذي هو ابن الطمع .

عرف السوري منذ القديم بحب الهجرة للسكسب واحراز المجد والفينيقيون أو سكان الساحل الاوسط من هذا القطر كانوا رواد الحضارة وربابنة البحار في سواحل البحر المتوسط حتى بلغوا شطوط الجزر البريطانية في أقصى شمال أوروبا وانشؤوا المكاتب التجارية في جنوبي القارة الاوربية وشمالى افريقية وكان من أخلاقهم ما يشبه هذه الاعمال والهجرات ولا سيما على عهد الحكومة الرومانية حتى اذا جاء الاسلام كانت منهم جيوش وقواد وقضاة تسافر الى القاصية ورجال الشام كانوا في مقدمة الفاتحين للاندلس في الغرب وهم الذين فتحوا الفتوح في الشرق وأوغلوا فيها حتى وصلوا الى بكين عاصمة الصين وضربوا الجزية على صاحبها . وبعد فان فتن التتار والصليبيين أضعفت حال البلاد وقللت سكانها خصوصاً

على عهد حكومات الاقطاعات الظالمة فقلت الولادات وكثرت الوفيات والامة المظلومة في الغالب يضعف تناسلها ويكثر الموتان في أولادها بل تنذر النضرة في وجوه أهلها ولم تقصر الحوادث السماوية في انتياب هذه البلاد فكانت الزلازل والابوثة تحصد أهلها بالالوف وما بقي منهم يهلكه الظلم ، وقلة العلم .

حتى اذا جاء القرن الماضي ونشر خط كلخانة ووضعت التنظيمات الخيرية ودخلت البلاد العثمانية في طور أحبت فيه احتذاء مثال الغربيين في ادارتها وضعفت سلطة العمال بعض الشيء وقوى ارتباطهم بالمركز خصوصاً بعد انشاء الاسلاك البرقية التي سهلت وصول الشكاوى الى العاصمة بعض التسهيل وأخذ الفلاح يأمن على زرعه وضرعه بالنسبة لماضي والتاجر في المدن قد تنجو من البوائق متاجره وكثر بعد حوادث سنة ١٨٦٠ اختلاط أهل هذا القطر بالغربيين وأنشأت الجمعيات الدينية مدارسها الراقية في المدن والقرى . بعد كل هذا عادت النفوس تنمو خصوصاً في لبنان بعد نظامه الجديد وارتفاع أعلام الامن في ربوعه وأصبح من الندرة الاغتيال والاقتتال فيه فكثرت نفوسه .

واذا كانت زراعة لبنان ضعيفة تعد بين الزراعات في الدرجة الثالثة أو الرابعة لم يقيم بمعاش سكانه فخذوا يهاجرون أولاً الى البلاد القريبة منهم ولما تنوفات الانباء عن نجاح جماعة من تجار بيت لحم في أميركا سمت الهمة ببعضهم الى السير على آثار من سبقوهم وساعد على ذلك اتصال آسيا بأفريقية وأوروبا وأميركا بالبوادر فوفق بعض من هاجروا من لبنان الى جمع جانب من المال فاشتتروا بين قومهم نجاحهم وأخذ يتبعهم في خطتهم الاقرب فالاقرب من سكان البلاد وكان أهل الجبال وهم معتادون القلة وشظف العيش في الجملة هم الناهضون لهجرة بلادهم . ولم تمض بضعة سنين حتى سرى داء الهجرة الى الاصقاع المخصبة من أرض الشام مثل وادي الاردن ووادي العاصي وسهل البقاع وسهل حوران فخارها جبل لبنان وجبل عامل وجبل حرموني وجبال عكا وجبال اللكام وجبال الخليل واشترك السهل والوعر في الهجرة ونال من آثارها دمشق وبيروت وحلب والقدس كما نال أحقر قرية .

واشتهر في الاكثر من ارتاشوا واغتنوا وآبوا الى بلادهم فعمروا لهم دوراً

على الطرق الغربية واقتنوا الاملاك وأقاموا العقارات وأخذوا بحظ من الرفاهية ونسى الناس أو لم يذكروا من هلكوا وتشتتوا فما عثمنا وقد حسبنا الراحل عنا والراجع اليانا الا وقد أصبح المهاجرون زهاء أربعمئة ألف رجل على أقل تقدير من السكان مهما بالغنا في تقديرهم وعددنا في جملتهم بعض البوادي لا يبلغون أكثر من أربعة ملايين وقدر بعض الصحافيين عدد المهاجرين من السوريين بخمسمائة وسبعين ألفاً وغالى بعضهم فقدرهم بزهاء مليون ويمكن أن يجاب عن هذا التقدير الكبير بالاثـر الحادث عنه أى باضافة عدد من الاولاد الذين كانوا يولدون لهذا القدر من المهاجرة لو بقوا في بلادهم من أزواجهم أو تزوج العزب منهم في السن المعينة للزواج في هذه البلاد .

خسرت البلاد من وجهين في الجملة وربحت من وجهين خسرت البلاد من عمل هؤلاء الشبان المتغيبين سنين عن أوطانهم وعن تعطلهم عن التناسل وربحت مما حملوه الى الشام من النقود والتهذيب الغربي ولكن الخسارة أعظم بدليل أن الثروة هي العمل لا النقود كما يقول علماء الاقتصاد وأن التهذيب الذي حملوه ناقص لانه علمهم أموراً رفعت من شممهم فلم يعد يستطيع المهاجر أن يقيم في قريته اذا آب اليها بعد تغيبه عنها بضع سنين اذ يرى الفرق محسوساً بين ما شاهد في بلاد غيره وعهد في بلاده ويتأفف من عمله الصغير في الزراعة أو الصناعات الضعيفة فلا يلبث أن يعود أدراجه الى أميركا ويختار الموت هناك على البقاء في أرض ذلة وقلة .

ولذا لا تعجب اذا رأيت مئات من الدور الفخمة التي عمرت بدراهم أميركا في هذه الديار خالية من سكانها يلعب فيها الجرذ والفار ولا من يقطنها لان بناتهم عادوا فرحلوا اما طلباً للثروة غير التي نالوها وصرفوها كلها في انشاء دورهم واما لضيق صدر ناهم من سوء ادارة وفساد نظام وهذا قليل .

قال قنصل فرنسا في تقريره الاخير على بلاد الجليل : ان هؤلاء المهاجرين ينفعون بالايجور التي يؤدونها لشركات الملاحة ولكنهم يضررون البلاد في ارتقاءها الاقتصادي اذ يحرمونها من الايدي العاملة وقد نجحوا بأن أسسوا في البلاد التي هاجروا اليها (أميركا الشمالية والجنوبية وأستراليا وأفريقية الجنوبية أو مصر)

مستعمرات مهمة للغاية وكثير ممن غادروا بلادهم حفاة لا يملكون أجرة المركب الذى يقلمهم وهم فى الدرجة الرابعة قد عادوا اليها يحملون الدنانير فى جيوبهم أو الاوراق المالية . وقد اقتبسوا الاذواق والعادات الغربية وأنشأوا يستخدمونها فى بيوتهم وهم يبتاعون الاراضى وينشئون الزراعات الكبرى وأكثر العائدين منهم على ما أظن هم اللبنانيون والبقاعيون .

قال : وأما سبب الهجرة فلارتفاع وصاية الحكومة عليهم ولعدم قوانين لحماية الزراعة ولندرة معاهد المعاونة والاحسان ولارهاق العشارين والمرابين ولكسل لا ينفذ غباره الا بالافلاخ عن البلاد وحباً بالارباح السهلة واقتداء بمواطنيهم المغتربين ولجذب البلاد الجديدة لهم . وبينما نرى الوطنيين ولا سيما من سورية يهاجرون نرى الاجانب يهاجرون اليها ولا سيما فى فلسطين (أى الصهيونيين) اه .

وبعد فقد كانت الهجرة مقصورة بادىء بداء على المسيحيين فأخذ اخوانهم المسلمون يقتفون آثارهم وكثر المهاجرون من جميع الطوائف فى السنين الاربع الاخيرة عند ما طبقت الحكومة قانون الجندية على عامة شبان هذا الوطن فكان الوالد يسفر ولده فى العشرين والخامسة والعشرين فأنشأ يرحله اليوم فى الخامسة عشرة بل وفى الثانية عشرة لينجو من الخدمة العسكرية أو ليجمع بدله النقدى قبل أن تصيبه القرعة وبعد أن تقام شر الهجرة فى العهد الاخير أرادت الحكومة أن تمنع الشبان من السفر فكان ذلك مورد عيش جديد لارتشاء بعض الولاة والمتصرفين والقائم مقامين ورجال الشرطة وكثرت ستماسة المهاجرة حتى لم يتركوا مزرعة الا ولجوها وأخرجوا منها أعزة أهلها وسهلوا لهم سبل الهجرة ووجد حتى الفقير المعدم من يقرضه على أن يوفيه من عمله فى ديار المهجر وزادت المنافسة بين شركات الملاحة فأصبح السفر ميسوراً من بيروت الى نيويورك بعشر ليرات وزاد الصادر وقل الوارد . وكلما أمل المؤمنون أن تهدأ أحوال البلاد تعقدت مشاكلها الداخلية والخارجية وانتشرت عن البلاد أخبار السوء فتأخر عن العودة اليها أبناؤها الذين هجروها .

هذا والحكومة لم تتذرع بأذى سبب لنزع هذا الخلل فى حياة البلاد من

أصوله بل ان النوائب الاخيرة التي صادف وقوعها في عهد الدستور لم تزد البلاد الا فقراً اذ اضطرت الحكومة أن تزيد الضرائب والعشور والرسوم فضعفت الزراعة وأكثر من ثلاثة أرباع هذه الامة تعيش من أرضها وارتقت أجره العامل الى أعلى من منسوبها فاصبح في بعض الاصقاع الزراعية من المتعذر القيام بأعمال الزراعة على ما ينبغي لصاحب ملك ومزرعة لأنه اذا أعطى العامل في اليوم ثلاثة أرباع الريال أو الريال لا يبقى له في آخر السنة ما يوازي نصف أيجار أرضه ولولا أن بعض البلاد التي أعوزتها اليد العاملة مثل البقاع استعاضت عنها بما جلبته من الآلات الزراعية الحديثة كالخصادة والدراسة والحراثة والذراية والطحانة لأمست زراعتها بائرة ولوجرى أهل هذا القطر على سنة أهل أطنه (أذنة) في قليقية من آسيا الصغرى وأكثروا من الادوات الحديثة ثم لهم الغنى وعوضوا ما فاتهم من عمل العاملين ولعاد جديبها خصباً ونالوا من أسباب الثروة حظاً عجيباً .

اذا قدرنا ثروة السوريين في مصر والسودان وأميركا وكندا وأستراليا والترنسفال ومدغسكر والسنغال بمئة مليون جنيه^(١) وهو أقل تعديل لان نصف هذا المبلغ يملكه السوريون في مصر فقط وفرضنا أن نصف المهاجرين أحبوا العودة الى أصقاعهم يحملون خمسين مليون جنيه من النقود وما زكنوه وتعلموه من أساليب الصناعة والزراعة والتجارة فتفتح بالطبع موارد اقتصادية جديدة في البلاد اذا صحت قبل كل شيء نية الحكومة عل توطيد دعائم الامن واحقاق الحق وذلك باختيار طبقة راقية من العمال والضرب على أيدي الجاهلين والمرتشين منهم .

نعم اذا قامت الحكومة بواجبها الاداري تستميل المهاجرين الى العودة وتحجب اليهم بلادهم التي يؤثرون أن يكون لهم في ربوعها من المغام نصف ما يتمتعون به في ديار المهجر فتقوم سورية وحدها بعد بضعة سنين بسد العجز من ميزانية الدولة العامة مهما كان مقدارها .



(١) لا تقل في الحقيقة ثروة المهاجرين من الشاميين عن ثلثمائة مليون ليرة ذهب

وبعد فيكاد يكون في درجة الثبوت ان البشر نما عددهم منذ عرف التاريخ على الرغم مما نالهم من الطوارئ التي ذكرها التاريخ من مثل الحروب والأوبئة أو الاسباب الاخرى التي تفقر النمو وتقلل التناسل . ومع هذا فقد كان النسل كثيراً في أوروبا منذ بضعة قرون وان كان يكثر موت الاولاد في الطفولية أكثر من اليوم وتلهم الاديار جانباً من الرجال والنساء يتعطلون عن التناسل وليس ترك الاريف والقرى ونزول الحواضر والمدن مقصوراً على بلد خاص أو صقع معين بل هو ظاهر في كل مكان في البلاد الاوربية القديمة مثل سويسرا والمانيا وفرنسا وانكلترا وزوج والبلجيك وهولاندة ظهوره في البلاد التي أخذ سكانها بالنمو مثل الولايات المتحدة وكندا واوستراليا فترك الاريف عام يشترك فيه جميع الاجناس : السلتيون كاللاتين ، والسلافيون كالروس والبلغانيون ، والسكسونيون كالانكليز ولا يظهر أن للاوضاع السياسية والاجتماعية دخلا فيه وما من حكومة من الحكومات خالية منه حتى أن طريقة تقسيم الاملاك لا تمسك الانسان في الحقول وليس في قوانين الموارث ما يظهر انه أسس من غيره فقد خضعت لسلطان الهجرة حتى البلاد المتماسكة الاجزاء مثل فرنسا وانكلترا والمجر وروسيا والولايات المتحدة واوستراليا والارجنتين فان أصقاعاً كبيرة استعمرت منذ زمن طويل في الولايات المتحدة ولاسيا ولايات انكلترا الجديدة قد خضعت لهذا النظام فترك أهلها قراهم لينزلوا الحواضر يسكنونها فنمت بذلك المدن نمواً هائلاً بالنسبة لمجموع البلاد فقد بلغ سكان مدينة بونس ايرس عاصمة الجمهورية الفضية مليوناً وثلثمائة الف في حين بلغ سكان جميع هذه البلاد ستة ملايين نسمة تدخل فيها العاصمة ومساحة أراضي الارجنتين خمسة أضعاف مساحة فرنسا وهكذا تجد النمو بادياً في مدن الولايات المتحدة كنيويورك وشيكاغو وفيلادلفيا وسانلوي وسنسيناتي وبوسطن وسان فرانسيسكو وستل وأورليان الجديدة كما هو باد في ملبورن وسدني من عواصم أستراليا

هذا ما قاله أحد الاقتصاديين في جريدة الاقتصاد وعقب عليه بقوله تحمل رؤوس أموال كثيرة من العالم القديم أي من أوروبا تستثمر في العالم الجديد فالمليون من الفرنكات يستثمر في أرض فرنسا فيعود بربح سنوي يختلف بين ثلثمائة

أو مائتي ألف فرنك اذا حسبنا جميع الايدى التى تتناولها فتربح منه على حين لو جرت تنمية هذا المليون فى البلاد الاجنبية لاتعود من الفائدة بأكثر من ٤٠ الى ٤٥ ألف فرنك .

ان من يهاجر الى القاصية كمن يتركون قراهم ليستوطنوا المدن المجاورة يبحثون عن رفاهية أسمى مما تمتعوا به ويظنون بأنهم يحققون أمانهم فى النجاح بانتهالهم الى محيط يصرفون فيه قواهم بما يعود عليهم بالنفع أكثر ومعنى ذلك يدور على البحث عن أجرة أكثر وهذا هو الباعث الاول على هذه النقلة بل الباعث الوحيد فالاجور هى العامل الوحيد الذى يدعو الناس الى التنقل فى عصرنا أما حب الهواء الجيد والحياة الاجتماعية ولطف الاخلاق وسلاسة العمل فليس لها محل من الاعراب فى جملة هذه الحال

ترى العامل فى الولايات المتحدة وأستراليا ينتقل من المدن الى القرى وبالعكس لان الاجور واحدة فى الزراعة والصناعة وكلها رابحة والقاعدة العامة فى ذلك ان المدن والقرى تمسك السكان متى كانت أجورهم مضمونة وحالتهم مأمونة فقد قل المهاجرون من المانيا منذ كثرت صناعاتها ونمت بحريتها وتجارتها ويقل المهاجرون من المجر وروسيا وايطاليا متى حسنت حالة الزراعة فيها وانتظمت أسباب التملك وجودت الاسباب الاقتصادية أى الاجور فاذا كانت البلاد الجديدة تستميل اليها المهاجرين بمئات الالوف بل بالملايين فذلك لانها توزع أجوراً عالية وأوربا وانكلترا وفرنسا واسبانيا وايطاليا وروسيا والمجر تبقى اليد العاملة فى الحقول اذا ارتفع سعر الاجور الزراعية وذلك لا يكون الا بتنويع الزراعة وتكثير المحاصيل والمواشى وتكثير الايراد ولو قلت أسعار الحاصلات

ان هولاندة التى نعتبر مجموعها أرضاً فقيرة لان فى استثمارها صعوبة قدكثر سكانها اليوم كثرة زائدة بفضل عملهم بحيث حق على الهولانديين ما قاله فرنكلين « بالقرب من رغيف الخبز يولد رجل » والمرء كلما دفعته الحاجة يحسن الاحتياى على المعاش وأميركا وأستراليا الى اليوم لم تستثمر من أرضها خيراتها كلها بل ان خصبها هو المساعد فقط على العكس فى غربى أوربا فان العمل هو الذى يستثمرها وبعد فان المجتمعات لا تتحرك بالنظريات بل بالعمليات وكل نظرية تخالف المصالح

الحاصلة المبنية على العدل لا يتأتى أن تجرى في العمل الا اذا جعلت هذه المصالح قيد النظر

الهجرة الى مصر^(١)

اذا كان أصلي من تراب فكلها بلادى وكل العالمين أقاربي
دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها
ويسيطروا على المخلوقات كلها ، فالارض هي المنزل العام يجلس أهله في أى ناحية
منه أحبوها وراقهم . ويتنقلون في بقاعها وأصقاعها ، ووهادها ونجادها ، وسهلها
وحزنها ، وبحرها وبرها ، على حسب ما تقضى أحوال الصحة ، وطبائع الاجسام ،
وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً وأقاموا قرطجنة ، عمروها وغيرها من شواطئ
البحر الرومى ، وهاجر الفوط من جرمانيا الى جنوبى أوربا وداهموا المملكة
الرومانية ، وهاجر الروم من بلادهم الى شواطئ البحر المتوسط وجزره وشواطئ
البحر الاسود وبلادهم وعمروها . وكثير من الامم أمثالهم غادروا مساقط
رؤوسهم ، واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت فى العهد الحديث أمم كثيرة ، وأهم هجرة وقعت هجرة الاوربيين
الى أميركا ، عمروها بجنسهم الابيض بعد أن كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك
هجرة الهولاندين الى جنوبى أفريقية وهجرة الروس الى سيبيريا ، وهجرة القافقاسيين
والجرا كسة الى البلاد العثمانية ، وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا ، وهجرة
المسلمين الروسين الى أميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل فى الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة
من طبيعة جزيرتهم يعتمدون اليها طلباً للكلأ والمرعى ، أو للتجار بنتائج مواشيهم
وحاصلاتها ، وأول هجرة فى الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة وأربع نسوة
وقيل أكثر أمرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلاً:

لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين ، وهكذا هاجرت العرب الى فارس ومصر والشام وأفريقية والاندلس والسند وكشغر لما فتحت . ولولا إقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً في قلب آسيا وأفريقية

ولا نزال الى اليوم نشهد أثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى أهل حضرموت في جنوبي الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم جيش البلاد منهم ، ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم ويعتنى بعض أفرادهم ، ونرى النجديين يهاجرون الى الهند في التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها أصحاب كلمة ونفوذ . ونشهد السوريين يهاجرون الى أميركا وأفريقية فيرتاشون ويتأثلون .

وانهميال السوري على هذا القطر (المصري) خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ، ولم تكن القوافل في الاسلام تنقطع في البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر في البحر ، ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداهما مكلمة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندي في صبح الاعشي فصلاً في مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون في القرن الثامن (بستان العالم ، ومحشر الامم ، ومدرج الدر من البشر) .

نعم هي محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر أو المناوحة لها من سيف البحر ، وذلك لان عمرانها طبيعي مستمر في معظم أدوارها ، فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم ، قبل أن تكون نقطة الاتصال بين قارات أوروبا وأفريقية وآسيا بفتح ترعة السويس ، فما بالك بعد أن تم لها ذلك ، فصر والحالة هذه مقصودة من أقطار الارض أكثر مما يقصد أهلها سائر الاقطار ، والامة التي تكثر في الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مغادرتها ، وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة ، فاذا كفيها المرء يصاب بالوفاء وضعف العزائم .

وما فتئ السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل ، فالروم حكموها زمناً طويلاً وكذلك الترك والعرب والجراكسة ، فكان من هذه العناصر أن نزلتها بكثرة وأصبح أكثرهم فيها عمالاً وحكاماً وقضاة ، ورؤساء جند وعلماء ، وأرباب صنائع وتجارة ، ولم تكثر هجرة الأوربيين إليها الا عقيب الاحتلال الفرنسي عند ما بدأ الفرنسيين والطلليان والمجر وغيرهم من أمم الغرب يهبطون إليها ، وقد كثر سوادهم على عهد الخديوي اسماعيل لانه فتح أمامهم طرق الهجرة ، وأحسن معاملتهم ووفر لهم المغام وطرق الكسب :

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على أزمة الاعمال أخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق ، حتى انك لتجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات أناساً أسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية ، وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم ، وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه أي بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والطلليان والفرنسيين فان فيها من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم ، وحال مصر اليوم مع المهاجرين إليها يختلف عن حالها مع أمثالهم في القرن الماضي لان ثقة الامم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذي قامت عليه حضارتها اليوم اساس مالي زراعي . خصوصاً وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على أزمة سياستها سنين في تأسيسه ، واشتهر ذلك عند الخصاص والعام في الاقطار النائية بما يتصل بهم من أخبارها وأخبار من يفتنون من المهاجرين إليها ممن توفرت لديهم رؤوس أموال أو كانوا من أرباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها ، وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلموا يذكرون من أخفقوا ، عادة في البشر ولعلمها من موجبات أقوامهم على الكسب والسكدح في هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة إليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبي ايطاليا القاحلة يهاجرون إليها أكثر من القاطنين في الشمال منها لان شمالي ايطاليا مخصب وأهلها مكتفون بما تجود به عليهم

أرضهم وسماؤهم ، وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومى ولا سيما بلاد اليونان الجديدة وأهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث مهاجر الامم فهى دولة كما يقول الساسة أو مشتركة بين أجناس وأديان شتى ، والتاريخ يشهد انها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها فى كل العصور ، ولين عريكة أهلها ، ولم يحدث هذا التميز بين سكانها الا عندما أراد مهاجرو الافرنجة أن يستطيخوا على أهلها فاحدثوا لهم ما يقال له «الامتيازات الاجنبية» التى تخولهم من الحقوق ما ليس للوطنى مثله ثم كثر توارد الاخلاط عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المصورون العالمون وهم أفراد ، ومنهم المتعلمون المهذبون وهم أكثر ، ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم ، ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء فى طلب غرض يحتمل للوصول اليه ، والغريب فى الغالب يكون اجراً وانشط من الاصيل لان الغربية فى ذاتها اماره من امارات النشاط

وطول مقام المرء فى الحى مختلف لديباجتيه فاعترب تتجدد والامثلة كثيرة فى هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد ما للقاعد من التحول والانتقال ويكفى ان فى لندنرا لهذا العهد وهى مهد الصناعات والارتقاء زهاء مائتى ألف رجل من رجال الالمان استولوا على أعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المتعلم المنور الذى لا يقل عنه فى مواهبه . هذا فى عاصمة انكلترا فما الحال بمصر وأكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن أهل البلاد الباردة التى تبعث النشاط فى قلوب أبناءها وأجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم . وكدهم رأس مالهم . وعتادهم وذخرهم قصدهم واقتصادهم . على حين قد أتت على الوطنى أزمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاصبح لا يقوى على العمل الا اذا عود هزمناً ولقنه بالتعليم والتربية ، وقد فجأته الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد فى الغالب لا يسف الى المكاسب التى يتنازل اليها الغريب فالاول يدل بأرومته أو يعتز بأمتة ، والثانى يذل فى سد حاجته ، ونيل بغيته .

ولما رأت الحكومة المصرية على عهد الوزارة الرياضية أن الوطنى يكاد يفنى

في الدخيل سنت لا أنحة صعبت فيها على النازل في مصر أسباب الحصول على حقوق
الوطني الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير
جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين . فكانت هذه الأئحة غريبة في
بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام في دواوين الحكومة
وحظرت عليهم تعاطي الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى
اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية الحرة ، فافلحوا أكثر مما لو
كانوا حصروا كدهم في الوظائف الاتكالية ولم تحقق عليهم كلمة « مصر للمصريين »
ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب في ذلك أولا منافسة
هؤلاء لأبناء البلاد في احتياز الوظائف ، وساعد عليها ما ألفته بعض الجرائد
المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة ، وهناك أسباب أخرى قواها أرباب
الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التي يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين في محلها كلها
لان من اغتنى بكده أو بطرق غير شريفة فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو تسنى
لابن البلاد أن يعمل عمله ما تأخر ، وبالنسبة خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع
هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويتمزج
بعضهم مع بعض لتحيل بوتقة مصر ذاك الدخيل الى المعدن الذي تريد أن يكونوا
كلهم عليه فقد ثبت أن هذه البوتقة المصرية أحوالت اليها فيما مضى التركي والالباني
والجركسي والكردى والحجازي واليماني والعراقي والشامي والمغربي والسوداني
والرومي والفارسي فأنتى منهم بعد مقامهم قليلا في هذا الوادي مصر يون يغارون
على مصلحة مصر وكثير منهم نفعوها وخدموها بعقولهم وأيديهم أكثر من
خدمة أبنائها لها تحت أسم مصريين . وما كانت قط بقعة من الارض معلومة
الحدود والمساحة وقفا على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح
وتمرح فيها ما شاءت ، فالارض أرض الله ، والناس عباد الله ، وما أحلى بيت
البحثري في هذا المعنى :

ولا تقل أمم شتى ولا فرق فالارض من تربة والناس من رجل
وكل من نظر في نهوض الامم لا يعم أن يرى بأن كل أمة ربيت على كره

غيرها وتجاغت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تحنى من الخسارة أكثر من الربح .
ولقد كانت بغداد من أكبر أمثلة التسامح في البلاد الإسلامية رفعت مقام
الغريب وأحسنست الاستفادة منه فكان يعد بغدادياً كل من دخل بغداد ،
تساوى في ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركياها ، ونسطوريها وروميها ومجوسيها
ومسلميها ، جُمع العدل من شملهم ، وآخت الراحة بينهم ، وعد سواء في النسبة
اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن ، وقد أطن على تكوين هذا المزيج
انتقاء الجنسية في الاسلام ، ورفق المسلمين باهل ذمتهم ، ولولا ذلك ما قامت
تلك الحضارة التي نسبت للمسلمين العرب مع أن أثرهم فيها كأثر غيرهم من الاجناس
والأديان ، ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت ، كالجنود يشقون
في الحرب ثم ينسب النصر لقيادتهم .

وانا لانزال نقول ان من حظ مصر أن تكون البلاد المجاورة لها محتاجة
اليها حتى أشبهت فاس في القرون الوسطى لما تواتر عيث الاعراب على القيروان
واضطربت قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت محمد بن أبي عامر وابنه ، فرحل
من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل
أكثرهم مدينة فاس . قال صاحب المعجب ، في الثلث الاول من المئة السابعة :
ان فاس اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم
أفصح اللغات في ذاك الاقليم ، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب
وبحق ما قالوا ذلك وقال : ان القيروان كانت منذ الفتح الى أن خربها الأعراب
دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكبر علمائه واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم
فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها في كل وجه فنهزم من قصد مصر ومنهم
من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا
مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس
ومصر والشام لما أذن الله بانقراض دولتهم فعدوا من أهلها بل كما رحل الايطالى
والالمانى والاسبانى والانكليزى والفرانسوى الى أميركا لما ضاقت سبل الرزق
في وجوههم فعدوا أميركيين وأنشأوا يخدمون أميركا أكثر من خدمتهم لبلادهم

حتى اذا تناسلوا فيها جاء أولادهم أميركين صرفا . وكلما ارتقت الامم تتطال الى ادماج غيرها في مجموعها ، والامم الافرنجية اليوم أكثر تسامحا في هذا المعنى من الامم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسي : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقيين دون محاشاة أحد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكنائها الى أن مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله عنهم صدروا بعلى وابن مسعود وحذيفة رضى الله عنهم وانما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرأ (قال ابن حجر صوابه أربعة أعوام) وقد بقى ٥٨ عاما وأشهرأ بمكة والمدينة شرفها الله تعالى ، وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بمران ابن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجهرة أعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة ابن الجراح ومعاذ ومعاضة والامر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوى وفي المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر اليها من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا الى غيرنا ملاحظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به .

التفاضل بالبلاد

ألف الناس التمجيد بالبلاد والآباء والأجداد والمال والبنين عادة في البشر تكثر فيهم بكثرة الجهل ، وتقل بانتشار العلم . ولقد كان لأهل هذه البلاد من هذا التمجيد الباطل قسط وافر ساعد على انماؤه في النفوس جهل بعض ولاية

الأمر السالفين واتخاذ هذه الأضاليل حجة على من يريدون مناوأة وارجاعه إلى الطاعة . لطالما خطب الحجاج في أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذاك القطر مثل تلك الصفات . وما كانت هذه المعاملة لأهل العراق السياسية ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولي رقابهم علم وشفقة لسعى السعي الخبيث إلى نزعها منهم بحكم العادة والاسوة والقدوة ، ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس ، وكان من أهل الشام أن وسعهم أعداؤهم بكل كبيرة وألصقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والعراق .

فان معظم المؤرخين والمؤلفين نبغوا في العراق فأكثرُوا في مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعة على أهل الشام لقلة من كتب من هؤلاء ودافع عنهم . ومثل ذلك قل في المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها في الحقيقة سفاسف لا تساوى درهما عند المحققين ، وما البلاد في أمر الافضلية إلا سواء لا يفضل شرق عن غرب ولا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والأدب الرافع والعمران والسعادة . ولذا ضل رأى من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة في فضائل بلد أوقطر . وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم في تفضيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعنًا على فئة خالفت ما هم عليه .

وبعد فالأرض كلها سواء في هوائها ومائها ، دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا في أقطارها وقد لا تختلف الاقطار المتنائية في قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل أن تمدح بلد لجبل فيها ، أو سهل فسيح حوالها ، أو نهر كبير يمر في وسطها ، ولا أن تدم أخرى لحرارتها ، أو لضيق حاراتها وجاداتها . فكانت مصر ولا تزال مثلاً منذ ألوف من السنين طريدة من الارض عرفت بخصبها وغناها الطبيعي . وكانت الشام ولا تزال منذ ألوف من الأعوام مشهورة باختلاف أهويتها ، ورقة نسيمها ، وتنوع جبالها وأوديتها فما عد ذلك فضيلة للأولى على الثانية ولا الثانية على الأولى . بل حسب لهما خاصية يمتاز بها كلا

القطرين بعضهما عن بعض . وقد أنصفهما في الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال : مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ماتفاخر به البلاد بعضها بعضها اذا سوغنا التفاخر فبالعلم والتربية وغلبة الفضيلة والخير على طبقات الناس كلها ، لا بالماء والهواء والواحات والجبال والاولدية والاشجار والأثمار وكل ما وزعته الطبيعة بين بلدان العالم فنال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربي الاندلسي الحكيم المرسى مدينة دمشق فلما حل ظاهرها سير غلاماً له يبتاع لها ماياً كلاله في يومهما وأصحابه نزرأً يكنى رجلين فعاد الغلام ومعه شواء ، وفاكهة وحلواء ، وفقاع وثلج ، فنظر أبو الحكم إلى ما جاء به وقال له عند استكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا : وانما ابتعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلداً لا يحل لدى عقل أن يتعداه ودخل وارثاد منزلاً وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به ويطب وأقام على ذلك إلى أن وافاه أجله

ومثل ذلك ما وقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما تمهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن إلى الشام وفيها نشأ واشتاق إلى خيراتها والتمتع بثمراتها اذ أن اليمن محرومة ذلك . قال ابن خلدان فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقبل منها ويسأله الاذن له في العود إلى الشام ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج اليها فأرسل صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الإقامة وانها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة . فلما سمع الرسالة قال لمتولى خزانته : احضر لنا ألف دينار فأحضرها فقال لاستاذ داره والرسول حاضر عنده : ارسل هذا الكيس إلى السوق يشترى لنا بما فيه قطعة ثلج .

فقال أستاذ الدار : يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج ؟ فقال : دعهم يشترى بها طبق مشمش لوزي . فقال : أين يوجد هذا النوع ههنا ؟ فجعل يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكما قال له عن نوع يقول له : يامولانا من اين يوجد هذا ههنا ؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول : ليت شعري ماذا اصنع بهذه الاموال اذا لم انتفع بها

في ملذاتي وشهواتي فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمري هل يصح أن تجعل أمثال هذه القصص حجة في أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغي أن يفاخر به وأهل الاقتصاد في عصرنا يجعلونه اذا استحكم من بلد شؤماً عليه ويعدون البلد كل البلد الذي غلت فيه أسعار الحاجيات والكاليات وارتفعت الاجور والارتفاقات على نسبتها . والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار الماء كولات فيها لقلة ما يصدر عنها مالا يكاد يصدق لولا تواتره على ألسن الطارئین على ذاك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم أيلى المرتفعة أسعار الارزاق فيه . وبعد فان كان لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فلا فضل لبلد على آخر إلا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية .

(١) النزلاء المسلمون

قضى الله على هذا القطر أن يكون منذ القديم مهاجراً لأمم الارض ولا سيما من الاولى قبيض لهم الحكم عليه من روم وفرس وترك وجرس وكرد أو كانوا مجاورين له من شماله وجنوبه وشرقه وغربه فيأتيه بعضهم متاجراً وآخر موظفاً وفريق غازياً ، وغيره مسالماً . وتربة مصر الجيدة تبتلع من تبتلع من تلك العناصر وتحملهم بوتقة النيل مصريين . ومنهم من يعود من حيث أتى بعد أن يقضى في ربوعها زمناً ، وقد استفادوا منها مادياً أو معنوياً .

وكان بعض تلك الاجناس اذا نزلوا العاصمة وقواعد المدن في القطر يجتمعون في بقعة واحدة ويؤلفون جماعة أو حزباً ويتخذون لهم حارات خاصة بهم يسكنونها ، ومحال تجمعهم وعادات يحرسون على الاحتفاظ بها والجنسية علة الضم ، أو كما قال امرؤ القيس « وكل غريب للغريب نسيب »

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٦ هـ

أما اذا نزلوا الارياف فقلما كنت ترى لهم كلمة ، فيبقون في غمار السكان في الغالب ويمتزجون باهلها ، فيجعل ذلك لهم فقد لغاتهم أن يكونوا لا يتكلمون العربية ، أو فقد جنسياتهم ان كانوا عربا ، وما هي الا بضع سنين حتى يصبحوا مصريين صرفا .

والغالب أن كل فاتح يستعين بالغرباء على قيام أمره ويعتمد في الاكثر على أناس من بنى جنسه . هكذا فعل الرومي والفراسي قبل الاسلام ، وهكذا فعل التركي والجرکسي والكردي والارناؤدي بعده . وان كان الاسلام قد منع من القول بالجنسية والعصبية ، ولكن الدول تراعى في هذا الشأن حالة الزمان والمكان . ثم ان الغالب يرى من الواجب عليه أن يقرب اليه الاقرب والاقرب ، والاقربون أولى بالمعروف .

هذا اجمال من تاريخ نزول الدين هبطوا مصري في الادوار السالفة وانا لنرى منه اليوم مثالا مجسما من المحتلين ، وتوسيدهم الوظائف الكبرى الراجعة الى أبناء جلدتهم ، فاذا لم يجدوا منهم من يرتضونه ، يختارون أن يوسدوها ان أمكن لرجل أوربي بدل المصري أو العثماني ، كما يختارون توسيدها للمسيحي أو غيره من غير أهل الاسلام

بمثل هذه الحال السياسية يحدث الخلف بين الوطني والنزيل ، ويلتف كل فريق على فريقه ، والحكام من وراء ذلك يسرون بهذه الفرقة بين الاجناس والعناصر ما دامت القاعدة التي سارت عليها الحكومات هي « فرق تسد » ولذلك كان يزداد هذا التنافر بين الدخيل والاصيل كلما نفخ الحاكم في ضرامه ، ويحمد كلما انقطعت عنه مادة التفريق ، وهذا ما دعا الى أن تكون لكل عنصر من النزلاء جمعياتهم الخاصة بهم ومدارسهم وكنائسهم وحاتهم ومحاهم وأنديتهم .

لا يكاد يمضي شهر الا ويحيى كتاب من جماعة يطلبون الى أن أشاركهم في جمعية سورية يريدون تأسيسها لغرض اجتماعي أو أدبي أو خيري وأن أساعدهم مساعدة أدبية بالقلم ، ان لم تتيسر لي مساعدتهم بالدينار والدرهم فاعتذر اليهم فمنهم من يقبل العذر ، ومنهم من لا يقنعه قولي ويحملة على ما يقع في نفسه من الظنون . ومعظم هؤلاء الداعين جماعة من المسيحيين يريدون أن يكثروا بالمسلمين

سوادهم وليستعينوا بهم على غرض يرون فائدته لا بناء بلادهم .
المسلمون العثمانيون أو السوريون في مصر أفراد قلائل بالنسبة لسائر العناصر
ولذلك لم ير اللورد كرومر في كتابه «مصر الحديثة» أن يخصهم بكلمة لقلعة سوادهم
وبعبارة أخرى أن أكثرهم من التجار أو من السوق لا يدخلون في مسائل
البلاد العمومية ولا يتأتى للاحتلال أن يعتمد عليهم لأن الدين يمنعهم من خدمة
أفكاره وهم يرون المصريين اخوانهم في الدين والتابعة واللغة والجوار ، وهل
أعظم من ذلك رابطة ؟

وما راغنى أمس الا كتاب من أحد المسلمين السوريين من تجار هذه العاصمة
يقول لى انه ساع مع بعض أصحابه في تأسيس جمعية خيرية اسلامية سورية بالقطر
المصرى تساعد الفقراء السوريين المسلمين ممن لا ناصر لهم ولا ملجأ يلجأون اليه
عند الشدائد وذلك لان لقاء حبلمهم على غاربهم مما يشين سمعتنا الادبية بين
الخاص والعام ولا فرق في ذلك بين دمشق والحلبى والبيروتى والطرابلسى وغيرهم
لانهم كلهم أبناء طائفة واحدة وتظلمهم راية واحدة . ويدور محور أعمال هذه
الجمعية على مواساة الفقراء وتربية الايتام على الطرق الحديثة وادارار الارزاق
على الارامل والمرضى ، وتجهيز الموتى وتسفير الفقراء وتتولى الجمعية غير ذلك
من أعمال الخير وستكون قيمة الاشتراك في الشهر عشرة قروش صحيحة واذا
تبرع بعض الاغنياء بأكثر من ذلك فيكون لهم الفضل الخ

هذه خلاصة الكتاب وفيه من الحث على مساعدة الجمعية ما هو طبيعى
ولكن حسن ظن القوم بى لا يمنعنى من النصيح لهم بأن يجعلوها جمعية خيرية
مطلقاً بدون وضع اسم «السورى» عليها وأرجو أن لا يحمل ذلك على ضعف فى
الوطنية بل أن يتدبر القائمون بالامر فيما أقول .

المسلم السوري هنا لا يعتبر كما يعتبر غيره خصوصاً وهو كما قلنا لم يدخل فى
معترك السياسة المصرية ، ولذلك ينظر اليه المصرى بأنه أخوه ووطنيه يعامله كما
يعامل ابن النيل ويبوح اليه ببشه وحزنه ويصاهره ويعاشره ويرتبط به ولذلك
تدعو الحكمة أن يقوم السوري هنا — ان كان لا يرى مندوحة له عن أن يسمى
نفسه بهذا الاسم — فى جميع أعماله تبعاً لآخيه المصرى

ليعمل السوري الخير ولكن لا على أنه سوري بل على أنه مسلم أو مصري ، لان الادب يقضى عليه أن يندمج في جسم أخيه المصري لينتفع كلاهما بصاحبه . وما جزاء من يحب الا أن يحب . ومن أدب الغريب أن لا يبهر بان مصلحته تخالف مصلحة من ينزل عليه

المسلمون من أهل البلاد المجاورة لمصر ما زالوا منذ القديم يهبطون هذا القطر كسائر الامم ، ولكنهم يندمجون في سلك أهله ولا يلبثون أن تكون لهم نفس حقوقهم وذلك لما وقر في النفوس من انتفاء الجنسية في الاسلام ، ولان من مصلحة النزول أن يكون تبعاً للزميل لا يقاومه في رغباته بل يخدم الغرض الذي يرمى اليه ما دام الغرض لا يتعدى طور العقل فيجد النزول من ابن البلاد كرم الوفادة بما لا يعذر به ابن البلاد نفسها . والغريب بالنظر لنشاطه اذا لزم الادب مع من ينزل عليه يربح أكثر من حرصه على الاسماء

وما سورية ومصر الا بلدان متجاوران والسوري الذي ينفع مصر مصري والمصري الذي ينفع سورية سوري . والحمد لله ان خلقنا في زمان سقطت معه دولة التحزب للجنسيات ، فلم يعد الناس كما كانوا في الازمان السالفة يعادي بعضهم بعضاً في القطر الواحد بل في البلد الواحد بل في الحارة الواحدة على أسماء ما أنزل الله بها من سلطان اللهم الا عدم المعرفة بطبيعة الكون ، وطبيعة تنقل الناس في هذه الارض منذ القديم

الحمد لله أن جئنا في زمن نسمع فيه ان البشر يفكرون في اختيار لغة واحدة تجمعهم ليتعارفوا بها ، وأن يزيلوا الحدود من تخوم الممالك حتى لا يكون بين أمة وأمة ما يصدحهما عن الاختلاط وجلب المنافع ودرء المضار

وان كل عاقل ليقول بأن النعمة التي ضرب على وترها بعض السوريين في هذا القطر على عهد انتشار حرية الاقلام لم تكن الا من باب « خالف تعرف » أراد بها أربابها التذرع الى نيل الشهرة أو أغراضاً مادية أخرى . ولذلك أخشى أن تكون تلك النعمة التي سكنت نأمتها الآن هي التي بقيت بقاياها في أذهان بعض المسلمين من السوريين فقاموا اليوم يريدون أن يخرجوا عن الجماعة ويؤسسوا لانفسهم بأنفسهم جمعية تضم شتاتهم ولو فعلوا لكان شرها أكثر من خيرها وعلى الله قصد السبيل

غوطتنا حشوق^(١)

ايه غوطه الفيحاء ، بحلى الطبيعة ومغنى الانس ، وروضة الطيبات ، ومهبط
التجليات . سلام زكى كتر بتك المسكية ، جميل جمال بسطك السندسية ، عطر
كانوار أدواحك الجنية . وتحية طيبة تتساقط على عمرانك ، تساقط الوابل والطل
على جناتك الغناء ، وحراجك الغلباء ، وأشجارك الميلاء ، وغلاتك الكثيرة الاتاء
سلام عليك يا مستقر النعماء ، وقرارة الهناء والرخاء ، وخير خلوة يفزع الى
ارجائها الناسكون والعالمون ، ويتقلب فى أجواها عشاق الطرب وأرباب الجون.
فيك تتجسم عظمة خالق السموات اذا بالغ فى الافضال على الارضين ، وتبدو
همة الخلق اذا صحت عزائمهم أن يكونوا عاملين لا خاملين ، فليس فى الاقاليم
ما يفوقك باعتدال المواسم ، واقترار المباسم ، وتلون المظاهر ، وتنوع الثمرات
والازاهر ، وتلوى الجداول والانهار ، وتحلى الطبيعة فى العشايا والاسحار
سلام على وادي دمشق انه آية الحسن والاحسان ، فيه تتجدد الحياة كل حين
لانه بمنزلة الربيع من الزمان ، ويحلو العيش فى ظل افيائه على سذاجته مهما كان
مرأ ، وتطمئن النفس الى التنقل فى رباعه برداً كان أو حرأ . ايه غوطه جلق لم
يؤثر عنك أن أمسكت خيراتك عامأ عن أبنائك ، فلا تفتأين على الدهر تخرجين
لساكنيك أفلاذ أ كبادك ، على تعاقب الامم والدول ، وتصدين الود لـكل من
يطلب قربك ، فيعيش معك فى رخاء وصفاء

سلام على سكونك فى الليالى الظلماء والقمرء ، ربيعاً كان أو صيفاً أو
خريفاً أو شتاء ، وهنيئاً مريئاً لمن يستمتعون بالنظر اليك من الصباح الى المساء ،
ويتعهدونك بالحرث والسكرث والتقليم والتنقية والزرع والارواء ، سواء عندهم
حمارة القيظ وصبارة القر ، وظلمة الليل وشمس النهار . سلام عليهم انهم مثال
النشاط فى المزارعين ، لا يضمنون على أرضهم بأوقاتهم واتعابهم ، وهى تجودهم

(١) نشرت هذه المقالة والمقالتان بعدها فى جريدة المقتبس سنة ١٣٣٣ (١٩١٥) وأسلوبها
أسلوب الشعر المنشور المعروف عند الافرنج

ضروب الخير والمير كلما جودوا زراعتها ، وتزيدهم بركات على بركات ، كلما عوها
فأحسنوا رعايتها ، وهم مهما صهرت جسومهم حرارتها ، وصفرت سحناتهم رطوبتها
بيض الوجوه شم الانوف ، لان رزقهم مناط أيديهم العاملة ، لا يعتمدون في
تحصيل قوتهم ، على غير قوتهم ، ولا يتكاون الا على من ينزل الغيث ، ويمرع
الزرع ، ويدر الضرع ، ولو حسن فيها نزع الفضول ، من العقول ، وأنيرت
بأنوار علوم المدنية على الاصول ، فتعهد أبنائها بالتربية كما تربى عندهم الرياض
والحقول ، وتوقى مما يؤذى الزروع والثمار والبقول ، لكانت خير بقعة يسكنها
ساكن في الحياة ، ولصح عليها قول من قال : طوبى لمن كان له في أرضها مربض شاة
سلام غوطة دمشق كلما غردت أطيارك فلك على المشاعر سجع الحما واليام ،
وهديل العندليب والهزار ، وتغريد العصفور والشجور ، كيف لا تستهوين
النفس ، ونعيق الغربان ونقيق الضافدع ، اذا ردهما الصدى في لياليك ، يفسرها
القلب بمعان لا تفهم منها في الكور الاخرى ، كما يفسر في النهار ثغاء الماعز
والحملان ، وجؤار البقر وخوار الثيران

فسلام وألف سلام عليك يا كريمة الطبع ، وبديعة الصنع ، وعريقة المجد ،
ونبيلة الجد والجد ، وزكية العرق ، وهينة الرزق ، وطيبة النجار . والحسنة
لالاهل والجار ، ففي مغانيك تصفو النفس من كدروات هذه الحضارة الملفقة
وتنجو من سماع فظائع الانسانية المعذبة ، وبقليلك — وان كان قليلك لا يقال
له قليل — يغتبط الانسان ، ولا يتكالب على حطام الدنيا تكالب الضارى من
الحيوان ، ويطلع الزهرة ربة الجمال من منافذ أفقك توحى الى الخيال روحاً من
عندها ، فتفيض القرائح وترق العواطف ، وفي منبسط صعيدك الطيب ، يسلو
الخطر همومه ، وتطرب الحواس ، من دون ماكاس ، ولا نعمة أوتار وأجراس
في هذا الريف العجيب تقرأ سور العدل الالهى في تقسيم الارزاق فلا فقر
مدقع ، ولا غنى مقرط ، ويعيش القائمون على تعهده عيشاً متشابهاً الا قليلا ،
يغتنى أفراد منهم بدكائهم واقتصادهم ، فلا ترى في فقرائهم سلاطة الجياع أرباب
النهم ولا فى أغنيائهم قسوة قلوب أهل الرفاهية والنعم ، فسبحان من وفر للغوطة
قسطها من الغنى والغناء ، وضاعف لها حظها من الجمال والاعتدال ، وأجزل لها

عناصرها الحيوية فزادها كـر الجديدين نماء الى نماء .

شبه جزيرة كليبولي

الى هذه البقعة الطيبة بمناظرها وغاباتها وسهولها وجبالها يهوى اليوم ويحرق له أن يهوى فؤاد كل عثمانى يحب هذا الوطن المحبوب ويتفاني في التبرك بتربته ويخاف عليها من عوادي المعتدين ويكره لها ظل المستعمرين من الغربيين جزيرة مستطيلة كهذه يبلغ عرضها فيما أذكر من ستة كيلومترات الى ثلاثين وطولها ٨٥ كيلومتراً تتقادفها القنابل والقذائف والدمرات والمنفجرات وطائرات السماء ودوارع الماء منذ زهاء سبعة أشهر وهى لا تزال صابرة على الاذى باسمه الوجه للقاء العدى

فى هذه شبه الجزيرة تجلى العقل العثماني وتم آخر ما وصات اليه مدارك أبناء هذا الوطن فى استكمال أسباب الدفاع والاخذ بحظ أوفر من أساليب الكر والفر والتعبئة والمصاف ولولا هذه العناية والاستهانة بكل عزيز فى سبيل الذود عن حمى هذه شبه الجزيرة لتبدلت وجه الحرب الاوربية ، ولناذا من الاضطهاد ما لا يكاد يخطر لنا على بال

هذه الارض المحاطة بالبحر من أكثر أطرافها عرفت دول الاتفاق المربع أن هناك قوة أسمى من قوة البشر وهى القوة الالهية التى استند اليها العثمانيون قبل كل شيء ودونها قوى الاساطيل والغواصات والطائرات والمقذوفات والمفرقات يضاف اليها يقين مازج الافئدة والارواح من ثقة الانتصار وكرامة ليس بعدها غاية لحكم الاجنبى ، والتشجيع بمعانى الوطنية والجنسية

وقفت على جبهات الحرب فى مواقع (ارى برونى) و (انافورطه) و (جنناق قلعه) وأشرفت على انحاء (سد البحر) وهى المواقع الاربعة التى دار ويدور عليها القتال واشتد فيها الطعن والنزال فعظم فى عينى غناء جيشنا ، وفاخرت نفسى بقوادنا وضباطنا وجندنا ، وأيقنت اننا اذا ضممنا شملنا فى كل نازلة وكل شأن ، وتذرعنا بعامة الاسباب التى يتذرع بها البشر الممدن ، نضاهى أعظم الدول منعة ومضاء ، وها قد قضينا باعتمادنا بحبل الله على مطامع الطامعين وهم ما هم بقواهم البرية والبحرية

سبعة أشهر مضت على دفاع جناق قلعة والعدو يمحّر العباب بدوارعه
وطراداته ورعاداته ومدمراته ، ويخرج الى البر الكتائب أثر الكتائب ، ويستجيب
السلاح ويتذرع بأقصى ما وصل اليه طوق الانسان من التفنن في إرهاب الخصم
واقترحام السبل ، فلم يستطع التقدم شبراً عن المكان الذي نزله أول يوم ، ولا
يزال جيشه تحت حماية أساطيله لا ذرى له ولا أكلت وجيشنا يطل عليه اطلالا
يذيقه كل يوم مرارة الهزائم ألواناً وأشكالا ويفحش القتل في رجاله حتى قدر
الهالك منه بنحو مائة الف فقدها وفقد معها جانباً من أسطوله . وانفق عشرات
الملايين من الدنانير وهو في مكانه لم ينل ولن ينال بحول الله ما تطمع به نفسه
من استباحة حمانا

هذا المضيق هو في الحقيقة مفتاح دار الخلافة وكان المتفقون على مثل اليقين بأن
عمله سهل يحتاج الى بضعة أسابيع ولكن خيب المولى ظنونهم ونعى عليهم اعتدادهم
بقوتهم وألقى عليهم أمثلة مما ينال الظلمة من سوء المغبة. وان التمويه للعبث
بمقول الناس لحكمهم كما تحكم البهائم ان جاز يوماً فلا يجوز على الامم في آخر ،
وأن الله لا يضيع عمل عامل

ان دفاعنا في حمانا في جناق قلعة قطع آخر عرق من الآمال للمتفقين وقضى
على مطامعهم فينا أبد الدهر ان شاء الله ومن رأى ما رأيناه هنا من ابداعنا في
طرق القتال وشاهد استعدادنا في خصومنا وطرقنا وسلاحنا ومدافعنا ونظام
جيشنا وما ينبغي له من المؤنة والخيرة والتمريض ، يحجر بصوته قائلاً هذا عمل
لا يتهياً إلا لأمة تحب أن تبقى ، ولا يتيسر ذلك الا لمن كتبت له السعادة

غابت شبه جزيرة كليبولي ونجادهها ووهادها وسواحلها وسهولها ، لقد طلت
في ربوعك دماء زكية من دماء العثمانيين ولكنها ستبقى على جبين الايام مسكية
الاريج عطرة بالثناء تتم عن معرفة من استشهدوا في سبيل الفرض الوطني ، وذاقوا
معنى الوطن والوطنية . ان الدم الطاهر الذي أريق على تربتك جعل لهاريجاً من
ريح الجنة وسيكون لمن فادوا بها من الذكرا الجميل ما كان لا بطل المسلمين في وقائع
الصليبيين وشعار ذلك : هذا عمل أفراد قتلوا ليحيوا أمة . وفادوا بنفوسهم في
سبيل الله ليحموا ذمار الخلافة المعظمة ، ويربأوا بهذا الوطن عن أن يستباح

حماهم ويحافظوا بارواحهم على آخر دولة اسلامية مستقلة جمعت شمل الاسلام والمسلمين وحمت حى الحرمين الشريفين .

كلما هبت الصبا والشمال على أرجاء شبه جزيرة كليبولى ، وطلعت عليها الشمس وغربت ، وأقمرت السماء وأظلمت وأمطرت وأثلجت ، وأرعدت وأبرقت ، يردد لسان الحال فيها هذه ثمرة التضامن بين أعضاء البيت الواحد . هنا قضى العربى والتركى والكردى واللازى وغيرهم لأعلاء كلمة الحق واتقاء عادية الدخيل الثقيل . هنا نظم العثمانيون أرقى جيش انتظم لهم منذ عهد الفاتح وسليمان وتشيع أهله بروح الوطنية ، وغنم غزاتهم أحياء وأمواتاً سعادة الدارين أرض شبه جزيرة كليبولى ، ستبقى مقدسة فى نظر كل مسلم كما قدس الله الارض المقدسة ، وستذكر كرك الاجيال عقيب الاجيال ، والدهور أثر الدهور ، بالاعظام والاحترام ، كما تذكر هذه الحرب العامة بالهول والاستغراب . أنت كذبت البشر فى ادعائهم أن (كل محصور مأخوذ) وأكدت لهم عكس القضية فى أن (كل محصور محفوظ) . فسلام عليك محاربة ومسالمة ، وألف ألف رحمة ورضى على عظام شهداء ضمتها تربتك الطيبة ، ومروجك السندسية وتلعاتك الزمردية

جبال طوروس

هذا مضيق يسمونه اليوم (كوك بوغازى) ومعناه مضيق الكيلة كيلة الحبوب ، كانت العرب تسميه الدرب أو الدروب ، ذكره امرؤ القيس ملك الشعر فى الجاهلية فى شعره لما توجه الى قيصر الروم وكان مشى معه صاحب يقال له عمرو ابن قيمة الشاعر فلما رأى عمرو الدرب وهو الحاجز بين بلاد العرب وبلاد العجم بكى جزعا لفراقه بلاد العرب ودخوله بلاد العجم ففى ذلك قال امرؤ القيس :
بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أن لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا
أما نحن فابتهجت أنفسنا وأيم الله واطمأنت لما اجتزنا الدرب وعلمنا اننا نركب بعده القطار ولم يبق لنا الا ساعات معدودة لنبلغ دار السلطنة بهجة الدنيا وقرارة الدعة ومدينة المنعة ومعهد الظرف واللفظ وبلد الشعر والخيال . أن

الدرب أو مضيق (كولك بوغازى) واد تتخلله الانهار والجداول ، ويكسو شجر الارز نجاده ووهاده ، على صورة تظنها من هندسة أعظم مهندسى الزراعة لعهدا وما هو فى الحقيقة الا مما نبت واستطال بنفسه . أنت لا تنفك منذ تظاً عتبة جبال طوروس ، تشم أريج شجرها وورندها وعراها . ولا تسأم من مناظرها لانها متنوعة فى تقاطيعها وجمال هندستها . بحيث لا تمل العين النظر ، ولا الأنف الشم ولا الأذن السماع . لحفيف أشجاره ، وتمايل أغصانه ، وئغاء حملانه ، وخرير مياهه ، وأصوات عندليه وهزاره

أن من يسمع من بعد وصف (كولك بوغازى) يقول فى نفسه : ماذا عسى يكون فى هذا المضيق ؟ وجبال الدنيا كثيرة متشابهة ، صخور وتلعات : واكمت وبطون ومنفرجات ، وشيخ وقيصوم ، وسنديان وزان . ولكن جبلنا هذا لا يشبه الاجبل بحال ، لأن مدير الاكوان خلقه على غير مثال من الجبال ، ولون صخوره وأحسن قطعها فمنها الكبير الهائل ، ومنها الصغير الحقيق ، وتربته حمراء وسوداء وبيضاء ترى تارة فى الهضاب طريقاً معبدة من الصم الصلاب ، أو مرصوفة بالتربة الذكية ، غرست فيها يد القدرة أشجار الارز غرساً يتخلل الهواء بيننا ، ولا تنبو العين عنها لعدم نظامها ، واختلال هندستها ، وتراعى ابعادها . وهناك الاشكال الهندسية برمتها : فن تلعة مستطيلة ، الى أخرى هرمية ، وبجانبها ذروة ذات شكل بيضوى ، وآخر محدوب أو مربع ، أو قائم الزوايا ومنفرجها جعل بعضها الى جانب بعض ومساحتها السطحية متقاربة . وكلها مزينة بالاشجار . أنت هنا تجتاز واديا ولا كاللاودية . بحيث تعطى الحق لمن قال فى القدم « ماء ولا كصداء » و« مرعى ولا كالسعدان » و« فتى ولا كمالك » ولورأى القائل الدرب لقال : مضيق ولا كهذا وجبال ولا كطوروس

هذه العظمة فى الخلق التى تراها ماثلة على أمتها فى جبال طوروس التى أعجزت الفاتحين من الاقدمين والمحدثين . فكانت كالحاجز الطبيعى الذى لا يرام بين الثغور وبين بلاد الروم . عامرة بطبيعتها ، هندستها الفاطر ، وحفها بانواع البهجة والزينة ، بحيث لا تملها نفس مهما اکتأبت ، وتود لو تقضى فيها شطراً من العمر ، بعيدة عن ضجة العالم وأوهام الخلق ، وترهات المتمدنين والمتبررين

جبال طوروس البديعة ، لقد أعجزت الفاتحين عن اجتياز مضايقتك ، كما أعجزت الشعراء والمصورين عن رسم بدائعك وخصائصك . فما هذا الابداع الذى عز نظيره فى الاصقاع والبقاع . إيه يا منطقة البكم بالشعر ، ومعجزة المتكلمين فى ذكرى فضائلك وفواضلك

ان جبال الالب التى استتبت الالباب ببدائعها ، وجبال الكاربات التى اشتهرت بصياصيمها الطبيعية ، وجبال حملايا المعروفة بسموها ، هى دونك فى جمع كل هذه المعاني ، ولو هب لك ما تهيأ لتلك من يد صناع ، تحسن حواشيك . وتهذب من أطرافك ، وتتعهد أزهارك وأشجارك ، بآخر ما اهتدى اليه العقل البشرى من ضروب الصناعة ، لكنت لعمر الحق معهد اجتماع المصطفين والمرتبعين ، ومسرح أنس طلاب اللذائذ الطبيعية والصناعية ، وخزانة ثروة لا هلك لا ينضب معينها وتنضب مياه الرافدين دجلة والفرات . ولكنه تعالى لا يمنح بلداً كل ما يحتاجه ولا يجمع فى شخص كل الصفات والمزايا . فسبحان من قسم الخصائص بين البلاد كما قسم الحظوظ بين الجماعات والافراد

على قبر أبى الفدا فى حماة^(١)

حنانيك اسمعيل أجبني فدتك نفوس الملوك يا عالمهم وعادلهم وسيدهم ، كنت فى عصرك مثال العمل الصالح ، وها أنت لمن بعدك عبرة لمن يعتبر .
زرت قبرك الشريف وذكرت سيرتك المثلى ، فبكيت على الاسلام والعرب ، وقابلت بما قرأته على ضريحك بين السداجة الغالبة عليك ، ونخفخة الاقارب بعدك قرأت : « هذا ضريح العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب عمر فى شهر سنة سبع وعشرين وسبعمائة » جملة لا يجوز نقشها اليوم على قبر أحد العامة ، فاين أنت منها يا أبا الفدا فى مفاخرك وسؤددك ، ومجدك التالذ والطارف

حنانيك اسماعيل كنت فى حياتك قدوة الملوك العادلين ، تعلم الناس حب

(١) كتب هذا الفصل سنة ١٣٢٩ — ١٩١١ ونشر فى المجلد السادس من المقتبس

الخير ، وتعلم العلماء فيما توفروا عليه ، والفتاحين ما يفاخرون بمعرفته ، والحكام ما هو ثمة امجادهم ، وها أنت الآن رهين حفرة قد كاد ينسى بين قومك ذكرك فلا تبدى ولا تعيد ، وقومك نسوا دينهم وديناهم فكيف لا ينسون رجالهم نشأت أيها السلطان العادل من بيت عز وملك ، فلم تأخذ الزخارف بلبك ، بل تخرجت في العلم ، وربيت على أدب النفس وأدب الدرس ، حتى جاء منك عالم بل معلم للعلماء بسيرته وتقننه .

نشأت نشأة عالية في القرون الوسطى وغيرك من الملوك نشأوا ولا سيما بعدك نشأة جاهلية : على الحجر والزمر والقمر ، لا يعرفون غير القصور ، والولدان والخور ، وغاية مفاخرهم انهم يبطشون ولا يبالون ، يقتلون ولا يتألمون ، يتعاضمون ولا يتواضعون ، يقضون فلا يراجعون ، يأمرون ولا يعدلون أضحت أحكام بعض الملوك بعدك ذوقية ، وأعمالهم على الاكثراستبدادية ، اتخذوا الاسلام ديناً وهو منهم برىء ، وعيشوا بالرخص والعزائم ليس لهم وازع من أنفسهم ، ولا رادع من أمهم . أضحوا جبارة لا ملوكا ، وشياطين لا انسا ، وأنعاماً لا يعرفون الا ما فيه راحتهم ، وتوفير قسطهم من اللذائذ والبذخ والنعيم كنت أبا الفدا ملكا بالاسم ، وملكاً بالفعل ، كنت شريفاً بماضيك وحاضرك ، وها أنت الى يوم الناس هذا والى غد وما بعد غد شريف في عامة أحوالك .

لم نعهد لك كما عهدنا للملوك قبلك وبعدك أن عدت الرعية كالسائمة التي تملك فيتصرف مال كهابدرها ووبرها وجلدها ولحمها ، ويعمل مطلقاً في الاستمتاع بها لا يرازعه منازع . بلى عهدناك تؤاسى الضعيف ، ولا تجور على الفقير ، وتحسن للعلماء ، وتفضل على الفقهاء والادباء والشعراء ، وتصرف فضل أوقاتك في التأليف والتصنيف ، يا ثاني المأمون بعلمك وعقلك ، وثاني صلاح الدين بعدك وجهادك .

أبا الفدا ان قومك أغفلوك وسيرتك ، بل أهملوا ضريحك ، ولو ذكروك لساروا ولو قليلا على سنتك الحمودة ، فعلمت الملوك من بعدك بسيرتك الظاهرة كما كنت في عصرك خير معلم للملوك العادلين والعلماء العاملين

أبا الفدا ان الملوك بعد عصرك جمعوا كثيراً وأضاعوا كثيراً ، جمعوا فكان ملكك بجانب ما ملكوا جزءاً صغيراً جداً ، وما خلقوا الا ما تحمر وجوههم خجلاً منه ، ويأتون في الآخرة وقد شهدت عليهم لا لهم أعمالهم ، وأنت سمعت بمن وليت عليهم وسعدوا بك ، فأبقيت ذكراً لا تمحوه الايام أنت علمت الخلق بأن القليل مع العقل يستفاد منه أكثر من الجزيل بدونه ، وان وفرة المال والعقار لا تكون من السعادة في شيء اذا لم تسبقها نفس مهذبة بالاآداب والفضيلة ، وعقل يحسن التصرف بما يملك .

من لى بنظرة منك لترى ما حل بالعرب اليوم من التمزيق والتفريق ، والفساد في المعاش والمعاد ، والجهل المطبق ، وضعف العقول . رغم اخلاف من حكمت للمذلة ، وخنعوا للاستبداد ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، فرثي لهم الصديق ، وسميت بهم العدو ، وخانهم الدهر فاستخذوا ، وكل ذلك بما فعله سفهاء الاحلام من أمرائهم وعلماهم انهم كانوا ظالمين .

قم وانظر فقد بدلت الارض غير الارض بعد عصرك : اخترع الافرنج في زماننا البخار والكهرباء ، ووفروا مرافق الحياة ، وقربوا الابعاد ، وحسنوا العيش ، أما قومك فليس لهم من مدنية القرون الاخيرة الا النظر ، وزادوا على جهلهم فساداً في أخلاقهم ، بحيث لم يبق لهم من المجد الا أن يعودوا الى صحيفة أجدادهم ويفاخروا بما تم على أيدي أمثالك ، كالقرعاء تفخر بشعر أمها ، أو المعجوز الشوهاء لا تقفأ تذكر ماضى شبابها .

قالوا ان نظام الحكومات بعد أيامك ارتقى ، وانكم كنتم في عصر ثقل فيه القوانين الوضعية ، وكان أكثر العمل بالقوانين السماوية . فمن لنا بعصرك فان القوانين الوضعية ارتقت ولكن عند غيرنا من أهل الغرب ، والقوانين السماوية أعرضنا عنها الا قليلاً فلم نحسن تقليد المقننين المحدثين ، ولا احتفظنا بتراث الاقدمين ، فكنا كالعقور أراد أن يمشى كالجلجلى فنسى مشيته ولم يمش مثله ، بل كنا من الاخسرين أعمالاً

ألا عطفة من نظراتك الرشيدة أيها الكريم تنظر أمتك الآن الى الانقراض أقرب منها الى البقاء : كل يوم تصغر رقعة بلادها . ويتحيفها الخراب وينقصها

من أطرافها تحاول تقليد الراقيين من الامم ، فلا تراها تستطيع الا تقليدها في الموبقات والشرور ، لا في مقومات الحضارة وأساليب النهوض .
رحماك أبا الفدا ان أمثالك أنفقوا أموالهم وأموال الامة في شهواتهم على المغنين والمغنيات ، والكواعب الغانيات ، وأنت أنفقتها على العلم والعلماء ، انهم اذا كانوا جهلة أغبياء فقد كنت العالم المؤرخ الجغرافى الطبيب الحكيم الفلكى ، ومصنفاتك شاهدة لك على غابر الدهر ، بأنك عالم الملوك وملك العلماء ، خلد اضرابك بسيرتهم صيت بطش وفنك ، وقطع وقت في العبث وأنت أقمت نصاب العدل على من وليت أمرهم ، فكانت أيامك رياض الازمنة وبهجة العصور ، فجزاك الله عن أمتك أجزل ما يجازى ملكا صالحا عن رعيته ، وعالما عاملا يخدم الناس بعلمه وفضيلته اه

نحن والمسكرات^(١)

صرنا الى زمان لو قلنا لحكومتنا ان الطريقة الفلانية فى الحكم أو منهج كذا فى القضاء والادارة لا توافق بلادنا ولا تنطق مع عاداتنا وشرعنا هزت رأسها وأعرضت عنا إعراضاً . وصرنا الى زمان لو قلت لاكثر أهل الطبقة العليا والوسطى من قومنا قال الله وقال الرسول رأيتهم يناون عنك ويصدون صدوداً فلعل الحاكم والمحكوم عليه اذا أتيتهما بكلام جديد قاله غيرنا يلقىان اليك بالاسماع وتلين لمقالك القلوب والطباع . قال بتمام المتشرع الانكليزى (١٧٤٨- ١٨٣٢) فى كتابه أصول الشرائع : « الحمر فى الاقاليم الشمالية يجعل المرء كالابله وفى الاقاليم الجنوبية يصبح به كالجنون . ففي الاولى يكتفى بالمعاقبة على السكر لانه عمل فظيع وفى الثانية يجب منعه بطرق أشد لانه أشبه « بالتشرر » ولقد حرمت ديانة محمد (صلى الله عليه وسلم) جميع المشروبات الروحية وهذا التحريم من محاسنها »

(١) نشرت فى جريدة المؤيد سنة ١٣٢٤ (١٩٠٧)

نعم حرم الاسلام الخمر ولكن أمتنا عز عليها الا أن تزهد في كل ما أتى به شرعها من المحاسن وأن تقلد غيرها فيما هم منه يشكون ويؤمنون . ولو كنا أخذنا عن الغربيين النافع كما تلقفنا الضار لكان الامر وسامنا من النقد بعض السلامة ولكننا أجدنا التقليد في المضار ولم نحسن الجرى على مثالهم في المنافع .

قضى الله أن تبنى هذه البلاد بحكومة ليست منها ولا مزاجها مما يلبتم مع مزاج من تحكم عليهم . فكان من الغرب انه أخذ منذ عشرات من السنين يحارب المسكرات بكل قوته ونحن نفتتح لها السبل ونهيب الاسباب . الغرب يضرب عليها المكوس الفادحة ونحن باسم الحرية التجارية وبفضل تهاون الحكومة تقبل من ضروبها ما نعرف جوهره وما لا نعرفه . يقوم قادة الافكار في الغرب فيبينون مضار الخمر وينعون على شاربيها ويضيقون المسالك في وجوه عاصريها وبائعها وأغلب قادة الافكار منا يشربونها بلا حرج ولا نكير بل يسخرون ممن لا يشاركونهم في انهم ويريدونهم على أن يتشبهوا بهم ليعدوا من المتمدنين العصرين فالذنب اذن ليس على الحكومة وحدها بل عليها وعلى الاهالى أيضاً . بيد ان هؤلاء يعذرون بعض الشيء لان الحكومة لم تعلمهم التعليم الصحيح حتى يتبين لهم الضار من النافع . ومادام السواد الاعظم جهالا وخيرة الناس ليس لهم من الامر شيء فاللوم يرجع على الحكومة في الاكثر

والغالب أن عميد الاحتلال أدرك ما تتوقع البلاد من الشرور اذا هي ظلت مسترسلة في الخمر فقال في تقريره ان الحكومة وجهت التفاتاً خاصاً الى مسألة المسكرات لانها من المسائل المهمة وانها رفضت عام ٩٠٥ — ٣٧٠ عريضة طلب أربابها رخصاً ببيع المسكرات وانها لم تعط رخصة الا بعد أن ظهر من البحث الدقيق أن معظم الاوروبيين المقيمين في جوار الحانة لا يستغنون عنها . وانه نقص ٢٧٨ من الاماكن ذات الرخصة وغيرها منها ١٧٨ محلا ليست ذات رخصة .

قال وقد تم الاتفاق مع سكة الحديد على اقبال الحوانيت التي تفتح تحت اسم « بوفيه » في جميع المحطات ماعدا الكبيرة فكلما انتهت رخصة واحدة منها لاتجد لها ما لم تكن المحطة مهمة وان القانون الحاضر لايسرى على بيع المسكر

في زجاجة أو براميل ولذلك لم تراقب دكا كين البقالين وغيرهم من الذين يبيعون
المسكرات

قال ويظهر أن العمال في الارياف فلما يتعاطون المسكرات ! وقل أن يرى
ساكنو الارياف رجلاً سكران ! أما البنادر فالسكر فيها أكثر انتشاراً ولكنه
ليس كثيراً لحسن الحظ ، وقال المستر متشل من أعظم عيوب نظام الامتيازات
الاجنبية اننا نسعى جهداً في منع بيع المسكر بالفرق ولا نستطيع منع عمله
وبيعه براميل

هذا كلام زعيم الاحتلال وهو كما تراه لو انصفت لا يخلو من جمجمة فقد
تلطف في قوله ان أهل الارياف قلما يرون ثملاً وأن السكر شائع في البنادر وأن
الحكومة لا تعطى رخصاً ببيع المسكرات الا في المحال التي لا يستغنى عنها الغريبيون
النازلون في جوارها

كل من طاف الأرياف وخبر حال البنادر والدساكر يتضح له أن الحانات في
القرى تزداد سنة عن سنة بل شهراً عن شهر فيجىء الرومى يفتح دكان « بقالة »
ويضع برميلاً من الكحول فما هو الا أن تمضى سنة حتى يقتل كثيرين بما يسقيهم
من السم الزعاف ويروح بالمقام فيكون له الغنم وعلى غيره الغرم وتستوى في
ذلك القرى التي فيها أوربيون لا يستغنون عن الحانات فتفتح من أجلهم والقرى
التي لا يكثر في جوارها الغريبيون .

كلما نادى المنادون في التماس تعديل الادارة الحاضرة قالت لهم الحكومة
كنت أفعل لولا ما هناك من الامتيازات الاجنبية فانها تعوقني عن مباشرة أى
عمل وتغل مني اليد والساعد ولكن حصون الامتيازات ليست بالذى يصد في
الحقيقة من عمل ينتفع به الاجانب كما ينتفع به الوطنيون

تسمح الحكومة للمأموري الادارة في بعض المسائل كضبط الاشخاص المشتبه
فيهم من الاجانب بدون أن يتداخل القناصل فهلا سمحت بمثل ذلك لرجال الادارة
في المسكر فتعهد اليهم أن يفتشوا المحال المشتبه في انها تبيع المسكرات بلا رخصة
أو تبيعها من الاجناس الرديئة ولا يتوقف ذلك على أخذ الشراب المشتبه به
وانتظار شهرين ريثما يحلل التحليل الكيماوى فان شوهد انه ردىء فيكون

صاحبه قد صرف ما كان عنده منه وان ثبت انه جيد يحق للبقال أو الحمار أن يرفع قضية على رجال الادارة والصحة وربما يرفع القضية خصوصاً اذا كان من غير رعايا الحكومة المحلية .

نعم كيف يسوغ لرجال النيابة أن يفتشوا أى مكان يرتابون أن فيه أمراً محظوراً وعملاً يخل بالراحة فاذا لم يجدوا فيه شيئاً يعفون من العقاب ولا تقام عليهم القضايا وكيف تقام القضايا على رجال الادارة اذا فتشوا محلاً عمومياً ولم يجدوا فيه شيئاً من المسكرات وغيرها فكما عهد للمأمورى الادارة أن ينظروا فى المسائل البسيطة مباشرة بدون توسط القضاة وحسنت نتيجة ذلك فقد كان الاخرى أن يعهد اليهم النظر فى مسائل المسكرات لمطاردتها وتخفيف ويلاتها عن البلاد

اذا أطلقت يد رجال الصحة والشرطة للبحث فى الحانات وعين مثلاً يوم للكشف على المشروبات ورأى البوليس شبهة قوية فى فساد الفاسد منها وأسأغت له الحكومة أن يحجزها كلها حتى تتضح نتيجة التحليل الكيماوى وجوزت الحكومة للبوليس اذا اشتبه فى أى زجاجة كانت أن يفتحها فى الحال ويعمل بما يراه طبيب الصحة بدون تسويق ولا امهال — اذا أسأغت الحكومة ذلك فقل ان هذه المسألة سارت الخطوة الاولى نحو الاصلاح

كل هذه الملاحظات سهلة الاجراء ولا يظن ان الامتيازات الاجنبية تحول دون تحقيقها بل ان اللوائح والقوانين الموجودة لو جرى العمل بها ولم تكن كعلم جابر — اقرأ تفرح جرب تحزن — توقف تيار المسكرات عن جريه بعض الشيء

تقرأ فى القانون المصرى الجديد أنه يعاقب السكران ولو لم يعربد وكان القانون القديم مثل القانون الفرنساوى لا يعاقبه الا اذا عربد . فكم سكران يعربد كل يوم وليلة ياترى وكم سكران يقبض عليه ليعاقب فيكون عبرة لغيره ؟ وكذلك ترى فى لائحة المحال العمومية انه لا يجوز فتحها قبل الساعة ٦ صباحاً من ١٥ اكتوبر الى ١٤ ابريل وقبل الساعة ٥ صباحاً من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر وان ميعاد اقفال هذه المحال يكون فى نصف الليل ابتداء من ١٥ اكتوبر الى

١٤ ابريل وفي الساعة الواحدة بعد نصف الليل من ١٥ ابريل الى ١٤ اكتوبر .
وفي المادة السابعة عشرة من هذه اللائحة لايجوز لاصحاب المحال العمومية أو
لمستخدميها أو للخدمة فيها قبول أشخاص في حالة السكر أو بقاؤهم فيها ولا
صرف المشروبات لهم . ولكن متى نفذت هذه اللائحة ؟ واذا لم تنفذها الحكومة
حتى الآن فمتى يكون تنفيذها ؟ أو انها من جملة اللوائح التي هي حبر على ورق
طول بلا طول ولا طائل

ويا ليتنا نعرف على وجه الصحة كم يدخل المواني المصرية كل سنة من الخمر
المغشوشة وغيرها وكيف تكثر سنة عن سنة وياليت الحكومة تضرب على
واردات الخمر ضرائب فاحشة كالتى ضربتها حكومة السودان ليصعب تناولها على
الفقير ويوكل كما قلنا أمر المشروبات التي تصنع في القطر لرجال الادارة والصحة
ينظرون فيها ويضيقون على شاربها وبائعها تضيقاً فعلياً لا اسمياً . فقد ثبت
لاهل النظر أن الخمر المصنوعة في معامل الغرب الكبرى هي أجود ما يعمل
من نوعها في المعامل الصغرى وكذلك ما يصنع في هذه لانسبة بينه وبين ما
يصنع منه في القطر

وليت شعري لم لا تجرى عليه حكومة مصر في مسألة المسكر على نحو ما تجرى
حكومة السودان ولو فعلت ذلك لما أتى بضع سنين حتى يخف شاربوه ويقل
بائعوه بيننا . ولكن حكومة تلك الجهات تريد هناك رجالا يعملون وهم صحاة
لاسكارى وفي مصر لا يهجمها سكر القوم أم عربدوا ، نعم ان انكثرا نفسها في
بعض الاقاليم من أفريقية منعت المسكرات بتاتا ولكن حكومتنا المباركة
عندنا لم تتسامح بالكحول بل أضافت اليه الحشيش فتأمل حالة أمة ينخر سوس
فساد هذه المواد القتالة عظمها ويعبث في دمهآ ولحمها .

ماذا عرفنا من مضار الخمر ؟ عرفنا انها تحدث نشوة في النفس وطرباً في
الفؤاد ونفعاً في الصحة ونشاطاً في الجسم ونضرة في الوجه وعرف الغرب منذ
أوائل القرن التاسع عشر مضارها في أزهاق الارواح وتشويه الخلقة الطبيعية
وتأثيرها في النسل والعقل وانها يزيد بها عدد المعتوهين بل كاد بعضهم لا يرى

استعمالها حتى في الادوية. يكثر السكر في الاصقاع الباردة مثل روسيا والسويد وشمالى فرنسا ونورمنديا والمكثرا ولكن يكثر مناهضوه وتفكر حكوماته في الخلاص منه فأين هي مجتمعاتنا التي نخطب فيها بمضاره وأين حكومتنا من مناهضته؟ بلى انك ترى زعيم الاحتلال في تقريره مقتبطاً بأن الخمر التي دخلت السودان في العام الماضي « كانت والله الحمد » من النوع الجيد أى الذى لا يضر بصحة المأمورين والموظفين من الانكليز والوطنيين .

آه متى يكون شأن الشرق في السعى وراء المنافع سعى الغرب فيها ؟ الغرب لم يكتب بتأليف المجتمعات لمقاومة المسكرات والنعى على شاربها والتنفير منها بالقدوة والتعليم والارشاد بل عمد الى سن القوانين فاستعان بها لانقاذ أبناء الجيل الحاضر والجيل الآتى من مضار الالكحول وكانت أبداً قوانينه تابعة للزمن سائرة بحسب سنة التكامل

هذه بلاد السويد وهي من البلاد التي يقرص فيها البرد الى التي لا فوقها ومع هذا نراها كما وصفها مكاتب الطان هذه الايام بعد أن كان يصيب الفرد فيها سنة ١٨٣٠ — ٤٠ ليتراً من المسكرات أصبح لا يصيبه أكثر من ٦ لترات سنة ١٨٩٥ بفضل ما قام به قادة الافكار وتابعهم عليه حكومتهم . أى أنه نزل معدل مقطوعة كل فرد في السنة من المسكر الى سدس ما كان عليه قبل ٦٥ سنة

بدأ الافراط في تعاطي المسكرات ببلاد السويد منذ أواخر القرن الثامن عشر لما احتكرت الحكومة الالكحول فاسترسل أهل البلاد في تعاطيها حتى كاد سبلها يحرف كل ما وقف في سبيله ولم يسكر الا بسكر منيع أقامته فئة من أهل الخير وفي مقدمتهم رجل اسمه بطرس ويزلكران عميد مدينة غوتنبورغ . جاهد هذا الرجل ثلاثين سنة حتى وفق عام ١٨٥٥ الى وضع حد لهذا السم القتال فبدأ دور الاصلاح وكان ما عرضه من الافكار أساساً لوضع القوانين الحاضرة في هذا السبيل وكلها ترمى الى معاملة بائعى المسكرات وصانعيها بالقسوة الزائدة

ضربت الحكومة السويدية على صانعى المسكرات ضرائب فاحشة وأخذت تزيدها الحين بعد الآخر حتى بلغت سنة ١٨٨٨ — ١٣٨ فرنكاً على كل هكتولتر أى مائة لتر فعجزت المعامل الصغيرة عن صنع المسكرات اذ قضى على كل معمل

إما أن يخرج أربعة هكتولترات في اليوم من الالكحول الخالصة أو يغلق أبوابه ولم تسمح الحكومة بتنزيل هذا المعدل الى هكتولترين ونصف الا سنة ١٨٧١ وحظرت أيضاً صنع الالكحول الا في شهرين من السنة فقط ثم تساحت ورخصت على توالى السنين بأن تصنع سبعة أشهر في السنة .

وكان من نتائج هذه الذرائع الشديدة أن قل في البلاد عاصرو الخمر . فبعد أن كان سنة ١٨٢٩ - ١٢٤ ١٧٢ معملا في السويد نزل سنة ١٨٩٨ الى ١٢٨ معملا وجعلت تلك الحكومة بيع المسكرات حراً في الجملة الا انها جعلت معدل ما يباع منه بالجملة ٢٥٠ لتراً وأن لا يباع بالمفرق أقل من لتر واحد ليأخذها المبتاع معه ولا يشربها في المحل الذي يشتري منه . وطملت الخانات بالشدة الزائدة وكذلك محال بيع المسكرات فأمرت أهلها أن يغلقوا محالهم الساعة الثامنة مساء في القرى والساعة العاشرة في المدن ولم تسمح لبائع أن يتقاضى مالا من رجل ثمن خمر باعه اياه بالنسيئة .

وجعلت السويد ٤٢ فرنكا ضريبة على كل هكتولتر من الالكحول الصافي وهي ضريبة فاحشة . ومنعت كل مديرية من بيع الخمر في دائرة اختصاصها . فادى ذلك الى الغاء معظم المحال التي تباع بالمفرق بحيث أصبحت لا ترى في قرى بلاد السويد - وسكانها نحو خمسة ملايين - سوى ١٢٣ محلا لبيع المسكرات بل انك تمر في أربع ولايات ولا تجد محلا واحداً لبيعها .

وابتدعت مدينة غوتنبورغ طريقة لفتت اليها الانظار في جميع الاقطار الا وهو ان تعهد بتجارة العرق في كل مقاطعة الى جمعية تضع منها رأس المال . ولكنها لا تأخذ من الارباح الا الفائدة المعتدلة المتعارفة وتترك ما زاد عن ذلك يصرف في أعمال نافعة فنتج من ذلك ان كل جمعية من هذه الجمعيات لم تر من مصلحتها أن تطلب المزيد في توسيع أعمالها وبلغت الحال بكثير من أمثال هذه الجمعيات انها لم تعط جانباً عظيماً من الرخص التي يحق لها اعطاؤها . واذ كانت كل حانة تقدم طعاماً أصبح صاحبها لا يربح من الشراب بقدر ما يربح من الطعام ولذلك كان من مصلحته أن لا يكثر من بيع الالكحول .

وأنشأت هذه الجمعية في مدينة غوتنبورغ مثلاً مطاعم حسنة لا تقدم فيها

للمستطعمين غير نوع من المشروبات فقطرات انه يعين على اشتهاى الطعام وأنشأت
فى انحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها فى السنة نحو ثلثائة الف مطالع.
وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات فى العشرين سنة الاخيرة الى ٤٠ فى
المائة بمدينة استوكهلم والى ٤٥ فى مدينة غوتنبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢
قانوناً اجبارياً يقضى فيه على جميع المدارس أن تلقى دروساً فى طبيعة المشروبات
الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التى لا يحظر دينها تعاطى المشروبات وهى
البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذى قامت به الحكومة المصرية التى تحظر
شربها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرها فى الاستهتار والاسترسال فى
كرع كل ما يخترعه المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون فى أرضها ليبيعوا
من فقيرها الكأس بلملم فىورده موارد الهلاك فى دار الجحيم . فليت أهل شمالى
أفريقية يعملونهم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد فى شمالى أوروبا
فان قالوا فى الاحصاء الاخير ان فى نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف
١٠٨٢٠ محلا لبيع المسكرات بالمفرق وفى باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٠٠
وفى لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلا فانأقول ان فى هذه العاصمة
الاسيפה أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والغبوق من فاسد الكحول
فينفسد الاجسام والعقول

المآدب والاسراف^(١)

فى الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم
أمة فى مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة
مثلا لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً ، ولوتجاف الكذب والتزوير
وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس

(١) نشرت فى جريدة الشرق يوم ٦ ربيع الآخر ١٣٣٦

البشر الآن في ضائقة لم ينلهم بعضها من عهد حفظ التاريخ . أمن المروءة أن ينعم بعض افراده ويسرفوا على حين تكفي فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لان تعول كثيرين من المحاويج ، وأغرب طرق الاسراف أن يفضل المتوسط الذي هو أقرب الى الفقر من الغنى على الاغنياء والمنعمين ليقال عنه انه كريم وهو يرى في أهل محلته والمحتفين به مئات يطوون الليالي على الطوى ولا راحم لانيهم

كثير من أوضاعنا وعاداتنا يحتاج الى أن يعالج بالاصلاح لنعود به الى هدى الاسلام ، أو الى أساليب المدنية الحديثة . فقد أصبحنا في معظم حالاتنا الى القديم ننسب ولا بالحديث نعرف أو نعرف ، فغدا نجتمعنا وفيه كثير من الغث والثر وضروب من سخييف العادات والمراسم .

دعنا منذ أيام أحد المنتسبين للمعارف مئة وثلاثة أشخاص من أهل بلده الى حضور مأدبة لهم أقامها في داره وأطعمهم أجود الطعام وضروب الحلواء والمعجنات ولولا لطف المولى لاصيبوا بالثخمة وسوء الهضم ! وقد كان المدعوون أشثاناً لا تجمع بين كثير منهم الا جامعة السكنى في بقعة وادة ومن العادة أن يجتمع في المآدب الخاصة عند المتمدين أهل طبقة معينة من الناس حتى يأنس المدعوون . يتساوون في الجلوس الى الخوان بحيث يكلمهم صاحب الدعوة ويكلمونه . ولكن هذه الدعوة كانت كما هي معظم الدعوات في هذه الديار لمجرد املاء بطون المدعوين ، كأنهم في مطعم اجتمعوا بالعرض ، ولا جامعة بينهم الا جامعة الالكل .

فتأمل أمشاجاً من الناس يشتركون على طعام وهو ساعة مؤانسة ومباشطة هل يجدون حديثاً يلذهم على السواء وينفض عقد اجتماعهم على لا شيء اللهم الا قشور من حديث معاد وأمور لا كتبها اللسان فلا تنفع في دين ولا دنيا قد يضطر بعض أرباب المروآت الى عشرة المتخالفين في الازواق والمشارب ، وتدعوه الحال الى مباشرتهم والانس معهم أحياناً ، فاذا أراد أن يجمعهم كلهم في صعيد واحد في يوم واحد ، يكون قد أساء اليهم في الحقيقة أكثر مما أحسن ، خصوصاً من علت عاداتهم عن مستوى العادات العامة التي لا ترجع الى أصل من الاصول المتعارفة ، فقد قال حجة الاسلام في باب آداب المآدب من احياء العلوم :

وينبغي للداعي أن لا يدعو من يعلم انه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الاسباب . والغربي اليوم اذا دعا في الغالب انساناً يقول له اويكتب ان مآدبته يكون عليها معه فلان وفلان، فالمدعو اذا لم يرقه الاجتماع باحدهما يكتب قبل ميعاد الدعوة بالاعتذار عن الحضور .

وليمة فيها زهاء مئة مدعو لو أدبت في أرقى عواصم الارض لما حوت الا اخلاط الزمر ، فعلى من اضطر الى دعوة هذا العدد الدثر أو السرية الكاملة ان يقسمها الى خمس مآدب ويقسم الاطعمة وما يتبعها والنفقات وما يتشعب منها على تلك النسبة وهناك تحصل الفائدة من الاجتماع ويعرف كل مدعو انه حضر واستأنس حقيقة ، واذا كان صاحب الدعوة يريد مظهرًا فظهر الخمسة أكبر من مظهر الواحد على كل حال

أقبح ما يقبح من أحوالنا أن نسرف في موطن نحتاج فيه كل الحاجة الى الاقتصاد وصرف المال في سبيله المشروعة ، نطعم أرباب المظاهر ونسرف في الماء كل والمشرّب والملبس ، ثم نشاهد عباد الله يتضورون جوعاً ولا تأخذنا بهم رحمة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الاغنياء دون الفقراء » .

التمهيد الانشوي^(١)

أرى فئة كالفانيات تدللا	تميل مع الاهواء كل مميل
تخال الفتي منهم على ظلمة النهي	لالوان ثوييه سماء أصيل
ملول كما شاء الهوى واقتداؤه	بمن حوله من خلة وخليل
وما وجد الاعمال يوما وانما	ليستحسنوا فيه دلال ملول
وظن الفتي أن التمدن (انشوي)	فتابع فيه كل ذات حليل
تماجن في أشكالها من مصبغ	الى كل مجلو وكل صقيل
الى اللفظ حتى مات كادشفاهه	تبين بلفظ منه غير نحيل

الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه تطارح لحظاً منه غير عليل
دلال جميل بالجمال مهنأ فآه عليه من دلال جميل
أولئك هم شباننا لو عرفتم وهم كل من في مصر غير قليل
مظاهر نبل نافقوا في اصطناعها ألا قبحت من صنعة لنبييل

هذا ما وصف به الرافعي شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتألقون في الزينة فيصفقون شعورهم ويحفقون خدودهم ويقتلون سبلاتهم وينغمون بأصواتهم وربما مزجوا كلامهم ببعض الالفاظ الافرنجية . ويختارون من الالبسة آخر زى من صدرة ملونة مخرمة ، صنعت من القטיפه المزركشة ، وسترة مشقوقة وسراويل ضيقة ، وخاتم ماس في اليد وعصا عقافتها من الذهب ، وحذاء ملوناً ملمعاً ، وطربوشاً مقرناً مكويًا ، وبالجملة كل ما فيه ظاهر مموه . ممن تراهم اذا جمعك بهم الاتفاق وقد عبقت منهم رائحة الطيوب والعطور ، وقد حرصوا على الازياء ، حرصهم على أعز الاشياء

التطيب والتزين والتجمل باللباس الجيد الجديد حسن في ذاته مباح عقلا وشرعا ، أحل لنا كما أحلت الطيبات ، ولكن اذا جاوز صاحبه فيه الحد كان أجدر بربات الحجال منه بالرجال لانه مشغلة عن ارتياد الفضائل والسعى في سبيل الكمال الحقيقي وناهيك بأن من شباننا من يصرفون ساعتين كل يوم في التبرج «التوال» كأنهن بعض النساء يتزين لبعولتهن

وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر في كل ما اقتبسناه من عادات الغربيين فقد اقتدينا بسرف المسرفين منهم ولم نهتد بهدى أهل القصد والاقتصاد ، وجاريناهم في التبرج والتزين بعد أن كانا غير معهودين في الشرق الا للمخنثين ، وشايعناهم على تعاطي المسكر والميسر فأضعنا آدابنا وديننا طمعاً في إحراز هذا التمدن الذي لا يقوم بزعمنا الا بالانسلاخ من وطنيتنا وعاداتنا المستحسنة واقتباس كل عادة تأتينا من طريق الافرنج .

أخذنا عاداتهم بل عادات السفلة والشعوب النازلة منهم بيننا ، وليتنا لما أخذنا ما أخذنا ميزنا بين الصحيح والزيوف والضعيف والمضعوف ، والشريف والمشروف

عميت علينا السبيل فلم تقتد بامثل من جعلناهم قدوتنا في حياتنا بل مددنا اليد الى ما وجدناه عرضاً فلم نسقط الا على الملوث القذر من العادات والاخلاق
أكثرنا من الاسراف في الملبس مثلاً حتى نسينا كل نسبة بين الدخل والخرج فامبراطورة المانيا في أوروبا وهى من جلال المكانة ما هى لا تستنكف أن تدير البسة كبار أولادها لصغارهم عند ما تضيق عنهم حتى لا تطرح شيئاً جزافاً وهو مما يحسن الانتفاع به . والرجل منا قد يصرف على لباسه ربع دخله فيستلف ويعطل ويهون عليه ما يأتى ولو باع الطين ورهن العقار ليلبس كل اسبوع بل كل يوم بذلة جديدة كأنه من نساء الاغنياء في نيويورك لا يهدأ له بال الا أن يظهر غناه ليصدق عليه قولهم في الامثال « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها »

ماذا يقول الكاتب عن مغالة بعض شباننا في الزينة واغراقهم في السرف والترف وما تجلببوا به من عادات لا تلائم الشرق وفقره ودينه ، والغرب يشكو من بقائها بين ظهرائى أبنائه الى اليوم ، ويتمنى لو زعت آخر جرثومة منها عنده لتكون له مدينة تامة كاملة ، وحضارة رجولية لا نسائية هم يفكرون ويكتبون وينصحون ، ونحن تركنا حبل آدابنا على غواربنا . ولا نبالى بما يدخل علينا من غرائبها وسخائفها ، ولكن القوم في أوروبا على ما بلغوه من أسباب التقدم مما نغبطهم على أكثره لم يفتؤا يحاربون نقصهم ويسعون الى تكاملهم ونحن نحارب كالأنا ونسعى الى نقصنا .

أكتب هذا وأماى مبحث جليل لاحد علماء التربية في فرنسا نشره بمناسبة قيام اثنى عشرة ألف معلمة مؤخراً في نيويورك يطالبن حكومتها بأن تنصفهن في الرواتب كما تنصف المعلمين لانهن يقمن بمثل الاعمال التى يقوم بها الرجال فى التربية والتعليم ، فاضطرت الحكومة الى اجابتهن الى مطالبهن ، وزادت ميزانيتهن ثلاثة ملايين دولار عن مدينة نيويورك وحدها

قال : ان تسليم مقاليد التربية للنساء دون الرجال مما يؤخر لان حب التجميل ينغرس فى الصبيان كما لاحظت ذلك اللجنة المؤلفة من مئات من أساتذة الانكليز الذين انتدبهم المستر موسى أحد أغنيائهم منذ بضع سنين للبحث عن طريقة التربية فى الولايات المتحدة ، فكتبوا فى ذلك تقريراً قالوا فيه ان من تأثير تربية

المعاملات قلة أخلاق الرجولية في الامة الاميركانية . ولم تكن ملاحظة هذه اللجنة الاولى من نوعها بل ان غير الاميركيين كثيراً ما كانوا يدهشون مما يبدو لانظارهم من هذا القبيل في أميركا ، ولكن القول يغلو على قدر قائله ومكانة لجنة ولسلي بمن تألفت منهم

قال : وكيف لا تحكم هذه اللجنة على الاميركان ورجالهم يعنون من وراء الزاوية في المحافظة على الست والثلاثين الف قاعدة في مصطلحات التمدن (الاتيكتيت) فيبالغون في التأني بلباسهم مبالغة مفرطة ، ويدققون كل التدقيق في القيام بأقل ما تقتضيه سنة الازياء ، ويرققون ألفاظهم ترفيقاً يقربها أبداً من التكلف ، ولا ينسب ذلك الا لتسليم مقاليد التربية للمرأة . ولو استطاع المرء أن يكون تاماً في هذا المعنى لما كان في ذلك بأس بل قد يحدث كثيراً أن المبالغة في التربي والمنافسة في الحصول على صفات الظرف الذي لم تجعله الطبيعة من خصائصه تعبت بمرورته . قال : ومن سوء أثر هذه التربية في الاميركان ان الرجل يرى نفسه أخط من المرأة مهما تصنع لها ويرى من كرمها أنها تعطف عليه وهكذا حتى أصبح المجتمع الاميركي انثويا فيه من ضروب التكلف والغرابة أشكال وألوان اه

هذا ما قاله كبير من كبار علماء التربية في الحكم على التربية الاميركية فاذا جاء فوصف تربيتهنا أي حكم يصدر علينا يا ترى ؟ تلك التربية الملفقة التي ورثناها من مربية رومية أو فتاة طليانية أو جارية زنجية أو كرجية أو بربري ذى زبيبة أو ماجن ذى أطوار غريبة

ان قالت لجنة ولسلي بأن التمدن الاميركي أصبح انثويا فماذا تقول لو رحلت اليينا وحكمت علينا بدون مشايعة لغرض سياسى ولا بدافع هوى نفسى . لا جرم انها تقول ما قاله شاعرنا الرافعى :

وظن الفتى ان التمدن انثوى فتابع فيه كل ذات حليل

تكريم النزاهة^(١)

توفى منذ أيام رجلا ن عظيمان من عمال الحكومة أحدهما كامل بك والى سيواس
الاسبق والثانى كامل بك الصالح رئيس محكمة استئناف سورية سابقاً . واحد
خدم فى أرقى مناصب الادارة فى الولايات وطاف ينفها وحجازها وطرابلس غربها
وأناضولها . والآ خر بلغ أرقى مناصب القضاء فى الولايات وتقاب فى اعطافها شرفا
وغرباً . نخدم كل منهما الحكومة زهاء خمس وأربعين سنة ورائده أمانته وصدقه .
وتفانيه فى مسلك النزاهة والعفة

ولد هذان الموظفان الكاملان فى مدينة صيدا (الشام) وماتا فى يوم واحد فى هذه
المدينة (دمشق) وشبا وشابا فى حسن الخدمة ، وتشابهانى أكثر الوجوه ، وماتا
ولم يخلفا وراءهما من حطام الدنيا الا ما لا يكاد يرضى به من كان فى عمله بعدهما
بعشر درجات من الكتاب والحساب ولكن الكاملين خلفا ثروة لا ينضب على
الايام معينها . ونعنى بها كنز استقامتهما وعزة نفسيهما فعفا عن كل ما يقال له
الرشاوى والهدايا والصلات من أموال الامة ، وخدامها خدمة صادقة رائدها
الاخلاص وسداها ولحمها العلم والعمل الحقيقى .

كثير من الناس من يتولون من المناصب أرقاها ، ويجمعون من المال أوقافها ،
وينالون من مراقى العز منتهاها ، ولكنهم يذهبون بقبح الاحدوثة وسوء القالة ،
وتلعنهم القلوب اذا لم تلعنهم اللسان ، وهم عند ظنهم قد عاشوا بنعمة ، والحال
أنهم عاشوا أشقياء مرذولين ، وقضوا كذلك فنالوا الخزي فى هذه الدار وفى
الدار الآخرة .

لا يقاس فى نظر التاريخ احترام الرجال بقدر ما ملكت ايمانهم ، وضمت
خزائنها ، بل بقدر ما انتجت عقولهم وشرفت أعمالهم ، وأعظم سلوى يرتضيها
المستقيم فى عمله ويؤثرها على كل فاقة ، ويستعين فى سبيلها بكل صعب هو انه
يحيا غير معذب الوجدان ، مستقل الفكر ، ويموت قدير العين ، لبعده عن الخيانة
والعبث بدماء الناس والعبث فى أموالهم وحقوقهم .

يتهمنا بعض أرباب الأغراض من الجاهلين بأنه يقل فينا معاشر العثمانيين المستقيم
العفيف من رجال الجيش والادارة والقضاء ، وانه اذا وجد العامل الكامل بيننا
يعيش مضطهداً ، ويؤخر عن قصد في سلاسل الترقى ، والحال ان في هذا الامر
نظراً لانه لا يعقل أن تخلو الامة من كتملة ، ومتى غلب فاسدوها على صالحها
فهناك الخراب الحتم . اما ان النزبه يضطهد ولا يرقى فان في ماضى هذه الدولة
وحاضرها مئات من الامثلة على خلاف ذلك ولو كانت الحال على ما يدعون
ما ارتقى فقيدانا العرييان في الولايات هذا الارتقاء ، فثبت ان للاستقامة أناساً
يقدرونها قدرها ، وان النزبه العفيف من العمال يحترمه ويخافه حتى الذى هو
أرقى منه في سلسلة المراتب وتقدم الميلاد

ما اجتمعت بعامل مرتش مهما كانت درجته الا ووجدته خائفاً ذليلاً صغيراً
في نفسه يصانع وينافق ، وما اجتمعت بعامل من أهل الصنف الآخر الا وقرأت
عزة النفس في وجهه والشمم والرفعة الحقيقية في أطواره والجد غالباً عليه في
أقواله وأفعاله .

ومن الغريب ان كل من جمعوا المال وبالفوا في اضاءة حقوق الناس ليغتنوا
بزعمهم ، أصابهم الفقر قبل موتهم وبقيت أنسا لهم معذبة ولم تنل حظاً من التربية
وهى الى الدثور والعفاء أقرب منها الى الحياة والعلاء ، أما الذين ثبتوا على عفة
أيديهم فلم يتناولوا المال الا من طريقه الذى شرع لهم وهو رواتبهم ومخصصاتهم
ونفقات تنقلهم ، فقد رأيناهم عاشوا سعداء منعمين ، موسعاً عليهم وتركوا
لأولادهم تربية سليمة هى أئمن من كل ثمين

مظاهر الحياة كثيرة ، والعمال أقرب الى الغرور من غيرهم لان بأيديهم قوى
لا يمنعونهم عن اساءة استعمالها وازع غير الوازع النفسى ، فمن غلبت شقوته سعادته ،
كان من المغرورين بمظهرهم ، وعبت بالامانة التى اؤتمن عليها وأى أمانة أعظم
من مصالح الناس وحقوقهم ودماهم ؟ ومن كانت سعادته غالبية شقوته ارتضى
باحقاق الحق وازهاق الباطل وعامل الرعية وهى وديعة الله بين يديه معاملة الاب
المشفق الرحيم ، وهذا هو الذى يقدره الناس ويرحمونه ويدعون له حياً وميتاً
في ظاهريهم وباطنيهم والله لا يضيع عمل عامل

الحاج مصطفى حولاً^(١)

ربما يستغرب القارئ ايراد هذا الاسم في هذا المكان ولكن متى ظهر السبب بطل العجب . هو يستغربه لان صاحبه ليس ذا مظهر ديني ولا دنيوي ولم يحرز لقب باشا ولا بك ولا افندى ولا شيخ ولا سيد لان الظاهر من حاله انه رجل من عامة المسلمين .

نعم هو مسلم هدته الفطرة الى آداب الاسلام بدون أن يدرس في مدرسة دينية أو دنيوية ولا تشبع بمدينة الغرب ولا الشرق وما كان أبوه رب عقار ومزارع ، ولا خلف له أو أحد أقاربه أموالا اكتسبت من غير حلها من مثل وقف أو رشوة أو ظلم أو سرقة بل هو عصامي عاش من تجارته المشروعة وأملأه القليلة

يعرف الرجال أيام المحن ولولم تنشب الحرب ما كان رجل كهذا عاش في ساحل من سواحل البحر الا يرضى يقل الواردون اليه يصبح موضوع الحديث ومحل تجلّة الاقلام ويتناقل خبر احسانه الخاص والعام . وكم خمل في الحرب رجال ونبه رجال

عادة مستحكمة في كثير من الناس أن يولوا الجميل ليقال عنهم ويروى ، ويمدوا أيديهم بالعطاء لان السخاء خلق محمود يحب صاحبه الى القلوب وتطيب نفوس أرباب الغرائز السليمة لسماع أخباره ، بيد ان الرجل الذي ننوه به هنا انبسطت يده بالعطاء مدفوعاً الى ذلك بعامل الدين والانسانية لا طلباً لشهرة ولا ايثاراً لمظهر ولا توقعاً لدنيا مريضة يحاول نيلها

من كان يظن ان تاجراً متوسطاً من تجار ميناء طرابلس الشام يأخذ على نفسه بسائق حميته الوطنية وغيرته الدينية أن يطعم منذ أعلن النفي العام ممّتي انسان كل يوم يطعمهم الماء كل الطيبة ويفرح قلوبهم بالحلواء أحياناً وقد اتفق في هذا السبيل ارباحه زمن الحرب وجانباً من رأس ماله . وعاهد الله في باطنه أن ينفق

على هاتين السريتين من جنده الفقراء حتى آخر درهم من عقاره ، أفلا يجب على كل انسان أن ينادي بارك الله بهذا الانسان .

ثلاث سنين ونصف مضت على الحرب العامة ونفس الحاج مصطفى الكاملة لم ينضب معين قوتها في تعهد البائسين . وثلاث سنين ونصف على الحرب العامة ونفوس أرباب الاحتكار من التجار والمتمولين من أرباب المزارع والعقارات في مدن الشام لم تشبع من جمع المال ولو بايذاء البلاد وساكنيها ، أفلا تقدس الاول ونحتقر الآخرين

عرفت في دمشق وبيروت وحيفا خصوصاً أناساً ليسوا في الطبقة العليا بغناهم يطعمون الفقراء ويلبسونهم ويؤثرونهم ، ومنهم أناس من أرباب المظاهر الدينية وآخرون من أشرف التجار والموسرين ، ولكنني لم يبلغني ان رجلاً من مثل طبقة هذا فادي بماله ووقته في سبيل الله وحاول أن يسد من الفقير جوعته ، ويطفيء في قلب البائس لوعته ، على صورة منظمة لم يهتد اليها العالم النحرير ، ولا الغني الشهير ، ولا الزعيم والامير .

صاحبنا لا يتوقع الا وجه الخالق وبر الخلق بما يسدي . جعل نفسه خادماً للفقراء بالعمل ، واستلذ العطاء وتخفيف البلاء ، استلذذ تلك الطبقة التي غلظت أكبادها ، فلا ترى المصلحة الا بالجمع والمنع ، حتى يخلفوا الاموال لاعتقابهم يفسقون بها ويفجرون فلا هم بها مستمتعون ، ولا الناس بها منتفعون .

يوصى الاغنياء والمتوسطون على الغالب بوصايا مختلفة بعد موتهم كأن ينشئ الموصى جامعاً أو مدرسة أو تكية أو يجري ماء أو يعبد طريقاً ، أو يتعهد طبقة مخصوصة من الناس بشيء من الدراهم يرضخ لهم بها ، أو يطعم أناساً يعينهم أو قراء فقراء يذكروهم ، أو يتامى وإيامى يبرهم ، وذلك بعد أن يكون نقض يده من الحياة ، وفارق الدنيا اضطراراً لا اختياراً ، فلا يسخو بماله على الاغاب الا يوم يتجرد منه بدافع طبيعي ، ولكن الحاج مصطفى حولاً يسخو بماله في حياته يخلص به من الموت أهل البؤس والشقاء ، غير مشفق على نفسه ولا على عياله لا جرم ان مدبر الاكوان ، وخالق الانسان ، والعدل في الخليقة من آياته ،

سيعيد له بتيسيره القرش الذي انفق في البقاء على حياة كثيرين الفأ ويصطفيه ويرحمه . ويبدد ثمن تلك الاموال التي اكتسبها أربابها من طرق دينية في الاكثر ولا رهما بجزء ضئيل منها أهل حيمهم وعشيرتهم في زمن يموت فيه العاجزون جوعا وعريا

المستشرقون ومؤتمرهم^(١)

الاستشراق أو علم المشرقيات هو كما عرفه لاروس علم من العلوم الحديثة ودائرته الحالية واسعة فاذا نظرنا الى الالفاظ من حيث مفهومها نرى ان التعبير عن اللغات الشرقية لا يتناول غير اللهجات التي يتكلم بها في شرق أوروبا في آسيا وفي جزء من افريقية المتصل بآسيا ولكن لفظ الاستشراق يطلق اليوم بتجاوز على لغات أميركا وأفريقية الجنوبية والبلاد الشمالية وآدابها وأخلاق سكانها . فترى اللغة اليونانية الحديثة واللغة الرومانية والروسية تدرس في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس كما تدرس لغات الشرق أي العربية والفارسية والتركية والصينية واليابانية والهندستانية والعبرانية والسريانية والحبشية والقبطية والامحورية . بل ان اللغة المجرية نفسها بالنظر لعلاقتها باللغة التركية والمغولية تدرس هناك كما تدرس اللغات الشرقية .

لم يدخل علم المشرقيات في أسلوب علمي الا في القرن التاسع عشر . وقد كان اليونان واللاتينيون يدعون اللغات الشرقية التي كانوا يعرفونها (كالفارسية والفينيقية وغيرهما) لغة البربر ولذا يهتمون دراستها . وشاعت في القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهما اللغة العبرية التي كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا ولذلك انشئ في باريس منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية

(١) نشرت في المجلد الثامن من مجلة المقتبس (١٩١٤)

ثم ان المذهب البرتستانى توخى البحث عن النص الاصلى للتوراة فحمل
أشباعه على درس العبرية والكلدانية والسريانية. وأنشأ بعد ذلك البابا غريغوريوس
الثالث عشر وأوربانوس الثامن دروساً لتعليم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد
منها المبشرون بالنصرانية وفى سنة ١٦٢٧ أنشئت مدرسة انتشار الايمان . ووفق
المبشرون منذ ذاك العهد يأتون بالآثار النفيسة لخدمة الدروس الشرقية . ونشر
اليسوعيون فى القرن الثامن عشر فى العالم الغربى مدينة الصين واليابان ولغتيهما .
وأنشأ الوزير كولبر فى فرنسا مدرسة الشبان لتعليم اللغات قاصداً بها تخريج تراجم
تستخدمهم حكومتهم فى الشرق وأنشأوا يدرسون اللغة الفارسية والتركية
وانتشرت القصص والحكايات الشرقية أمثال قصة ألف ليلة وليلة والرسائل
الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة
السندسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات فى
طور جديد حسن الاساليب وفى الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف
انكيتيل دوپرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بونابرت على مصر « ١٧٩٨ —
١٧٩٩ » أن بدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى التى اشتهر بها القرن التاسع
عشر وجىء الى أوربا من مدينة رشيد فى مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه
مبدأ درس الآثار المصرية وانحلت لغات دثرت منذ ألوف من السنين كاللغة
الاشورية . وشرعت الحكومات تنفق على البعثات العلمية وتؤسس دروساً لتعلم
تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقية الحية فى مدرسة خاصة
لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً فى كوليج دى فرانس « مدرسة
فرنسا » وكذلك فى مدرسة الدروس العليا فى السكليات . ومن أعظم العلماء الذين
ساعدوا على الاستشراق فى القرن التاسع عشر شامبوليون « فى الآثار المصرية »
واوبرت ولفورمان وراولنسون وهنكس « فى الآثار الاشورية » وبورنوف
وجايمس دار مستتر ومولر ولاسن « فى الآثار الهندية » وسانيلاس جولين
« فى الآثار الصينية »

وكانت رغبة الاوربيين أولاً فى تعلم اللغات الشرقية عن باعث دينى فقد

قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م «المقتبس م ٧ ص ٦٩٥» وكان برئاسة اكلنتس الخامس أن تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وصلبنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيون والدومينيكانيون من الرهبنة الكبرى في أديارهم دروساً في هذه اللغات فاصبحت إيطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعلم في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن أعلم العلماء الربانيين والعربية عن أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة أمثال بنى السمعاني ومن مدارس إيطاليا نشأ العلماء الاول في اللغات القبطية والجيشية والاحرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة في شبه جزيرة إيطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبنديقية وجنوة ونابل وبيزا وظلت اللغة العربية مألوفة في عدة أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالى والشعر والادب

كانت رومية أول مدينة في العالم طبع فيها كتاب عربي عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة في بلاد الطليان بحسب الحكومات وهمم الافراد والمقصد الاصلى دينى والعلميات بالعرض. وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفي أواسط القرن الثامن عشر لما أخذت أوربا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماءها يبحثون في تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون في جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسيوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسيوية في بومباي (١٨٠٥) وأنشئت منذ ذلك العهد في أوربا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين وأقدمها عهداً الجمعية الآسيوية في باريز التي أسست سنة ١٨٢٢ بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيين سلفسترودى سامي وهو أعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيين خاصة وربما كان أعظم مستشرق نبغ ووقع (راجع كتابنا غرائب الغرب) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسيوية وهي خاصة

بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة ومن حواها فكأنما حوى أعظم مكتبة في هذه الابحاث الجليلة تخرج في مدرسة اللغات الحية في باريز كثير من مستشرقى الفرنسيس والامان والاطليان والسويسريين وأنشأت معظم عواصم أوربا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت أول من أسس جمعية شرقية في باتافيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية أقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشاركة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

أنشأ المستشرقون عدة جمعيات في أوربا وأسسوا عدة مطابع شرقية وطبعوا بها ألوفاً من كتب الشرق ولا سيما اللغة العربية فان ما طبع من أمهاتها عندهم هو القسم المهم من كتبنا العلمية والتاريخية والادبية وما زالت الكتب التى طبعتها مطابع باريز واكسفورد ولندن وليدن وغوتنغن وليبسيك ورومية ومجريط وغيرها من حواضر العلم والمدنية في أوربا باللغات العربية هى المفخر الذى يحق لمدينة القرن التاسع عشر والعشرين فى ديار الغرب أن تباهى به الاعصار والامصار

وما برحت أسماء دي ساسى ووستنفيلد وفلوغل وريسك وبوركهار وكارليل وكاترمير ودى سلان وغوليوس وشولتنس واربنوس وهيتسما وشيد ودى بومباى ونيبهر وزوزاريو وكولنبرك وجنستون وستوتن وفين وهوغن وهامز ورازموسن وفلمت وبير ودى روسى وايفلد وغابلنتس وروديغر وسيدليو وكوسان دى برسفال وجوبرت وروزنمولر وكلابروت وهابخت وبولس وفراهن ومهرن وهماكر وفرينل ودى لاغرانج ودى فرجه ورينو ومونك وبرنيه وكباريل وپرون وموله وكازميرسكى ووفريتاغ وكسفارتن ووابك وبرنستين وارنلد ووتستشتين وفترز وفولف وهاربوكر وپورغستال وجوينبول وروردا وفايرس وكورتون وتاسوليس وجونس وغوتوالد وكولسون وكريستيانوفتش وخانيكوف وكاينيكوس وكودرا وموهل وبلن ودى تاسى وسولسى وايفلد وديمانج وشرموا وبوتجانوف وبولديراف وسيانكوفسكى وسافلياف وغريغوريف وبافسكى ونفروتسكى وبرازين وسبنجر وتورنبرغ وخانيكوف ودوزى

وورينخت — ما برحت أسماء هؤلاء الرجال تذكر بالحمد ويطلب لها ثواب عملها هؤلاء بعض أئمة المستشرقين في القرن التاسع عشر من الالمانيين والنسايين والهولانديين والفرنسويين والايطاليين والروسيين والانكليز والاسبانيين والدانيمركيين والاسوجيين والبولونيين والبلجيكيين والاميركيين^(١) ولو جئنا نعدد مشاهيرهم في هذا الربع الاول من القرن العشرين لطلال بنا المطال ومن مشاهير شيوخهم بروكلمان وولهاوزن وغويدي وغولدسبير وهوار وبراون ومرجليوث وفبري وهوتسما وباسه وزترستين وسكيا پارلي وناللينو وهوداس ودرا نبرغ ونيكلسون وموسل وسيبولد وهور وفيتز ويكر وهرتمن ودي فو وموتلنسسكي وتلمان ولامنس ومسنيون وهرغروني ودي كوي وآماري وكاركسماريك وفولرس وشادوبوير وارنولدورسكاودامس وجيزو بارتولد ومورتمان ولشاتليه وبوفا وكاباتون وكور وهاليفي وماسبرو وشيفر ومكدوبل ودوفا ل ودي منار وبارت وسينار وليفى وكازانوفا وروزن وشوفين وشافان ودوسو وموتنيه وسبيرو وشيل وماهفي ودلبروك وكولنيون ودي غوبرنانتيس وبز نبرجر ودافيدس وهوبت وكوهن وكايتاني ولامبروز ونافيل واولد نبرع. هؤلاء بعض من اشتهروا بأثارهم من علماء المشرقيات واتوا على الخاطر ساعة كتابة هذه العجالة وهناك مئات منهم المشهور وآخر الخامل وما منهم ومن سبقوهم من الاعلام الا الذى نشر الآثار النافعة بالعربية أو منقولة من العربية أو عن احدى اللغات الشرقية وفيهم من نشر عشرات من المصنفات كانت بصحتها وفهارسها مادة الآداب العربية وخدم بها بلاده أولاً وهذه اللغة الشريفة ثانياً ومنهم من ينشر الكتاب لقدماء مؤلفي العرب بنصه ويلحق عليه حواشى باللاتينية لغة العلماء أو يترجمه الى اللاتينية وينشره بهذه اللغة فقط ومنهم من يعلق عليه أو يترجمه بلغته كالهولاندية والالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية والاسبانية والروسية والسويدية والمستشرقى كل أمة كبرى عدة جمعيات مهمة راقية واقدمها جمعية باريز وتلتها جمعيات المانيا والاستشراق أرقى ما يكون في بلاد الجرمان الآن والى علماء المشرقيات

(١) جاء الاميركيون متأخرين في الدروس الشرقية ومع هذا فان فيهم مستشرقين نشروا كتباً وآثاراً دلت على فضل ومعرفة بالعربية وآدابها وتاريخها

منهم ومن الهولانديين يعزى الفضل الاكبر في نشرهم كتب اجدادنا في العلم والتاريخ والجغرافيا والادب واللغة والدين . والجرمانيون والهولانديون اقدر الاوربيين على النطق بالعربية وبالنظر لاختصاصهم أو اخصائهم جاء منهم أئمة قل نبوغ أمثالهم في الامم الاخرى ومجلة المستشرقين الالمانية راقية جدا وتتألف منها مكتبة مهمة بحثت كالمجلة الآسيوية الافرنسية في علوم الشرق وآدابه ولغاته ولم تترك شاردة الا احصتها ولا مبجتها الا محصته ونجى بعدها مجلة المستشرقين النمساويين ومجلة المستشرقين الانكليز والاطليان وغيرهم من أمم الحضارة والولوع بالمشروعات

وقد اعتاد المشتغلون بالمشروعات منذ سنة ١٨٧٣ أن يعقدوا مؤتمراتهم يحضره جلة منهم ويكون مقره في احدى العواصم المشهورة وتنتدب الحكومات من يمثلها في تلك المؤتمرات فتتلى فيها الخطب المفيدة والمحاضرات التي تنم عن فضل بحث ودرس في لغات الشرق وعلومه وتاريخه واجتماعه ويتنافس أئمة هذا الشأن في هذا السبيل المحمود وكانت الحكومة العثمانية والحكومة المصرية تنتدب أناساً يمثلونها في المؤتمرات التي عقدت حتى الآن وكان بعضهم من العلماء والادباء وقد عقد المؤتمر الاول سنة ١٨٧٣ في باريز والثاني سنة ١٨٧٦ في لندن والثالث سنة ١٨٧٧ في بطرسبرج والرابع سنة ١٨٧٨ في فلورنسة والخامس سنة ١٨٨١ في برلين والسادس سنة ١٨٨٣ في ليدن والسابع سنة ١٨٨٦ في فينا والثامن سنة ١٨٨٩ في استوكهلم والتاسع سنة ١٨٩٢ في لندن والعاشر سنة ١٨٩٤ في جنيف والحادي عشر سنة ١٨٩٧ في باريز والثاني عشر سنة ١٨٩٩ في رومية والثالث عشر سنة ١٩٠٢ في هامبورغ والرابع عشر سنة ١٩٠٥ في الجزائر والخامس عشر سنة ١٩٠٩ في كوبنهاغن والسادس عشر سنة ١٩١٢ في آئينة ويعقد السابع عشر سنة ١٩١٥ في أكسفورد

وسيكون هذا المؤتمر برئاسة رئيس كلية أكسفورد وعهد برئاسة اللجنة المنظمة الى الاستاذ مكدونلد واللجنة العامة مؤلفة من أساتذة اللغات الشرقية أو من مدارس الدروس الشرقية في كليات ابردين وبريستول وكمبردج ودوبلين وأديمبرغ وغلاسكو وليفربول ولندرا ومنشستر ووسانت اندري وبلاد الغال في بريطانيا العظمى ومن لجان الجمعيات العلمية الانكليزية مثل الجمعية الافريقية

والجمعية التوراتية الأثرية والجمعية البوذية وجمعية آسيا الوسطى والجمعية الصينية وجمعية آثار مصر والجمعية اليابانية وجمعية الابحاث الفلسطينية والجمعية الفارسية والجمعية الاسياوية الملكية وغيرها وستبدأ مداولات المؤتمر يوم ١٣ ايلول ١٩١٥ وتنتهي ١٨ منه وستكون اجامته في علم تعريف الانسان والآثار وفي علم الآثار الاشورية وفي آثار آسيا الوسطى والشرق الاقصى ومصر وأفريقية والهند واللغات والآداب الاسلامية وفي اللغات السامية والآداب السامية وفي آسيا الغربية وإيران وتكون اللغة التي يجوز استخدامها الانكليزية أو الافرنسية أو الالمانية أو الايطالية ومن أراد أن يتكلم بلغة غير هذه وجب عليه أن يطلب الترخيص له بذلك من رئيس اللجنة التي هو أحد أعضائها أو يريد التكلم فيها هذا مانشرناه في المجلد الثامن من مجلة المقتبس بيد أن الحرب العالمية نشأت ولم يعقد المؤتمر فيما نظن وعقد علماء المشرقيات من الالمان ومن والا هم من النمساويين والهولنديين والسكانديناويين مؤتمراتهم بعد الهدنة في مدينة ليبسيك لم تحضره أعضاء الخلفاء من الانكليز والفرنسيين وغيرهم وكانت السياسة مانعة من اجتماع العلماء فقبحت السياسة .

اللقاب العلمية^(١)

ليس في الايدى مستند يركن اليه في تاريخ حدوث الالقاب العلمية في الملة الاسلامية والظاهر انها حدثت في النصف الاخير من عهد بني العباس وشاعت وتأصلت زمن ملوك الطوائف ثم على عهد الدولتين الجركسية والعثمانية في هذه الديار أيام أصبح العلم عبارة عن رسوم ، والعلماء هم الذين يقر بهم الملوك والحكام ولو كانوا أجهل من قاضي جبل ، بل أصبح أمر الالقاب أقرب الى الهزل منه الى الجد فصارت جملة « اعلم العلماء المحققين » تطلق على كل صعلوك نال منصبه في القضاء أو الافتاء أو التدريس بالشفاعة أو القرابة أو الأثر لان العلم في الثلاثة

(١) نشرت في المجلد السابع من مجلة المقتبس

القرون الاخيرة أصبح يورث كما يورث الماعون والخرثى ، والعقار والمزرعة
نعم غدت الالقب العلمية التي لم تطلق على ابي حامد الغزالي وأبي عمرو الجاحظ
وأبي الوليد بن رشد وأبي النصر الفارابي الالبشقي الانفس تطلق على من
يحتاجون أن يرجعوا الى الكتاب بل على عامة ليس لهم من أدوات العلم الا انهم
اعتمدوا بالبياض ولبسوا الجبة على الزى المتعارف لهم

وان الفاظ العالم والعلامة والامام والرباني ^(١) والخبر ^(٢) التي لم تطلق على
اكثر حملة الشريعة والعلم أيام نضارة الدين أصبحت تطلق على الجهلاء
لعهدينا بعد ان كانت هذه الالفاظ تجعل لافراد في الامة امتازوا ميزة ظاهرة
بعقولهم وعلمهم ، وقد تستعرض القطر بل الاقطار بل العصور والاعصار ولا تجد
واحدا يستحق هذه الالقب وصرت اذا دخلت في عهدنا الى مدينة صغيرة كطرابلس
الشام تظن نفسك وجميع من لهم شيء من الذكر قليل أو تولوا منصباً ولو حقيراً
في خدمة الحكومة يعطون لقب « العالم الفاضل » و « العلامة الفاضل » و « الامام
المحدث » بدون تكبير

كان يقال لجبير بن زهير الحضرمي « عالم أهل الشام » ولليخيل بن احمد
« علامة البصرة » ولمالك بن أنس « امام دار الهجرة » ولعبد الله بن عباس
« رباني هذه الامة » أما اليوم فان الفاظ عالم وعلامة وامام تطلق على الممخرقين
والمنتطعين الذين لم ينفعوا الامة بشيء ، فقد كان يلقب بالعلامة الاول قطب
الدين الشيرازي ، كما يطلق لقب العلامة الثاني على سعد الدين التفتازاني على نحو
ما أطلق على ارسطو لقب المعلم الاول وعلى الفارابي لقب المعلم الثاني

تشدد القوم في اطلاق القاب التفضيم حتى على العلماء صيانة لالقابهم من
الابتذال فرأينا العصام في حاشيته على الجامي لا يوافق الجامي باطلاقه على ابن
الحاجب لفظ « العلامة المشتهر في المشارق والمغارب » فقال ان في وصف ابن

(١) الرباني العالم المعلم الذي يغفو الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقال محمد بن علي بن الحنفية لما
مات عبد الله بن عباس اليوم مات رباني هذه الامة وروى عن علي انه قال الناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم
على سبيل النجاة وهمج رعا وأتباع كل ناعق والرباني العالم والراسخ في العلم والدين أو العالم العامل
أو العالي الدرجة في العلم وقيل الرباني المتأله العارف بالله تعالى (٢) قال ابن سيده في التخصيص : ابن
السكيت الخبر والخبر (بكسر الحاء وفتحها) العالم وقال صاحب العين هو العالم من علماء الديانة مسلماً
كان أو ذمياً بعد ان يكون كتابياً والجمع أحبار

الحاجب بالعلامة نظراً لأن هذا اللفظ انما يناسب فيما بين العلماء من جمع جميع أقسام العلوم كما هو حقه من العلوم العقلية والنقلية وليس ابن الحاجب الامن العلماء في العلوم النقلية . ولذا خص من بين العلماء قطب الملة والدين الشيرازى بالعلامة حيث سبق العلماء كلهم في جميع أقسام العلوم

هكذا كان أدب سلفنا أما اليوم فقد استرسل عباد المظاهر في هذا الشأن فسموا الى تلك الالقاب الشريفة التي لم يجوزوا اطلاقها على مثل ابن الحاجب الامام المحقق في فنه وبلغت الحال ببعضهم ان صاروا يكتبونها بأيديهم عن أنفسهم كأن العلامة والعالمية والامامية لا تثبت في الازهان الا بمثل هذا العمل وعندنا ان الاحرى بمن تدور معارفه على الفقه وحده أن يسمى فقيها ان كان ممن برزوا حقيقة في أصوله وفروعه ، ومن اقتصر على الاصول وحده أن يسمى أصولياً ومن غلب عليه علم الحديث أن يقال عنه حديثياً والا فان كلمة عالم لا تقال الا لمن يعمل بما يعلم كما قال بعضهم وان شئت فقل لمن يظهر فيه أثره ويتميز بالجزء نفسه أى امتزاج قال ابن جنى : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملازمة صار كأنه غريزة ولم يكن على أول دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعلماً لا عالماً

جرت على هذه القاعدة الامم الراقية قديماً وأمم المدنية الحديثة لعهدنا فلم يطلق على سقراط وأفلاطون وأرسطو الفلاسفة ألقاب العلماء في بلاد اليونان الا بعد ان قضى كل منهم سنين في التعلم وسنين في التعليم وهكذا رأينا الامم الحديثة لم تطلق على نيوتن وهكسلى وكونت وكانت وكيلى اسم عالم الا بعد ان درسوا الدروس النظامية كلها وبرزوا على رجال عصرهم بفنون مخصوصة أبرزوا فيها آثار علمهم وأثروا في محيطهم

ومن عجيب الاخلاق ان من ينتسبون لشيء من علوم الدين في عهدنا يعز عليهم الا أن تبقى الفاظ العالم والمحقق والعلامة محصورة باهل طبقتهم كأن من يعلم الهندسة أو الطب أو الحقوق أو الصحافة أو السياسة لا يستحق أن يعد في العالمين ولو أيدت علمه أمثلة كثيرة يريدون أن تبقى هذه الالفاظ لهم وكذلك بعض المشتغلين بهذه العلوم الدنيوية يعز عليهم أن يطلقوا الالقاب العلمية على من لا يعملون علومهم في حين رأينا صاحب ارشاد القاصد وصاحب كشف الظنون عدا العلوم كلها دينية

ودنيوية وسميهاها كلها علوماً حتى السحر والطلسمات والشعبذة فذكر الاول من أنواعها مئة نوع والثاني مئة وخمسين نوعاً

وغريب كيف أخرج بعضهم في القديم اسحق بن ابراهيم الموصلي من سلك الفقهاء وكان أخرى أن يعد بينهم لانه يلحن الانعام ويخترع ضروب الغناء ويستغل بالآلات الطرب مع انه ليس دون علماء عصره بعلومهم ولكن غلب عليه الغناء فعدوه في الندماء كما غلب الشعر على بعضهم فعدوه في الشعراء أمثال أبي نواس وما هو في الحقيقة الا من كبار علماء العربية

وانا اذا استقرينا التاريخ على اختلاف العصور نجد أن المنصفين من المؤرخين يذكرون العالمين بغير العلوم الدينية كما يذكرون علماء الدين لانهم كلهم أعضاء نافعون في المجتمع فقد كان خالد بن يزيد الاموي من أهل القرن الاول عالم قريش بالكيمياء والطب بصيراً بهذين العلمين وكان أبو الفضل الخارثي من أهل القرن الخامس عالماً بالهندسة والفلك والحساب والتقسيمات والهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب ومحمد القيسراني من أهل القرن الخامس أيضاً عالماً بالمساحة والميقات والفلك ورضوان الخراساني من أهله أيضاً عالماً بالرياضيات وأبو المجد ابن أبي الحكم من أهل السادس عالماً بالطب والهندسة والنجوم والموسيقى والعدد والغناء والايقاع والامر وسائر الآلات عمل ارغناً وبالغ في اتقانه وكان ابن الصلاح من أهل السادس عالماً بالحكمة متميزاً بالطب وموفق الدين بن المطران من السادس عالماً بالطب والفلسفة وابن المؤيد العرضي ورفيع الدين الجيلي وعز الدين الاربلي من أهل السابع علماء بالفلسفة والرياضيات

وهكذا لو استقصينا كتب التراجم لعثرنا من أسماء المشتغلين بغير العلوم الدينية على سلسلة طويلة وكلهم أطلق عليهم اسم العالم والمحقق والامام والعلامة على رغم أنوف المكابرين وذكريتهم الاعصار بآثارهم أكثر ممن جعلوا مناصب الدين والقاب سبباً الى الدنيا ونيل الخطوة من العامة والزلفى من السلاطين والامراء وقد رأينا بعض المشتغلين بعلوم الشريعة لهدنا يتخلصون من اطلاق لفظ عالم وعلامة على من لم يتزى بزيمهم الخاص بأن يطلقوا عليه اسم الكاتب على ان لفظه كاتب التي يحتقرونها قل في المعدودين من يستحقها قال ضياء الدين بن الاثير

في المثل السائر ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال فلان النحوى و فلان الفقيه و فلان المتكلم و لا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض في كل فن اه

وهذا التحكم البارد في الخط ممن اخصوا في بعض الفنون التي يجملها أكثر المتعممين ولا يعدونها علما في نظرهم تخرج كثيراً من الأئمة من عداد العلماء بحسب عرفهم ممن لم تكن الكتابة الا من جملة ما يعلمون أمثال الجاحظ فانه بحسب عرفهم كاتب فقط لانه مجيد في الانشاء للغاية وكذلك القاضى الفاضل و ابن خلدون و ابن فضل الله و أبو الفدا وغيرهم من مشاهير العلماء الذين كانوا أئمة في الانشاء هذا لان أولئك الاعلام لم يؤلفوا أو لم يريدوا أن يؤلفوا في الفقه والاصول والكلام والحديث على حين ورد في الكتاب العزيز « يعلمه علماء بنى اسرائيل » فاطلق تعالى عليهم لفظ علماء وجاء فيه « والذين أوتوا العلم درجات » قال الراغب ان هذا تنبيه منه تعالى على تفاوت منازل العلوم وتفاوت أربابها

ولقد شاهدنا ما يضحك من تحكم بعض أرباب الصحف السيارة في الالقاب العلمية حتى آل الامر ببعض الفضلاء أن يستنكفوا من ذكر أسمائهم بين أناس لا يلحقون غبارهم بحال لان منشئ كل صحيفة يعطى من الالقاب لمن يحبه ما يستحى العاقل من اطلاقه على أفضل أهل العصر ويمنع ذلك عن المستحق يريد بذلك اسقاطه حتى قال بعضهم : من العلامة أن لا تكون للمرء علامة ، فما دامت لفظة علامة تطلق على المغفلين من الطلبة فأجدر بمن يستحقون هذه اللفظة أن يزهدوا فيها وهكذا لفظ « الاستاذ » و « المعلم » و « الفاضل » وهذه اللفظة اليوم تطلق على تسعة أعشار من يقرأون ويكتبون .

وبعد فان سلسلة الارتقاء وسلسلة الانحطاط نمط واحد يتبع بعضها بعضاً في كل أمة ، والتغالى في الالقاب من جملة تعلق الامة بل من يطلق عليهم الخاصة منها بالقشور دون الباب . وما أجدر أرباب الصحف والمجلات أن يتخلوا عن هذه الألقاب التي لا ميزان لها ولا مقياس وأن يذكروا الاسماء مجردة كما هو اصطلاح الامم الراقية كالانكليز والاميركان والفرنسيين والالمان بل كما كان

اصطلاح أجدادنا العرب صدر الاسلام والجديرون بالوصف تنم أوصافهم عنهم من مثل التعليم زمناً وتخرج طلبة راقين أو الاجادة في التأليف وغير ذلك من سمات الفضل والعلم قال المقدسى أن مراتب السادات مثل جليل وفاضل رسم الرسائل لا رسم التصانيف . والجرائد والمجلات كالكتب لا تخرج عن حد التأليف في صورة أخرى ولذا وجب ان تعرى من الفاظ التمجيد ولا سيما إطلاق الالقاب العلمية على من تذكرهم لان في ذلك تضليلاً للعقول واستهزاء بمقادير أهل الاقدار

التمييز في الالبسة^(١)

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الافكار كما تراه في الاديان بل تراه في اختلاف الهواء والماء . وقد وفق الغرب الى توحيد البسة أهله في القرون الاخيرة أما الشرق فلم يزل بتخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية

اختلاف المشاركة في البستهم قديم فقد كان للقضاة وللجناد وللعلماء والعامة اللبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الاقاليم ودرست المدنيات .

وكان لاهل الذمة في الاسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التي دعا اليها العرف لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزنار ونحوه ولما تبسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في نهاية الرتبة في الحسبة أن يأخذ الذميين بلبسهم فان كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وان كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً أو علق في حلقه صليباً وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر اسود واذا عبر الذمي الى الحمام ينبغي أن يكون

(١) نشرت في المجلد الرابع من مجلة المقتبس

في حلقة صليب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختبر عن غيره
وفي كتاب الخراج لابي يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في
لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات
مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم
مضربة قال وان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أي
أن تكون قلانسهم طوالا مضربة وروى عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى
عامل له فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذكر لي أن كثيراً
من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمام وتركوا المناطق على أوساطهم
واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك
ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة

وفما اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء الذميين في
العصور الاسلامية وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج الا من التحكم البارد
غالباً . قال ابن الاثير في حوادث سنة ٢٣٥ ان المتوكل أمر أهل الذمة بلبس
الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين
في مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد
منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرج من
نساءهم تلبس إزاراً عسلياً ومنعهم من لبس المناطق وأمرهم بهدم بيعهم المحدثه
وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب
ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا في شعائهم
صليباً وأن يستعملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الارض وكتب في
ذلك الى الآفاق .

وقال الذهبي في حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الخاكم كنيسة القمامة بالقدس وكانت
فيها أموال وجواهر ما لا يوصف والزم النصارى بتعليق صلبان كبار على صدورهم
واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلاً بالدمشق من
خشب ومثال رأس العجل كالمدقة وزنها رطل ونصف وأن يشدوا الاجراس في
رقابهم عند دخول الحمامات قال والزم الخاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر

والشام أهل الذمة بالصلبان في أعناقهم والبس اليهود العمام السود نكاية واهنة لبنى العباس قال ابن خلدون وفي سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود الا الخيابرة يلبس العمام السود وان تحمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى وأن يكون في أعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وفي أعناق اليهود الجلاجل ليميزوا عن المسلمين . قلنا وكان في الحاكم لوثة وجنة يأمر اليوم بأمر فينهى عنه في الغد على ما قال المؤرخون .

وذكر الذهبي في حوادث سنة سبعمائة ان النصارى واليهود البست بمصر والشام العمام الزرق والصفير واستمر ذلك . وسنة ٧٣٤ اذمت النصارى واليهود ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود . وروي لسان الدين بن الخطيب ان اسماعيل ابن فرج الخزر جى من ملوك الاندلس اشتهر في اقامة الحدود وارقة المسكرات وحظر تجلى القينات للرجال في الولاة وقصر طريقهم على أجناسهم من الناس وأخذ لليهود الذمة بالتزام سمة تميزهم واسارة تشهرهم وليوفى حقهم من المعاملة التى أمر بها الشرع في الخطاب والطرق وهو شواش (جمع شاشية) أصفر . وذكر صاحب المعجب في سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن انه أمر في آخر أيامه أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلاً من العمام كلوات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزى في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرأ من أيام ابنه أبي عبد الله الى ان غيره أبو عبد الله بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفير وعمام صفير فهم على هذا الزى الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على صنعه من أفرادهم بهذا الزى وتمييزه اياهم به شكه في اسلامهم وكان يقول لو صح عندي اسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرارهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين

ولكنى متردد فى أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام
أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا
يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرءون أولادهم القرآن جارين على ملتنا
وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدرهم وتحويه بيوتهم اه

وقال ابن أبى أصيبعة : حدثنى الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب
النصرانى قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى الى
دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصرانى وهو شاب على رأسه
كوفيه وتخفيفه صغيرة وهو لا بس جوخة ملوطة زرقاء زى أطباء الفرنج وقصد
الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد اليه لعله ينفعه فقال له :
هذا الزى الذى أنت عليه ما يمشى لك به حال فى الطب فى هذه الدولة بين المسلمين
وانما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الاطباء فى بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة
عناية وبقياراً مكحلاً وأمره أن يلبسها . وكان والد المذهب المعروف بالخطير
مرتباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه
فى بدء أمره بمصر انه نصرانى وانه يتصرف فى (عمله) بلا غيار نهاه وأمره بغيار
النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان فبادر هو وأولاده فاسلموا
على يده فآخروه على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الذرورى

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة فى دين احمد

بل ظن ان محاله يبقى له الديوان سرمد

والآن قد صرفوه عنه فدينه فالعود احمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغبار وأن يعمموا بغير عذبة قال عمارة الجنى

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غياراً شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف فى الازياء بين أهل الوطن الواحد وأ كثره كما

ترى ناشئ من ملوك أو فقهاء متعصبين تعصباً ظاهراً مثل المتوكل والحاكم

بأمر الله ولم يسمع بأن رجال الجدى فى الاسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين

ونور الدين تحكموا هذه التحكمات والله أعلم اه

السلطان^(١)

رحم الله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما كان أعقله في الملوك وأبصره بعواقب الامور فقد كان أول العارفين بأن مزج الدين بالدنيا من أضر ما ينهك قوى الامم فتفقد الصفقتين ولا تقوز بالحسنين . ولذلك كان لا يعتمد في تدبير ملكه وقتال عدوه الا على أهل الرأي من الساسة في زمنه ممن استخلصهم في تدبير ملكه كالقاضي الفاضل ومن كان على شاكلته

ولطالما أراد فقهاء عصره على أن يعمل بمشوراتهم في زحزحة الصليبيين عن البلاد ولو وجدوا منه مصغياً لأقوالهم لالتوى عليه القصد ولما وفق الى ما لم يوفق اليه سلطان قبله ولا بعده من دفع صائل تلك الجيوش الجرارة التي انكفأت على الشرق الادنى واستباحته واستصفته أو كادت . والله أعلم ماذا كان مصير الحرمين الشريفين وبيت المقدس الآن لو كانت دخلت أصابع السياسة الخرقاء في طرد أهل الصليب عن مصر والشام

كان صلاح الدين صلاحاً للدين والدنيا يعرف من يعمل بأرائهم من رجاله ولذلك ترك الجامدين من أدعياء العلم جانباً يغدق عليهم من مكارمه ما يقطع به ألسنتهم ويريجهم من عناء الطلب والنصب ، وإذا رفعوا رؤوسهم وأشاروا اليه بأنه نبذ مشوراتهم ظهرياً أشار إليهم بلسان الحال بأن السياسة ليست من شأنهم وأنه يكفيهم أن يحسنوا الاضطلاع بشؤونهم الخاصة وما يفرض عليهم المجتمع العمل به وهم اذا جودوه وأحسنوه يحسنون للامة كل الاحسان

هكذا كان السلطان صلاح الدين في القرون الوسطى يعرف من أين تؤكل الكتف في فصل السلطتين الدينية عن الدنيوية . وسلطان المغرب الاقصى الحالي وهو في هذا العصر وناهيك به يقيم على أبواب أوروبا وتؤثر فيه عوامل أرباب السلطة الدينية من اضراب ماء العينين ومن لف لفه من مشايخ الطرق

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ١٣ رجب سنة ١٣٢٠ (١٩٠٧)

وزعانة المتفكحة وغوغاء الممخرقين ممن يدعون الكشف والسحر والطلسمات
ما نظن أن غلو مولاي عبد العزيز في الافضال على أولئك الجامدين وتقريبهم
منه والعمل بمشوراتهم ناتج عن تدين حقيقي فإله أعلم بما هنالك . ولكن تلك
الفئة توصلت بدهائها على توالى العصور أن تجعل لها موقعا من نفوس سلاطين
المغرب فأثرت فيهم بما تريد وصرفتهم على أمرها في تدبير ذلك الملك الضخم وفض
شؤونه الداخلية والخارجية

يشهد أولئك الجامدون لسلاطين المغرب بامارة المؤمنين ، ويقر هؤلاء
لأولئك بأنهم ورثة الانبياء والمرسلين ، وهكذا فالنفع متبادل والمصلحة مشتركة
فهم على حد المثل السائر « أضيء لى أقدح لك »

جاء عهد على المملكة العثمانية في التاريخ كادت تنمى بما منيت به مملكة المغرب
الاقصى من دخول رجال الدين في السياسة والعبث بضعف عقولهم في شؤون
الامة وعقد سلمها وحربها والهيمنة على عمراتها والاشراف على خصوصياتها
وعمومياتها ولكن بعض سلاطينها وزرائها أدركوا عاقبة تأثير رجال التكايا
في عقول أهل السياسة والرأى ومذ ذاك العهد وأظنه كان على زمن السلطان
سليمان القانونى دخلت الدولة في طور الحكومات المدنية .

ولو ظلت العناية بساكنى التكايا والاخذ بآرائهم في المملكة العثمانية لما
كننا اليوم نلبس الطربوش ولا السراويل والسترات الافرنجية بل ولا نطبع
الكتب والمصاحف لان الفقهاء في الاستانة حرّموا كل ذلك عندما أراد السلاطين
إدخاله في بلادهم !

نعم لو ظل العمل بتلك الآراء الغربية لما كانت الدولة العثمانية بجنديتها وتنظيم
شؤون ادارتها بأرقى من حكومة الافغان الآن وما العهد ببعيد بتحريم أهل
الجمود على أميرها في العهد الاخير اجتماعه بحاكم الهند أيام رحلته مؤخراً اليها
وتناول طعام الافرنج ولبس لباسهم ومعاشرتهم بالمعروف . ولو لم يكن للامير
جيش يستमित في الدفاع عنه اذا طرأ طارئ لكننا سمعنا بان ذاك الدهماء من
الاغبياء تمكن من التغلب على أميرهم ووسدوا الحكم الى من ترضيهم سياسته
وحالته وشايعهم على أفكارهم وهي لو صحت مرة لكذبت مرات وأفسدت على
الناس أمرهم

من لنا بمن يلقي على مسامع مولاي عبد العزيز هذه النصيحة ليتخذ له بطاقة من أهل الرأي الرجيح حتى ولو بجلهم من مملكة أخرى للاستعانة بهم على تدبير مملكته . ليت من يقرأ له هذه الكلمات القليلة ولو ينقلها في قطعة من الورق لان قراءة الجرائد محرمة عند السلطان بفتوى من علمائه فما الحال فيما خوض فيه من الافكار

حرية الامم^(١)

البشر سائرون في طريق النظام والحرية آخذون نحو الكمال ينشؤون في حياتهم القومية ، على غير نشأة الجاهلية ، ويرون السعادة الابدية في احترام الحقوق الشخصية وللعمومية ، والقيام على أسباب الحياة المادية والمعنوية . ما أتى على الناس دهر مثل هذا ، دخلت فيه مصالحهم تحت قوانين مقررة ، وأصول محررة ، وما عهدت للعلم سلطة عمت البحر والبر ، والفاجر والبر ، والابيض والاسود ، بل والنبات والجماد ، مثل هذا القرن الغريب في شأنه ، الغريب في سلطانه ، فكأن روح الارتقاء كالنسيم تسرى في الهواء والماء وتنزل احشاء الكبير ، كما تحمل في صدر الصغير ، ولكنها نسيمات محمية لا مميتة ، وجرائم ذفعة لا ضارة

العلم نور يصعب بعد الآن أن يعم فريقاً دون آخر ، وينير بلد أو يغفل آخر ، وبتأثيره لن يقوى الظالمون على أتيان ما كانوا يأتونه من هضم حق المستضعفين والمغلوبين

هذا النور يتقبله أفراد من علية كل أمة ممن رجحت أحلامهم وسلمت أبصارهم وبصائرهم فيوليههم ارتقاء يتقلب في أدواره كالجنين ، حتى تضعه أمه ثم تربيته وتغذيه الى أن يكون منه رجل تام الادوات أو ناقصها بحسب محيطه وبيئته ما ارتقت أمة بصعاليكها ارتقاءها بأعظمها ، ما فنيت أمة في واحد الاضعف

أمرها واستبيح حماها ، وما وكلت شأنها لاهل العقول الكبيرة الا قويت .
وما سعادة الامة الا بقدر ما لديها من هذه العقول المثقفة التي تفكر وتمحض ،
وتدبر وتدرب ، وعلى نسبة غذائهم ومضائهم ، يكون ارتقاء أممتهم .
كل أمة نام خيرة أبنائها عن الطلب بحقوقها يضيعها مرور الزمن . وكل
شعب استسلم وسالم تفقد منه غريزة الشجاعة اللازمة في عراك هذا العالم فيذل
ويخزي . بل كل أمة لا يتولى أهل الرأي منها أمرها ، تضعف وتصير في مؤخرة
السفينة ، البشرية مقطورة بغيرها مستعبدة له .

فالامة التي لا تسعى الى تكثير سواد أرباب الرأي وتأخذ بأيديهم ، ليم
لهم ما هو أرقى ما تنصرف اليه اطعاهم من حياتهم ، من تحسين حال المحتفين بهم ،
هي أمة ميتة شريرة ظالمة ، عاملة على دمارها
ولوجدت تستفتي التاريخ في هذا الشأن لقرأت فيه مئات الامثلة مما فيه عبرة
لمعتبر ، وزاجر لمزدجر ، وما لنا والا يغال فيه الى القديم ففي التاريخ الحديث
أمثلة كثيرة . فقد نالت الولايات المتحدة ما نالت من الاستقلال بفضل فئة
من رجالها تعلموا على الامة الانكليزية وهم خيرة أبنائها فبزوها وتخلصوا منها ،
وكذلك كان من جمهوريات الجنوب فلها نزع ربقتها من حكم اسبانيا والبرتغال
لما ارتقت عقول أبنائها وتولى زعامتها عقلاؤها

ولو تقصيت تاريخ كل أمة صغيرة كانت أو كبيرة شرقية أو غربية نالت
حظها من نور العلم والسعادة الحقيقية لا تجده نشأ الا بفضل أهل الرأي منها ممن
تجردوا عن سفساف الامور ، وتزهدوا عن الاهواء النفسية

وتاريخ انكلترا والمانيا وايطاليا وفرنسا واليابان شاهد عدل أبد الدهر بأن
العقل هو الذي دبر ما دبر ، وان ما نراه ونعجب به من آثار اجتماعهم ونظامهم ،
هو من عمل السنين ونتيجة الانسكاش والتوفر وحسن التدبير . ولقد نرى العقلاء
يصرفون الامر بواسع حكمتهم ، ويدبرون أمور قومهم تدبير من طب لمن حب
الامم تقتبس بعضها عن بعض ، فان كانوا قادة حركتها عقلاء تأخذ عنهم النافع ،
وان كانوا جهلاء يخلط عليها الامر ، وتتناول الغث والسمين بلا تمييز . فقد كان
من نتائج الثورة الفرنسية سنة ١٨٤٨ أن انعكست صورة منها على المانيا وكانت

العقول قد تخمرت ، والنفوس قد استعدت ، فحدث فيها انقلاب عام ، وقام العامة بتدريب الخاصة يطالبون الحكومة بالاصلاح ، فاستسلمت لمطالبهم لانها رأت الحركة عامة . ومن عادة الحكومات أن لا تحرك ساكناً اذا رأت السواد الاعظم عليها متألين

قال صاحب كتاب المانيا الحديثة ونشورها^(١) : «خاف الامراء ووطأوا رؤسهم من عاقبة هذا الانتقاض ، وخف ملك ورتمبرغ وكبار دوقات بادوهيس ومجلس الشيوخ في فرنكفورت فأصدروا أمراً باطلاق حرية الصحافة . وأصاب مجلس الامة في فرنكفورت دوار عظيم ، فعزم على اعادة النظر في صك الوحدة الوطنية وجمع شتات الامة الالمانية ، ودعا الحكومات الالمانية لارسال مندوبين عنها ليتفاوضوا في هذا الشأن .

ونشأت اضطرابات في مونيخ أدت الى تنازل الملك لويز الاول عن الملك وارتقاء ماكسيميليان الثانى الى العرش وتأليف وزارة حرة ، وتعدى الحال الى فيينا فنشأت فيها ثورة قضت على طريقة مرنىخ فى الحكم ، ونهضت كل من المجر وايطاليا الى مثل هذا الغرض . ونشبت الفتنة فى برلين وأصبح الملك والعاصمة تحت أمر الثائرين ، واندكت معالم الحكم المطلق

وكان فى رأس تلك الاعمال جماعة من أهل الطبقة الوسطى المهذبة من الاساتذة والكتاب والمحامين والاطباء والتجار وأرباب المعامل كلهم يطالبون باتحاد كلمة الامارات الالمانية واحلال الحرية محل العبودية ، وتدور أهم مطالبهم على دعوة دار ندوة وطنية واطلاق حرية الصحافة وانشاء مجلس محكمين ، والاستعاضة عن جيوش دائمة بتسليح الامة

وكان بين تلك الصفوف من الحزب الحر فريق عظيم يرى الاعتدال خيراً من التطرف وأن يعمد الى مخاطبة الملوك والامراء فى تحقيق مطالب الاصلاح وفريق يرى الغاء سلطة الاشراف والملك وانشاء نظام جمهورى ووراء تينك الطبقتين سواد عظيم من السكان ، يطالبون ما عدا الاصلاحات السياسية باصلاحات اجتماعية ، تكون فيها السعادة العامة ، ويراد بها مساواة الجميع والغاء امتيازات كبار المزارعين

في القرى واصلاح القانون الصناعى فى المدن ، وحماية أرباب الصنائع من منافسة
المعامل ، وحماية رجل المعمل من مديره

كل هذه الحركة الثورية أدت الى اجتماع دار الندوة فى فرنكفورت وقد
طلب الشعب تنظيمها واجتماعها بنفسه وبواسطة أهل الثقة والرأى منه ولم يسع
الحكومة الا أن تدير هذه الحركة ولكنهم طلبوا اجتماع دار الندوة وخصوصا
بالانتخاب ورضوا بأن يجتمع النواب الذين ينتخبون بالانتخاب العام ليجتمعوا
ويتفاوضوا فى مصالح البلاد العامة ويساعدوا الامراء وصار القول الفصل للاحرار
ومن ذلك نشأت الوحدة الالمانية التى بهرت آثارها

هذا ما جرى فى المانيا فى سبيل التحرير من رق العبودية ، وغريب فى أمر
الالمان والانكليز فانهم نالوا حريتهم من ملوكهم بالتدريج ولم يريقوا فيها دما،
على العكس فى الفرنسيس فانهم نالوا ما نالوا بعد أن بذلوا مهجاتهم ، فليت كل
أمة قضى عليها بالاستعباد تنال حريتها على أيدي عقلائها بدون فتنه كما نالتها
المانيا وانكثرتا فلا خير فى الفنن مهما كانت النتائج ولا خير فى أمة لا يتولى
عقلاؤها شئونها

صلاح الدين

ومدونو سيرته

لو كان تاريخ العرب يدرس فى مدارسنا على أصوله لوجب أن تدرس سيرة
السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والجزيرة
كما تدرس سيرة الخلفاء الراشدين فقد مضت القرون بعد الخليفة المأمون العباسى
ولم ينشأ للعرب ملك كصلاح الدين بعقله وعدله وحلمه وحسن بلائه . وقد دونت
سيرته فى عهده فكان عند المشاركة والمغاربة انموذج الملك الحازم العاقل وأحق
ما يرجع اليه فى سيرته رحمه الله من الكتب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية لبهاء الدين بن شداد من قضاة الملك الناصر وكتاب الفتح القسى فى

الفتح القدسي لعلماد الدين الكاتب أحد كتاب ديوانه ثم يؤخذ ممن كان في عصره أو قريباً منه أمثال ابن الاثير صاحب الكامل وأبي القدا صاحب حماة أو عن صاحب تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة وذيله له أما كتاب النوادر فهو على أسلوب المؤرخ كتب بعبارة مرسلة لا تكلف فيها، صيغ فيه اللفظ على قدر المعنى بخلاف الفتح القسي فانه راعي فيه السجع من أوله الى آخره حتى يكاد يعمل قارئه وتشغله الالتفات والجناسات والترصيع وعويص اللغة عن تدبر المعنى ودخوله الآذان بلا استئذان على انه من سجنه في الاحيان ما يجيء عفواً القريحة فيكون المعجب المطرب مثل فصل « ذكر حال نساء الفرنج » فانه أبدع فيه كل الابداع وان كان على ما يظهر ركب مركب الغلو في تمثيل حالهن .

ولقد تدبرنا سيرة الملك الناصر صلاح الدين منذ ولد في قلعة تكريت (٥٣٢ هـ) وكان والده أيوب بن شاذي والياً بها الى أن جاء الموصل مع والده وقد ترعرع الى أن انتقل معه الى الشام وأعطى والده بعلبك الى أن اتصل بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الى أن ذهب صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر الى أن ملك مصر وأزال دولة العاضد الفاطمية وخطب للدولة العباسية الى أن فتح الشام واستخلص أكثر بلاد الساحل الشامي والقدس من الافرنج الى أن توفاه الله في دمشق بعد جهاد أربع سنين في الصليبيين — تدبرنا كل هذا فلم نحص له زلة ولا شهدنا له الا ما ينطبق على مكارم الاخلاق والعدل المتناهي والحلم الذي دونه حلم أحنف ومعاوية ولولا ما دسه الفقهاء عليه من تزوين قتل الشهاب السهروردي الفيلسوف لخرجت صحيفة حياته كلها بيضاء نقيه قال ابن شداد ان هذا السلطان كان « مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي قيل عنه انه كان معانداً للشرائع معطلاً وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فامر بقتله فطلبه اياماً فقتله » هذه رواية ابن شداد وهو من الفقهاء أورد هذه القصة في معرض ان السلطان يعظم شعائر الدين واثبات انه يقول بالبعث والنشور ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار

الا ان ابن أبي أصيبعة قال في حقيقة قتل الشهاب السهروردي انه لما أتى الى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره أحد كثير تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينهم وبينه من المباحث والكلام فتكلم معهم بكلام كثير وبأن له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله ولا سبيل الى اطلاقه ولا يبقى بوجه من الوجوه ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وأيقن انه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار أن يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى أن يلقى الله تعالى ففعل به ذلك وكان في أواخر سنة ست وثمانين وخمسة بقلة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة . قال صاحب طبقات الاطباء ان السهروردي صار له شأن عظيم عند الملك الظاهر وبحث مع الفقهاء في المذاهب وعجزهم واستطال على أهل حلب وصار يكلمهم كلام من هو أعلى قدرأ منهم فتمعصبوا عليه وأفتوا في دمه حتى قتل وقيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه ثم ان الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين أفتوا في دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم وأهانهم وأخذ منهم أموالاً عظيمة .

هذه الغلظة الوحيدة هي التي أحصيت لصلاح الدين وهي في الحقيقة انتقام المتفهمة من المتفلسفة أو النقل من العقل — وهذا الانتقام ما برح على أشده في كل زمان ولا سيما منذ القرن السادس الى آخر العاشر فانه قتل في بلاد الاسلام كثير من الاعاظم أو اضطهدوا وأوذوا من قبل أعداء الفلسفة وما عدا ذلك فان صلاح الدين لا يلام على قتل أحد من الصليبيين لانهم اخشواهم في أسراهم وعاهدوا نخانوا ومثل من قتلهم من المصريين للقضاء على الدولة العبيدية أو من

قاموا يدعون اليهم بعد أن زالت دولتهم وفي جملتهم عمارة التي الشاعر كل ذلك
يغتفر له لانه في سبيل تأييد سلطانه والملك عقيم كما قيل .
ومما ذكره ابن شداد في عدله انه كان رؤفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي
وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة
والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز
هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرأ وحضراً على انه كان في جميع زمانه قابلاً
لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً
للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكتّاب ساعة اما في الليل أو في النهار
ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا متنقلاً ولا
طالب حاجة وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى
بقصته ولقد رأيتّه واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على
تقى الدين ابن أخيه فانفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقى الدين من أعز
الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنّه لم يحابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر
يدعى عمر الخلطي وذلك اني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ
دخل على شيخ مسن تاجر معروف يسمى عمر الخلطي معه كتاب حكى يسأل
فتحه فسألته من خصمك فقال : خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعت
انك لا تحابي قلت : وفي أي قضية هو خصمك فقال : ان سنقر الخلطي كان
مملوكي ولم يزل على ملكي الى أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات
عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له : يا شيخ وما أقعدك الى
هذه الغاية فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكى ينطق بأنه
لم يزل في ملكي الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته
يتضمن حلية سنقر الخلطي وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم
الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل في ملكه الى أن شذ عن يده في
سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط
الى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل : لا ينبغي سماع هذا بلا وجود

الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثل
بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال :
كنت نظرت فى الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيت متصلاً الورود والقبول الى
دمشق وقد كتب عليه كتاب حكى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق
شهود معروفون فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل فى القضية
ما يقتضيه الشرع

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معى خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولا بد أن
نسمع دعواه فقال : أقم عنى وكيلاً يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخرف فتح
الكتاب الى حين حضور الرجل ها هنا ففعلت ذلك ثم احضر الرجل واستدناه
حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : ان
كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً فاجابه
السلطان ان سنقر هذا كان مملوكى ولم يزل على ملكى حتى اعتقته وتوفى وخلف
ما خلفه لورثته فقال الرجل : لى بيته تشهد بما ادعيته ثم سأل فتح كتابه ففتحه
فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندى من يشهد ان سنقر هذا
فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدي بمصر وانى اشتريته مع ثمانية أنفس فى
تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدي وملكى الى أن اعتقته
ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة
كما ذكرها التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له : يا مولاي هذا الرجل ما فعل
ذلك الا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائباً
للقصد فقال : هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عنى مقدارها قال
ابن شداد فانظر الى ما فى طي هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع
والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخدة مع القدرة
التامة اه .

مثل هذا الفاتح العظيم مات ولم يحفظ ما يجب عليه به الزكاة فان صدقة النفل
استرقت جميع ما ملكه من الاموال فملك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب
والفضة الا سبعة وأربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا
داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك

وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد (ديار بكر) وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياها وهو يعطى في وقت الضيق كما يعطى في حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم منهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه قال ابن شداد : وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول : اعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً وما سمعته قط يقول : قد زدت مراراً فكم أزيد واكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما اطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى : قد تجاريننا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس ولم يكدر بركب فرساً الا وقد وعد بأن يعطيها لاحد طلاب عطاياه . وبالجملة فان ما ذكره العماد وابن الشداد عن خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واهتمامه بأمر الجهاد وصبره واحتسابه وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة هو العجب العجيب وقررة عين المسلمين والعرب على مر السنين والاحقاب .

يرى الناظر في كتاب العماد الكاتب الاصفهاني انه لم يكدر يغفل تفاصيل الوقائع الصلاحية أو يشذ عنه نادرة من النوادر اليوسفية الايوبية على ضيق عطن النشر والسجع عن قبول هذه المعاني بحملتها ويعاب على الاصفهاني كثرة تبججه بكتابته فقد ذكر غير ما مرة من كتابته انه كان هو الفرد المقدم في الديوان الصلاحي مع ان ابن شداد ذكر عن نفسه شيئاً من ذلك بالعرض أورده كإرأيته في معرض الكلام عن منائح صلاح الدين ولكن صاحبنا العماد جرى على عادة الفرس في المبالغة سامحه الله

فقال في فتح بيروت : « وكنت يومئذ في مرض قد أزعجني وأعجزني ومضض أجفاني واعيون العواد أبرزني وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب في ديوانه وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك وأعيانه فلم ير ضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه فجاءني في تلك الحالة

من استملاه منى ومرضت أذهان الاصحاء ولم يمرض ذهني فتسلم بيروت بخطي وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره والفوا الصحة فيه فالقوه ولقوا السقم في غيره فانقوه فلم يكن في ذلك التوقييع تعويق بل كله بتوفيق من الله توثيق فما فتح فتح الا بمفتاحه ولا رتق فتق الا باصلاحه ولا جلى ظلام الا باصباحه ولا وري زند الا باقتداحه . اهـ »

وقال من فصل : وكان قد عرض له مرض فانقلب الى دمشق يداوى مزاجه فلما عاد الى الحضرة سألته السلطان : « أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت في الجحىء فما أخطأت وقد كنا في انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أوانك فأجر بنانك بجرأة بيانك واجز في ميدانك وما للبشائر (بفتح القدس) الا واصفها وللقرائد الا راصفها وللقصاحة الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على الشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه في كتاب الديوان العزيز فقال : لهذا من هو أقوم به وعنائى فلما ساءنى نادانى واستدنانى فصرفت الى امثال أمره عنانى وسلم الى الكتب التى كتبوها بالالفاظ التى رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه انى اعدل معوجها وابدل مشبجها وافترع المعنى البكر للفتح البكر وأوشح ذكر آياته بآيات الذكر فاستجديتها فما استجديتها واستملحتها فما استملحتها وشتمتها وبها سهك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك فشرعت فى اقتضاض الالبكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحة واقتراء رحاب الكلام الفصيحة الفسيحة وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ووشجت ووشعت وشعبت وأشعبت وأطبت وأطببت وصبت وأصببت وأعجزت وأعجبت وأطربت وأطربت وأبعدت وأبدعت وصرعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وأنست . . . اهـ »

وقال فى الوقعة العادلية : « ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلثين أربعين كتاباً بالبشارات بأبلغ المعانى وأبرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة والبشائر شائرة وركبت أنا والقاضى بهاء الدين بن شداد

لمشاهدة ما هنالك من أشلاء صرعى وأجساد فما أعجل ما سلبوا وعروا وفروا وقروا
وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها قاتلة وسمعناها
وهي خامدة بالعبرة قاتلة وما زلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى
ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التي نمتها بالبشائر التي
حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطاني وعدم اجابتي لما دعاني فما صبر ولا
انتظر ولا ترقبني أن احضر ولا امهل ان اعطى البشارة حقها واجلو بأنوار
المعاني افقها وابلغ بالبلاغة مداها واصبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف
بحدود الاقلام ما صنعتها حدود السيوف وأروج نقودي عند السلطان واغنيه
عن الزئوف فابصرت عنده مشرفي المطابخ والايات ومدوني الجرائد بالاثبات
وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة في رقاع خفيفة بعبارات سخيفة وقد
عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها
فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الواقعة عند من وقعت
عليها وقع ولا تم لغليل من رام الاطلاع على حقيقتها تقع وأرادوا بدمشق قراءتها
على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتي وبراعتي زينوها وفي تلك
الحال التفت السلطان الى وقال اكتب بهذه البشارة الى بغذاذ وعجل بها الانقاذ
فقلت في سبيل العتب أنتم تريدون ما اكتبه ولا ترغبون فيما ارتبه وأهذه
فقال كأنك كتبت البشائر فهاها حتى تهدي الى طرقاتها فقلت ما فات وهيات
هيات وأخرجت له ما بقى من بشارات البلاد التي أشتأها بالانفاذ والمعاني التي
ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب
الجديد وصدحت باسجاعها المنابر وصمت بسماعها المفارخ وظهرت بعباراتها العبر
وبهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المعاني وعمت مباهجها مناهج الاقاصي
والأداني . اهـ

وقال من هذا البحر والقفافية « في ذكر لطف من الله في حقى خفى كان
السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضي بن قريش
لمكاتبة الاصحاح ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء
وجواباً بخطي وخرج حكم عكا في الكتابة عن شرطى فقلت لأصحابي ما صرف

الله قلمي عن عكاء إلا وفي علمه أن الكفر اليها يعود وأن النحوس تجلبها وترحل عنها السعود واستعاذني الله من استعاذتها وردها الى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلمي وكلى وعرف شيم مخايل الطاقة من شيمى وهذا قلم جمعت به أشقات العلوم مدة عمرى وما أجراه الله إلا بأجرى فالحمد لله الذى صانه وعظم شأنه وما ضيع احسانه وهو للفقير والفتيا وصالح الدين فى الدنيا وما عرف الا بعرف فما صرف إلا عن صرف وما صفارته الا فى نيج وما أسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو يمين لدولة وأمينها ومعين الملة بل معينها بمداده يستمد امدادها وبسداده للشغور سدادها ودوائه دواء المعضلات وبعقده حل المشكلات وبخطه حط عوادى الخطوب وبقطه قط هوادى القطوب وببريه برىء الامراض وبدره درالاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبداريه ابتسام الاقبال والقبول وبجرية جرى الجياد للجهاد وبسعيه سعى الامجاد للانجاد وبمركته سكون الدهماء وببركته ركون الرجا فما كان الله ليضيعه فى صون ما لا يصونه وعون ما لا يعينه خفت على عكاء من وقوف قلمي عنها وكان قد ألهمنى الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفة والعارفة الطريفة اه .

وقال من فصل فى وفاة السلطان وكيف كانت حاله بعده : « وبقيت تلك الايام لا أفرق بين الدجى والضحى ولا أجد قلبى من سقم الهم وسكره صبح ولا صحا وحالت حالى وزال إدلالى وزاد بلبالى وبطل حقى واتسع خرقى وتنازل جاهى وتنازق أشباهى وأعضلت أدواء الدواهي وبقيت المعارف متبكرة والمطالع مكفرة والعيون شاخصة والظلال قاصمة والأيدى يابسة والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطرى عانسة ونجوم قرأئى وشواردها الآنسة خانسة وبقى باب كل مرتجى مرتجياً ومنهيج كل معروف منهجاً وظعن الغنى غنى واختلف فى حسن الأخلاف بنى ظنى حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام أبيه وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأنيه وعز تأنيه فعرف افتقاره الى معرفتى وفقرى الى عطل الملك محله من غزارة حلب درى ونضارة حلبى درى فكتبت له وحليت من الملك عظه ووشيت الكتب ووشعتها وجلت الترتب ووسعتها وهزرت اليراعة وأغرزت البراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة . اه »

هذا هو الاعجاب بالنفس بل اعجاب الفرس تراه ماثلاً من أول كتابه الى

آخره فقد قال في مقدمته : « وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتوام
در السحاب ودر السحاب وسميته الفتح القدسي تنبيهاً على جلالة قدره وتنوياً
بدلالة نخره وعرضته على القاضي الأجل الفاضل وهو الذي في سوق فضله تعرض
بضائع الفضائل فقال لي سمع (الفتح القسي في الفتح القدسي) فقد فتح الله عليك
فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيبانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في
البيان عن صياغته اه . »

وأظن أن القاضي الفاضل على جلالة شأنه ما كان يستحق هذا الاعظام من
العماد لو لم يكن نوه له بكتابه على أن للعماد من المزايا التي يفاخر بها ما قد يغفر له
هذا التبجح ولكن كثيرين يفاخرون وليس عندهم شيء من المزايا . نشأ العماد
بأصبهان وقدم بغداد في حدائته وتفقه بالمدرسة النظامية وأقام بها مدة (ابن
خلكان) ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد فولاه
النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفي أقام العماد مدة في عيش منكبد وجفن مسهد ثم
انتقل الى دمشق (٥٦٢ هـ) وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين وعرفه والد
صلاح الدين فأحسن اليه وأكرمه وميزه من الاعيان والامائل وعرفه صلاح
الدين ومدحه بقصيدة ثم أن القاضي كمال الدين الشهرزوري نوه بذكره عند
السلطان نور الدين وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الانشاء قال العماد فبقيت
متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ولا تقدمت لي به دراية ولقد
كانت مواد هذه الصناعة عتيقة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فخب عنها في
الابتداء فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب وكان ينشئ الرسائل
باللغة العجمية أيضاً وحصل بينه وبين صلاح الدين في تلك المدة مودة أكيدة
وامتراج تام ولما أخذ صلاح الدين دمشق حضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال
نفسه فيها ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله فاستمر على عطلته
مديدة وهو يغشى مجالس السلطان وينشده في كل وقت مدائح ويعرض بصحبته
القديمة ولم يزل على ذلك حتى نظم في سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب
منه فصار من جملة الصدور المعدودين والامائل المشهورين يضاهي الوزراء
ويجري في مضمارهم وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان

ويتوفر من مصالح الديار المصرية والعماد ملازم الباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم وصنف التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلًا على زينة دمية الدهر تأليف أبي المعالي سعد بن علي الوراق الخطيري والخطيري جعل كتابه ذيلًا على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي والباخرزي جعل كتابه ذيلًا على يتيمة الدهر للشعالبي والثعالبي جعل كتابه ذيلًا على كتاب البارع لهرون بن علي المنجم

وقد ذكر العماد في خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة الى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك أحداً الا النادر الخامل وأحسن في هذا الكتاب وهو في عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تنقله بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة وأما سماه البرق الشامي لانه شبه أوقاته في تلك الايام بالبرق الخاطف لطيفها وسرعة انقضائها وصنف كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي في مجلدين يتضمن كيفية فتح البيت المقدس وصنف كتاب السيل على النيل جعله ذيلًا على الذيل لابن السمعاني وهو ذيل على كتاب خريدة القصر وصنف كتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية (مطبوع) وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات ونفسه في قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دويبت وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف .

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته الى أن توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى فاختلفت أحواله وتمطلت أوصاله ولم يجد في وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته واقبل على الاشتغال بالتصانيف وكانت ولادته يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة باصبهان وتوفي يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

أما ابن شداد مؤلف السيرة الصلاحية فقد ولد بالموصل سنة ٥٣٩ هـ وحفظ بها القرآن الكريم في صغره وتخرج بضياء الدين القرطبي و بـابن الشيرجى والطوسى الخطيب وغيرهم قرأ عليهم القراآت والتفسير والحديث والفقه والخلاف والادب واللغة وأعاد بالمدرسة النظامية وحج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار بيت المقدس والخليل ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسأله عن كيفية قتل الامير شمس الدين وكان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات فلما دخل عليه ذكر انه قابله بالاكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فاخرج له جزءاً جمع فيه اذكار البخارى وانه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الاصبهاني وقال له : السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرّفنا بذلك فلنا اليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوى على مقدار ثلاثين كراسة فخرج اليه واجتمع به ببقعة حصن الاكراد وقدم له الكتاب الذى جمعه وقال انه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل اذا وصل اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولّاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما توفى صلاح الدين كان حاضراً وتوجه الى حلب لجمع كلمة الاخوة اولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وكتب الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب الى أخيه الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فاجابه الى ذلك فأرسله الملك الظاهر الى مصر لاستخلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك ثم ولى قضاءها ووقوفها وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرن

له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة للشافعية وداراً للحديث في حلب ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدتها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها .

وكان بيد القاضي أبي المحاسن بن شداد حل الامور وعقدها ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه وتولي أمور الدولة بإشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الامور وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سمائه .

قال صاحب وفيات الاعيان بعد ايراد ما تقدم تحصيله وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغادة في ترتيبهم واوضاعهم حتى انه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء يترددون اليه وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم انه تجهز الى الديار المصرية لأحضار ابنة الملك الكامل بن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد له عليها فصار في أول سنة تسع وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الاتابك طغرل من القلعة الى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشره ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلأزم داره الى حين وفاته وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية ما في الباب انه لم يبق له حديث في الدولة وكانوا يراجعونه في الامر فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين واستمر على ذلك حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بحلب وصنف كتابه ملجأ الحكام عند التباس الاحكام يتعلق بالاقضية في مجلدين وكتاب دلائل الاحكام تكلم فيه على الاحاديث المستنبط منها الاحكام في مجلدين وكتاب

الموجز الباهر في الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية .

هذان هما الرجلان اللذان تعلقا بخدمة صلاح الدين وحرص عليهما مع إدلالهما عليه فنفت بضاعتهما في سوقه والدولة سوق يحمل اليها ما يروج فيها . ومع ما كانا فيه من السعة لم تلهمهما الدنيا عن التأليف والتدريس وإحياء معالم العلم والادب فأثرا بفضلهما في حياتهما . وبعد موتهما كتب العماد السيرة الصلاحية مزوجة بالادب ومع هذا لم يفته الغرض من التأريخ حتى انه قال فيما تم على الاسطول من فصل « فانشقت مرائر الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية وتقلصت جباه الجنوية وكرثت أدواء الداوية وكثرت أسواء الاسبتارية وزادت آلام الالمانية وعادت أسقام الافرنسية »

مما دل على انه كان يعلم أجناس المحاربين ومما ذكره أيضاً في ذكر ما تجدد لملك الانكتير (انكلترا) من المراسلة والرغبة في المواصله قال : وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصاخرة على المصافاة والمواتاة في الموافاة وموالاة الاستمرار على الموالاته والاخذ بالمهادات والترك للمعادات والمظاهرة بالمصاهرة وترددت الرسل أياماً وقصدت التثاماً وكادت تحدث انتظاماً واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكتير وأن يعول عليهما من الجانبين في التدبير على أن يحكم العادل في البلاد ويجرى فيها الامر على السداد وتكون المرأة في القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله في أوجها ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستتبار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التي في الذرا ولا يقيم معها في القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا أمان واحسان واستدعاني العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من أهل الرأى والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشاره وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشأن وتسألونه أن يحكمنى في هذه البلاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخرج الجواب وشهدنا عليه بالرضا وعاد الرسول الى ملك الانكتير بفصل أمر الوصلة وأراحة الجملة وأزاحة العلة واعتقدنا أن هذا أمر قد تم الى أن قال وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم

فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم فبهوها بالعدل والذع ثم رضيت على شرط الموافقة في الدين فأنف العادل الى آخر ما ذكر .

بيد ان الصراحة في كلام ابن شداد أكثر لانه لم يتقيد بالسجع والترصيع وأنواع البديع المريع فقال في ذكر ملك الانكتار : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر في الحرب والشجاعة وكان من خبره انه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها الا وان تكون له وفي حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً كثيراً وقاتلهم قتلاً شديداً ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدمه روعة عظيمة ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد واطهر الافرنج مروراً عظيماً حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد (عكا) حتى قدومه فانه ذو رأى في الحرب مجرب وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة

وقال من فصل : كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمسون من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاوداً في المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر انه رأى أن يأذن له في الخروج ويكون الاجتماع في المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما أذن في ذلك تأخر الرسول أياماً عنده بسبب مرضه واستفاض ان ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسول يقول لا تظن تأخرى بسبب ما قيل فان زمام قيادي مفوض الى وأنا أحكم ولا يحكم على غير اني في هذه الايام اعترى مزاجي التيمات منعى عن الحركة فهذا كان العذر في التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وعندى ما يصلح للسلطان وأنا استخرج الاذن في

ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن في ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية
فرضى الرسول بذلك وقال الهدية شئ من الجوارح قد جلب من وراء البحر
وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاجة حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه
الملك العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج
ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة في الآخر على أن
قال الرسول ما الذي أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل
له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى
نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكثار
الى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهده
الى السلطان فقبله وأحسن اليه وأعاده مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه
بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف
ما عنده من ذلك أيضاً.

وقال في مشورة ضربها في التخيير بين الصلحين بين الانكثار والمركيس :
واصل التعاقد ان الملك (الانكثار) قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وان
نكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لهما فاما الافرنجية فلها من جانب
أخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى
ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع أختي تحت مسلم بدون
مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمه وها أنا أسير اليه رسولا يعود
في ستة أشهر فان أذن فيها ونعمت والا زوجتك ابنة أخي وما احتاج الى اذنه
في ذلك هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازم .

وقال في عود الرسول من قبل ملك الانكثار : وادى الرسالة وهي ان
الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدر لها في
ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها
وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا في
القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل ما في
أيديهم من الدارون الى انطاكية ولكم ما في أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم

ينتظم الصلح فالأفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكن مخالفتهم فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض بالدين تارة والخشونة أخرى وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولي في أن يقي المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة وأشد اقداماً منه .

سيرة صلاح الدين

أشار الينا أحد الاصدقاء أن نزيد القراء من سيرة أبي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد أفراد الملة الاسلامية وأكبر أبطال القرون الغابرة من كان يعلم أعداءه كيف تكون الرجولية كما كان قال امبراطور الالمان الحالى وان تتوسع في وقائعه ما أمكن لان سيرته الشريفة جديرة بأن يتدارسها الملوك والسوقة ويهتدى بهديها ابن القرن الحاضر والقرون الآتية فهي مثال الحكمة كلما كررت حلت ومهما أطال الناظر بصره فيها زاد بصيرة وماذا عسانا نقول فيمن جمع الفضائل النفسية ورزق من الصبر والثبات وحب الموت حباً في إحياء الامة وخادنه من أسباب التوفيق ما لم يكتب لاحد نخدم الاسلام والمسلمين بعقله وجهاده خدمة الخليفة الثاني ونفعهم بسيرته كما نفع المأمون العباسي وكان في زهده وشدته على قدم على بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز

اجتمعت لصلاح الدين أرقى صفات تلزم الملوك والسلاطين واسمى أخلاق الزاهدين العالمين والكرماء المحسنين وتربى تربية رشيدة لا يكاد ينشأ عليها ابن أرقى البيوت المالكة لعهدنا في بلاد الغرب مع ما لهم من المدارس الجامعة والجامع والجمعيات وأسباب تهذيب النفس وتربية الملكات وإنارة العقول فلاحته على وجهه مخايل السعادة وأخذت النجابة منذ نشأته تقدمه من حالة الى حالة كما قالوا فنشأ في كنف أبيه في قلعة تكرت وكان أبوه وعمه بها عمالاً لحاكم تلك الديار وكان أهله من دوين بلدة في آخر عمل اذربيجان من جهة ايران

وبلاد الكرج وهم أكراد روادية وهي قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد وانتقلوا
من هناك الى تكريت وفيها ولد صلاح الدين
قال ابن خلدكان اخبرني بعض أهل بيتهم وقد سأله هل تعرف متى خرجوا
من تكريت فقال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون انهم خرجوا منها في الليلة التي
ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم : لعل فيه الخير وما
تعلمون فكان كما قال

فلما تشاءموا بولادة صلاح الدين وذلك لانه صادف انه اخرج والده من
قلعة تكريت بامر صاحبها بهروز ليلة ولادته . وذكر في الروضتين ان قد اجتمع
مرة السلطان صلاح الدين ووالده الامير نجم الدين في دار الوزارة بمصر وقد
قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص برباب الدولتين يوم أراد نور الدين محمود
ابن زنكي أن تقطع خطبة المصريين وتقام دعوة بني العباس وعند الناس من
الفرح والسرور ما قد أذهل العقول فبينما الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصراني
كان في خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدي السلطان الملك الناصر
صلاح الدين ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين وقال له : يا مولاي هذا
تأويل مقالتي لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال : صدقت
والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله
والقضاة والامراء وقال : لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة وذلك اني ليلة رزقت
هذا الولد يعني السلطان الملك الناصر أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها
بسبب الفعلة التي كانت من أخى شيركوه رحمه الله وقتله النصراني وكنت قد الفت
القلعة وصارت لي كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها الى غيرها واغتممت
لذلك وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على
ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وأنا على طريقي به لا اكاد اذكره
ولا اسميه وكان هذا النصراني معي كاتباً فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل
والتشاؤم به استدعى مني أن أذن له في الكلام فأذنت له فقال لي : يا مولاي قد
رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا النضي وأى شيء له من الذنب وبما استحق
ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً وهذا الذي جرى عليك قضاء من

الله سبحانه وقدر ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار فعظفنى كلامه عليه وها قد اوقفنى على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه.

ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين . ونور الدين هذا تركى الاصل وهو صاحب الفضل الاول فى تأسيس ملك الشام ومصر بحيث قوى على رد غارات الصليبيين ودفعهم عن الارض المقدسة . فصلاح الدين يوسف ليس اذاً من أصل وضع بل من أصل رفيع جداً تعلم القدر الذى كان يتعلمه أبناء الكبراء ونشأ نشأة دينية راقية وأخذ حسن الخلق والعدل والشجاعة والكرم عن أبيه نجم الدين أيوب ابن شاذى وكان عدلاً مرضياً كثير الصلاة والصلوات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ربى فى الموصل ونشأ شجاعاً بأسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها اكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها ثم أضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لا يسمع عن أحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه ما يستعين به على صلاح حاله وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب فى قلعة تكريت مع أخيه وكان شجاعاً بأسلاً مثل أخيه فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلاً نصرانياً فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فخرّد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى فبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى وحضر عنده من خوفه من جرأة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وانه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره

بتسليم القلعة الى نائب سيره صحة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وقعد هو وأخوه عند عماد الدين زنكى بالموصل فأكرمهما واقطعهما الاقطاعات الحسنة ثم اتصلا بنور الدين محمود بن زنكى الى أن أرسل أسد الدين شيركوه الى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين . وبنور الدين تخرج صلاح الدين فقد كان نور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد وسافر صلاح الدين الى مصر وهو كاره للسفر فجعله عمه أسد الدين شيركوه مقدم عسكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وكان صلاح الدين في السابعة والعشرين من عمره فعرف أسد الدين حال مصر وكشف أحوالها والدولة الفاطمية فيها مشرفة على الزوال وقد ضعفت جنديتها ودب الفشل والهزم في البيت العبيدى وصارت خلافتهم العوبة في يد كل ذي قوة

والسبب في دخول أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين الى مصر ان الوزير شاور هرب من مصر واستغاث في الشام بنور الدين من ضرغام بن عامر لانه قهره وأخذ مكانه في الوزارة « ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور الى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد الى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرننج عليه وحصله في بلبس وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وانها مملوكة بغير رجال تمشي الامور فيها بمجرد الايهام والمحال « طمع في الاستيلاء عليها فبلغ شاوراً أن نور الدين قد زين له الاستيلاء على مصر وان أسد الدين لا بد له من قصدها ثانية فكتب الفرننج « وقرر معهم انهم يجيئون الى البلاد ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه فبلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرننج وما تقرّر بينهم فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر وصلاح الدين في خدمة همه أسد الدين شيركوه وكان توجههم من الشام في سنة ٥٦٢ »

استولى أسد الدين على أزمة الوزارة وقتل شاورا الوزير قبله بأمر الخليفة الفاطمي جرياً على عادة أجداده في الوزراء وذلك في ربيع الاول سنة ٥٦٤ كان صلاح الدين « يباشر الامور مقررأ لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه

وسياسته » ومات أسد الدين بعد شهرين وخمسة أيام من تولية الوزارة للعاضد الفاطمي فتولاه صلاح الدين بعده » وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الاوضاع وبذل الاموال ومملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الحمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجند والاجتهاد » و « من حين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وغيرهما من البلاد وغشى الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ من تلك الايام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة مارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين » وهو يكرم كل وافد ولا يخيب أحداً قصده .

بهذا الكرم والعقل دانت مصر لصلاح الدين وأصبح فيها الحاكم المتحكما واصطناع الفضلاء وتقريب العقلاء والافضال على العلماء والشعراء من آكد الطرق في بلوغ المقصود وتهيئة أسباب الملك

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان ولما ثبتت قدم صلاح الدين في مصر وأزال المخالفين كما قال ابن الاثير وضعف أمر العاضد ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود بأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى دولة المصريين فلم يصغ نور الدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك التزاماً لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه في كيفية الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين فلما كان أول جمعة من المحرم (٥٦٧) خطب للمستضيء بأمر الله تعالى العباسي فلم ينكر أحد ذلك فلما كانت الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعالجه أهله وأصحابه بانقطاع الخطبة باسمه

وقالوا إن سلم فهو يعلم وان توفى فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الايام التي بقيت من أجله فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما كان فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصى يحفظه حفظ ما فيه حتى تسامه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكّل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في أيوان بالقصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان فيه من العبيد والأماء فاعتق البعض ورهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه . وكان ابتداء الدولة العبيدية أو الفاطمية بأفريقية والمغرب في ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ومقامهم بمصر مائتي سنة وثمانى سنين وملك منهم أربعة عشر ملكاً آخرهم العاضد وأولهم المهدي

أزال صلاح الدين دولة العبيدين على أهون سبب لأنها لم تعد صالحة للبقاء وكفى أن أمراءها أخذوا يرسلون الافرنج لتسلم لهم مناصبهم كما فعل جماعة عمارة النيني وأخذوا يرسلون الفرنج في صقلية وساحل الشام ليقلبوا الحكومة الصلاحية ويعيدوا الدولة العبيدية فشعر بهم صلاح الدين وصلبهم وكما فعل غير واحد من ملوك الطوائف في الاندلس فأنشأوا يحتمون بحيرانهم وأعدائهم ويستعينون بهم على قتال ذويهم وأبناء ملتهم فكان ذلك من أهم الامور في طمع الاسبانيين ببلاد الاندلس واسترجاعها بعد أن حكمها العرب قروناً . عن على ابن عيسى بن الجراح قال : سألت أولاد بني أمية ما سبب زوال دولتهم قال أربع خصال أولها أن وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية أن جبابة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن أوطانهم فخربت بيوت أموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجند فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من النصارى فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا . قلنا وهو سبب ذهاب أكثر الدول وهذه الخصال كانت ولا شك موجودة في الفاطمية .

قال صاحب الكامل : ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله ما أراد وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفسية ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر

الدهور فنه القضيبي الزمرد طوله نحو قصبة ونصف والحبل الياقوت وغيرها
ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد
وهكذا عادت الى مصر الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسي بعد أن انقطعت
دهراً طويلاً فأرسل المستضيء بأمر الله خلعة الى نور الدين في الشام وأخرى أقل
من خلعته الى صلاح الدين في مصر

ثم حصلت وحشة بين نور الدين وصلاح الدين وذلك أن الاول طلب الى
الثاني أن يجمع العساكر المصرية ويأتي الى الكرك ليجمع هو العساكر الشامية
ويأتيها ليخلصوها من الافرنج فبعد أن صدع بالأمر أرسل اليه كتاباً يعتذر
فيه عن الوصول باختلال الديار المصرية لأمر بلغته عن بعض شيعة العلويين
وانهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها أن يقوم أهلها على
من تخلف بها فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغير عليه وكان سبب تقاعد
صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فاذا لم يمثل
أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج
صلاح الدين منها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين
وخاله شهاب الدين الحازمي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور
الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقي
الدين عمر ابن أخي صلاح الدين وقال : اذا جاء قاتلنا ومنعنا عن البلاد ووافقنا
غيره من أهله فشتهم نجم الدين أيوب وانكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأي
وفكر وعقل وقال لتقي الدين : أقعد وسبه وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا
شهاب الدين خالك أظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا فقال
لا فقال : والله لو رأيته أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا الا أن
نترجل له ونقبل الارض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا
كننا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لورأي
نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل
الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وان أراد عزلك سمعنا وأطعنا
والرأي أن تكتب اليه كتاباً وتقول : بلغني انك تريد الحركة لاجل البلاد فأبي

حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتى منديلاً ويأخذني اليك فما ههنا من يمتنع عليك وقال لجماعته كلهم : قوموا عنا فنحن ممالك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أ كثرهم الى نور الدين بالخبر . ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على شرك وما في نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور وأولاهها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أساموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت اليه وترسل اليه في المعنى وتقول أى حاجة الى قصدي يجي نجاب يأخذني بجبل يضعه في عنقي فهو اذا سمع عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والايام تتدرج والله كل وقت في شأن . والله لو أراد نور الدين قضية من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين أيوب وتوفي نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد قال ابن الاثير وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

هذا هو التوفيق الذي حالف صلاح الدين دخل مصر كارهاً مع عمه فصار قائد جندها ثم تولى وزارتها فملكها وقلب دولة العبيديين وكل ذلك بأخذه بالحزم في أموره واستشارته العقلاء من أهله ورجاله وكان من طبعه أن لا يبت امرأ بدون مشورة هكذا كان منذ ابتداء شاباً الى أن استولى بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ على الشام الى أن استخلص بيت المقدس من أيدي الافرنج وطردهم من أكثر مدن ساحل الشام يعمل بقول بشار :

اذا بلغ الرأي النصيحة فاستعن برأى لبيب أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غصاصة فان الخوافي رافدات القوادم

وكان نور الدين قد خلف ولده الملك الصالح اسمعيل وكان بدمشق عند وفاة أبيه فسار الى حلب من دمشق فلما علم صلاح الدين ان الملك صالح صبي لا يستقل بالامر ولا ينهض باعباء الملك واختلت الاحوال بالشام تجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً انه يتولى مصالح الملك الصالح

فدخلها بالتسليم سلخ سنة سبعين وخمسة وتسلم قلعتها ففرح الناس به وانفق مالا جزيلا وسار الى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها ثم استولى على تلك البلاد الى الفرات وما بعد الفرات وتوفي الملك الصالح بعد مدة قليلة فاخذ حلب ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم عاد صلاح الدين سنة ٥٧٧ واستولى على حلب ودانت له البلاد وفتح بيت المقدس بعد أن ملكه الافرنج نحو مائتي سنة ولم يفشل في واقعة من وقائعه مع الصليبيين على كثرة عددهم وعديدهم اللهم الا في عكا فاستعادوها منه بعد أن فتحها بواسطة ملك الانجليز اذ ذاك ريشاردس قلب الاسد .

ان عدل الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد ادهش الاوربيين في ذاك العهد فكانوا هم يعاهدون فينكثون أما هو هو فما عاهد ونكث قط وكثيراً ما كان بعض خاصته من متعصبة المشايخ الذين لا يعرفون سياسة الملك ولا حسن ادارة الفتوحات يريدونه على أن يعامل الصليبيين بمثلهم في الانتقام من أسراهم عنده كما فعل أولئك وقتلوا مرة مئآت من أسرى المسلمين فما كان جوابه الا الاعراض عن مقترحاتهم والعمل بسنة الدين واللفظ حتى استهوى القلوب الشاردة وأحبه أعداؤه قبل أوليائه وهذا من أندر النوادر في الملوك وناهيك بعصره الذي كان عصر التعصب الديني في الغرب والشرق أيضاً فالصليبيون جاؤا هذه الديار مدفوعين بعوامل الدين واستنقاذ بيت المقدس من المسلمين وهؤلاء قاموا باسترجاع البلاد بهذا العامل القوي أيضاً

قال عبد المنعم الجلياني أحد شعراء الملك الناصر صلاح الدين من قصيدة يعلل فيها السبب الذي من أجله أحب الفرنج صلاح الدين :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياً	بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
نخناوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا	فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذا أتى	بقلب سليم راحماً للمسلم
فخطوا بارجاء الهياكل صورة	لك اعتقدوها كاعتقاد الاقنم
يدين لها قس ويرقى بوضعها	ويكتبه يشفي به في التمام

ملك مصر والشام والجزيرة والعراق واليمن والملك لما يستتب له على ما يجب

فاستطاع بعقله و اخلاصه لامتة و وطنه أن يدفع غارات الاوربيين عن أرض الشام
ومصر بعد أن رسخت أقدامهم قرنين كاملين واستجاشوا لهم الانصار وحشروا
من جميع أمم أوروبا العدد الكثير وبذلوا في ذلك من المال والرجال ما يقدر
بالملايين والربوات ان هذا من عجائب التاريخ . تقف كتائب من العرب والترك
والاكرد في موقف القتال مع الفرنسيوى والامانى والانكليزى والمجرى
والايطالى والاسبانى والنساولى والسويسرى وغيرهم من أمم الافرنج فينز
الاولون الآخرين على قلة عددهم . ولكن الجيوش قد لا تؤتي من قلة أكثر
مما تؤتي من سوء السياسة وعتو القواد والاستهانة بالشورى . وما كان المدافع
كالمهاجم في وقت من الاوقات .

ومع هذا الملك الضخم الذى كان لصالح الدين كان يعيش عيش المتوسطين
وينفق بحيث تكاد تعدد الى الاسراف فقد كانت قطعة الصلح بينه وبين الافرنج
في القدس مثلاً أن يؤدوا عن كل رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير
صورية وعن كل ذكر صغيراً أو أنثى ديناراً واحداً فمن احضر قطعة نجا بنفسه
والا أخذ أسيراً فأقام لصالح الدين يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والرجال
ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ولم يرحل عن القدس ومعه من
المال الذى جبي له شىء وكان يقارب مائتى الف دينار وعشرين ألف دينار . قال
في البرق سمعت الملك العادل (أخو صالح الدين) يوماً في أثناء حديثه في ناديه
وهو يجرى ذكر افراط السلطان في أياديه يقول : اني توليت قطعة القدس
فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءني خازنه بكرة وقال : زيد اليوم مانخرجه
في الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شىء فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في
الحال . قالوا . وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفواً عفواً وكله يخرج في الجود
والجهاد

وكان يكتفى من اللباس بالكتان والقطن والصوف ومجلسه منزله عن الهزء
ومحافله حافلة باهل الفضل قال العماد وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة
تسخط يؤثر سماع الاحاديث ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعى وكان لمدامته
السلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعية

وكان من مجالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس أخ من الاخوان
وكان حليماً مقيلاً للعترات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفيماً صفيماً يفضي ولا
يغضب ما رد سائلاً ولا صد نائلاً ولا أخجل قائلاً ولا خيب آملاً .

أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء
بحيث كان اذا جري الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة
الفقهاء وكان شديداً على الفلاسفة والمعتلة والدهرية وكان مواظباً على صلواته
وصيامه عادلاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوى وكان يجلس للعدل في كل يوم
اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكين
حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل
ذلك سراً وحضراً على انه كان في جميع أوقاته قابلاً لما يعرض عليه من القصص
كاشفاً لما ينهي اليه من المظالم

كان من عظماء الشجعان قوى النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر
وصل في ليلة واحدة من الافرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لايزداد إلا
قوة نفس وكان يعطى دستوراً (أى يسرح عسكره) في أوائل الشتاء ويبقى
في شردمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة
الى ستمائة ألف ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله أهله
وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه قائماً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة
تضربها الرياح يمنة ويسرة . وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو كل يوم
مرة أو مرتين اذا كان قريباً منهم واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق
العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاق ويأمرهم بالتقدم والوقوف في
مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره

انهمزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القاب ورجاله ووقع
الكؤوس والعلم وهو ثابت القدم في نفر يسير فأنحاز الى الجبل يجمع الناس
ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو
في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابراً
لهم وهم في العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من

جانهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة والمسلمون لا يتوقعونها وكانت المصلحة في الصلح .

ولقد كان يركب للحرب وهو على غاية المرض كما فعل يوم عكا وقد اعترته دما مل ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربات الدما مل وكان يعجب من ذلك فيقول اذا ركب يزول غنى ألمها حتى انزل .

ومع كل هذه الصفات التي نعددها منها ولا نعددها لكثرتها واجماع المؤرخين من العرب والافرنج عليها كان السلطان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لانساب العرب ووفياً نعمهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان أصحابه يستفيدون في محاضرة منه ما لا يسمعون من غيره وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويردها في مجالسه وكثيراً ما ينشد قولهم

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحاً وكاد يهتك ستر الحب بي شغفاً
ثم انتهت وآمالى تخيل لي نيل المتى فاستحالت غبطى أسفاً
وكان يعجبه قول ابن المنجم في خضاب الشيب

وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منازل

وكان يسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد الا بالخير وطاهر اللسان فما شوهه مولعاً بشتم قط حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يقيم الا وترحم على مخلقه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلقه وسلمه الى من يكفله ويعنى بتربيته وكان لا يرى شيخاً الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه .

قال ابن شداد : ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي قد أصابه كرب بحيث انه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان : من أى شئ يخاف فاجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضورى بين يديه أيقنت انى ما أرى الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه . قال ولقد كنت راكباً فى خدمته فى بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكى . ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتى وسرقوا ابنتى وبنت البارحة استغيث الى بكرة النهار فقال لى المملوك : السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فاخرجونى اليك وما أعرف ابنتى الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الآن وقع نظرها عليها نفرت الى الارض تعفر وجهها فى التراب والناس ييكون على ما نالها وهى ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول دلالة على حرية وسعة صدر وقد كان يوماً بعض خدمه يلعبون بسرmozة (بانتوفل) فى ناحية فوقعت على رأسه فأدار وجهه كأنه لم يحدث شئ وتظاهر بأنه لم ير شيئاً وكان الحافظ ابن عساكر يدخل قصره يقرأ الحديث فكانت جلبة الخدم ترتفع فتكرر ذلك حتى قال الحافظ يوماً : ما هذا ؟ كنا فى عهد نور الدين ندخل هذا المكان والناس كأن على رءوسهم الطير اشارة الى ان صلاح الدين يتساهل مع خدمه ملقيا حبالهم على غاربهم .

لما فتى صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق فى أيدي الصليبيين الا عكا وصور وغيرها من البلاد التى لا شأن لها ورأى ان المشيب انذره بقرب الاجل عقد العزم على الحج الى بيت الله الحرام فلما بلغ القاضي الفاضل كتب اليه

مشيراً بتبطليله : ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا يوثق بعدهم في الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفرأ مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه أن يسيروا ليلة فيصبحوا في القدس على غفلة فيدخلوا اليه بالعياذ بالله ويفرط مد يد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ومن العثرات التي لا تقال الى أن يقول : يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به الى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط من المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفي وادي بري والزبداني من الفتنة القاعة والسيوف الذي يقطر دماً ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها .

ملأت أوقاف صلاح الدين مصر والشام وهي غير منسوبة اليه قال ابن خلكان ولقد فكرت في نفسي من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه مات صلاح الدين ولم يخلف مالا عن ٥٧ عاماً وخلف سبعة عشر ولداً ذكرأ وابنة ولم يخلف سوى دينار واحد بعد أن دخلت في يديه ثروة الفاطميين وجبى اليه خراج البلاد المفتوحة وحاز مغنم الصليبيين مرات

تغيب السلطان صلاح الدين أربع سنين في فتح القدس وغيرها من بلاد الساحل وفلسطين لم يدخل خلالها دمشق مع انه « كان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد » فرأى أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وأقام في دمشق أياماً يتصيد هو وأخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده « ويتفرجون في أراضى دمشق ومواطن الصبا وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لأولاده ومرايع نزهه » وبينما هو على ذلك ونفسه تحدته بزيارة مصر بعد طول الغيبة عنها ناداه مولاه فلباه فابكى المقل وأدى الحناجر

مات رحمه الله والالسن تذكره بالمحمدة حتى قيام الساعة فكان رجلاً يعد

بمشرات الملايين وكم من ألوف لا يساوون واحداً وواحد يساوى ألوفاً . مات
وقد زلزل المسلمون لفقده كما كتب القاضى الفاضل فى ساعة موته الى ولده الملك
الظاهر صاحب حلب من بظاقه : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ان
زلزلة الساعة شئ عظيم كتبت لمولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه
وجبر مصابه وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالا
شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد ودعت اباك
ومخدومى وداعاً لا تلاقى بعده وقد قبلت وجهه عنى وعنك واسلمته الى الله تعالى
مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة الا بالله
العلى العظيم وبالباب من الجنود المجندة والاسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا
ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا تقول الا ما يرضى الرب وانا
عليك يا يوسف لمحزونون وأما الوصايا مما يحتاج اليها والآراء فقد شغلنى المصاب
عنها وأما لأتح الامر فانه ان وقع اتفاق فما عدتم الا شخصه الكريم وان كان
غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام

مصطفى كامل^(١)

فى وفاة فقيد الوطن والصحافة التى اهتم لها أهل القطر عامة وأبنوا فى
احتفالهم بتشجيعه ومآتمه عن عواطف شريفة وشعور حتى نام ، أعظم درس
يتدارسه المصريون ولا سيما النابتة الجديدة منهم .

وصف الفقيد العزيز بما وصف به من الاوصاف التى هو جدير بها ، وذرفت
الدموع لهول المصاب به فى ابان شبابه ، وأكبرت الامة أعماله وأقواله ، وقامت
بالواجب من اكرامه واجلاله . كل هذا حق وكل هذا بزعماء النهضات وقادة
الافكار جدير

ولكن اذا صارت تلك الروح التى كانت بالامس تهيج العواطف وتلعب

بالقلوب ، الى جوار ربها فالواجب علينا أن نبحث في السر الذي اهتدى اليه صاحبها الراحل ، فأثر هذا الاثر المحمود في هذه الحقبة القصيرة من الزمن .

كثيرون مثله كانوا يدخلون المدارس ويتعلمون ويتهذبون فتراهم وهم صغار في المدرسة نفوساً تتلهب غيرة ، وقلوباً تتأوه على قرب أوقات العمل ، لتأتي بما يجب عليها نحو أمتها ومجتمعها ونفسها فما هو الا بضعة سنين حتى تتبدل أفكارهم وينتطبعوا بطابع غير الذي كنت تعهده فيهم

التاريخ كما يقولون يحكم لمصطفى كامل فيما أنه من الخير لهذه البلاد وان كانت أعماله عند المنصفين أعظم شاهد حي ، على أن الرجل لم يكن مبرأ من العيوب ، ولكن محاسنه تربو كثيراً على نقائصها ، وهذا ما ننشده في رجالنا ونتمنى لو يكثر الافراد الذين على شاكلته من أكثر الوجوه في كل فرع من فروع العمل في هذا الجهاد العالمي

مصطفى كامل قال وكتب وخطب وجاهد وناضل ونافس وقاوم وتعب وقد كافأته أمته على حسن صنيعه بأن بذلت نحوه عواطفها حياً وميتاً ، فذهب مأسوفاً عليه مذكوراً بالرحمة ، وطوى بساطه بما عليه ، ولكن أمته حية كبيرة كل يوم تلد ولاداتها ، وكل يوم يدفن رجالاتها

أن غاب مصطفى كامل فلا ينبغي أن تغيب عنا سيرته الذكية ، وكيف وصل الى المجد المؤثل والعز الاقص ، هو لم يؤت من المواهب ما لم يؤته أحد من العالمين ، بل امتاز بامتياز واحد وباله من امتياز امتاز « بارادة » تعمل ، والارادة هي رأس ماله وهي في أفراد الشرق قليلة ، وبالأسف إرادة مصطفى كامل هي التي بلغت به ما بلغت وهو فتى قبل الثلاثين فما بالك لو كان بلغ السبعين والثمانين صحة الارادة هي التي تنقص أبناء الشرق ولذلك تراهم وأن تعلموا وتهذبوا يظلون وراء الغربيين في جهاد الحياة ، وأن فاقوهم بعض الاحيان في الذكاء والنشاط ، وكلما كانت الارادة في صاحبها أقوى كان تأثيره أشد وعمله أسد .

يخزنني والله أن أرى كل يوم في مصر من الافاضل المهذبن ما لم أحلم بوجود أمثالهم من قبل ، ثم تراهم وبعضهم ممن تهيات لهم أسباب النعمة خاملين خائفين

ضعافاً في الارادة الى حدانهم اذا قاموا ببعض الواجبات يخشون أن تزول عنهم نعمتهم ، ويحل بهم الويل والنبور

لو كان المتعلمون منا يعلمون كل بما فيه من ارادة ما يجب عليهم عمله ، لما أتى علينا ربع قرن إلا وقد نشأ لمصر عشرات من أمثال مصطفى كامل ، منهم في السياسة ، ومنهم في العلم ، ومنهم في الادب ، ومنهم في المال ، ومنهم في إصلاح الاخلاق ، ومنهم في اصلاح البيوت ومنهم في غير ذلك . وليس معنى هذا أن يكون في الامة ألوف مثل مصطفى كامل في السياسة فان أفراداً فيها يكفون . ولكن يجب أن يكون عشرات في كل فرع من فروع المجتمع ، فالعالم الذي يعلم الناس فيخرجهم من الظلمات الى النور ، والاديب الذي يرقق شعورهم ، والكاتب الذي يؤثر فيهم ، والكيمائي الذي يعلمهم صنع الاسمدة ومعالجة التربة ، والزارع الذي يتوفر على البذر والفرس ، والمهندس الذي يحفر الاقنية والترع ويتعهد السدود والجسور ، والصانع الذي يحيك النسيج ويصنع الصفيج والمصنف - كل هؤلاء ومئات من غيرهم ممن يتعاطون الحرف الضرورية في العمران ليسوا اذا كانت لهم ارادة كارادة مصطفى كامل في الفرع الذي توفر على خدمة حياته الا نافعين ، يرتفع بهم الرأس كما يرتفع الآن رأس المصري الوطني بذكر مصطفى كامل حب الشهرة من العوامل القوية في قيام المجتمعات ، فن كان ولعه بالشهرة على أصوله تلحقة عن استحقاق ولا يلحقها ، كانت شهرته نافعة له ولا مته ، ولا يلام في حب الشهرة الا من يغالى فيها ويجعلها ديدنه ودينه ، كما لا يلام في حب الاثرة الا المبالغى فيها أيضاً ، والاثرة أو حب الذات موجودة في فطر البشروان اختلفت درجاتها ، فصحة الارادة هي التي نطلب أن تنتشر بين هذه الامة انتشار العاطفة الوطنية ، فاذا كثرت فينا ففيها ولا شك عن مصطفى كامل أكبر عزاء ، واذا لم تنم في أفرادنا فنقول ما يقوله بعضهم ان مصطفى كامل كان فلتة من فلتات مصر ، ولمصر في كل مدة رجل كبير تمتاز به يرتجل بين الرجال ، وتنصره على أى حال ، ويكون موضوع عجب الاجيال بعد الاجيال

النبوغ المصرى^(١)

يا سادتي ويا اخواني

منذ نحو مئة سنة والقطر المصرى ينهض نحو الترقى ويحتذى مثال الغرب فى نهوضه . وكان من قبل لولا جامعة الازهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب فى قلة العلم والنور . وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم أن يكون فيهم من اذا سئل سدد فى علوم الشريعة وما يلزمها من علوم اللسان .

ولقد خلد التاريخ اسم (محمد على الكبير) جد الاسرة المالكة الحالية بما أسداه الى مصر من الايادى البيضاء فانعشها من سقطتها ، وأيقظها من طویل رقبتها . ولو كتب له تحقيق جميع أمانيه الشريفة لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى فى العالم . فانه رحمه الله لم يترك باباً من أبواب النهوض المادى والعلمى الا وطرقه على أجل صورة وعمل بجميع الاسباب لحياة مصر

وكان لعلماء الفرنسيين الذين استصحبهم نابوليون فى حملته على مصر والشام يد طولى فى وضع أساس هذه النهضة المباركة على النظام الاوروبى . وعد علماء فرنسا من بعد العامل الاقوى فى معاونة محمد على على اسعاد القطر ثم جاء علماء الانكليز والالمان والاطليان وغيرهم من أمم أوروبا وخدموا مصر بتنظيم سككها واصلاح ريعها ، واحياء زراعتها ، واستخراج آثارها وانماء القوى المفكرة العاملة فى بنيتها

نعم كان العلم فى مصر حتى الثلث الاخير من القرن الماضى لا يعتمدى الا قليلا دائرة الدينيات والادبيات . ولمحمد على الكبير يرجع الفضل الاكبر فى بث مبادئ العلوم التى يسمونها خطأ الحديثة ، اذ كان لاجدادنا فيها القدرح المعلى ، وهم الذين نقلوها الى أمم الحضارة الحديثة مشفوعة بابحاثهم وزياداتهم

(١) خطاب تلى فى حفلة التأبين التى أقيمت للمرحوم احمد كمال باشا الاثري المصرى فى ردهة المجمع العلمى فى دمشق (١٩٢٣ - ١٣٤٣)

واختراعاتهم وبعد عهد محمد على ضعفت العناية بالعلوم كان انقطع سندها دهرًا طويلا ، وكادت البلاد تدخل في سبات مؤلم وتبت يميت . كان ضعف العلم بعد عهد شارلمان في فرنسا . وبين محمد على وشارلمان شبه كبير في التناغي بحب المعارف والفضائل . وكذلك حدث في الاستانة بمد دور الفاتح فانقطعت الرغبة في العلم بموت السلطان محمد الثاني وكاد يزال كل ما أسسه لآحياء معاملته . والارتقاء والانحطاط ولا سيما في هذا الشرق القريب تبع للفرد أكثر من الجماعة ، فان أسعد الحظ الأمة بسلطان عاقل عادل سعدت ونجحت والعكس بالعكس .

ولما انتهى في مصر دور الناقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين في بعض ضروب العلم ، جاء دور الباحثين والمؤلفين والمبدعين ، واستطاع المصريون باصلاح شؤونهم الاقتصادية أن يتلقوا العلم الصحيح في جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة ، وكثير ارتحال الاوربيين الى مصر وطواف المصريين الى أوروبا ، واشتد التمازج بين المصري والغربي فاقتبس المصري بعض ما ينقصه من أساليب النهوض ، وكان لادخال الاصلاح على الازهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي والحقوق والزراعة والهندسة وغيرها من المدارس العالية والثانوية والابتدائية ولا سيما المكتاتيب في القرى والمزارع ما نراه من آثار نهوضها فندش له ونهش وكلما أكثر سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التي سبقتها . وتراجع كل نفقة في العلم والصنائع وأصبحت الكلمة للاخصائيين والمفنيين . وكلما استحكمت حلقات هذا الرقي استغنت مصر عن الغريب واكتفت بعقول العاملين من رجالها . سنة الخالق في النشوء والارتقاء

تطورت مصر في نهضتها الاخيرة أطواراً كثيرة فكان الضعف يعرفها تارة والقوة تصاحبها أخرى . وكان يعد نوابغ رجالها بادىء بدء بالآحاد فأمسوا يعدون اليوم بالمئات . وكلما امتزج المصري بعنصر آخر من العناصر الشرقية حسنت ملكاته ، وصحت على الترقى ارادته ونياته . وقد نبغ لاهدنا رجال ليسوا مفخراً من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة ، ومنهم والحق يقال أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب في ذكائهم ومضائهم وبحثهم ودرسهم ، وذلك في مجموع العلوم البشرية ولا سيما في الهندسة والكيمياء والتصوير

والطبيعة والحقوق والطب والجراحة والسياسة والادارة ومن أعظم نوابغها زميلنا أحد أعضاء المجمع العلمي العربي المرحوم احمد كمال باشا الذي نحتفل الآن بتكريم اسمه واستمطار الرحمت عليه فقد كان أجزل الله ثوابه مثال النبوغ المصرى وآخر طراز كامل من أفراد الدهر . رزق صفات العالم العامل ، وصرف نقد عمره في خدمة الآثار ، ولا سيما علم الآثار المصرية حتى أصبح على صعوبة هذا الفن وحداثته الحجة الثبت فيه ، فكان اذا كان ذكر في الغرب والشرق علم الآثار المصرية يتمثل في شخصه ويتجسد في جهاده . عمل هذا بعيداً عن الجمعية في زاوية صغيرة من بلده ، فعمت شهرته الخافقين ، ولم تخف جلائل عماله على الغريب دع القريب

أيها السادة . اذا قام مجتمعنا بتعداد بعض مآثر نابغة الشرق في الآثار فانه يقضى واجبين واجب للعلم بتكريم أحد حملته وأساطينه وواجب آخر أعم وهو التنويه بذكر النابغين من المصريين وتمجيد النهضة العلمية المصرية التي لها الفضل الاعظم على نهوض العرب النازلين في ارجاء القارتين العظيمتين آسيا وأفريقية لمصر ولرجال مصر ، ولا نذكران للجميل ، أثر ظاهر في الامة العربية والاسلام ، فاذا ذكرنا مصر فانا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب وأول دولة نهضت فيه . اننا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الاجداد . ننوه بشعب كريم احتفظ بلساننا ومشخصاتنا ، ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك لاضمحلت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قروناً ، وكنا أقرب الى الاندماج في غيرنا من العناصر المتغلبة ، ولشأت حالنا العلمية أكثر مما ساءت ، وشاهدنا ونشاهد تحريباتها في جسم جامعتنا ومجتمعنا

انتفع الشام وهو القطر الشقيق الاصغر لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية اكثر من غامة الاقطار العربية للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما ، ولان اقدارهما في عهد الدول الاسلامية كانت واحدة وحياتهما الاجتماعية متجانسة . هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الاموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالاليوية فدولة الاتراك المماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية وكانت مصر منبعث حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الاخيرة من

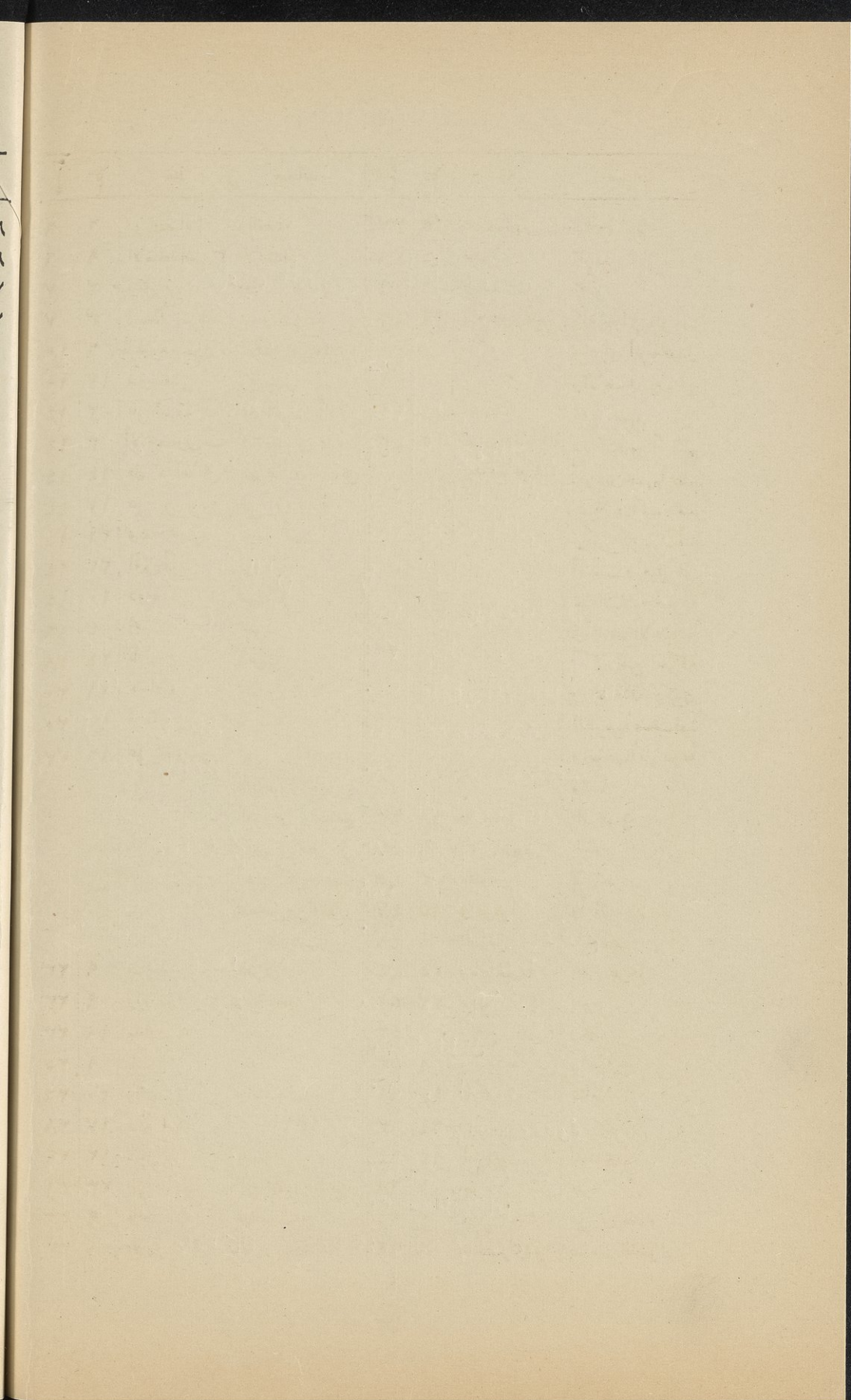
حياتها ملجأً ومعتصماً للأحرار . ومباعدة ممتازة للعلم الاسلامى تأخذ عنها
الاقطار والامصار .

نعمزى مصر بفقيدها النابغة ونحييها بهذه المناسبة ونرجو لها حياة طيبة
بابنائها النجباء . نحيي بها أهم جزء من بلادنا العربية طالما حتى على العرب وحمل
النور اليهم مغتبطاً . مصر اليوم باريز العرب وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا
فى عهد النهضة أواخر القرون الوسطى ، وكان سرى منها ضياء المعارف والفنون
إلى سائر ممالك أوربا فقامت بتأثيرها المدنية الغربية الحديثة . ومن مصر سار
أمس ويسير اليوم وسيسير غداً شعاع من هذا النور النافع فيعم خيره الاصقاع
العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنتون لابرازهم بفضل قرائح بذيتهم آثراً
حسنة فى العلم والصناعة ، كما فعلت يابان فى القرن الماضى ، وعندئذ يعيد الشرق
إلى الغرب ما كان استبضعه من بضائع العلوم والصناعات ، ويقضى الدين مع
الشكر ويرد القرش عشرة ، فنعد شيئاً من مجموعة المدنية الحاضرة كما كنا
فى العصور السالفة كل شىء ، وكان لنا الأثر المحمود فى تكوين المدنية الغابرة
والآن أترك الكلام لرصيفى الاستاذ معلوف يتلو على مسامعكم صورة
مصغرة بل مجشمة من عمل عضونا الذى فجعنا بفقده يتمثل لكم فيها النبوغ
المصرى أحسن تمثيل . ونرفع تعازينا وأسفننا من ضفاف بردى إلى بنى قومنا
على شطوط النيل المبارك لفقد رجلهم ورجلنا العزيز ونطلب له من المولى تعالى
العفو والرضى والرحمة وإنا لله وإنا إليه راجعون .



فهرس كتاب القديم والحديث

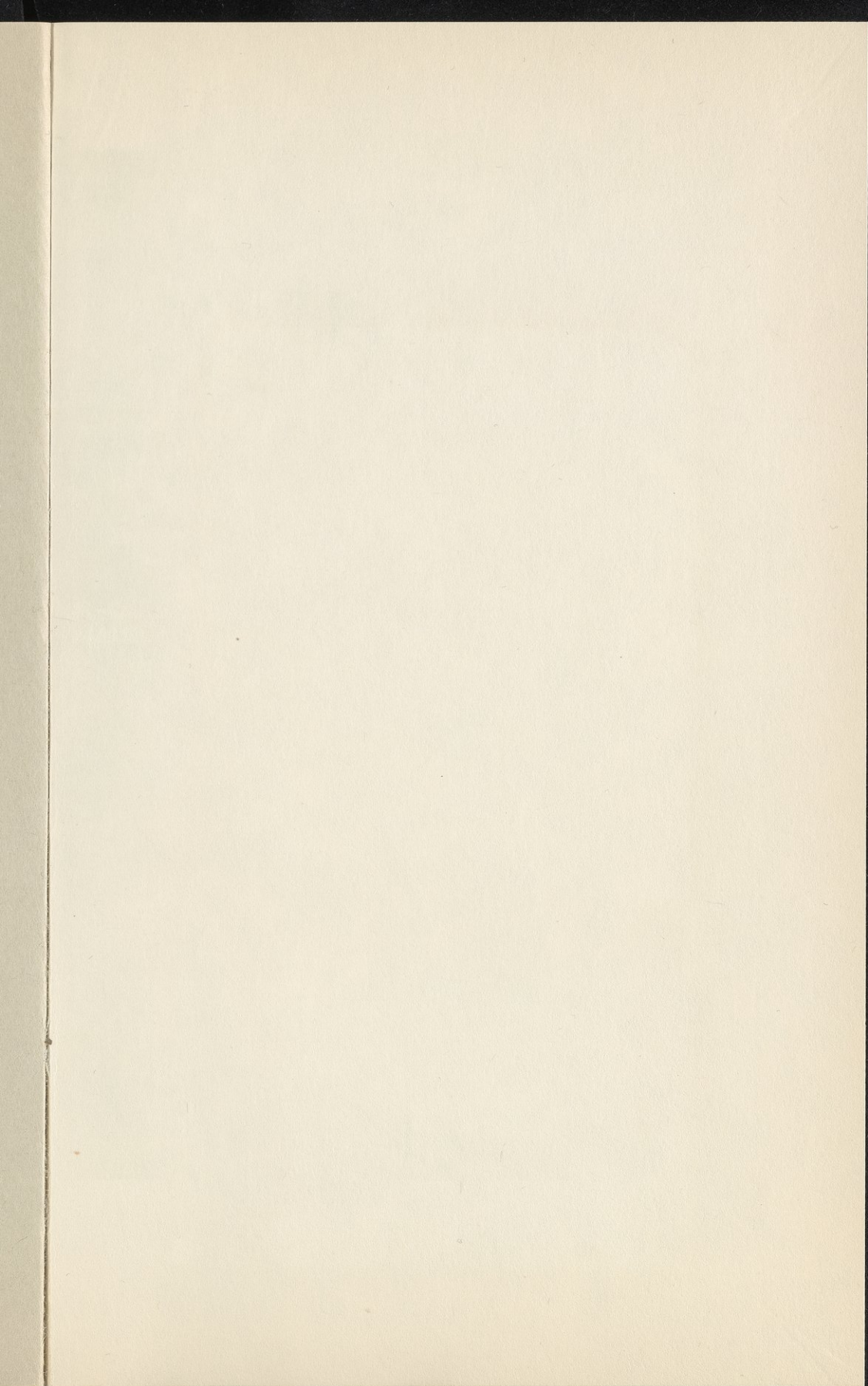
صفحة	صفحة
٢٤٢	١
٢٥١	٦
٢٥٧	٢٠
٢٦٠	٢٥
٢٦٤	٤٢
٢٦٦	٥٤
٢٦٨	٦٠
٢٧٠	٦٥
٢٧٣	٧٠
٢٨٠	٨٦
٢٨٢	١٠٨
٢٨٦	١٣٧
٢٨٨	١٤٨
٢٩٠	١٥٧
٢٩٦	١٧٤
٣٠١	١٨٦
٣٠٥	١٩٩
٣٠٧	٢٠٨
٣١٠	٢١٩
٣٢٦	٢٢٤
٣٤٠	٢٢٨
٣٤٣	٢٣١



صواب	خطأ	١٠	٩	صواب	خطأ	١٠	٩
مشخصياتهم	شخصياتهم	٣٧	١٥	والقضاء	أو القضاء	٦	٦
تفرس	تفلس	٣٦	١٤	الاعتداد	الاستعداد	٩	٦
الهنود	اليهود	٤٩	٦	الا أن كل فن	وكل فن	٢	٧
وأوغلوا في فتوحهم	وأوغلوا عليهم	٤٢	١٩	يبدو بسرعة	ويبدأ بسرعة	٣	٧
ونشروا ألوية العدل				لما أخزن من جداره	لما أخزن من جواره	٦	١٠
والاحسان بين من				وفي نفسه	وفي نفسى	١٧	١٠
غلبوا عليهم				على العرب بآدم	على العرب آدم	٢	١٤
مع الشدة وتأثراتهم	تضاف هذه الجملة	٤٣	٥	لا تفضلوني عليه	ألا تفضلوني عليه	٣	١٤
أقوى وتخليهم أعظم	بعد مظهرها:			طهرها الله من كل	طهرها الله كل	١٤	١٤
وذكاؤهم أشد توقدا				على ابن قتيبة	على بن قتيبة	١٧	١٤
وأسرع لانهم لكانه				وبعد همهم	وبعد همسهم	٢١	١٤
أضعف وأميل الى				ارومتها	اورمتها	٢٢	١٤
عدم الثبات والسرعة				دونه كرم	دونه كر	١٠	١٥
في أعمالهم الاعتيادية				يجود	يجوز	٤	١٦
أكثر من الحركة				باس	ناس	٢٤	١٨
وربما كان تركيهم				مساس	حساس	١١	٢٠
الطبيعى أضعف قوة				لم يتعد	لم يتقد	١٤	٢٠
ونفوسهم أقل عزماً				على الحديث	على تقديسهم	١٦	٢٢
وثباتنا				والاصولى بحمل على			
فلا تقوم	فلا تنقدز	٤٣	١٨	الفروعي واشتغل			
بالعلوم	بكل العلوم	٤٤	٦	أهل كل قطر بل			
لا بالفرس	بالقوس	٤٥	٣	أهل كل مصر			
وأثوا	واعرفوا	٤٧	١٥	بتقديس من تواطأوا			
السينجر	الستمر	٤٨	٤	على تقديسهم			
ومن عزها	ومن غيرها	٤٨	٢٥	فنازلا	منازل	٩	٢٣
يقوم	يعدم	٥١	٢٢	والاجدر	والاجود	٩	٢٣
ونحو	ونحن	٥٢		مائات	ماطلت	١٨	٢٣
والقروية	والفردية	٥٣	١	يقين	يقيشه	١	٢٥
تمام	تمام	٦١	١٤	والتصوف	والتصرف	٢٠	٢٦
وبرلين	وبريس	٦٣	٢٤	سنة ١٣١١ م	سنة ١١ م	١٧	٢٨
المتعدى	المتعدى	٦٤	١٣	فالجزائر	بالجزائر	١٢	٢٩
فقرنا	مقرنا	٦٨	٢١	التي تقف بالمدينة	التي بالمدينة	٢٣	٣١
على بن هندو	على بن هند	٩١	٢	فالمجتمعات	فالمجتمعات	٩	٣٢
صاحب النشوار	صاحب النشوا	٩١	٦	الاوربية عناء	الاوربية	١	٣٣

صواب	خطأ	١٥٦	١٥٧	صواب	خطأ	١٥٦	١٥٧
محدث	يحدث	٢٦	١٥٦	أبو الفرج	أبو الفتوح	٦	٩٥
دعا	عاد	٥	١٥٧	الحملات	الحملات	١١	٩٦
الاستيفاء	الاستبقاء	١١	١٥٧	ابن جبير	بن خبير	٢٣	٩٦
وانه	واتم	٦	١٥٨	البربر	البربر	٨	١٠٠
الاشراك	الاشترك	١٨	١٥٨	وملوك	ولا ملوك	٢٠	١٠٦
تلفيات	تلفيات	١٧	١٦٣	ويأمرهم	ويأمر	١٦	١١٣
منه	منهم	١٦	١٦٩	والانسان	واللسان	٢٣	١١٨
فبحر	فيحجر	٢٣	١٦٩	الجرس	الجرح	٥	١٢٠
والصميري	والصغيري	١٨٣		البرد	البير	١٤	١٢١
وسح	وسنح	٢١	١٨٤	وتستعين	ولا تستعين	٩	١٢٤
والورادة	والواردة	٥	١٩٣	في التخلص	في التخلص	١١	١٢٥
ويقام	وبقال	٢	١٩٤	الايناء	الانبياء	١٢	١٢٨
الورادة	الواردة	١٤	١٩٤	مسلمة	سلمة	١١	١٣٦
والصبح	والصبح	٢	٢٠١	الخطابة	الخطابية	٢٢	١٣٩
الاتياخيه	الاتاخييه	٣	٢٠١	تعلمهم	تعلمهم	١٢	١٤٢
يصوت	بصور	٢٥	٢٠٩	معانة	معانة	١٤	١٤٤
بنائه	بنائه	٢٢	٢٢٢	ومحركات	والمحركات	٢٢	١٤٥
المذوذ	المذوذ	٢٠	٢٢٣	عفواً	هفواً	٤	١٤٧
يتبعها	يتبعه	٢٢	٢٢٣	الغثة	الغثة	٤	١٤٨
بالنواء	بالقواء	٢٥	٢٥٠	ولاعة	ولا عناء	١٠	١٤٨
أقدمهم	أفواهم	٢٢	٢٥٣	يسلب	يسب	٦	١٤٩
مخلق	مختلف	١٣	٢٥٤	بفضين	بفيضنا	١٧	١٤٩
فلاحظ	ملاحظ	١٨	٢٥٧	فان تاب فيها	فان قاب فيها	٢٣	١٤٩
يستقبل	يستقبل	١٦	٢٥٩	رعاية	لرعاية	٩	١٥٠
فللك	فللك	٩	٢٦٥	فهم	منهم	٩	١٥٢
يتطلع	يطلع	١٩	٢٦٥	ومكن	ومسكن	٢٢	١٥٢
والنشيع	والتشبيع	١٩	٢٦٦	وهو ليس	وهو لين	٨	١٥٣
واحدة	ولدة	١٤	٢٨١	الصفاينة	الصفاينة	١٢	١٥٣
عريضة	مريضة	١٨	٢٨٨	من توسل	من توسد	٨	١٥٥
استملحتها	استملها	١٧	٣١٦	لم لا توائى	لم توائى	٢٥	١٥٥
سزارته	صفارته	٦	٣١٨	فانصرفت	فما تصوفت	٢	١٥٦
ويتوفر من	ويتوفر من	١	٣٢٠	عذرناك	غذرناك	٦	١٥٦
الصالح	صالح	٢٤	٣٣٣	ثم ابتدأنى	ثم ابتداء فيه	٨	١٥٦
فخطوا	فخطو	٢٤	٣٣٤	تفسير أهل السنة	تغير أهل السنة	١٥	١٥٦
سمعت	سمت	١٧	٣٣٥	المشبهة	المشبهة	١٧	١٥٦
من يجالسه	من مجالسه	١	٣٣٦				

« وقد وقعت أغلاط وسقطات من حروف ونقط أغفلنا الإشارة إليها لأنها تعرف بالبهادة »



DUE DATE

BLX FEB 17 1997

APR 27 1997

JUN 02 2014

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0043881491

DS
38
.K812
Q5

MAR 10 1969

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69592365

DS38.K812 Q5

al-Qadim wa-al-hadit